ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

فصليّة مُحكّمة
تُعنى بنقد الرؤى الغربية
في الإنسان والمجتمع

العدد (2) شتاء 2024 م 1445 هـ

الغرب في بربريته (1)
أوروبا وحروبها

أوّل الكلام
- أوروبَّا: الحضارة المتوحِّشة

المحور
- حول مفهوم القتل مُقاربة فلسفيّة
- العلمانية والعنف: الإمبريالية والعدوان
- التَّوسُّعُ الأوروبيُّ وإبادة السُّكَّان الأصليّين في أمريكا الشمالية
- جرائمُ الاستعمار الأوروبي في إفريقيا وآسيا
- مُعسكرات الاعتقال والتعذيب في التاريخ الأوروبي
- جرائم الحروب الأوروبيّة: دراسة احصائية

تأصيل
- الحربُ العادلة وأخلاقيات الحرب في الإسلام

دراسات وبحوث
- أَخْلاقيّاتُ اللذَّة فِي العَصْر اليُونَاني القَدِيم

قراءة في كتاب
- ثقافة أوروبا وبربريتها لإدغار موران

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت - بغداد

الغرب في بربريته (1)
أوروبا وحروبها

العدد (2): شتاء 2024م – 1445هـ

ISSN:
: 3005-6713
: 3005-6721

أُمم
للدراسات الإنسانية والاجتماعية

تصدر عن:

مركز براثا للدراسات والبحوث
بيروت – بغداد

مجلة علمية فصلية مُحكّمة تُعنى بنقد
الرؤى الغربية في الإنسان والمجتمع

www.barathacenter.com
www.oumam.barathacenter.com
Oumam.magazine@gmail.com

وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِنْهُمُ الصَّالِحُونَ
وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

(الأعراف:١٦٨)

رسالة المجلة

مواجهة التحديات الفكرية التي يفرضها الغرب وغيره على مجتمعاتنا العربية والإسلامية، وذلك من خلال:

- تفنيد هذه القضايا بطريقة أكاديمية علمية ومنهجية، وإظهار معاثرها وعيوبها، ونقد جذورها وسياقاتها.

- الكشف عن الخلفيات السياسية والاقتصادية والاستعمارية التي تقف خلف محاولة الهيمنة الثقافية على مجتمعاتنا.

- تقديم إحصاءات علمية من داخل المجتمعات الغربية، ترصد النتائج التدميرية لهذه الثقافات على المجتمعات.

- تقديم رؤى أصيلة وبديلة عن هذه القضايا من منطلق انساني عالمي، يتناسب ومقتضيات الفطرة البشرية، والرؤية الكونية الميتافيزيقية للاجتماع البشري.

مجلة «أمم للدراسات الإنسانية والاجتماعية»، مجلة علمية فصلية مُحكّمة، تصدر كل ثلاثة أشهر عن «مركز براثا للدراسات والبحوث». وتُعنى المجلة بنقد الرؤى الغربية في الإنسان والمجتمع في مختلف المجالات والتحديات المعاصرة؛ في الفلسفة، والتاريخ، والاجتماع، والانثروبولوجيا، وغيرها من جهة، وتأصيلها من منطلق عقلاني ينسجم ومقتضيات الفطرة البشرية ومع الرؤية الكونية الميتافيزيقية الأصيلة للإجتماع البشري من جهة أخرى.

ترحب المجلة بمساهمات الكتاب والباحثين بالكتابة في المجالات المتعلقة باهتمامات المجلة العلمية، ويمكن للراغبين بالكتابة مراسلة المجلة على العنوان التالي: مركز براثا للدراسات والبحوث - مجلة أمم: بيروت، بغداد.

في العدد المقبل:

الغرب في بربريته (2)
أميركا وحروبها

موقع المركز:
www.barathacenter.com
موقع المجلة:
oumam.barathacenter.com
بريد المجلة:
Oumam.magazine@gmail.com

رئيس التحرير: 009613821638

مدير التحرير: 0096176949904

■ الهيئة العلمية:

- أ. د. أحمد أيبش. (تاريخ قرون وسطى وحديثة-تركيا)
- أ.د. حافظ عبد الرحيم. (علم اجتماع سياسي واقتصادي- تونس)
- أ.د. حسن بشير. (فلسفة اسلامية- ايران).
- أ.د. بن شرقي بن مزيان. (فلسفة- الجزائر).
- أ.د. حيدر حسن اليعقوبي. علم نفس تربوي-العراق)
- أ.د. طالب عمران. (منطويات تفاضلية وفلك- سورية).
- أ.د. عقيل صادق. (فلسفة-العراق).
- أ.د. محمد شعلان الطيار. (علم آثار- سورية).
- أ.د. ياسر مصطفى عبد الوهاب. (تاريخ عصور وسطى-مصر).
- أ.د. يوسف طباجة. (علم اجتماع- لبنان).

■ هيئة التحرير:

- أ.د هنى الجزر. (فلسفة-سورية).
- أ.د. سعد علي زاير. (فلسفة تربية ومناهج اللغة العربية-العراق).
- أ.د. عادل الوشاني (علم اجتماع الثقافة والاتصال- تونس).
- أ.م.د نعمة بكر. (تاريخ حديث ومعاصر- مصر).
- د. علي الحاج حسن. (فلسفة اسلامية- لبنان).
- الشيخ د. محمد نمر. (مناهج تربوية- لبنان).

المشرف العام:
الشيخ جلال الدين علي الصغير

رئيس التحرير:
د. محمد محمود مرتضى

مدير التحرير:
الشيخ د. محمد باقر كجك

المدير المسؤول:
أ. آية بيضون

المدير الفني:
أ. خالد معماري

التدقيق اللغوي:
أ.بسّام العلاّن

ترجمة:
لينا السقر

شروط الكتابة والنشر في مجلة "أُسس"

المواصفات العلمية والمنهجية:

- مراعاة أصول البحث العلمي في الاقتباس والتوثيق، والأمانة العلمية، والمنهج.
- سلامة اللغة، والإملاء، والطباعة.
- كتابة مقدمة تحتوي على العناصر الأساسية للبحث.
- ذكر اسم الباحث مع الوصف العلمي.
- تقسيم متن البحث وترقيم عناوينه بما يتناسب وطبيعة البحث.
- كتابة خاتمة بخلاصة شاملة للبحث تتضمن أهم النتائج والتوصيات.
- كتابة قائمة بمراجع البحث ومصادره، وفق المواصفات الفنية المشار إليها لاحقا.

شروط تسليم البحث:

- ألا يكون البحث قد سبق نشره.
- ألا يكون مستلا من بحث أو رسالة نال بها الباحث درجة علمية.
- أن لا يقل البحث عن 5000 كلمة ولا يزيد عن 7000 كلمة عدا الملحقات.

مرفقات البحث عند تسليمه:

- ملف يشتمل على عنوان البحث والسيرة الذاتية.
- ملف يحتوي على ملخص البحث باللغة العربية، لا يزيد عن 200 كلمة. مع كلمات مفتاحية اتعبّر عن القضايا التي تناولها، بما لا يتجاوز 6 كلمات.
- ملف فيه ترجمة الملخص إلى اللغة الإنكليزية.

■ شروط النشر:

- في حال قبول البحث للنشر تؤول كافة حقوق النشر للمجلة، ولا يجوز نشره في أي منفذ نشر آخر ورقيًا أو الكترونيا، دون إذن كتابي من رئيس هيئة تحرير المجلة، وللمجلة الحق في نشر البحث في المكان والزمان الذي تراهما مناسبين.
- ينشر البحث الكترونيا وعلى موقع المجلة وفي المجلة نفسها حسب أولوية النشر.
- يتم ابلاغ الباحث بقبول بحثه أو الاعتذار منه.
- يلتزم الباحث عند الموافقة على بحثه بتقديمه بالصيغة النهائية المشار إليها في المواصفات الفنية المعتمدة.
- يوقع الباحث عند التلزم عقداً مع المجلة يحتوي على شروط الكتابة والنشر والتعهدات المرتبطة بالبحث.
- تُصرف للباحث الذي قُبل بحثه مكافأة مالية وفق السياسة المالية للمجلة.
- يحق لهيئة التحرير التصرف بالبحث لناحية الحذف إذا ما وجدت أن ثمة إطالات غير مفيدة. وتُحدد المكافأة تبعاً للعدد النهائي لكلمات البحث.

■ التحكيم:

- تخضع جميع البحوث للتحكيم السرّي من قبل لجنة علمية مختصة.

■ المواصفات الفنية للبحث:

- تُستخدم في البحث مجموعة من المواصفات الفنية المتعلقة بالخطوط وحجمها، وبطريق التوثيق التي تعتمدها المجلة.

المحتويات

10 أوروبَّا: الحضارة المتوحِّشة ■ الشيخ جلال الدين علي الصغير

المحور

15 حول مفهوم القتل مُقـاربـة فلسفيّة ■ أ.د. بن شرقي بن مزيان

37 العلمانيَّة والعُـنف الإمبريالية والعُـدوان ■ أ.د. الطاهر مُحمَّد الشريف

57 التَّوسُّعُ الأوروبيُّ وإبادة السّكّان الأصليّين بأمريكا خلال القرنين السادس والسَّابع عشر ■ أ. م. د. ريـم اليعقوبي ■ أ. م. د. بوبكر أحمد

89 الإرهابُ والتَّطرُّف بأوروبا في القرون الوسطى ■ أ.د. راغدة محمد المصري

107 جرائمُ الاستعمار الأوروبي في إفريقيا وآسيا ■ عبد الله بن عمارة

129 حروبُ أوروبا الاستعمارية في أمريكا اللاتينيّة خلال العصر الحديث (1492-1550م) ■ أ. د. حسام جميل النايف

151 الوحشيّة الأوروبيّةُ في الحَربين العالميّتين: الأوَّلى والثَّانية ■ د. مثقال العاصي

165 مُعسكراتُ الاعتقال والتّعذيب في التاريخ الأوروبي
■ أ.م.د مُحمَّد المحمَّد الحسين

185 جرائمُ الحروب الأوروبيّة: دراسة إحصائية
■ زينب علي فرحات

تأصيل

213 الحربُ العادلة وأخلاقيَّات الحرب في الإسلام
■ الشيخ الدكتور مُحمَّد نمر

دراسات وأبحاث

235 أخْلاقيّاتُ اللذَّة في العَصْر اليُونَاني القديم
■ د. رامز أحمد

قراءة في كتاب

255 «ثقافة أوروبّا وبربريّتُها» لإدْغار مُوران
■ شهرزاد حمدي

أوّل الكلام

أوروبّا: الحضارة المتوحِّشة

■ الشيخ جلال الدين علي الصغير[1]

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّــلام على النبيِّ محمد وعلى آله الطيِّبين الطاهرين.

إنّ الحرب ليســت ظاهرة مســتحدثةً في التاريخ البشريِّ، بل هي ظاهرةٌ وُجدت منذ أن نبغت ظاهرة التسـلّط في بعدها النفسيِّ ــ والتملّك على الأرض ــ في بعده الاجتماعيِّ ــ إذ تشير الآية القرآنية الكريمة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [2] إلى وجودها قبل خلق آدم (عليه السلام) الذي ننتسبُ إليه. ومع أنّ التاريخ قد ذكر لنا في تاريخ الأمم المختلفة سجلاً ممتداً مــن الحروب، غير أنّه لم يجعل الدول المُفتعلة للحروب في ميزان واحد، خاصّة إذا ما نظرنا إليه من خلال حجم النِّسب السكانيّة وما يتوفَّر لديها من امتيازات، ويبرز النموذج الأوربيُّ الغربيّ وما تمخّض عنه بعنوانه النموذج اللافت في التاريخ البشريِّ، خاصّة وأنّ حيويّته في مسـألة الحروب وصناعتها ما زالت تصبغ حضارته إلى يومنا هذا.

فالتاريخ الأوربيُّ يتميّز بأنّه الأكثر حروباً وتسبّباً بسفك الدماء، سيّان في ذلك ما كان في تأريخه أو مــا يفعله في واقعه المعاصر، وتحتفظ المعدَّلات القياسـيّة العالميَّة لــه بأعلى المعدّلات، دون أنْ يُدانيه أحد من أيّ مجموعة حضاريَّة أخرى، ورغم العوامل المتعدِّدة التي تشـترك في العادة في صناعة الحروب، إلاّ أنّه يتميّز بأنّ واقعَه الدينيَّ في العصور الوسطى لا يختلف في هذه السجيّة عن واقعه العلمانيّ والملحد في العصور اللاحقة، وصولاً إلى واقعه الذي نحياه في يومنا المعاصر هذا.

صحيــح أنَّ الحــروب والقتل صفة عامَّــةٌ صبغت تاريــخ الحضارات؛ فالــشرق، حتى نكون منصفين، لم يكن مسالماً، فما الذي قام به الغرب ولم يقم به الشرق؟

إنّ هذا الســؤال يبدو مغالطا بقوَّة؛ لأنَّ البناء الحضاريَّ لا يقوم إلاَّ على ثنائية الدفع والتعاون، البناء والحماية، لذلك يمكن لنا بســهولة أنْ نرى الحضارة التي يناها الشرقيّون عبر التاريخ، لكن

1 - المشرف العام لمجلة أمم.

2 - سورة البقرة: 30

أين الحضارة الغربيَّةُ؟

لا ينبغـي أنْ يغريَنا مـا وصلت اليه أوروبا اليوم- ظاهريّاً - فذلك إنمـا يُراد منه أنْ يُخفي أكثر الحضارات دمويَّة وعنصريَّة مقيتة، تنطلق من اسـتعلاء الرجل الأبيض. والمتابع لمسـيرة الغرب المُعاصر يجد أنّها نسـخة مشوّهة من حضارات سـبقتها كانت تسعى محمومةً للتخلّص من أي حضارة أخرى، حضارة لا تقبل سواها.

والتاريخ شاهد لا يكذب. ويمكن الملاحظة أنّه عند وصول الأوروبيِّين لأميركا الشَّمالية، قاموا بإبادة الشعوب الأصلية إبادة تامّة ودمويَّة، كما يمكن الحديث عن العبوديَّة والعنصريَّة، وما فعلوه بالأفارقة الذين استعبدوهم ونقلوهم إلى أمريكا.

ويمكن القول: إنَّ هذا المعدّل القياسيّ يسري على كلّ أنواع الحروب التي خاضها، كحروب الإبادة الدينيَّة أو العرقيّة أو الثقافيَّة، وحروب الاسـتعمار، وحروب تجارة العبيد، وحروب الدمار الشـامل ونظير ذلك، فلقد اختطّ الغـربيّ في الأرض التي تواجد فيها أعلى الأرقام في قائمة هذه الأنماط من الحروب، وتكاد الدقّة لا تُخطئنا إن قلنا: إنَّه لا توجد دولة من الدول الغربيَّة المعاصرة إلاّ وتجد تراثها التاريخي معمّد بالدماء الرخيصة التي غدت أساساً من أسس وجود هذه الدول، من دون فرق بين دماء مواطنيها أو دماء نظرائهم في الدول الأخرى، محاربين كانوا أو مدنيِّين.

والمذهل أنّ البون الشاسع بين طريقة تفكير القرون الوسطى التي كانت تزعم أنَّها ناطقة باسم الله، وبين الطريقة التي زعمت أنّها النقيضُ لما سلف حينما خلعت اللهَ عن عرشه بزعم فلاسفة الإلحـاد ومفكِّريـه، أفضت من حيث المحصَّلـة إلى ذات النتيجة في عالم الـصراع والحروب، والأرقام التي انتهت إليها حروب القرون الوسطى تتقارب من حيث النَّمط مع الأرقام التي أنتجتها حروب الحضارة الغربية المعاصرة إنْ حفظنا الفارقَ من جهة العدد السكانيّ، ومن جهة التطوُّر في تقنيَّات الموت وأسلحته، وفي كلِّ الحالات هي تتفوق بأرقامها على أرقام الحروب التي أنتجتها حضاراتٌ أخرى.

ومع أنّ العالم بعد أنْ ذاق الأمرّين من جرَّاء سلسلة الحروب الدامية التي خطّتها هذه الحضارة في القرنين التاسـع عشر والعشرين ابتداءً بحروب نابليون، ومروراً بالحروب النمساويَّة وحروب توحيد إيطاليا وما شاكلها، وصولاً إلى الحربين العالميَّتين الأولى والثانية وما جرّت إليه من حصاد عشرات الملايين من الأرواح في فترة لا تضاهيها أيُّ فترة من التاريخ العالميِّ في تفنُّن الإنسـان

الأوروبيُّ في إشاعة الموت والاستعباد وانتهاك الحرمات، ومع أنّ هذه المرحلة كانت فرصة كي يَرْعويَ قتلة الغرب عمَّا أسرفوا فيه، ورغم العمل بين الأمم لصياغة وإقرار الآليَّات التي من شأنها أنْ تمنع الحروب، ولكن ما رأيناه من بعد الحرب العالمية الثانية أنّ المعاهدات التي أُقرّت عوض أنْ تكون مؤسِّسة لإحلال السلام، تحوّلت كعنصر إثارة لشهيّة الإنسان الأوروبيِّ بموارد الشعوب ما أدّى به إلى سفك المزيد من الدماء موزعة بين آسيا وأمريكا اللاتينيَّة فضلاً عن أفريقيا؛ وما لم يخضها الأوربيّ بيده استبدلها بما يُعرف بالاستعمار الجديد، فأسس من الديكتاتوريَّات في بلدان ما بات يُعرف بالعالم الثالث؛ لتقوم بمهمة الأوربيِّ بالنيابة عنه، وكان منها ما كان من توجيه وتحفيز وتغطية معلنة وغير معلنة، ما استمرأت القتل وإشاعة الحروب بأصنافها كافة؛ ولكن المحصّلة العمليَّة سلسلة طويلة من الحروب ابتدأت من حروب الهندو الصينية في أواخر الحرب العالميَّة الثانية، وتواصلت في أيام الحرب الباردة، ثم بدأت تعصف أكثر بعد نهاية الاتحاد السوفياتيّ، وما نراه اليوم من جرائم ماجنة في غزّة. فها هو الغربيّ يطل من الأزمة الأوكرانيَّة، ومن الأزمة التايوانيّة، ومن الأزمة الصهيونيّة لفتح ملفَّات حروب أكثر عصفاً وأشدّ دماراً مما شهدته الأرض في كلِّ تاريخها، بل ربما ستكون الحروب السابقة مجرَّد نزهة قصيرة قياساً إلى ما يتمّ إعداده للحروب القادمة، فلقد تغلبت نزعة التسلّط والغطرسة الأوربيّة على أيّ قيمة لها صلة بإنسانيّة الإنسان، فوظّفت الصناعات والتقنيَّات إلى توفير أدوات القتل وآلياته بيد أيِّ حرب، ويكفي أيُّ مراجعة لما تذكره أبحاث الحروب والسلام من أرقام مرعبة لما تمَّ تزويد الجيوش به لتعلم إلى أين تُقاد البشريَّة المقودة من الغرب.

.***

ما من شك أنّ هذا الميل للبطش بالإنسان وتعريضه للقتل لا يتأتّى من فراغ، وسواء أنظرنا إليه من الجانب الأخلاقيِّ أو تنظير الفلسفة السياسيّة أو التبرير الاقتصاديّ أو السيكولوجي، فإنّه يفضي إلى حقيقة واحدة، وهي أنّ العقل الغربيّ مقوّم على أساس عدم الرضوخ إلى أيّ قيد يقف قُبالة معالم الأنا، وما تُفرزه من مظاهر التسلُّط والاستكبار، حتى ولو كان ذلك يعني الخوض بدماء كلّ العالم.

ومنذ أن انتخب الإنسان الغربيّ القطيعة مع الثابت القِيْميِّ والمعياريِّ، وأحال القيم والأخلاقيَّات إلى نتاج الواقع معتبراً إيّاها أمراً نسبياً يتكيّف وفقاً لمنافعه أو مصالحه، ومنذ أنْ أُخرجت الفلسفة

والأفكار من عالم العقل والمعنى وتحوّلت إلى مجرد انعكاس للواقع الاجتماعي ومتطلَّباته، وبما أنّ هـذا الواقع تصنعه القوى المتحكّمة فيه لا ما يخيّل بأنّ الشـعوب هي التي تصنعه[1]، فإنَّنا لن ننتظر أنْ تؤوب الفلسفة والتنظير السياسيُّ من مسار الغطرسة والتسلّط إلى ما يعاكسه، وإنّما على العكس من ذلك تماماً، فالفلسفة السياسيَّة والأخلاقيّة حينما أخرجتِ الإله من مرابعها، وأنزلت الإنسـان من منزلة التكريم الإلهيّ إلى منزلة التراتب الحيـوانيّ، فأصبح الصراع (Conflict) هو القانـونَ الذي يحكم، وهذا الصراع لن يبقى فيه إلاّ الأقوى، وأنّ هذا البقاء محكوم بالرضوخ إلى الإنسان الأعلى قوّة (Super man) كما يعبرّ نيتشه! فماذا تنتظر من نتائج تنعكس على أرض الواقع مـن قبـل صنّاعـه، لا الذيـن يحيـون في جنباتـه؟

والحقيقة، أنه يجب ألاَّ نبالغ في الشعور بالصدمة من جراء سلوك الغرب تجاه مذابح غزة؛ لأنَّ العقل الذي تجرأ على اسـتبعاد "الله" من أنْ يكون مرجعيَّة أخلاقيَّة تتأسَّـس عليها الأخلاق، هو أقرب للكفران بالقيم، والأقدر على ممارسة الجريمة بأريحيَّة تامة.

لقد افتقد الغربيُّ أيَّ شـعور بالمهابة، لأنه يتحـرك مدفوعًا بوهم القوة، ولا يصح أن يردعه أيُّ شيء عن سعيه لإخضاع الطبيعة.

هذه الفكرة هي من الأفكار الجذريَّة في عقل وفي أعماق الوجدان الغربي. وهي فكرة ليسـت منفصلة عن فقدان الغربيِّ للأسـس الإلهيَّة للأخلاق، وعدم احترامه لفكرة الخالق، وهي الفكرة التي تجعل الإنسـان يمضي في حياته متواضعًا أمام مهابة الروح الإنسـانيَّة وقداستها، المستمدَّة من الخالق، وليست القداسة التعاقديَة القابلة للاستباحة بأيِّ لحظة.

ومع أنّ الفكر الأوربيّ وبسـبب من نتائج الصراع الدمويّة مال إلى مبدأ العقد الاجتماعيِّ، كما قنن له توماس هوبز أو جان جاك روسو وأمثالهم، وقد تمّ تحشيد كميّة هائلة من النصوص الناظمة للوحدة الاجتماعيَّة على هيئة قوانين ودساتير ومعاهدات واتِّفاقيَّات.

ولكن يبقى السؤال ملحّاً عن مدى جدوى تلك المنظومات في الحيلولة دون اندلاع الحروب أو الدفع لها، ولا سيَّما أنّ واقعيَّات الحياة أثبتت أنّ أشدّ الحروب شراسة إنّما جاءت من بعد علوّ صيحات القانون وما شاكله من وسائل الضبط والنظم! ولك في مثال غزّة المعاصر دليلاً واضحاً على هشاشة هذه الصيحات وعدم جدواها.

1 - جلال الدين الصغير، صناعة الشذوذ الجنسيِّ كحرفة لتدمير الأمم، مجلة أمم، العدد الأول: ص 13

إنّ الإنسان الغربيّ حينما يتمّ تقنينه على أساس نظرة توماس هوبز التي تقول: إنّ كلَّ إنسان عدوٌّ لكل إنسان[1]، وحينما يتمّ قولبته على أسس الصراع من أجل البقاء كما يصوّره دارون، وأنّ الصراع هو صبغة الحياة كما تجده لدى ماركس، وحينما يقرر له فرويد أنّ الإنسان نزّاع إلى تلبية حاجته العدوانيَّة على حساب قريبه، وإلى استغلال عمله بلا تعويض، وإلى استعماله جنسيّاً من دون مشيئته، وإلى وضع اليد على أملاكه وإذلاله، وإلى إنزال الآلام به واضطهاده وقتله. الإنسان ذئب للإنسان[2]، وحينما يصوّر له مالتوس معادلته البائسة عن نضوب موارد الحياة البشريَّة ما لم يتمَّ التخلُّص من الآخرين، وحينما تجرده من قدسية الأخلاق وتبدلها بأخلاقيات البراجماتيَّة الذرائعيَّة القائمة على قيم المنفعة، فما لا نفع فيه لا فضيلة له، وتمنحه بؤس وجودية جان بول سارتر، وتهب كلّ ذلك في إطار نزعة الأنانيّة الرأسماليَّة التي لا تبالي بالآخرين، وأمثال هذه الأفكار والتنظيرات التي ما كانت لتكون لولا احتياج القوى المتسلّطة لها كي تسوِّغ لها جرائرها وجرائمها، ثم تعمل لتزوّدها بأسلحة الدمار وتِقْنيَّات الفتك للسيطرة والتسلّط والقهر.. أتنتظر غير الحرب والدمار سفيراً لها؟

***

ومهما يكن من أمر، إنّ العدد الثاني من مجلة أمم، والواقع تحت عنوان: الغرب في بربريَّته، يمثل الجزء الاول من إصدار سيأتي في جزأين، الأول (الذي بين أيدينا)، حيث حاولنا فيه أنْ نسلط الضوء على الحروب التي خاضها الأوروبيّ؛ فيما سيعرض العدد التالي للحروب التي خاضتها الولايات المتحدة الأمريكية؛ وغني عن القول: إنَّ الأبحاث التي يحتويها هذا العدد لن تؤرخ لجميع الحروب التي خاضتها أوروبا في تاريخها، فإنَّ ذلك يحتاج إلى مجلدات، وإنَّما نقدِّم منها بعض النماذج، مع بحثين يرتبطان بالفكر الأوروبيِّ الذي تهيمن عليه فلسفة القوة والتسلط والقتل، لنشير إلى عقلية غربية متأصّلة تؤمن بالقوة لا بالعدل، وأنَّ الغلبة والقوة والهيمنة والتسلط وحدها هي التي تحدد مكانة كلِّ دولة، ويتحدَّد الحق من خلالها. فالغرب ليس وليد الأنْسنة أو العلوم، أو الأخلاق أو القيم، بل هو أولاً وأخيراً، وليد الظلم والاضطهاد والتوحُّش والبربريَّة.

1 - كتاب الليفاثان: 136

2 -الأعمال شبه الكاملة لفرويد، قلق في الحضارة 8: 147

حول مفهوم القتل
مُقاربـة فلسفيّة

■ أ. د. بن شرقي بن مزيان[1]

ملخّص

تهـدف هذه الدراسـة إلى تنـاول فعل القتل، من حيث هو إشـكال فلسـفي، على الأقل في مرحلتين من مراحل تاريخ الفلسفة: الحديثة والمعاصرة. وقد وقع اختيارنا على هاتين الحقبتين، أولا، لأنّ فعل القتل حضر بقوّة مرتبطًا بما عرفته المرحلة الحديثة من تحولات سياسية وفلسفية، تمّ من خلالها إعادة بناء مفهومي الدولة والسيادة. وثانيًا، - وهذا خاص بالفلسفة المابعد حداثية -، لأنّ فعـل القتل خضع للنقـد، لِما لحق بالحياة من أفعالٍ تتعدّى التصور الحديث للقتل، إلى مسـائل تتعلق بالتشويه والإعاقة والإماتة. وهو ما جعل الفلاسـفة يتصدّون له بالتحليل والنقد، خاصة وأنه أتى مرفقًا بمسـألة العُنف، بعدما اسـتقرّ العالم كله على أنَّ الحياة المعاصرة يسودها السّلم والأمن.

ولكن تبيّن أنّ فكرة الأمن الذي تحرص الدولة عليه، من حيث هي صاحبة السّـلطة، تحجب في الوقـت نفسـه، قتلاً مغايـرًا لذلك الذي كان موجـودًا من قبل، فإذا كان القتل سـابقًا مقابلاً للحياة، أي للدفاع عن الحياة، فإنّ الحياة نفسها في الفهم المعاصر، هي من تدفع للموت.

ولبلوغ ما كنّا نصبو إليه، طرحنا الأسئلة التالية: ما هو القتل وما علاقته بالموت؟ كيف يمكننا إيجاد الوصيّة الأخلاقية في تحريم القتل؟ وهل نستطيع أن نطرح حجة فلسفية ضدّ القتل؟

الكلمات المفتاحية:

القتل- الحرب - الإعدام - الحياة - الأخلاق - القانون.

1 - قسم الفلسفة، كلية العلوم الاجتماعية، جامعة وهران ، الجزائر.

مقدِّمة

لا يرومُ هـذا المقال، الإجابة عن مفهوم القتل في صيغتـه القانونية كجريمة، ولا حتى الإجابة الشرعية الدينيـة، وإن كان للقتل تشريعٌ مَنصوصٌ عليه في الشرائع الدينية. وإنَّما يصبو إلى وضع مفهوم القتل في صيغةٍ فلسـفية، من حيث إنَّهُ إشكالٌ تنوَّعت مُقاربته، تبعًا للسياق التاريخي لكُلِّ فلسفة.

ولغرض حصر هذا المفهوم، سنحاول تناوله بشكلٍ يجمعُ تصورات مجموعة من الفلاسفة مع استخلاص الرابط المُشترك بينهم، أو بتبين الفوارق، بين حقبتين تاريخيتين: الحديثة، حيث تعلقَ مفهومُ القتل بمسألة الحرب، وبممارسة السـلطة تماشيًا مع نشوء مفهوم الدولة ومفهوم السيادة. والمعـاصرة، حيث أصبح القتلُ مُتعلقًـا بالحياة وبالوجود، وبعلاقة الأنـا بالغير، لتحقيق العيش المُشترك.

فما القتل وما علاقته بالموت؟ وهل نستطيع أن نطرحَ حجةً فلسفيةً ضدّ القتل؟

المبحث الأول: في مفهوم القتل

يفترقُ القتلُ عن الموت على مستوى التَّعريف، وإن كانت نتيجةُ القتل هي الموت، وكي نقفَ على معنى القتل، لا بأس أن نعودَ إلى تعريف الموت، كي يسمحَ لنا ذلك بالتفرقة بينه وبين القتل.

تذكر الموسـوعة الفلسفية الموت، المُتعلق بالإنسـان دون غيره من الكائنات، على اعتبار أنَّ الموتَ الذي يلحق بالإنسـان مُختلف عن بقية الكائنـات، مقابل الحياة التي وُهبت له، وبالتالي، فإنَّ الموتَ بالنسبة للإنسان، يحمل معنى؛ لأنَّهُ مُقابلٌ للحياة، ولذلك فإنَّ الإنسانَ يُعدُّ «.. الموتَ شـيئًا يُعنيه بشـكلٍ خاص. بل وأكثر من ذلك، فهو يجعل منها ظاهرةً إنسانيةً بحتةً، (...) ومن هنا ينشأ سؤالٌ آخر: هل ينبغي لنا في هذه الحالة أن نُفكِّرَ في الموت أم ننساه؟ (...) ومهما كان الأمرُ،

فإنَّ الجانبَ غير العقلاني والسخيف لظاهرة الموت يبقى دائمًا، ومعه رفض الموت. لأننا نتساءل ماذا سيحدث لنا إذا لم نمت، (..). وقد طرح أونامونو المُشكلةَ بهذه العبارات: إمَّا أن أعرفَ أنني أمـوت تمامًا، ومـن ثمَّ هناك يأسٌ لا يمكن علاجـه، أو أعلم أنني لا أموتُ تمامًـا، فحينئذٍ تكون الاستقالةُ (..). إنَّ العقلَ يُؤكِّدُ أنَّنا فانون، والشعور يدفعنا إلى رفض اختفاء الذات ككائنٍ مُنفرد»[1].

يطرحُ هذا التصور مسـألةَ المـوت في مقابل الحياة، والموت من حيث إنـه قدرٌ، ممَّا يفترض فعل المقاومة وعدم الاستسلام. وهو ما يجعلنا نقول: إنَّ الموتَ هي المقابل للحياة، ومادام الأمرُ كذلك، فإنَّ الإنسانَ يُفترض مبدئيًا أنَّهُ يعرفُ بأنَّهُ محكومٌ عليه بالفناء. ويمُكّننا هذا التصور من أن نُميزَ القتلَ عـن الموت، فالقتلُ لا يعدُّ قدرًا محتومًا مثل المـوت، وليس ضدّاً للحياة، وإن كانت نتيجته الموت، فما القتل إذاً؟

إنَّ القتلَ هو فعلٌ إراديٌّ، القصد منه إزالة وجود ذات مُستقلة بذاتها، أي إنَّهُ إيقافٌ غير محسوم لوتيرة الحياة، بل هو اغتصاب لها.

لقـد ذكرت الأديانُ فعلَ القتل من زاويتين: الحـثُّ عليه وتجريمه، كما هو في القرآن الكريم، حيث جاء فعل القتل حاملاً لمعنين في تساوق مع الغاية منه. ففي الحثّ عليه، يقول الله تعالى مثلاً في الآية244 من سـورة البقرة: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾، أمَّا في تحريمه، فقد ورد مثلاً في الآية 151 من سورة الأنعام: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا**﴾.

ولكن مع ذلك، عُرفَ هذا المفهوم من حيث إنه فعلٌ يخضعُ لممارسة صورٍ مُتنوعةٍ في سياقات تاريخيـة، جعلت الفلاسـفة يخصُّونه بالتَّفكـير والتحليل، بالقبول أو بالرفض، وهو ما سـنحاول الوقـوفعليـه.

المبحث الثاني: القتل بين المنزع القانوني والأخلاقي

تناولت الفلسفةُ الحديثة مسألةَ القتل في سياقين: يتعلَّق الأوّل بما هو سياسيٌّ، حيث كانت الحرب هي المسـألة التي يُبرَّر عبرها فعل القتل، أمَّا الثاني، فقد خُصصَ للمسـألة الأخلاقية، كأنها سـياقٌ لتحريمه أو تجريمه. علمًا، بأنَّ مسألةَ السّيادة كانت ضمن السّياقين، تحكمُ فعلَ القتل. ولعلَّ خيرَ من

1 - Encyclopédie philosophique Universelle, Les Notions Philosophiques, P :1689

يُمثِّلُ هذه الصورة توماس هوبز، خاصة فيما أشْتهر به من مقولة: الإنسان ذئب لأخيه الإنسان[1]، في تحليله للطبيعة الإنسانية، وأسباب الصدام التي يحصرها في ثلاثة: المنافسة، وعدم الثقة، والمجد[2].

أولاً: القتل من أجل الحِيازة

يقومُ مفهومُ الدولة عند هوبز، اللفياتان، على العقد الذي يُؤسَّسُ على مفهوم الحرب/الصراع، ويتطَّلبُ - أي العقد - الطَّاعة والوفاء كقانونٍ طبيعيٍّ. يتماشى ذلك مع ما جاء به هيجو غرويتوس Hugo Grotius في قانون الحرب والسلام، حيث يقولُ: «ولا يجوزُ قتلُ أحد عمداً إلاَّ عن طريق قانون العقاب، أو للدفاع عن حياتنا، وللحفاظ على ممتلكاتنا، وعندما لا يُمكن أن يكون ذلك فعالاً بدون تدميره.»[3]

تتحدَّد، إذاً، مُبرّرات القتل حسب هذه الفقرة بوضوح في: العقاب، الدّفاع، الحفاظ، وانتفاء سُبل التَّدمير. وهو ما سيكون له صدى في متون الفكر السّياسي الحديثة، بداية من القرن السابع عشر، أولاً: عند هيغو غرويتوس نفسه، عبر الحق الطبيعي ومفهومه للعقد، وثانيًا :عند جون بودان ومُبرراته للقتل بوساطة مبدأ السيادة وتمُثُّلهُ لمفهوم الدولة. لذلك، لا غرابة إذا وجدنا توماس هوبز يستفيدُ من هذا التصور ليبحثَ عن تبرير لفعلِ القتل، من زاوية فلسفيّة، عبر نظريّة الدّولة وبسط النّظام السّياسي الذي يكون قادرًا على التَّقليل من استخدام القوّة ومنع الخوف.

ينطلقُ هوبز من فكرة أنَّ المُساواةَ حقٌّ طبيعيٌّ، كما هو واضحٌ في الفصل الثّالث عشر من لفياتان، حيث يقول: «إنَّ الطبيعةَ جعلت الناس متساوين في ملكات الجسد والفكر، (...) فبالنِّسبة إلى قوّة الجسد، إنَّ الأضعفَ يملك القوةَ الكافيةَ لقتل الأقوى، إمَّا بحيلةٍ سرية أو بالتَّحالف مع طرفٍ آخر يتعرَّض لما يتعرض له هو من خطر»[4]. وهو ما يُفسُرِّ ذلك الاستعداد الطَّبيعي في الإنسان

1 - ترد هذه المقولة في رسالة إلى سيدي الكونت ديفونشير، ضمن كتاب المواطن «دي سيفيّ»، وتقوم عليها أغلب تصورات الفلسفة السياسية الحديثة. ويذكر فرويد ما نصُّهُ: « وبالفعل، إنَّ الإنسانَ نزاعٌ إلى تلبية حاجته العدوانية على حساب قريبه،(...) وإلى إنزال الآلام به واضطهاده وقتله. الإنسان ذئب للإنسان.» (فرويد، قلق في الحضارة، ص 72).

2 - هوبز، اللفياتان، ص 134

3 - Grotius, H. Droit de la guerre et de la paix, Livre 3, P 376

4 - هوبز، اللفياتان، ص131

لاستعمال العنف، نظير فقدان الثِّقَة، فيكون قيامُ الحرب بالنِّسبة إليه «على الاستعداد المعلوم لهذا القتال، طالما أنه لا يوجد ما يُؤكِّد العكسَ.» (المصدر نفسه، الفقرة 13) [1]، أي هو ما يجعل القتل حاضرًا من حيث إنه طبيعيٌّ في الإنسان.

وبما أنه طبيعيٌّ من حيث هو حقٌّ يكمن في التمتّع بالحريَّة، القاعدة الأولى للحرب، فإنَّ فقدانها يدفع الإنسان للحرب «إنَّ الحقَّ بمقتضى الطبيعة، [يقول هوبز] هو حرية كل إنسان في أن يستخدم قوته وفق ما يشـاء هو نفسـه من أجل الحفاظ على طبيعته»[2].

وعليه، يمكننا القول: إنَّ هوبز يحصرُ القتلَ في تصورين: أوّلا: القتل من حيث إنَّهُ طبيعيٌّ، كما هو في حالة التعدِّي على الحريَّة من منطلق أنَّ الحريَّة حالةٌ طبيعيّةٌ، وثانيًا :القتل لعدم الالتزام بما تمَّ التّعاقد عليه، أي التمرُّد على طاعة الحاكم[3].

ولكن هذا، لا ينفي أنَّ هوبز يحيلُ إلى نوعٍ ثالثٍ للقتل، ونعني بذلك، القتل كجريمة[4].

يشـيرُ ميشيل فوكو في كتابه «المجتمع العقابي»[5] لما ورد على لسان روسو في مسألة العقاب لحدِّ القتل، بحيث إنَّ مسألةَ العقد تفترضُ على كُلِّ من يسلم نفسه، بأن يؤمنَ بشروط العقد خاصة وأنَّ « غاية المعاهدة الاجتماعية هي سلامة الطرفين [كما يقول روسو] المتعاقدين، (...) فمتى قال الأمير له « يلائم الدولةَ أن تموت»، وجب عليه أن يموت.»[6].

وإن كان هذا الأمر يتماشى مع منطق فلاسفة العقد، ولا يخرج في مضمونه عمَّا أتى به هوبز، إلَّا أنَّ روسو يذهبُ إلى أبعد من ذلك، في تصوره لمن يخون بنود العقد أو ينتهكها، فيقرُّ بنفيه أو بقتله «..، إن كُل شريـر، إذا ما هاجم الحقوق الاجتماعية، يصبح بجرائمه عاصيًّا خائنًا للوطن، (...) وهنالك تصير سـلامةً الدولة مُناقضة لسـلامته، فيجب أن يهلك أحدهما، فإذا أعدم المجرم، وقع هذا على أنه عدو أكثر منه مواطنًا،(...) وجب أن يقطع منه بالنفي كناقض للميثاق، أو بالقتل كعدو عام»[7].

---

1 - أنظر التشابه بينه وبين هيجل في هذا التشبيه وحتَّى بنيهما وبين كانط، سنذكرُ هذا الأمر حينما نصل إلى الحديث عن تصورهما.

2 - هوبز، اللفياتان، ص138

3 - هوبز، اللفياتان، ص224

4 - هوبز، اللفياتان، ص306

5 - Foucault, M. La Société Punitive, 63

6 - روسو، العقد الاجتماعي، ص61

7 - روسو، العقد الاجتماعي، ص61-62

ويُلاحظُ على فلاسـفة العقد الاجتماعي، على الأقل في النموذجين، هوبز وروسو، اللذين تم تناولهما، هو أنّ الحالة الطبيعية للإنسـان، والتي تفترض مُسـبقًا الخوف، تدفع به لأن يدخلَ في صراع أو حرب الكل ضد الكل، وهي التي تكون أحد مُخرجاتها القتل، ولكن مع ذلك، فإنَّ العقدَ نفسـه باعتباره قبول بتسـليم الحريَّة الفردية للحاكم، يُصبحُ الحاكمُ نفسـه مالكًا للحياة والموت.

ثانياً: القتل.. الاعتراض الكانطي وشرعيته عند هيجل

يعترضُ إمانويل كانط -من خلفية أخلاقية ومنطلق قانوني- على بعض ما جاء في تصوُّر توماس هوبز في مسـألة العقد، وتحديدًا صيغ الواجب والحقّ، التي تُؤدِّي من حيث هي كذلك، لاحتدام الصّراع الذي غالبًا ما ينتهي بالقتل كمسلك للحرب. واعتراضه يأتي من فلسفته في القانون ومفهومه للحرية ومن تعريفه للقانون: «القانون: هو مجموعةُ المفاهيم للشروط التي يمكن بموجبها لسيد مطلق/لحَكَم، التوفيق بينه وبين سيد مطلق/حَكَم آخر، وفقًا لقانون الحريَّة الكوني.»[1]

تمثّل كلمةُ «الشروط»، الكلمة المفتاحيةً لكُل فلسفةٍ القانون عند كانط؛ لأنه يحرص على تميُّز شروط المُطابقـة بين حالتي الفعل القانوني والأخلاقـي، ففي نظره: «التشريع الذي يجعل الفعل واجبًا وفي الوقت نفسه يجعل هذا الواجب دافعًا، هو تشريعٌ أخلاقي. ومن ناحية أخرى، فإنَّ الذي لا يدمجُ الدافعَ في القانون، ويعترفُ أيضًا بدافعٍ آخر غير فكرة الواجب نفسه، هو قانوني»[2]. مماَّ يفـترضُ تحديدَ دافع القيام بالفعل الذي يُعدلُ عليه الحكم الفعل داخليًا – الأخلاق، أو خارجيًا- القانون.

إنَّ هـذه التمييـزَ بين ما هو داخـلي وخارجي، يحدد صـور الواجب في الفعلـين: الأخلاقي والقانوني، وعلاقتهما بمفهوم الحريَّة والاسـتقلال الذاتي عند كانـط، ويتضح مثل هذا الأمر في سـياق مقولته «افعل الفعل، بحيث تعامل الإنسـانية في شخصك وفي شخص كل إنسان سواك، بوصفها دائمًا وفي الوقت نفسه غاية في ذاتها، ولا تعاملها أبدا، كما لو كانت مُجرد وسيلة».[3]

لقـد تناولَ كانط، وهـو بصدد شرحه لهذه المقولـة، فعلَ إلحاق الضرر بالنفـس أو الدفع بها

1 - Kant, E. Doctrine du droit In Métaphysique des mœurs, II §B

2 - المصدر نفسه، ص219

3 - المصدر نفسه، ص105

للضرر، فكتب ما نصّه «الإنسانُ ليس شيئًا، وبالتالي، ليس موضوعاً يمكن ببساطة أن يُعاملَ مُعاملة الوسـيلة، بل ينبغي النَّظر إليه في كلِّ أفعاله بوصفه دائمًا هدفًا في ذاته. ومن ثم فلستُ أملكَ حقَّ التصرُّفَ في الإنسان الكامن في شخصي، سواء كان ذلك بتشويهه، أو إفساده، أو قتله.»[1]

يفيـدُ مثلُ هذا الطرح، في فهم موقـف كانط من القتل، وهو الذي يحرِّمُهُ، لأنَّ النفسَ ليسـت ملـكاً للشـخص الذي يحوزها، بل مُنحـت له، ولذلك، يجب من حيث هـي كذلك - أي هبة - ، المحافظة عليها في كليتها، إلَّا في حالة الضرورة. الأمرُ الذي يُفسِّرُ لنا اختلاف كانط عن فلاسـفة العقد الاجتماعي الذين يجعلون النفس ملكًا يحوزه المالك، يتصرَّفُ به إماتة أو إحياءً.

كما تسمح لنا مسألة العلاقة بين الداخلي والخارجي عند كانط، من أن نقفَ على مسألتين في تصوره للقتل: تتمثل الأولى في انعطافه على فكرة العقد، بحيث إنَّ المشروعَ الكانطي في مسـألة القانـون كان يهدف، كما يقول أدلينو براز Adelino Braz، «.. .إلى حلِّ الصراع الأصلي بين الفرد والمجتمـع.»[2] ومن ثمة يصبح القانونُ صـادراً عن العقل لا عن عواطف ومشـاعر، كما تمثّلها العقد عند هوبز.

وهكـذا، يهدفُ كانط في هذا المنحى، إلى خلق اتفاق عـادل للحريات، والذي يفترض قيودًا مُتبادلة ومُتسـاوية، وتلك هي مُهمة القانون. ممَّا يسـمحُ للهدف النهائي للقانون من أن يلتقيَ مع هدف الإنسانية[3].

أمَّا المسالة الثانية، ولحلِّ مشكلة الاعتراضات على الفعل في صيغته الداخلية والخارجية يلجأ كانط إلى التفرقة بين قانون الانصاف وقانون الضرورة، حيث يكون «حقُّ الإنصاف حقاً بلا إكراه، بينما حق الضرورة يُمثِّلُ قيدًا بلا حقٍّ.»[4]

ما يهمنا في هذا المقام، يتعلقُ بفهم حقّ الضرورة [5] والذي يُوضِّحُ لنا تصور كانط للقتل، حيث

1 - المصدر نفسه، 109

2 - A. Droit et éthique chez Kant, 50

3 - كانط، فكرة من أجل تاريخ عام من وجهة نظر المدنية الكونية، القضية 8

4 - Duflo. C, Kant la Raison du droit, p5

5 - حقُّ الإنصاف، حق يعود إلى الضمير ولا يخضعُ للحقوق المدنية، مثال دفع الأجر مقابل عمل، فإن تراجعت العملة، لا يمكن للعامل أن يُطالبَ بالزيادة، بل يتوقف ذلك على الضمير، ولا يخضع لحقٍّ مدوّن يُسمَّى هذا بحقِّ إنصاف. المثال نقلاً عن مقال كولاس ديفلو.

يشير مثلما يشرح كولاس ديفلو إلى «مثال تقليدي، نجده بالفعل عند كارنياديس Carnéade: بعد غرق سفينة، يدفع رجل آخر، أضعف منه، من على لوحٍ خشبيٍّ الذي لا يكفي لشخصين، من أجل إنقاذ حياته. في الواقع، يقول كانط، لا يوجد قانونٌ في هذه الحالة. لا يمكننا إدانة شخص يسرق أو يقتل لإنقاذ حياته. لكن هذا لا يعني أن هناك حالات مُعينة تصبح فيها السرقةُ أو القتلُ أمرًا قانونيًا. إنه دائمًا غير قانوني، وهناك ذنب من جانب الشخص الذي يقتل، لكنه لا يُعاقب عليه «لأنه في النهاية، تقريبًا لا توجد حرية للفاعلين»[1].

يطرح كانط مسألةَ القتل في ربطها بسؤال: ماذا يجب عليّ أن أعمل (القيام به)؟ سؤال يُشكِّلُ محور مُؤلفه «نقد العقل العملي»، والذي شرح فيه علاقة الفعل بالإرادة والرغبة، ولذلك فإنَّ تصوَّرَهُ للقتل، يرتبطُ من حيث هو فعلٌ بحرية الإرادة التي تتعلَّقَ بالاختيار الحرِّ، بعيدًا عن كُلِّ ضرورةٍ مُلحَّة. حيث يُفرِّق بين نوعين من الحريَّة: الحريَّة الأخلاقية والحريَّة العقليَّة، مُستعملاً في هذه التّفرقة مبدأ الضرورة «في عالم لا يوجد فيه إلَّا الضرورة، لن يكون هناك تأثيرٌ بدون سببٍ، ولا سبب ليس بدوره نتيجة لسبب آخر: كل حدثٍ سيكون نتيجةً لسلسلةٍ من الأحداث التي تعود إلى أصل الكون..»[2].

وهذا التَّمييز نراه مُهمًّا لفهم تصور كانط للقتل، مثلما كان الحالُ في تمييزه لحقِّ الإنصاف وحقِّ الضَّرورة؛ لأنَّ الحريَّة العقليَّة تنفصلُ عن مبدأ الضَّرورة الذي يحدُّ من إرادة الفعل، وبالتَّالي، يجعل منه تابعًا للسبب: «وحينئذ لن يكون هناك فرقٌ جوهريٌّ بين الحجَر الذي يقتل راجلاً لانفصال الحجر عن الصخرة، أو أن شخصًا دفعه عمداً. أمَّا إذا لُمْنا القاتل وليس الحجر وحاكمناه، بدل أن نكتفي بمنع الأذى عن الأول كما عن الثَّاني، فذلك لأننا نعتقدُ أن فعله لم يكن له أسباب ضرورية، وأنه يمكن أن يكون غير ذلك. لقد كان الأمرُ على خلاف ذلك، وبدأت سلسلةٌ جديدةٌ من الأسباب والنتائج. والقول بأنَّهُ: صاحبُ فعله يعني القول بأنَّهُ: صاحبُ العلة الأولى. ونفهم من هذا، أنَّ هذه الحريَّة التي بدونها لا تكون لا مسؤولية أخلاقية ولا مسؤولية قانونية، مصحوبة بالعقل»[3].

وهو ما يدفعنا إلى التفرقة بين فعلٍ أخلاقي وفعل غير أخلاقي، لأهميته في فهم تصور كانط

1 - Duflo, C. Ibid, P51

2 - Duflo, C. Ibid, P:16

3 - المصدر نفسه

لمسألة القتل، وما ينجرّ عنه من عقاب، ويفترضه من ضرورة التفرقة بين العام والخاص. إنَّ الضرورةَ إلزاميةٌ، وانتهاكها يعدُّ فعلاً غيرَ أخلاقيٍّ في نظره[1].

يأخـذ هيجل تصورًا مُغايرًا لكانط، بالتَّماهي أحيانًا مع فلاسـفة العقد الاجتماعي فيما يخصُّ مسألة مشروعيَّة القتل من عدمه، لا لأنَّه ينعطف عن فلسفة كانط، بل لأنَّ منطلقاته في تصوّر فعل القتل تختلف عن تلك التي قعّد من خلالها كانط لاستحسان واستهجان القتل. حيثُ ينطلقُ طرحه لمفهوم القتل من تصوريـن: أوّلا، مفهوم الجدل/الصراع بين «الحاكم، والخـادم»[2]، وثانيًا، من مفهوم الحرب وشجاعة التضحية.

وما يُلفت الانتباه في تحليله لفعل القتل في الفصل الذي خصّه لصراع الحاكم والخادم، الذي يُحـدِّدُ مجموعـة علاقات الصراع تاريخيًا، بما فيهـا تلك التي تتعلَّق بحصـول الوعي بالذَّات أو الاعـتراف، كما يشرح ذلك في بداية الفصل، الذي خصَّ به هذه العلاقة وما يتشـكَّلُ خلالها من وعي بالذَّات، جرَّاء الخوف، ممَّا يُلحقه الصراع نفسه من سلبٍ للماهيَّة، نعني الوعي، أو ما يُسميه جونٌ ليوك نونسي Jean Luc Nancy قلق السـلب، حيث يقول هيجل ما نصُّه: «...، وهذا الوعي على التدقيق لم يتملَّكه الخوف من هذا الأمر أو ذاك، في هذا الحين أو ذاك، بل خاف على ماهيته كاملة، لأنه إنما انتابه الفرق من الموت، أي من الرئيس المطلق، وفي ذلك إنما صار منفتًا جوانيًا، وفزع في أعماقه ارتعادًا، فاهتزَّ كُلُّ ما رسـخ منه.»[3]

ونظير ذلك، الخوف من الموت أو قبضة الرئيس، يدخل الخادم في صراع/حرب للإفلات، ممَّا قد يلحقه من انحلال ذاته أو كما يقول هيجل نفسه: «..، وإذا تأكد حقًا، أنّ خيفة الرئيس هي بداية

---

1 - كانط، أسس ميتافيزيقا الأخلاق، ص99

2 - يضع برنارد بورجوا Bernard Bourgeois ملاحظة فيما يتعلق بترجمة Knecht من الألمانية إلى الفرنسية لما لها من خصوصية في نصِّ هيجل. انظر الملاحظة:

.Hegel, 2006, Phénoménologie de l'esprit. Traduit B. Bourgeois, Vrin, P 206. Réfercence2

أمَّا ناجي العونلي، فإنه يضع ملاحظة مشابهة في ترجمة النص إلى العربية، لما اعتدنا على ترجمته بالسيد والعبد. انظر الإحالة 4 ص 267 :هيجل، 2006، فينومينولوجيا الروح، ت. العونلي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان.

3 - هيجل، فينومينولوجيا الروح، ص 276 / أمَّا فيما يخصُّ مسألة الخوف، فيمكن تتبع هذه المسألة عند سورين كيركيغارد في مؤلفة: خوف ورعدة، نقله إلى العربية فؤاد كامل، وهو الكتاب الذي يفصل فيه جاك دريدا، في نص حول الموت والقتل بعنوان: Donner la mort

الحكمة، فإنَّ الوعيَّ في ذلك إنما يكون بالنسبة إلى نفسه، لا الكون- لذاته. لكنه إنما يحصل ذاته بمعيّة العمل.»[1].

هذه العلاقة التي تحصلُ بين صور ممارسة السُّلطة، هي التي تشرح لنا جوهر الطَّبيعة البشرية، وهي نفسها التي تدفع إلى الحرب. ممَّا يعني أنَّ حالة الحرب من طبيعة الإنسان نفسه، وهو أمرٌ يتوافق فيه مع ما جاء عند فلاسفة العقد الاجتماعي، خاصة هوبز.

ولذلك نراه يقف من الحرب موقفًا على النقيض ممّا جاء به كانط، حيث يقول: « فللحرب ذلك المغزى الرفيع، إذ بفاعليتها(...) تحافظُ الشعوبُ على صحتها الأخلاقية، حين تقف موقف اللامبالاة من المؤسسة المتناهية، تمامًا مثلما أنَّ هبوبَ الرياح يحفظ البحرَ من التلوث الذي يُوجد نتيجة لفترة طويلة من السكون[2]، كذلك فساد الأمم، قد يوجد نتيجة لفترة طويلة من السلام، دع عنك السلام الدائم..»[3]. و تعدُّ هذه الفقرة، التي يتضح أنها مُوجَّهة لدعاة السلام الدائم، لدى إمانويل كانط، بأنها تتماشى مع فكرة هوبز، ممّا يُبررُ عنده فعل القتل والموت وربطه بالتضحية أو بالشَّجاعة.

يُثمِّنُ هيجل الحربَ خلافًا لكانط، في كثيرٍ من فقرات مؤلفه: «فلسفة الحق»، كما هو الحال في الفقرة 328 حيث يقول: « لئن يُعرِّض المرءُ حياته للخطر أفضل بكثيرٍ من مُجرد الخوف من الموت، لكن ذلك لا يزال أمراً سلبياً خالصاً، وهو بذلك غير مُتعين وبغير قيمة في ذاته، لأنَّ الجانب الإيجابي الذي هو الغاية والمضمون، هو أول ما يُضفي المعنى على هذه الشجاعة: لأنَّ اللصوصَ والقتلةَ ينزعون إلى الجريمة بوصفها غاية لهم، والمغامرون هم الذين يسعون إلى تحقيق غايات تتفق مع أهوائهم الخاصة..إلخ،»[4]. نلاحظ مماّ سبق ذكره، بأنَّ هيجل على خلاف كانط، الذي بَرَّرَ القتلَ عبر حقِّ الضرورة، فإنَّ هيجل يبني ذلك على القدرة على الموت، والقدرة على القتل، وعلى الشجاعة.

مع العلم أنَّ هذا التصور، يأتي من السياق الذي يُشرِّعُ فيه للحرب بما أنها - في نظره -، تُعدُّ دفاعًا عن الدولة ولذلك، ينتقد بقوة الشعوب التي تخشي القتال: «..، الشعوب التي تنفرُ من تحمُّل أعباء السيادة الداخلية، أو تخشى أن تخضعها وتستعبدها شعوب أخرى خارجية، وتكافح من أجل

1 - المصدر نفسه، ص277

2 - في التشبيه الذي يذكره هيجل، والمُستوحى من الطبيعة، هو ما سبق أن ذكره هوبر في علاقة هطول المطر بالقتال الفعلي.

3 - هيجل، أصول فلسفة الحق، ص590

4 - المصدر نفسه، ص593

استقلالها بجد أقل، (...)، لقد ماتت حريتهم بسبب خوفهم من الموت.»[1].

وممَّا يحيلُ على القتل عند هيجل مجموعةٌ من المفاهيم تخضع لعلاقة تناظرية من مثل: البطل والعظيم، وعلاقتهما بالتضحية والشجاعة، وربطها بمفهومي القتل والموت، أي متى يكون البطل بطلاً، ومتى يكون العظيم عظيمًا؟ ومتى يكون القتل أو الموت تضحية أو شجاعة؟

هذه العلاقة «التناظرية»، هي التي تحكم تصور هيجل لمفهوم القتل، وهو ما نجد له تفسيراً في الربط الذي يحرص هيجل على تحليله، من الفقرة 325 لغاية 328، حيث تصبح الشـجاعة قدرة للتغلب على الخوف من الموت، كما أنها – أي الشجاعة- تكون في القدرة على التضحية بالنفس، من أجل الدولة[2].

وتظهر عظمةُ التضحية لدى هيجل، حينما تعملُ على تشكيل ذاكرة البطل في «الخيال الجمعي» فيصبح عظيمًا، ولكن علينا أن نجدَ تفسـيراً لفعل القتـل الذي يتحول فيه القاتل إلى بطل، وهو ما يُشكِّلُ الجانبَ الخفي في مفهوم البطل وقدرته على القتل في تصور هيجل.

في هذه النقطة، والتي تتأسـسُ عليها مسـائل مهمة في فهم القتل عند فلاسفة ما بعد الحداثة، يطرح كريستوف بوتون Christophe Bouton تفرقة مهمة في تساؤله عن الجانب المظلم للبطل في مسألة القتل عند هيجل، حيث يقول ما نصّه: «..، نلاحظ اختلافاً حسَّاسًا بين المفاهيم اليونانية والهيجلية للبطل. فعند هوميروس على سبيل المثال، سلطة القتل من صفات البطل. Ulysse، وقبل كل شيء Achille، الذي يرى فيه هيجل: « أعلى شخصية كانت حاضرة في أذهان اليونانيين، هما: قتلة هائلون، ويتمُّ وصف أعمالهم الدموية بتفصيلٍ كبيرٍ. بينما البطل الهيجلي عظيم، لأنه يُخاطر بحياته، ويموت إذا لزم الأمر، ولكن تقريبًا لا يُقال شيء عن قدرته للتسبب في الموت. هيجل يمُجِّدُ التضحيةَ ليس القتل. لكنه يرفض إدانة هذه الأفعال، الأفعال القاتلة للبطل تعدُّ عنفاً لا مفرَّ منه.»[3]

وعليه، هل إنَّ منطقَ التضحية هو ما يُبرِّرُ القتلَ؟

يُبيِّنُ كريستوف بوتون، بأنَّ هيجل - ولكي يخرجَ من هذه المُعضلة -، يكشف في الفقرة 328 من أصول فلسفة الحق، تقنية جديدة للموت، قد تضع القاتلُ من حيث هو فاعل مباشر لارتكابه فعل القتل، بعيدًا عن ارتكابه المباشر للقتل، وهذه التقنية تتمثلُ في اسـتعمال السلاح الناري في القتل

1 - المصدر نفسه

2 - هيجل، أصول فلسفة الحق، ص 593، الفقرة 328

3 - Bouton, Pouvoir mourir et pouvoir tuer, P:120

من مسـافةٍ بعيدة، ممَّا يسمح أولا بزيادة قوة الشـجاعة في الإقدام على القتل، أو نزع الخوف من المُواجهة، وجهًا لوجه إذا جاز التعبير، كما سنوضِّحه عند إيمانويل لفيناس، وثانيًا: نزع التشخيص الذاتي للقتل، لأنه قتل من بعيدٍ، ومن مسافة فاصلة.[1]

المبحث الثالث: القتل بين التحليل الفينومينولوجي والسياسة الحيوية

إذا كان القتـلُ قد أخذ في الفكر الحديث منزعًا أخلاقيًّـا وقانونيًّا، وكانت بدايته مع ظهور حقِّ الحيازة أو التملُّك، فإنَّ الأمرَ يبدو مختلفًا لحدٍّ ما عند فلاسفة ما بعد الحداثة، في تناولهم لمسألة القتل، لاختلاف منطلقات تصوراتهم وتأويلهم، للتصورات الحديثة، بما يتماشى وانفتاح الفلسفة عـلى قضايا العصر نفسـه. وللوقوف على بعضٍ من تلك التصورات، لفلاسـفة ما بعد الحداثة، سأحاول أن أضعَ من والتر بنيامين W. Benjamin نقطة انتقال سلسة من فلاسفة العصر الحديث (الحداثـة) إلى فلاسـفة ما بعد الحداثة. وسلاسـة تصور بنامـين، في تناوله لمسـألة القتل، تأتي ممَّا تُوفره لنا فكرته عن مسـألة القتل التي تجد لها حضورًا، كما سـنبين لاحقًا، عند مجموعة من الفلاسفة. انطلاقًا من نصِّه، نقد العنف، النقطة المفصلية في رصد التصور الما- بعد حداثي للقتل.

أولاً: ولتر بنيامين ورفض القتل

ينطلق والـتر بنيامين في تحليله للقتل، من منظور علاقة العنف بالحـق أو القانون، مُحلِّلًا الصورة التاريخية التي تَشكَّلَ على ضوئها مفهومُ القتل، بالعودة إلى التفرقة بين مفهوم الدولة، المبني على الحق الطبيعي، نظرية العقد عند هوبز، ومفهوم الدولة كما تطور بعد ذلك في إطار ما سُمِّيَ بالحق الوضعي أو الدولـة المدنية، وعليه، فإنه وبقدر «..، ما يسـعى الحق الطبيعي جاهدًا إلى تبرير طبيعة الوسـائل بعدالة الغايات، يهدف الحق الوضعي جاهدًا « تبرير «لعدالة الغايات بوساطة مشروعية الوسائل»[2].

ينتج عن ذلك، نوعين من العنف: العنف المؤسس للحقّ، والعنف المُحافظ عليه: « فإذا كان العنفُ المؤسـس للحق، مُطالبًا بالإفصاح عن ذاته وفقًا لطبيعته، وسـعيًا إلى فرض سـيادته، فإنَّ

1 - تحيينًا للموضوع، وتماشيًا مع ما يجرى اليوم من حرب غزة/فلسطين، أظنُّ أنَّ المقاومةَ الفلسطينيةَ استدركت الأمر، وأصبحت تستعمل مفهوم المسافة صفر في التفجير وفي قتل العدو، وهو ما يُمكننا تأويله على أنَّهُ تصورٌ لمعنى البطولة، بطولة وشجاعة الإقدام على الحرب.

2 - بنيامين، نقد العنف، ص70

العنفَ المُحافظَ على الحق، يجب أن يُعْتَمَدَ كوسيلةٍ لتحقيق الغايات المحدّدة له سلفًا، وبالتَّالي، فهو مُطالب بالاقتصار على هذه الغايات وعدم تجاوز نطاقها»[1].

يقوم - تبعًا لذلك-، تحليل والتر بنيامين، على تفرقةٍ مُهمَّة بين القتل والموت، تنطلق من مفهومه للحياة، والذي يبني عليه ضمنيًا تميزاً بين العنف الأسـطوري الدموي، والعنف الإلهي القاتل، لأنَّ العقابَ الإلهي في نظره، يقوم على مبدأ التكفير، ممَّا يُبعده عن الطابع الدموي، لذلك يقول: «وهكذا إنَّمـا تُحدَّدُ، في آخر المطـاف، طبيعة العنف الإلهي، بكونها لا تتعلقُ بكون الله ذاته يمارسـه عبر مُعجزات، ولكن ما يحدّده بالأحرى، هو تلك العناصر المُكونة لصيرورة غير دموية، تُعاقب وتمُكِّن من التكفير عن الذنب، كما أنّ ما يُحدّد طبيعة هذا العنف، يتعلق أخيراً بغياب كُل أساس للحق.»[2].

وهذا الغياب لأساس الحق، هو ما يجعل منه قاعدةً لمناقشة مسألة القتل، حيث يقول: «من يُقرّ أن توسيع مجال هذا العنف، سيترتب عليه منطقيًا، ترك المجال حرًا للبشر، لكي يمارسوا العنف المُؤدِّي للموت ضد بعضهـم البعض. مثل هذا الاعتراض والإقرار المُترتب عليه، لا يمكننا تقبُّلهما، ذلك أنَّ الجوابَ المُتجدد على الدوام عن التساؤل، هل من المُباح لي أن أقتلَ؟ «سيظلُّ دومًا مُرتبطًا بالأمر الوصية»، «لا يجبُ عليك أن تقتل». هكذا، ينتصبُ هذا الأمر حاجزًا أمام الفعل، كما لو أنّ الله يحول دون حدوثه»[3].

إنَّ صياغةَ مفهومٍ للقتل بهذا المعنى عند والتر بنيامين، يحيلُ في حدِّ ذاته على فهمٍ لمُخرجات جديـدة لفعل القتل، والتي سـيحملها: أولاً، المفهوم الجديد لمعنى الإنسـان، باعتباره كائنًا حيًّا وثانيًا مفهوم الحياة.

ولتحليل ذلك، يعود والتر بنيامين إلى تفسير بعضٍ من وجهات النظر التي تُناقشُ مسألةَ القتل، انطلاقًا من مفهوم الدّفاع عن النفس، وثانيًا، من مفهوم قداسة الحياة.

فيما يخـصُّ المسـألةُ الأولى، أي القتلُ بحجة الدفاع عـن النفس، فإنّ والـتر بنيامين، يُحدِّدُ مسـؤوليةَ الفعل بمُرتكبـه فردًا أو جماعة، بل إنَّ مسـؤوليةَ الفرد تعود في حدِّ ذاتها إلى مسـؤولية الجماعة: أسرةً كانت أو دولة[4].

1 - المصدر نفسه، ص12
2 - المصدر نفسه، ص18
3 - المصدر نفسه، ص19
4 - بنامين، نقد العنف،ص 18-19

أمَّا ما تعلق بمسألة الحياة، فإن تحليلَ والتر بنيامين، يبدو مُهمًا لما له من فائدة في التفرقة بين القتل والموت، باعتبار أن كليهما يُعدُّ إنهاءً لمعنى الحياة، وهو ما سبق أن أشرت إليه في بداية العنصر الأول، ولكـن فعل القتل يتعدّى مفهوم المـوت، لأن هذه الأخيرة تعدُّ من طبيعة الكائن الحي نفسـه، أي أنَّ الموتَ ليس إنهاءً إرادياً لصيرورة الحياة، قتلاً أو انتحارًا، بقدر ما هو المسلك الطبيعي لمسار الحياة.

ولتحديد بشـاعة القتل تمييـزًا عن الموت، يذهبُ والتر بنيامـين، للتفرقة بين الوجود والوجود العادل مُنطلقًا من مناقشته لأصحاب نظريةٍ جديدة، كما يُسميهم، تدعو ليشملَ معنى الحياة مفهومًا واسعًا، بما فيه كل الكائنات حيث يقول: «والنظريةُ المقصودة هنا، تقوم على فرضية تُضفي القداسةَ على كل أشـكال الحياة، سـواء شـملت الحياة الحيوانية بل وحتى النباتية، أو اقتصرت فقط على الحياة الإنسانية.(...) إنَّ القضيةَ التي تدَّعي أنّ الوجودَ يتبوّأ مكانة أسمى من مكانة الوجود العادل، لهي قضية خاطئة ومن الوضاعة بمكان، إذا كانت تعدُّ أنَّ الوجودَ مرادفٌ فقط لفعل الحياة البسيط (...) لذا لا يجب الخلط، مهما كان الثمن، ما بين الإنسان والحياة المُتضمنة فيه ،أو ما بينه والحياة العادية، (...) فبقدر ما الإنسان مُقدس (...) بقدر ما تعدُّ حالاته الجسدية أقل تقديسًا، وقابلة لأن يلحقَ بها الضررُ من طرف الآخرين.(...) وحتى وإن كانت الحيوانات والنباتات مُقدسة، فلن تكون كذلك، بسبب حياتها البسيطة أو بما هي كذلك»[1].

إنَّ هذا النصَّ، بالرغم من طوله، أردت أن آتي به لما يحمله من إشارات مُهمة لفهم مسألة القتل ومُخرجات ما تحمله مُعطيات الحياة المعاصرة، خاصة وأن والتر بنيامين يحرصُ على ضرورة أخذ مبدأ الحياة الإنسانية مأخذ الجد، حينما نكون في مواجهة القتل أو الموت، فيما يشيرُ إليه من تفرقة ضرورية بين الإنسان والحياة التي أودعت فيه.

ثانيًا: كورين بيلوشون والمنزع الإيتيقي الفينومينولوجي لمنع القتل

يجـدُ هذا التصور للقتل والمـوت في علاقتهما بمعنى الحياة، صدى فيـما تُدافع عنه كورين بيلوشـون، وهي التي تنطلق من قاعدة أساسية تُشكِّل بيان مؤلفها «لن تقتل»[2]، وهذا الرفض وإن

1 - بنيامين، نقد العنف،ص 18-19

2 - يُشكِّلُ هذا الكتاب والذي يحمل عنوان: لن تقتل، تفكيرا حول راهن منع القتل .Tu ne tueras point. Réflexions sur l'actualité de l'interdit du meurtre

كان كما يبدو في سياق تحريم للقتل بدل تجريمه، لا يعني، كما يعلق أحد الباحثين عن الكتاب، الصيغة الكانطية، المنع الأخلاقي للقتل، بقدر ما أن بيلوشـون تذهب بمسـألة القتل للممارسـة الإيتيقية[1] حيث يشـمل ذلك المفهوم الواسع للحياة بمقاربة فينومينولوجية للمسألة، خاصة فيما تعلق بالغيرية، والذي لا تخفي فيها بيلوشون مصدرَ تفكيرها من فلسفة لفينانس نفسه.

تبعا لتصورها لمبدأ الغيرية، تبني بيلوشون رفضها للقتل: «القتل [في نظرها]هو الرغبة في إزالة الغـير الذي أقيس نفسي عليه، في لقاء وجهاً لوجـه، ولا يعني بالضرورة رؤية الآخر، بل يفترض أنه أخي. فالقتل يفترضُ هذا اللقاء وجهاً لوجه، حتى لو كان ذلك النفيُّ التام للآخر والتخلّي عن الفهم أو القرب الذي يُعبرِّ عنه الآخر.»[2]

والتَّقابل بين الأنا والأنت، هو الذي تعتمدُ عليه بيلوشـون في تفسيرها لمسألة القتل والانتحار والتعاطـف مع المحتاجين، من منظور أنَّ الحياةَ ليسـت هي الأنا، بل إنَّهـا الغير، الغيرُ هو الذي منحهـا لنا، ولذلك، فإنَّ مُحاولةَ التخلُّص منها، الحيـاة أو الحفاظ عليها، هو محاولة خاطئة لأنَّ للآخرين حقًّاً علينا فيما منحونا إيّاه.

ربما يكون هذا الأمرُ اسـتلهامًا من فلسفة لفيناس، ولكن مقارنة بما أتينا على ذكره فيما يخصُّ والتر بنيامين، يتبيَّنُ لنا أنَّ المسألةَ تتعلقُ بهذا الأخير، أمَّا قوة طرح بيلوشون فإنها تتمثلُ في تجاوز مفهوم الاسـتقلالية الذاتية التي اعتمدها كانط، لكي تتخلصَ من مسـألة الضمير الأخلاقي الذي يحكم الفعل، وهي بذلك تضعنا بما تثيره من سحبٍ لمفهوم القتل، وما يتفرعُ عنه من مواضيع في قلب الفهم الما- بعد حداثي في تناول الفلسفي لمفهوم القتل.

فإذا كانت تتحركُ ضمن تصور فينومينولوجي لمفهوم القتل بالاستناد إلى فلسفة لفيناس، فإنَّها لا تكتفي بذلك، بل تنتقل بوساطة فلسفة هذا الأخير لمواضيع تتعلقُ بالموت الرحيم، والانتحار، والتعاطف، والحيوان والإجهاض، وهي مواضيع أصبحت من ميدان البيويطقا.

---

1 - نحرص على التذكير بالتميُّز الحاصل بين الأخلاق Morale والإيطيقا Ethique يقول كانط تمشيا مع مفهوم الفعل الأخلاقي والفعل القانوني، في تبريره لإلحاق الضرر بالنفس عند الضرورة ما نصه « لا بدّ لي أن أطرح هنا جانبا مسألة تحديد هذا المبدأ عن كثب، وهو ما كان مفروضاً أن أقوم به لتجنب كل إساءة في الفهم، وهو ما يحدث في حالة اضطراري مثلا إلى بتر أعضائي لإنقاذ نفسي، أو المخاطرة بحياتي في سبيل المحافظة عليها... إلخ)» (إمانويل كانط، تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق، ص 109) .

2 - Pelluchon. K, Tu ne tueras point, P:81

بهذه الكيفية، وبعد أن كان والتر بنيامين مدخلاً لفهم التصوُّر المابعد حداثي لمفهوم القتل، فإنَّ تصورَ كورين بيلوشون، يسمحُ لنا أن نبحثَ موضوع القتل في تصورات أخرى مُتكاملة مرة ومتقابلة مرة أخرى، لنقفَ فيما تبقَّى عند أبرزها، سواء تعلق الأمر بما تعرضت له الفلسفة الفينومينولوجية أو ما أصبحنا نُسمِّيه مع ميشيل فوكو، بالسلطة الحيوية، فكيف تنظر كل واحدة من هاتين الفلسفتين إلى مسألة القتل؟

ثالثاً: القتل بين التصور الفينومينولوجي والسياسة الحيوية

يقومُ تفسيرُ فعل القتل، عند إمانويل ليفيناس على تلك العلاقة للوجه، لأنّه يمُثِّلُ في الآن نفسه الأنا والأنت: «إنَّ الوجهَ، - كما يقول- باعتباره أيضًا شيئًا من بين الأشياء، يخترق الصورة التي تحده. وهــذا يعني بالملموس: أنَّ الوجهَ يُكلمني، ومن خلال ذلك يدعوني إلى علاقة غير قابلة للقياس مع سلطة تمارس، ســواء كانت مُتعة أو معرفة.(...) العمق الذي ينفتح في هذه الحساسية، يعدل طبيعة السلطة عينها، والتي لا يمكن لها منذئذ أن تقبضَ، لكن بإمكانها أن تقتلَ. ويستهدف القتل أيضًا معطى حســيًّا، ومع ذلك، فهو يُوجد إزاء معطى لا يعرف فيه الكائن التوقف عن الحيازة»[1]، وهو ما يعني أنَّ صورةَ الوجه، تخضع لعلاقة مزدوجة، تتمثلُ في القبض والســلّب بالحيازة، وهما علاقتان مُختلفتان.

ولكي نفهمَ العلاقةَ الثانيةَ: السلّب بالحيازة، يمُكننا أن نعودَ إلى فلسفة هيجل في تحليله للصراع بين الرئيس/السـيد والخادم، والدور الذي يلعبه الخوف من خلال سلب الذات. فإذا كان القبضُ يحتفظُ بذاتيَّة الشيء ويحرمه من اســتقلاله، فإنَّ الســلبَ بالحيازة يُعدُّ سلبًا جزئيًّا. ومع ذلك، في نظر لفيناس، هاتين الحركتين: الســلّب بالقبض والسلّب بالحيازة، لا تعدمنا الشيء في ذاته، على عكس القتل أو كما يقول لفيناس: «وحده القتل يقصد السلب الشامل (...) القتل ليس هو السيطرة، بل هو التعديم، هو التخلِّي تمامًا عن الفهم. يمارس القتل ســلطةَ ما على من يتهرَّب على الســلطة (...)، لا يمكنني أن أرغبَ إلاَّ في قتل كائن مُســتقل تمامًا، يتخطَّى جدًّا ســلطاني، وبذلك فهو لا يعارضها، ولكنه يشلُّ السلطةُ عينها. إنّ الغيرَ هو الوحيد الذي أقدر على إرادة قتله (...)، إنَّ الغيرَ الذي بإمكانه أن يقولَ لي لا، بشــهامة، يعرض نفسه لسيفٍ مسلولٍ أو لرصاصة مسدس، وهو في

1 - لفيناس، الكلّية واللاّمتناهي، 222

كل هذه المدة الباسلة "لذاته" التي تتحلّى بالرفض العنيد الذي يبديه معارضًا، ينمحي ما ينغرز السيف أو الرصاصة في تجاويف قلبه"[1].

ومع ذلك، فإنَّ سلاحَ المقاومة، وإن كان على عكس البندقية التي تمثلها هيجل، أو العقد جراء الخوف كما كان عند هوبز، بل حتى الضمير كما تمثله كانط، يبقي هو المواجهة المكشوفة للوجه. إنَّ الوجهَ هو السلاح لتقول: يُجرِمٌ القتل بما يُوفره من إمكانية لقوة الصراع: «ليس بقوة للمقاومة، - كما يقول لفيناس- بل بما هو غير مُتوقع من رد فعله. (...) هذا اللامتناهي الأعظم قوة من القتل، والذي يقاومنا سلفًا، هو وجهه، هو التعبير الأصيل، هو الكلمة الأولى: «لن ترتكب قط جريمة القتل». يشلُّ اللامتناهي السلطة بمقاومته اللامتناهية للقتل، والتي تدوم ولا يمكن تخطيها، في وجه الغير، في العري الكلي لعينيه، من غير دفاع، في عري الانفتاح المُطلق للمُتعالي»[2].

لقد سمح التناول الفينومينولوجي لبعض المعطيات الجديدة، ومنها الفهم الجديد للإنسان، عبر تلك العلاقة المفترضة بين الأنا والغير، أو ما يُعرف في السياق الفينومينولوجي بالتّذاوت، من أن يخضع هذا التصور لمجموعة أخرى من التأويلات المتعلقة بالذات نفسها، ولكن من منظور الممارسة السلوكية، وهو الطريق الذي سلكه ميشيل فوكو تفسيراً وتأويلا لمسألة الخطاب حول الجسد.

وفي هذا السياق، أعني خطاب الجسد، يحلُّ مفهوم القتل لدى ميشيل فوكو[3]، بتصوُّرٍ جديد للحياة، يعمل على تمثُّل معنى ثاني للقتل، تمارسه السلطة ويصفه فوكو نفسه بالعنصرية، انطلاقًا من مجموعة من التساؤلات، ومنها: « كيف تمارس تكنولوجيا السلطة حق القتل ووظيفة القتل؟»[4]. ويردفه بسؤال ثاني: « كيف يمُكن أن نوظف السلطة الحيوية، وفي الوقت ذاته نمارس حقوق الحرب، حقوق القتل ووظيفة الموت، من دون أن نمرّ عبر العنصرية؟»[5].

بهذا المعنى يحدد فوكو موضوع القتل في ظل ممارسة عنصرية جديدة والتي من محدداتها يمكننا أن نذكر إثنين: ظهور نظرية الأعراق وتحديد ما يجب أن يحيا وما يجب أن يموت، وثانيا

1 - لفيناس، الكلّية واللاّمتناهي، 223

2 - لفيناس، الكلليّة واللامتناهي، 223-224

3 - مفهوم حاضر لدى فوكو في العديد من النصوص منها: المراقبة والعقاب، تاريخ الجنسانية، يجب الدفاع عن المجتمع الأمن، الإقليم، السكان، وكتاب السياسة الحيوية، والمجتمع العقابي.

4 - فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، ص244

5 - فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، 252

نمطية صور القتل داخل السياسة الحيوية[1] حيث يتمثل شعار السياسة الحيوية في سياق الفهم الفوكوي للعنصرية الجديدة في: «كلما قتلت، كلما حييت أو كلما أمت كلما عشت». (...) إنها علاقة حرب: «من أجل أن تحيا يجب أن تقضي على أعدائك»[2].

ولكن لهذه العنصرية أوجه اختلاف، بينها وبين الحرب من أجل البقاء، كما تمثلها فلاسفة العقد الاجتماعي في حرصهم على تبرير الحفاظ على الوجود عبر الحرب، بحيث وإن كانت تدّعي، أي العنصرية الجديدة، الحقّ في القتل أو الموت، مثلما كانت عليه حالة الحرب قبل ذلك فإنَّها تسمحُ: «بإقامة ما بين حياتي أنا وموت الآخر -كما يقول فوكو-، علاقة ليست من طبيعة عسكرية ومواجهة حربية، وإنَّما علاقة من طبيعة بيولوجية: «كلما اختفت أو انقرضت الأنواع السفلى(...) عشت، وأصبحت قويًا وصلباً واستطعت أن أتكاثر.(...) وإذا اسُتخدمت هذه الآلية، فإنَّ العدوَ الذي يجب القضاء عليه، ليس هو الخصم بالمعنى السياسي للكلمة، وإنَّما هو الخطر الخارجي والداخلي للسكان.»[3].

يُطوِّرُ ميشيل فوكو هذه المسألةَ في كتاب مُستقلٍ يحمل عنوان: «الأمن، الإقليم، السكان، دروس 1977-1978»، ويشرحُ بعضاً ممَّا بقي عالقًا من أجوبةٍ عن أسئلة كتابه «الدفاع عن المجتمع» وما بقي عالقًا في كتاب «الحراسة والعقاب» عبر كتاب المجتمع العقابي، وهي النصوص الثلاثة: الدفاع، الأمن، العقابي، التي يمكننا أن نكشفَ بوساطتها على مفهوم القتل كما يتصوره ميشيل فوكو، ضمن ما يُسمِّيه بالسياسة الحيوية.

هذا الأمر، هو ما سبق أن شرح المقصود منه، حيث يتعلقُ الأمرُ كما يقول: «أصبح المرضُ ظاهرةً سكانيةً، ليس بوصفه موتًا، ينزل فجأةً على الحياة، ولكن بوصفه موتًا دائمًا، يتسربُ إلى الحياة لينخرها ويضعفها باستمرار(...)، أمَّا العنصرُ الجديدُ في هذه السلطة الحيوية، فلا يتصلُ بالمجتمع (أو بالجسد الاجتماعي كما يُعرِّفهُ القانونيون)، ولا بالفرد- الجسد(...) يتعلق الأمر

1 - يشرح في بداية كتابه الغرض من السياسية الحيوية حيث يقول: «هذه السنة، أود أن أبدأ دراسة شيء سأسميه بهذه الطريقة، (...)، السلطة- الحيوية، أي هذه السلسلة من الظواهر التي تبدو لي مهمة جدًا، بما فيها مجموعة الآليات التي تشكل السمات البيولوجية الأساسية في الجنس البشري، وستكون قادرة على الدخول في سياسة، واستراتيجية سياسية، واستراتيجية عامة للسلطة..».(Foucault, M. 2004, P:3)

2 - فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، 245

3 - فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، 246

بمفهوم «السكان». والسياسة الحيوية إذاً لها علاقة بالسكان، وبالسكان كمُشكلة سياسية وعلمية في الوقت نفسه، كمُشكلة بيولوجية وكمُشكلة سلطوية. أعتقد أنَّ هذا هو العنصر الجديد الذي ظهرَ في تلك المرحلة.» [1].

لم يكتف فوكو بتعرية هذه الممارسة، العنصرية الجديدة، لكشف أساليب القتل، بل وعبرَ تعريته مرة ثانية لأنواع العقاب التي تمسُّ العدو الاجتماعي[2] أو المُجرم والمُتمثلة في: الاستبعاد، والتكفير، والتعويض، والتعيُّن بعلامة/الوسم، وكلُّها طرقٌ عقابيةٌ تهدفُ إلى التخلُّص من المُجرم، باختلاف درجة الجرم، بما فيها عقوبات القتل بطرقٍ مباشرةٍ أو غير مباشرة.

ومن الطرق غير المباشرة، تلك التي يذكرها فوكو عند اليونان: «.. كانت هناك في الواقع إجراءاتٌ مُحدَّدةٌ تتمثلُ في عدم إعدام شخصٍ ما، بل تعريضه للموت، عن طريق طرده من الإقليم، والتخلِّي عنه دون ممتلكات، وتركه عرضة للانتقام العلني، (...) بحيث يُمكن لأيِّ شخصٍ أن يقتله (...) ولا تزالُ طريقةُ القتل هذه التي تتمثلُ في إلقاء شخصٍ ما من أعلى مُنحدرٍ إلى البحر»[3].

أمَّا الطرقُ المُباشرةُ للقتل، ومنها: الإعدام، فكانت كما يشيرُ إلى ذلك، تحتكم لبعضٍ من القواعد القانونية، ومنها على الخصوص تسديد الدين، والتي كانت كما يقول: «.. الطريقة التي يجب بها دفع ثمن جريمة القتل. وأفضل دليلٍ على ذلك، هو أنَّ جريمةَ القتل يمكن أن يُعاقب عليها ليس بموت الجاني، بل بموت أحد والديه. (...) إذا لاحظنا من نهاية العصور الوسطى إلى القرن الثامن عشر، مثل هذه المجموعة الفخمة من التعذيب، فذلك على وجه التحديد، لأنه كان من الضروري أن نأخذَ بالحسبان سلسلةً كاملةً من المُتغيرات: مكانة المُتهم، ولدينا على سبيل المثال، قطع الرأس، وهو الموت الموسوم بختم النبيل، والشنق وهو الموت الذي يمسُّ الشريرَ. ولدينا المحرقة للهرطقي، والتقطيع للخونة، والصلب للصوص، والألسنة المثقوبة للمجدفين، إلخ.»[4]

1 - فوكو، يجب الدفاع عن المجتمع، 236-238

2 - هكذا يصف فوكو المجرم في السياق الاجتماعي والعصر الذي يتناول فيه الجريمة وأساليب العقاب.

3 - Foucault, La société punitive, P:1112-.

4 - Foucault, Ibid. p :12

الخاتمة

بعدما استعرضنا ما يمكن أن نُسمِّيه الطبقات الرسوبية لمفهوم القتل، في تصوُّر مجموعةٍ من الفلاسفة وإشكالاتهم التي يُثيرونها، في شرعنة القتل باسم الحيازة، أو رفضه وخاصَّة المُمارس على الإنسان. وقد أصبح من الواضح ألَّا وجودَ ضمن التفكير الفلسفي فقط، ما يمكن أن تصوره بأنَّهُ دعوةٌ فقط للخير والسعادة، بل تقوم الفلسفةُ من حيث هي تفكيرٌ حول الإنسان ووجوده، والحياة وصورها بتشكيل تصورات للمفاهيم المُتعلقة بالوجود والحياة، من زاوية ما قد يُلحِقُ الضررَ بالإنسان، ويكون ذلك إمَّا بتبرير للفعل أو رفضه. والعرض التاريخي الذي حرصنا أن يكون لمفهوم القتل، بفهم بُنيته التاريخية والفلسفية، طُرِحَ تصورين مُتقابلين: تصورٌ يُبررُ القتلَ، بل يدعو إليه، وتصور يستهجنه ويُوسِّعُ من مساحة الحياة، لكي يشملَ تحريمَ القتل كل ما هو كائن.

أمَّا وقد حرصنا أن يكون ذلك واضحًا، فهذا لا يمنع علينا وفي كُلِّ الأحوال، إنَّهُ حتَّى وإن كُنَّا نوافقُ ما جاء في تصورات بعض التصورات ما بعد حداثية: والتر بنيامين، كورين بيلوشون، وإيمانويل لفيناس، إلَّا أنَّ منطلقاتهم الدينية، اليهودية بالخصوص، تتركنا على مسافةٍ ممَّا يدافع عنه كُلُّ واحدٍ منهم من خلفية قد تكون دينيةً خاصَّةً، وأنَّ شعارَ: لن تقتل، كما طرحته كورين بيلوشون مُستوحىً من العهد القديم. ثانيًا، أنَّ حقَّ الضرورة، والذي يُشرعن للحق في الثورة، قد يُفهم أنَّهُ تبريرٌ لاستعمال العنف، وهو المشكل الذي نجده ماثلًا في المُقدمة، التي قدَّم به جون بول سارتر كتاب فرانز فانون، وأساءت للكتاب وأفكاره أكثر ممَّا جاء من شرعية الثورة على المُستعمر، كما أنَّهُ حقٌّ و ضرورةٌ، فكانت الشهادة في سبيل الوطن، هي شهادة في سبيل الله، للربط الحاصل في وعي الثوار بين الوطن والله من جهة، ومن جهة ثانية، إنّ شجاعتهم في قتل العدو ليست في كُلِّ الأحوال من باب الجريمة، ولست دفاعًا عن مصلحةٍ ذاتيةٍ أو جماعيةٍ بالمعنى الذي طرحه فلاسفة العقد الاجتماعي، بقدر ما هي دفاعٌ عن السيادة بالمعنى الواسع للمفهوم.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: الكتب بالعربية

■ القرآن الكريم.

■ كانـط، إ. (2002) أسـس ميتافيزيقا الأخلاق، ت: عبد الغفار مـكاوي، دار الجمل، ط1 ، كولونيا، ألمانيا.

■ كانـط، إ. (2022) فكرة من أجل تاريخ عام من وجهة نظر المدنية الكونية 1784، ت. فتحي إنقزو، ضمن كتاب مقالات في التاريخ والسياسة، سلسلة ترجمان، المركز العربي لأبحاث ودراسة السياسيات، ط1، قطر.

■ لفيناس، إ. (2021) الكلّية واللاّمتناهي بحث في البرانية، ت: عبد العزيز بومسهولي، صفحة سبعة للنشر والتوزيع العربية، ط1، السعودية.

■ هوبز، ت. (2011) الليفانيتان، ت: ديانا حبيب حرب وآخرون، هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، ودار الفارابي، ط1، الإمارات العربية.

■ هوبز، ت. (1945) المواطن «دي سـيفي»، New York,: Appleton-Century-Crofts.

■ هيجل، ج.ف. (1996) أصول فلسـفة الحق، ضمن كتاب أصول فلسفة الحق،جزئين، ت: إمـام عبـد الفتـاح إمـام،مكتبـة مدبـولي،القاهـرة،ط1،مـصر.

■ هيجـل، ج.ف (2006) فينومينولوجيا الروح، ت: ناجي العونلي، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت، لبنان.

■ روسـو، ج.ج. (2012) العقد الاجتماعي، ت: عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم، ط1، مصر.

■ فرويـد، ش. (1996) قلق في الحضارة، ت: جـورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط4، بيروت، لبنان.

■ فوكـو، م. (2003) يجب الدفاع عن المجتمع، دروس ألقيت في الكولاج دي فرانس 1976، ت: بغورة الزواوي، ، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، لبنان.

ثانيًا: المجلات

1 - والتر، ب. (2012) نقد العنف، تـر عبد الله البلغيتي العلوي، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد 2 مارس 2010.

ثالثاً: الكتب باللغة الأجنبية

■ Bouton, C. (2011) Pouvoir mourir et pouvoir tuer. Questions sur l'héroïsme guerrier. Esprit 20111/ (Janvier), pages 119 à 132 Éditions version électronique. https://www.cairn.info/publications-de-christophe-Bouton-20368.htm

■ Braz, A. (2005) Droit et éthique chez Kant l'idée d'une destination communautaire de l'existence. Chapitre V.la logique de la division. Nouvelle édition [en ligne]. Paris : Éditions de la Sorbonne.

■ Duflo, C. (1999) Kant la Raison du droit. Ed Michalon. 1999

■ Foucault, M.(2013) La Société Punitive. Cours au collège de France 19721973-. Gallimard Seuil.

■ Foucault, M. (2004) Sécurité, Territoire, population. Cours au collège de France 19771978-. Ed Gallimard Seuil

■ Foucault, M. (2013) La société punitive. Cours au collège de France 19721973-. Gallimard le seuil.

■ Grotius, H. (2012) droit de la guerre et de la paix Livre 3 CHAPTER XI. The right of killing enemies, Produced by Charlie Howard and the online-distributed proofreading team at http://www.pgdp.net

■ <http://books.openedition.org/psorbonne/18558>. ISBN : 9791035102661. DOI https://doi.org/10.4000/books.psorbonne.18558

■ Kant, E. (1994) Introduction à la Métaphysique des mœurs In la Métaphysique des mœurs Fondation introduction1, Traduction Alain Renault. Flammarion. Paris.

■ Kant, E. (1994) Doctrine du droit In Métaphysique des mœurs II. Doctrine du droit doctrine de la vertu. Traduit Alain Renault. G.F Flammarion. Paris.

■ Pelluchon, c. (2013) Tu ne tueras point. Réflexions sur l'actualité de l'interdit du meurtre, Paris, Éd. du Cerf, coll. « Passages »,

■ Encyclopédie philosophique Universelle. Les Notions Philosophiques. TI. PUF, P1689.

العلمانيَّة والعُـنف
الإمبريالية والعُـدوان

■ أ.د. الطاهر مُحمَّد الشريف[1]

ملخّص

يتناولُ هذا المقال، العلاقةَ القائمة بين العلمانيَّة الشاملة (في مرحلتيها: العلمانيَّة الاستبدالية التـي تمَّ فيها اسـتبدال الدين بكيانات غـير دينية، والعلمانيَّة المارقة التي تسـعى إلى المروق من الدين)، ونزع القداسـة، والعنف، بوصفه هتكاً لحرمات الإنسان والطبيعة، وعدوانًا وظلمًا وجهـلاً. وهـذا الهتك، لا يتأتى إلَّا بعد نزع القداسـة عن الكائن الإنسـاني وتحويله إلى مادة استعمالية، أي حَوْسلَته.

وهنا تبرزُ العلمانيَّة الشاملة بوصفها نزعاً للقداسة، ما يجعلها متطابقة مع العنف، فالأخير، مُكوّن جوهري في طبيعة العلمانيَّة ذاتها، وهو ما يظهر أساسًا في تجلِّيها من خلال الامبريالية والحروب الإيطالية، وما بعد الحداثة والاسـتعمار العولمي الاستهلاكي الجديد، الذي تقوده الولايـات المتحـدة الأمريكيـة والصهيونية العالمية. وقد سـعى المقـال إلى تبيان ذلك، عبر محطتين كبيرتين هما: العلمانيَّة الاستبدالية والعلمانيَّة المارقة.

الكلمات المفتاحية:

العلمانيَّة الاستبدالية- العلمانيَّة المارقة- نزع القداسة- العنف- الظلم- الاستعمار.

1 - جامعة باتنة الحاج لخضر، الجزائر.

مقدِّمة

لطالما نادت العلمانيَّة بحرية الإنسان وحقوقه، وشيَّدت لذلك الدول والمؤسسات والجمعيات، وسعت إلى أن تُلصق تهمة العنف بالدين، واضعة لذلك العديد من الأبحاث النفسية والتاريخية والاجتماعية، متناسية ذاتها، وإعادة النظر في سلوكها، فهي كذلك تحتاج إلى مساءلة وإعادة النظر فيها، لما لها من يد في العنف، الذي مارسته ولاتزال تمارسه الدول العلمانيَّة الغربيَّة، والذي تجلَّى في الإمبريالية الاستعمارية، التي لا تزال تمارس وجودها إلى يوم الناس هذا، ما يُبطل القول بما بعد الكولونيالية. فالمتُأمل في العُنف العلماني يجد آثارها أوسع مدًّا وأشد قسوة.

وإن قال قائل: إنَّ الإمبريالية ظاهرة ليست علمانية، بل انحراف عن العلمانيَّة، فلماذا تتكرّر؟ ولماذا تدوم وتتّسع وتشمل كل العالم؟ ولما وقْعُها شديد من حيث إمكان الإبادة؟

كلّ هذه الأسئلة، تعجز أطروحة الانحراف عن الإجابة عنها، فالتكرار والقوة والسّعة، تعني أنها أصيلة في العلمانيَّة، ما يؤكد أنَّ العنفَ أصيلٌ في العلمانيَّة، لا مجرد انحراف يمكن تصحيحه؛ لأنّ الانحراف لا يُمكن أن يتّسعَ؛ لأنه يفتقد إلى المدد من الأصل، ثم لماذا سكتت عن العلمانيَّة بل وباركت؟ وأخيراً وليس آخرًا، الحربان الغربيَّة الأولى والثانية المُسماة ظلمًا بالعالمية، ألم تكن حروبًا علمانية لا دين فيها، بل تقودها حركات معادية للدين، واليوم نرى إبادة غزة أمام ناظري العالم العلماني الذي يُبرر للمجرم الإسرائيلي وينسى حقَّ الفلسطيني، بل يبرر الإبادة الجماعية ويُؤسس لها مخالفًا كل حقوق الإنسان التي نادى بها!

كل هذه المؤشرات، تجعلنا نطرح السؤال عن العلاقة بين العلمانيَّة والعنف، وهل العلمانيَّة عنيفة بطبعها؟ وبتعبير آخر، لماذا تنتج العلمانيَّة العُنف؟ وهل المَخْرج من عُنف العلمانيَّة ديني أم علماني؟

وللإجابة عن هذه الأسئلة، سنستعين بمنهج النماذج المعرفية، وهو منهج يربط بين أمرين

وهما: الفعل الاجتماعي مع الفعل المعرفي الإدراكي، متوسلاً في ذلك أمرين: الأول وهو النقد الابستيمولوجي الذي يسعى إلى الكشف عن المقولات الإدراكية والمفاهيم والعمليات المنطقية المصاحبة للمقولات والمفاهيم، والتي تنتج لنا منظومة فكرية وثقافية وحضارية، ثم تغيّر مواقع المجالات الاجتماعية من حيث المركز والهامش.

وهذا المنهج، هو الكفيل بالكشف عن العلمانيَّة كمستوى فلسفي معرفي، ثم تحولاتها الاجتماعية، لتُنتج الإمبريالية والعُنف والإبادة.

أوّلا: مفهوم العلمانيَّة والعُنف والإمبريالية: (تجريد العالم من قداسته)

1 - مفهوم العلمانيَّة

الاشتقاق اللغوي في اللغات الأوربية: في اللغات الأوروبية هناك عبارتان تمَّت ترجمتهما إلى اللغة العربية، وسيأتي تحليلهما فيما سيأتي:

Seculaire: وهي صفة مُشتقة من اللاتينية (Saeculum) ، بمعنى العصر أو الجيل[1]، وفي اللاتينية لها مرادف وهو موندوس Mundus وتعني المكان، وبالتالي، فإنَّ "Saeculum" فهي مقترنة بالزمان، أمَّا Mundus فهي مقترنة بالمكان، والأولى قريبة من اليونانية آيون Aeon، التي تأخذ معنى العصر أو الزمان، أمَّا في الثانية، فهي قريبة من Comos الكون أو (المكان)[2]، وبالتالي، فإنَّها مرتبطة من الناحية الاشتقاقية بالزمان والمكان الدنيويين.

ومن هذا الأصل اللغوي، يتبين لنا أنَّ العلمانيَّة ليست مجرد فصل الدين عن الدّولة، بل هي اختزال الوجود البشري في حدود الدّنيا، والتخلّي عن كل ماله علاقة بالآخرة وما تحمله من معاني القداسة، وهنا ستبرز العلمانيَّة بوصفها ضدّ الدين أو القداسة، وهنا سنعتمد على تعريف المسيري للعلمانية، الذي بيَّنَ مستويين من العلمانيَّة المستوى الأول، والذي اصطلح عليه بالعلمانيَّة الجزئية: وهي رؤية جزئية، أي إنها لا ترتبط بأبعاد الواقع كلها[3]، بل بواقع الفصل بين الدين والدّولة، أي الواقع السياسي والاقتصادي لا غير، وهي رؤية براغماتية إجرائية، أي إنها تعمل على التمييز بين

1 - Larousse pratique : 2003 , P 1348

2 - المسيري، 2002، ص 53

3 - المسيري، ص 220

سلطتين هما: السُّلطة السياسية، وتحديد وظائفها والسُّلطة الدّينيّة ووظيفتها الاجتماعية والروحية.

وأمَّا المستوى الثاني، أي العلمانيَّة الشاملة: فإنها وكما يشير إلى ذلك الأستاذ عبد الوهاب المسيري، تختلف عن الجزئية في كونها تستند إلى المرجعية الكامنة، أي إخضاع كل شيء إلى القانون الطبيعي المادي، بما في ذلك الإنسان، فالاختلاف مُتضمّن في أنّ الرؤية العلمانيَّة الشاملة، هي رؤية ذات بُعد معرفي، أي كلِّي ونهائي، وهي على هذا تشغل حيّزًا كبيرًا من الحياة يتجاوز حدود فصل الدين عن الدّولة، إلى فصل كل القيم الدّينيّة والإنسانية عن المجتمع والدّولة والإنسان، وهذا كلّه راجع إلى المرجعية التي تنتمي إليها العلمانيَّة، وهي مرجعية حلولية مادية، تجعل من المادة أصلاً للعالم والإنسان. وهي إلى جانب كونها رؤية، فهي ظاهرة تاريخية تطورت وفق مراحل متتالية نموذجية، ابتدأت بنطاقات جزئية، ثم توسَّعت شيئًا فشيئًا إلى أن وصلت إلى تحقيق لحظات المطلق العلماني، وهي اللحظة المادية و الجنسية والاقتصادية[1].

العقل العلماني والنطاقات المركزية: ما طرحه المسيري في تحليلاته الموسوعية حول العلمانيَّة، هو سعي إلى تركيب يجمع بين البُعد المعرفي والاجتماعي الحضاري والتاريخي للعلمانية، فبُعدها المعرفي، يكمن في الرؤية الحلولية المادية للعالم، وهي المجال الذي نحتاج فيه إلى توسيع النظر، لأنه هو مُوجِّه عمل العقل العلماني، ومنه يمكن أن نكشف عن ممارسة العنف والإكراه التي برزت خلال تاريخ العلمانيَّة، ومادام العقل العلماني حلوليًّا، فهو لابدّ أن يعملَ بمنطق الاختزال والتبسيط، هذه الممارسة التي حكمت كثيراً من فلسفات العصر الحديث وعصر التنوير الأوروبي، وقد لخَّص إدغار موران (Edgar Morin) عمليات العقل الحديث في قوله: « كل معرفة تعمل من خلال فرز المعطيات الدالة ورفض المعطيات غير الدالة: فصل (التمييز أو تفكيك) وتوحيد (وصل، تماهي): ترتيب طبقي (الأساسيات، الثانويات) وعملية المركزة (وفقًا لنواة المفاهيم الرئيسة)»[2].

بناء لهذا النص، تنكشف عمليات العقل العلماني في طريقة اشتغاله، إذ إنَّ العلمانيَّة نموذجها المعرفي حلوليٌّ ماديٌّ، الأخير يرى أنَّ العالمَ مادي وحركته ذاتية لا تحتاج إلى إله مُنزَّه مُتعال، هنا ووفق هذا المفهوم للنواة سيعمل العقل العلماني على التمييز بين المادي وغير المادي، ثم

1 - المسيري، ص 222

2 - Morin, 2005, p:16

ردّ المعنوي إلى المادي، بُغية تفسيره، حيث سيميز بين المعنوي القابل للتفسير وغير القابل للتفسير المادي، وسيعمل على إلغائه وتحطيمه، مما يبرز عنف العلمانيَّة، بوصفها ظاهرة عنيفة، تُبيد كل ما لا ينتمي إلى مجالها الإدراكي، وهذه الممارسة العقلية ستتجلَّى داخل الممارسة الاجتماعية.

وفق هذه الآليات، يظهر عُنف العلمانيَّة من خلال عملية إقصاء وإلغاء كل ما لا ينتمي إلى نموذجها الإدراكي، ثمَّ تحويل العالم إلى مادة استعمالية لا تحكمها أيّ منظومة قيم أخلاقية، وبإقصاء الدِّين أدَّى إلى إقصاء الأخلاق، وانتهى إلى خلق منظومةٍ حضاريَّة تستكبر بالعُنف على الخلق. وهذا لاعتبار أنَّ الاستكبار هو سلطة خرجت عن أي قيمٍ أو قوانينَ تحكمها وتحدُّ من استعلائها، ولكون العنف هو استعلاء يكره المُستعلى عليه ويلحق به الضرر، بُغية تحقيق السيطرة والهيمنة.

فمن الناحية الصورية لعقل العلمانيَّة، فإنَّ العنفَ تجلَّى في كونه يمارس الاختزال بدلاً من الفهم المُركَّب والتكاملي لعناصر الوجود والواقع، وكذلك يمارس عملية قطع مفردات الوجود دون الوصل بينها، لهذا هو ممارسة عنيفة تتّجه صوب ممارسة إكراه وإيذاء واستعلاء على الآخر، سواء أكان الآخر طبيعة أم إنسانًا وغيرها.

أمَّا من حيث مضامين هذا العقل في اشتغاله العنيف، فإنه ينبني على تضخُّم الذَّات الغربيَّة، وهو ما يُصطلح عليها بالمركزية الغربيَّة، والتي نتجت عن زحزحة الإله عن مركزيته، لتحلَّ محلّه مركزيتان متصارعتان: الأولى، مركزية الذات؛ والثانية مركزية الطبيعة. لكن ما يهمُّ هنا، هو أنَّ مركزيةَ الذات الغربيَّة اختزلت الوجود البشري في خصائص الجنس الأوروبي، وما عداه طبيعة يمكن التحكم فيها، وهنا تحولت هذه الذات إلى مُطلق متعال، أي إنّها استبدلت الذات مقام الإله. وهنا تبرز قاعدة أساسية، وهي أنَّه إذا ما تمَّ الاستغناءُ عن الله محلَّ الطغيانُ، حيث إنَّ وجودَ الله يُخفِّفُ من تضخُّم الأنا كحدٍّ أدنى، وفي الحد الأعلى يعطيها حجمها الحقيقي في الوجود، لكن مع إلغاء الإله، فإنَّ العلمانيَّة ستسعى إلى تضخيم هذه الذَّات، للتحوُّل إلى كينونةٍ إمبرياليَّة تسعى إلى السَّيطرة على كلِّ الوجود؛ لأنها حلَّت محلَّ الإله. وهنا سترتبط العلمانيَّة بالإمبرياليّة، والأخيرة، هي استغناء عن المتعال الحق، أي الإله، وإحلال الذات محلّه، لتُصبح الذات الغربيَّة بمثابة الإله تتحكم بالوجود. لهذا فإنَّ العلمانيَّة تجلَّت في حركة الإمبريالية بوصفها استعلاء على الآخر، يلحق به الضرر للوصول إلى السيطرة الكاملة على العالم.

2 - مفهوم العنف

لقـد دأبت كُتب كثيرة على تحليل العُنف بوصفه ظاهرة دينية، وقد آن لنا أن نعيدَ الكتابةَ بطريقة عكسية، تنطلق من الفكر ذي المرجعية الدينية، وهو الفكر الفلسفي الإسلامي بمرجعيته الإسلامية، وهنا لابدّ أن نبدأ من المرجعية الكبرى للمسلمين، وهي القرآن الكريم.

في القـرآن الكريم، جملةٌ من العبارات التي يمكن أن نسـقطها على ظاهرة العنف واللاعنف، وهـي: القتـال، العُدوان، وضدهـا العفو، الرأفـة، الرحمة، التعـاون، ومجموع هـذه العبارات تتلخـص في قوله تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَـبِيلِ اللَّهِ الَّذِيـنَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَـدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِـبُّ الْمُعْتَدِيـنَ**﴾[1]. ومماّ تقـدّم، نجد أنَّ الآية الكريمـة قد أباحت القتـال وحرَّمت العُدوان، لدرجـة أنـه يخرج فاعله من دائرة المحبة الإلهية، وهذا ما سـيُعيدنا إلى تحليل العنف، كما فعل الفيلسـوف الكَندي تشارلز تايلور (Charles Margrave Taylor - 1931)، الذي ميَّز بين الميتا-بيولوجـي والبيولوجي، حيث « يُمكننا فهـم العُنف من منظور بيولوجي، أم يجب علينا أن نلجأ إلى الميتابيولوجيا»[2]. وهذا الأسلوب سيسمح لنا بفهم الآية بشكل مُعمَّق، فالبعدُ البيولوجي هو ما نشترك فيه مع الحيوان، لهذا نجد أنَّ القرآنَ الكريمَ، لم يُحرِّم القتال لاعتبار كونه نزوعًا غريزيًّا، وإنَّمـا حرَّم القيمة التي قد توجه الفعل الغريزي، وهنا يمكن أن نضربَ مثلاً بتحريم الزّنا، وليس الجنـس، لأنَّ الأخير غريزة حيوانية طبيعية، وإنَّمـا حُرِّمت القيمة غير الأخلاقية التي تحكم هذه الممارسـة. وقد نُـسيء التعبير حينما نقول القيمة غير الأخلاقية لمـا فيه من تناقض، فمن جهة، نقـول قيمة، ومن جهـة أخرى، نقول غير الأخلاقية، وعليه إيجاد بديل منها، وهو الإثم، فالغريزة الإنسانية تختلفُ عن الغريزة الحيوانية من حيث إنفاذها. فالأولى، تتمُّ إما وفق قيمة أخلاقية وإما وفق الإثم، وأمَّا الحيوانية، فهي ترتبط بنظام طبيعي مُنضبط.

لذلك، فإنَّ القرآنَ الكريمَ، لم يتجه صوب غريزة القتال، التي تحمل المشترك الغريزي الحيواني، والذي يمارس حفظ البقاء والتكيُّف مع العالم، وإنما اتجه إلى العدوان أو الاعتداء، باعتبار كونه أكبر إثم يقترفه الإنسان. فالتعبيرُ الذي أتت به المدرسة الفرويدية، من أنَّ العدوانَ غريزةٌ ونزوعٌ طبيعيٌّ: فيه خلل؛ لأنه لم يتمكن من تصور الإنسـان إلاَّ كآلة ميكانيكية طبيعية، مُتناسيًا أنه كائنٌ حيٌّ قيميٌّ

1 - البقرة:190

2 - تايلور، 2019، ص 922

أخلاقي. وهذه الممارسة الاختزالية لفرويد، جعلته يتصوَّر نزعةَ الموتِ أو «الثيناتوس» أصيلة في غرائز الإنسان، في حين أنَّ العدوانيةَ هي دخيلة، وإنما الأصيل هو القتال. لهذا، فالطَّرح القرآني سيخلصنا من تشاؤمية فرويد، صوب التفاؤل بآدمية الإنسان، بوصفه كائنًا قيميًّا غرائزه تخضع لقيم مُسددة له، كما هو القتال مع الجهاد، الذي هو دفع للظلم والعدوان.

بعد أنّ بيَّنا أنَّ العدوانَ إثمٌ يحكم الغريزة القتالية، سنتجه إلى تبيان طبيعة العدوان، بوصفه الحدَّ الذي يمكن أن نعرّف به العنف. وهو ما يمكن أن نستخلصه من الآيات القرآنية الآتية:

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَـٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾[1]. **﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾**[2].

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَأَلْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾[3].

هذه الآيات الكريمة، تعبر عن ظاهرة العنف، بوصفها ممارسة إثم غير أخلاقي، وقد ارتبطت بمعنين وهما: الظلم كما هو الحال في [الآية 30 من سورة النساء]، لهذا فإنَّ العدوانَ هو ظلم، وهنا سنلحظ تعريفًا للعنف من طرف طه عبد الرحمن مُفاده أنَّ " العنفَ إيذاءٌ ناشئٌ عن ظلم وجهل"[4]، ودليل الإيذاء يظهر من خلال [الآية 85 من سورة البقرة]، حيث ربط العُنف بثلاث أساسيات وهي: القتل والضغط المالي، وهو **﴿وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم﴾**" وأخيراً، المعرفي (**﴿أتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض﴾**، ما يعني أنَّ العدوان بوصفه إيذاءً، هو

1 - البقرة: 85
2 - النساء: 30
3 - المائدة:64
4 - عبد الرحمن، 2017، ص42

هتـك لثلاث حرمات، هي: حرمة النفـس، وحرمة العيش الكريم، وأخيراً حرمة المقدس، وإزاحة القداسـة تؤدي إلى الطغيان على كل الحرمات، وهو ما نستنبطه من سورة المائدة الآية 64، حيث بيَّنت أنها عندما جسَّـمت الله أزحت القداسـة عنه، فأدَّى ذلك إلى الطغيان ليؤول إلى العدوان، وهنا نصل إلى تعريف العنف بأنه: هو هتك حرمة نتيجة طغيان وعدوان.

وبالتـالي، فالدين ليس منبت العنف أو تعبيراً مرضيًّا وسـيكولوجيًّا للعنف، بل هو منبت القيم التي ترشد وتهدي الإرادة الحرة الإنسانية إلى الغريزة، في إطار انتظام الإنسان ضمن مسار الوجود ككل، مـا يمنحه تكامله وسـيره نحو الله. لذلك، وجب أن تتميزَ الذات المتدينة بالشـجاعة التي تواجه بها عناصر الشر في الوجود، وبالرحمة والرأفة والمحبة إزاء الكائنات، لاعتبار اسـتمدادها التخلّـق من قداسـة الإله، ما يجعلها تحفظ حرمة الكائنات، ولا تتضخـم ذاتها لتتحولَ إلى كائن مطلق يطغى على غيره.

في حـين أنَّ العنفَ ينشـأ من الطغيان، حيث تسـتغني الذات عن الله، فتتسـلط دون حدٍّ لها، وتصبح مصالحها ورغبتها في تحصيل المزيد من القوة كوسـيلة لبلـوغ كمالها الذاتي. وهنا يبدأ عدوانها على غيرها باعتبار أنّ الغير هو حدود تحدُّ من تسـلُّط الذات، وهو ما وقعت فيه العلمانيَّة ويظهر في الإمبريالية.

3 - مفهوم الإمبريالية الغربيَّة

إنَّ نزوعَ بعض الحضارات إلى الإمبريالية، كان بدواعٍ أسطورية، يظهر فيه إله ما على أنه الأقدر عـلى الانتصـار على غيره من الآلهـة، وهو في الأخير ليـس إلها، بقدر ما هـو تضخُّم ذات تلك الحضارة، لتتّجهَ صوبَ أرض غير أرضها، وشعب غير شعبها، لتحولهما إلى ملكية خاصة، فتتسلَّط عليهـا دون أن يردعها وازع أخلاقي. وعليه، فكل إمبريالية هـي عنف بوصفه طغيان على الآخر، وعدوان عليه يمسُّ حرمة نفسـه وحرمة معاشـه وحرمة مُقدَّسـاته، ما يضفي على الذات الطاغية الإمبريالية، قداسـة إلهية مسـتمدة من إلهها.

ولكن إمبريالية الحضارة الغربيَّة، لها ما يميزها؛ لأنها تحمل بُعدًا معرفيًّا، هو من يحدد وجودها أكثر من كونها مجرد أسطورة تُبرر هيمنة سياسية ووجودية، فالبُعد المعرفي يُبرر رؤيته إلى العالم، ويُقدِّم إجابة لممارسـة الإمبريالية عن ضرورة فعله، فالإمبرياليةَ الغربيَّة، تعتمد تصوُّرًا إيديولوجيًا

يدفعها نحو الهيمنة غير المشروطة على العالم.

وهنا وجب تحديد مفردات الإمبريالية التي يجب تحليلها، فهي رؤية للعالم تحمل وعيًا للذات وللآخر، وممارسة فعلية تعكس هذه الذات.

وهنا سنستعير مصطلحات مارتن هيدغر[1]، وهو الكينونة التي تعي ذاتها، وتسعى إلى تحقيق هذه الذات والآخر الممثل فيما تحت اليد، فالإمبريالية هي إجابة إيديولوجية عن تحديد الكينونة الغربيَّة وعلاقتها مع العالم ككل، حيث أخذت هذه الذات تتشكلُ عندما بدأت تكتشف عالم الطبيعة بصورة مختلفة عمَّا كانت عليه من قبل. لكن مع الاكتشافات الجغرافية التي حصلت مع فجر النهضة الأوروبية، أخذ المنظور الغربي للعالم يتغير، حيث أخذ الإله يتزحزح عن مركزيته للعالم، وهو ما كرَّسته الثورة العلمية الكوبرنيكية، لينتقلَ الكوسموس من مركزية الأرض، أي الجيوسنتريزم إلى مركزية الشمس، أي الهيلوسنتريزم. وهنا ستتزحزح الكنيسة من موقعها باعتبار تزحزح الأرض. ولحدٍّ الآن لم تتشكل رؤية الإنسان الغربي نحو ذاته إلَّا بعد مجيء ديكارت، الذي تحوَّل من الذات المفكِّرة المستعلية بالمعرفة والتي أصبحت تعني مزيداً من السيطرة على الطبيعة، وهذه الذات المتفلسفة المفكرة والتي تتميزُ عن الأقوام المتوحشين، هي من ستعمل على السيطرة على عالم الطبيعة بما فيه الأقوام المتوحشون، وهنا سيظهر الآخر غير الأوروبي، على أنَّهُ مُتوحشٌ وقطعةٌ من الطبيعة، وسيرى الغربي ذاته أعلى من غيره؛ لأنه كينونة إنسانية تملك المعرفة ومن ثم حقّ السيطرة، وما عداه طبيعة يتحكم بها بمنطق السّيطرة، أي ما عداه يقع تحت اليد، أي مجرد وسيلة. واكتملت صورة هذه الذات من خلال اعتبار التّاريخ حركةً ميكانيكيةً تقدميةً، يحكمها تقدم العقل الغربي الذي سينزع السحر عن العالم، ويزيل عنه قداسته، ليحوله إلى مادة استعمالية تخدم الرأسمالية. ما يعني أن هذه الذات، يجب أن تطغى على العالم كله، بوصفه مساحة لتقدم العلم والذات الأعلى المالكة للمعرفة، وحقّها في الهيمنة المطلقة على الطبيعة التي لم تعد مملكة الرب، بل مملكة الإنسان الغربي، والتي فيها سيحقق فردوسه الأرضي.

وهنا يمكن أن نفهمَ، أنَّ الفرنسيَّ الذي حمل سلاحه إلى الجزائر سنة 1830 لاحتلالها، لم يكن يرى في الجزائر دولة وشعبًا وحضارة، بقدر ما كان يرى فيها قطعة أرض يحتلّها، فهي ملكه، وبواسطة المعرفة سيحكمها ويُسخِّر خيراتها خدمة لقوته. هذه هي الرسالة الحضارية التي لم تكن

1 - Martin Heidegger 1889- 1976

تعني تكامل الإنسان الجزائري، بل الهيمنة عليه بوصفه بربريّ، وأنه قطعة من الأرض، تُستعمل عند الحاجة ويتخلَّص منها عندما تنتهي هذه حاجة، وهنا أظهرت الإمبريالية عدوانها على نفس الجزائري بقتلها، وبهتك حرمة قداستها ومقدساتها، فلم تعد النفس مقدسة، بوصفها خلق الله، ولا الأرض مقدسة لأنها مملكة الرّب، بل مجرّد طبيعة نحكمها بواسطة المعرفة/القوة.

وهنا يحصل اللقاء بين العلمانيَّة والإمبرياليَّة، حيثُ إنَّ الإمبرياليَّة هي تطبيق للعلمانيَّة، وامتداد لها نحو العالم، فكلاهما يرومان نزع القداسة عن العالم، وتحويله إلى مادة قابلة للإدراك العقلي المادي، وترشيد العالم في إطار حركة اقتصادية مادية، تحول النطاق المركزي للعالم، من الدين والأخلاق إلى الاقتصاد والسياسة، فتُصبح حركة المجتمع ليست لأجل تحقيق قيم أخلاقية، بل لأجل أرباح اقتصادية، وهذا المقصد يتطلب رؤية للعالم تنزع عنه القداسة، وهذه هي العلمانيَّة التي أفرزت الإمبريالية. ووفق هذا التحوُّل من نطاق مركزي ديني/أخلاقي، إلى نطاق مركزي سياسي/اقتصادي، كرَّست العلمانيَّة/الإمبريالية العنف، من خلال هتك حرمة شعوب العالم والعدوان عليهم، لفترة دامت أربعة قرون ولا تزال.

ثانيًا : تشكلات العلمانيَّة الاستبدالية وإنتاج الإمبريالية التقليدية

الشائعُ هو أنَّ العلمانيَّة ممارسةٌ إداريةٌ، تتعامل بحياد مع مختلف الإيديولوجيات والأديان، بحيث تمنح للجميع حق الوجود دون الدخول في عنف. ويُستدل على ذلك من خلال صُلح وستفاليا 1648 م الذي أنهى الحروب الدينية، ونقل ممتلكات السُّلطة الدّينيّة إلى سلطة الدّولة العلمانيَّة، لكن العلمانيَّة عبر تاريخها اتجهت صوب مناقشة آراء الدين وتفنيدها، وامتدت يدها حتَّى إلى الكتب المقدسة، ما يعني أنها لم تعد مُحايدة، وهذا يجعلنا نعيدُ النظر في تاريخ نشأتها، والذي نجده في الحروب الإيطالية التي امتدت من 1494 م إلى غاية 1559م.

في هذه الفترة نشأت العلمانيَّة بوصفها رؤية للعالم، وليست مجرد إجراء إداري لتسيير أمور المجتمع، حيث إنَّ من نتائج الحرب تغيير القناعات من قناعات دينية إلى قناعات علمانية، وهنا تغيَّرت الولاءات لتتغيرَ فعاليةُ التاريخ ووجهته. هنا سيتضح أنَّ العلمانيَّة بنَت العنف لتنتجَ عنفًا آخر أشدّ ضراوة.

وبعد تغيير المحركات الثلاثة للتاريخ وهي: القناعات، الولاءات، الوجهات أو الشرعة. سار تاريخ العلمانيَّة من خلال عملية استبدال؛ حيث استبدلت الكنيسة بالدّولة، واستبدل الكتاب المقدس بالعلم

الوضعي، والنظام الإقطاعي بالرأسمالي ثمَّ الاشتراكي، واستبدل الإله بآلهة أخرى أهمها: اللوغوس أو العقل، وهنا سنستعين بمجموعةٍ من المفاهيم التحليلية منها: نزعة، نزع السحر عن العالم لماكس فيبر، والنطاقات المركزية كارل سميت:[1]، وثقافة موت الإله لتيري إيغلتن (Terry Eagleton)، والتي ستعيننا على فهم العلمانيَّة الاستبدالية، وهذه العلمانيَّة حوَّلت العنف الذي كانت تمارسه الكنيسة باسم الإله، إلى عنف تمارسه باسم العلم والحضارة والعقل، وأوضح تجلٍّ لعنف العلمانيَّة هو الإمبريالية، والحربين الغربيَّة الأولى والغربيَّة الثانية، واللتان أُطلق عليهما ظلمًا بالعالمية.

والعلمانيَّة الاستبدالية، هي تلك العلمانيَّة الشاملة التي نقلت مهام الدين إلى مجالات أخرى، وهو ما عبَّر عنه تيري إيغلتن قائلاً: "مع بدء ضعف قوة الدين، يُعاد توزيع مهامها المختلفة وكأنها إرث ثمين على الطامحين إلى أن يصبحوا ورثته، فتتولى العقلانية العلمية شؤون مبادئ الدين اليقينية، بينما ترث السياسة الراديكالية مهمة تغيير وجه الأرض. والثقافة بالمعنى الجمالي، تصون شيئًا من عمقه الروحي"[2].

وبهذا تكون العلمانيَّة الاستبدالية، توزيعًا لمهام الدين على قطاعات خارجه، بقصد تحجيمه وتهميشه، فهي لم تخرج تمامًا عن الدين بقدر ما هي استبدال له، إلَّا أنها تحوَّلت من عبادة الإله الواحد إلى آلهة أخرى مُتعددة، تشبه آلهة الحضارات القديمة، التي جعلت لكل قطاع إلهه. فيصير الإنسانُ محاصرًا في كُلِّ موطن من مواطن حياته، بإله يمارس عليه عنفه، وهنا تكون العلمانيَّة الاستبدالية أشد عنفًا من العنف الديني. ويبقى دائمًا سؤال من هو كبير آلهتها؟

1 - فلسفة تاريخ الحضارة الغربيَّة ومنطق التقلُّبات: حتى لا يقع في التصورات الآلية للتاريخ وكذلك للتصورات الرمنسية، سعى كارل سميت إلى تفسير حركة تاريخ الغرب، على أنه خاص بأوروبا فقط، ولا يمكن تعميمه على كل تاريخ الإنسانية ككل، وكذلك هو تفسيرٌ له ستَّتهُ الخاصة. أمَّا عن حركة التاريخ فقد لخَّصها في قوله:" لنعدْ إلى أذهاننا المراحل التي تحرَّكت فيها الروح الأوروبية في القرون الأربعة الأخيرة، والحقول التي عرفت فيها هذه الروح مركز وجودها الإنساني. ويُمكن رصد أربع خطوات علمانية بسيطة وعظيمة، تتسقُ مع القرون الأربعة، وتبدأ من اللاهوت وتنتقل إلى الميتافيزيقا، ثم من هذا الأخير إلى الأخلاقي الإنساني لتنتهي إلى الاقتصادي"[3] . وهنا سيتضح أن

1 - Carl Schmitt 1888 – 1985

2 - إيغلتن، 2018، ص201

3 - سميت، 2017، ص139

العلمانيَّة تقلبت من نطاق مركزي وهو اللاهوت إلى نطاق مركزي آخر. ومنهج النطاقات المركزية هو تعبير عن منهج في علم اجتماع المعرفة، يُفسِّرُ العلاقةَ بين المعرفة والأنظمة الاجتماعية، حيث إنَّ التبدُّلات التي عاشها الإنسان الغربي تعني تبديل نطاق مركزي بآخر ليتحولَ إلى حاكم على المنظومة الاجتماعية ككل. فكُلُّ مرحلة تمُثل قرناً من القرون، فالقرن الثامن عشر يمُثِّل الميتافيزيقا، والقرن التاسع عشر يمثل الأخلاقية الإنسانية، وأخيراً القرن العشرين هو قرن الاقتصاد.

وهنا عملت العلمانيَّة على استبدال اللاهوت بالميتافيزيقا، واستبدلت الأخيرة والأخلاق لتنتهي إلى الاقتصاد، وعمليات الاستبدال لا تعني القطيعة مع اللاهوت، بل هي تتولد منه، حيث تُحافظ على صورته وشكله لتعوضها بمضامين تحمل الخصائص نفسها، وهو ما ناقشه سميت في كتابه "اللاهوت السياسي"، فقد صرَّح بوضوح قائلاً:" إنَّ المفاهيمَ النظريةَ الحديثةَ للدولة كلها ذات الدلالة، وهي مفاهيم لاهوتية مُعلمنة"[1]. وهذا النصُّ يُعبرِّ عن منهجية تقوم بالبحث في التماثلات بين اللاهوت والدّولة الدستورية الحديثة، حيث انتقل مركز التشريع من الله إلى الدّولة، وقد تزامن هذا مع المرحلة الميتافيزيقية التي انتشرت فيها فلسفة الربوبية. لكن عمليةَ الاستبدال هي استبدال الإله بالدّولة، والأخيرة ستحمل صفات الإله، بوصفه خالق التّشريعات، فالإله الطَّبيعي هو من يخلقُ قوانينَ الطَّبيعة، ويتجلَّى في الدّولة الخالقة. وقدْ تعزَّزَ هذا الطَّرْحُ مع المنظور الحلولي للعالم، الذي جعل من الإله محايثًا للعالم وليس متعالٍ عليه، فما الدّولة؟ هي الإله.

هنا يمكن أن نكتشفَ أنَّ العلمانيَّة في عصر الحداثة الغربيَّة، ماهي إلَّا لاهوت استغنى عن الله، ليستبدله بإله آخر، ليمنحَ حقَّ السيادة للدولة الحديثة. وعلى الرَّغم من أن أطروحة كارل سميث لها مقدار عال من التفسير، لكن يمُكن تجاوز بعض جزئياتها لزيادة المقدرة التفسيرية، حيث إنَّ عمليةَ الاستبدال قامت بتحويل النسبي إلى مطلق، وهو العقل/اللوغوس الذي أصبح له وجودان، الأول: وهو لوغوس الذات، هذه الذات التي حلَّت محلَّ الإله وأصبحت لها القدرة في حكم العالم والسيطرة عليه، والوجود الثاني: وهو لوغوس/الطبيعة، والذي يعني أنَّ الطبيعةَ تحكمها قوانين صارمة ذاتية يمكن تعقلها وإدراكها، وكلاهما سيتحدّدان في التاريخ والدّولة. حيث إنَّ كليهما نظامٌ طبيعيٌّ محكوم بقوانين صارمة، فالتاريخ هو حركة تقدُّمية للوغوس/الذات، أمَّا الدّولة فتنضبط بقوانين مثلها مثل

1 - سميت، 2018، ص49

لوغوس/ الطبيعة. وهنا تكون العلمانيَّة الاستبدالية قد استبدلت الأدنى بالأعلى[1].

وهنا نصلُ إلى تحديد معنى العلمانيَّة الاستبدالية، وهي العلمانيَّة التي استبدلت الدنيوي بالأخروي، من خلال نقل كل ماهو متعال إلى عالم محايث. تظهر العلمانيَّة في البداية بلون إنساني، ينطلق من دعوة تحرير الإنسان من ضيق الدين وهيمنة رجالات الدين، إلى حرية الإنسان وحقوق الإنسان، وفي الآن نفسه تقع في منزلقات العنف والاستبداد والقمع، وهذا ما يُمكن تفسيره من خلال نقلها واستبدالها للإله باللوغوس. وموضع العنف هنا، أنَّ المحدودَ إذا تحوَّل إلى مطلق بالضرورة سيتحوَّل إلى طغيان وعدوان وكلاهما محدِّدُ العنف، فالعنف هو طغيانٌ من حيث هو تحوُّلٌ للذات إلى مطلق يطغى على غيره من خلال إلغائه وإيذائه، وهو بذلك عدوان على خصوصية الآخر وهتك حرمته.

ومعْلَمُ العنف في العلمانيَّة هاهنا، أنها نقلت خصائص الألوهية المطلقة والمنزهة إلى ما دونها، أي إلى لوغوس الذات، ما حوّلها من كائن نسبي إلى كائن طاغي، يمارس العدوان على غيره دونما أي حدٍّ يردعه، بحكم أنه مطلق. وقد تجلَّى هذا الطغيان في الإمبريالية الغربيَّة، التي طغت على العالم باعتبار أنَّ الذاتَ الغربيَّة مطلقةٌ، وبالتالي، لا توجد مرجعية مجاوزة تحكمها، وهي المرجعية ذاتها. وهو ما سيبرِّرُ عدوانها على شعوب العالم، وأخذ ممتلكاتهم والاستيلاء على أراضيهم، بل وإبادتهم، وهو عينه العدوان، الذي لا يطالُ البشر فقط بل طال الطبيعةَ ذاتها. وقد انتقلَ هذا العنف من عنف أوروبي على غير الأوروبي، ليصلَ إلى أوروبي أوروبي، مع الحربين الغربيتين الأولى والثانية. وهذا التحليل النظري للعلمانية الاستبدالية يحتاج إلى تأكيد من الناحية التاريخية.

2 - الحروب الإيطالية منبع للعلمانية الاستبدالية: يعتقدُ العديدُ من الباحثين، أنَّ العلمانيَّة ظاهرةٌ مسيحيةٌ، باعتبار أنها دين خلاصي يمكن فصله عن الدّولة، في حين لا يُمكن في الديانات التشريعية فصل الدين عن الدّولة، بسبب حضور التشريع وقوة ارتباطه بالمتدين، وغيرها من الآراء التي ليست مجالاً لنقاشنا، لكن ما يعنينا هو لماذا ارتبطت العلمانيَّة بالإمبريالية وممارسة العنف طيلة تاريخها؟ وهذا السؤال وجدت له إجابة من خلال إعادة البحث في منشأها التاريخي، والذي وجدته في الحروب الإيطالية، والتي في أثنائها تحوَّلت العلمانيَّة إلى مركز داخل العالم.

---

1 - إنّ الصيغة الشائعة في استعمال باء الإستبدال هي بادخاله على المستبدل وهو خطأ شائع. والصحيح هو أن تدخل الباء على القسم الذي أُسقط من الحساب، كما جاء في النص: استبدلت الأدنى بالأعلى، أي تركت الأعلى واخذت بالأدنى. يقول تعالى: ﴿**ومن يتبدل الكفر بالايمان فقد ضل سواء السبيل**﴾ (البقرة 108).

ليس من السهل أن يتحولَ المجتمع، من منظومة فكرية كانت تحكم نشاطه الاجتماعي وتُنظِّمه إلى منظومـة أخرى، فعملية التحوّل عادة ما تمرُّ بحروب، فتارة تنجـح وأخرى لا تنجح، وهنا ولكي نجد تفسـيراً عقليًا لعملية التحول من مجتمع يحكمه الدين، إلى مجتمع محكـوم بالعلمانيَّة، فإنه لابد أن نُحللَ سُـنة تغييره التاريخية، وهذه السُّنة، نجدُ أحدَ مبادئها في أطروحة كارل سميت عندما عبَّر قائلاً: " لا تنطبقُ الحقول المركزية الأربعة المتبدلة للتاريخ الأوروبي في تعاقبها إلا على واقعة تبدّل النخب المتسيدة في القرون الأربعة، وتغيُّر قناعاتها اليقينية وحججها على نحو مُستمر"[1]. فالنخب المتسيدة وفق قناعتها التي تتغير بتغير الواقع، لكن الأمر ليس دائمًا كذلك، حيث قد تتغير قناعات النُخب، لكنها تعجـز عن فعل التغيير المطلوب، لكن التغيير يحصل بفعل عناصر أخرى أساسـية تحمل في طياتها إمكان تفعيل التغيير، وخلق نطاقات مركزيـة أخرى. وهذه العناصر المتمثلة في القناعات والولاءات والتوجهات/الشرعات، تعمل مع بعض، حيثُ إنَّ القناعات تتولدُ نتيجة فشـل النموذج الحضاري أو الاجتماعي في حلِّ مشكلات المجتمع، ما يدعو إلى تغيير النموذج، ثم توفر نموذج آخر لديه إمكانية الإجابة عن أسـئلة الواقع المستجدة. هنا تعمل النُّخب على تطوير الإجابة وخلق القناعات. والأخيرة لابد لها أن تخلقَ ولاءات، والأخيرة هي: تحقيق الالتزام الطوعي لسـلطة ما، وعليه، فالولاء سيسمح للقيـادة أن تحُققَ طموحَ القناعة ليتحولَ إلى شرعـة، أي طريقة في تنظيم المجتمع وتحريك التاريخ، وإلى وجهة هو موليها، لهذا سيصبح الولاء، هو أهم حلقة في صناعة التاريخ والتحولات الاجتماعية.

في الحـروب الإيطاليـة، حصل تغيـير القناعات والـولاءات، وأُنتجـت شرعة وتوجُّـها جديدًا للتاريخ. وهنا وجب أن أُعطي مُلخصًا لهذه الحرب، وهذه الحرب كانت نتيجة لما قبلها، خاصة منها الاكتشـافات الجغرافية، التي أخذت تُولِّدُ مجتمعاً تجاريـاً، خاصة في إيطاليا، والأخيرة كانت عبارة عن دويلات، وهذه الدولة تشبه كثيراً مدن الدّولة عند اليونان قديمًا، وكانت في صراع دائم، وازدادت حدة التوتر بينها "ممَّا أدَّى إلى تضارب المصالح، وإلى صراعات: منها صراعات بين الولايات البابوية والبندقية وبين الولايات البابوية وفلورنسـا"[2]، وهذا راجع إلى تكوُّن نخبٍ جديدةٍ سـنصطلحُ عليها بــ: الأمراء التجار، في مقابل الأمراء الإقطاعيين، وهو ما يعني تحوُّل في مجالٍ الاقتصاد، من اعتبار الزراعة مصدراً أساسياً لإنتاج الثروة والتشكيل الاجتماعي، وهذا التحوُّل صوب مجتمع جديد، يحتاج

1 - المصدر السابق، ص140

2 - سليمان، 1999، ص85

إلى نظام سياسي واجتماعي جديد، ينسجمُ مع طموحات الأمراء التجار الذين حقَّقوا ثروةً كبيرةً.

لقد اندلع الصراعُ في بدايته بين المدن الإيطالية والبابا وإمبراطور روما وفرنسا وإسبانيا، ثم أخذت رقعة الحرب لتشـملَ أروبا كلها، بما فيها بريطانيا وهولاندا والنمسـا، فكلٌّ أرادَ أن يُعزِّزَ قوته. وهذه الحرب بدأت سنة 1494 م وانتهت سنة 1559، حيث نشأت وتطورت الحركة الإنسانية، أو حركة إحياء التراث القديم، والكشوف العلمية مع كوبرنيكوس (1473 –1543)، وكذلك الإصلاح الديني مع مارتن لوثر (1483 – 1546)، وهذه العناصر هي التي عزَّزت وأنتجت العلمانيَّة الاسـتبدالية، حيث ستعمل على تغيير القناعات والولاءات لتتغيرَ الشرعة والوجهة. ما يعنـي أنَّ جوَّ الحروب الإيطالية، هو من ساهم في إخراج أوروبا من حالة القرون الوسطى إلى العصر الحديث، وكان لزامًا على الأمراء التجار أن يواجهوا الإمبراطوريات الكبيرة، كالفرنسية والإسبانية، وكذلك سلطة البابا وفساده.

لقد ظهرت فئـةُ الأمراء التجار، الذين جابوا العالم وانفتحوا عليـه، ما أدَّى إلى تغييرٍ في قناعاتهم بضرورة تغيير الواقع الذي لم يكن يُسعفهم، فالبنية الداخلية للمجتمع الإقطاعي لا تساعدُ على تطور النشـاط التجاري، وفي الواقع الخارجي هناك سعي الإمبراطوريات الكبرى للاستلاء على تجارتهم، ناهيك عن كون المزاج والعقلية الزراعية لا تُؤمن تطورَ التجارة. وهنا عمل هؤلاء الأمراء على تشجيع الحركة الإنسانوية، التي قامت بتغيير منظور الإنسان الغربي على ذاته، حيث بدأ وعيٌّ جديدٌ يتشكل، وهو الثقة في الإنسان، بدل النظر إليه، على أنهُ محلُّ الخطيئة، وهنا ستصبحُ السلطةُ القديمة ممثلةً في الكنيسـة غير قادرة على خلق الولاء لأفرادها؛ لأنّ وعي الإنسان بذاته أخذ يتجاوز الكنيسة ومقرراتها وعقائدها، وهنا سيصبح الكلام باسم الله، غير مقنع لإنسان يرى نفسه أفضل مما تصوره له الكنيسة.

وقد عزز هذا التصور الإصلاح الديني، وهذا الأخير عمل على دحض توسط الكنيسة بين الله والإنسان ليتحول الدين من فعالية جماعية مركزيتها الكنيسـة إلى تجربة ذاتية؛ حيث تم استبدال مرجعية السلطة، وذلك من خلال تحطيم الولاءات القديمة وإنتاج ولاءات جديدة، وقد سـاهمت البروتستانتية في تعزيز الرأسمالية، وهنا توقف ماكس فيبر، لأنَّ الرأسمالية تحولت إلى حركة إمبريالية. لهذا فالبروتستانتية كعامل مساعد لتطور الرأسمالية والإمبريالية هو الجوُّ الذي نشأت فيه، وهي الحروب الإيطالية، وهي حروب بين إمبراطوريات انخرطت فيها الكنيسة المركزية، ما شغلها عن مواجهة الإصلاح الديني الذي كان يُلبي حالة التطور الاجتماعي الجديد والناشئ من حركة الاكتشافات الجغرافية، وتطور التجارة كبديلٍ عن الزراعة.

لهذا فالبروتسـتانتية ليست سـوى علمنة للدين، حيثُ إنها نزعت القداسـة عن الكنيسة، ولكنها

عجزت عن استعادة القداسة، ما يعني أنها زادت من تكريس طبيعة العقل العلماني القائمة على ممارستي القطع مع المتجاوز والمتعالي والمقدس، ثم اختزال الوجود في المادي والحلولي، فكانت هي أول من أسّس للفردانية كأيديولوجيا، والتي ستسمح بتطور الرأسمالية التي تنبني على الحرية الفردية. والتي ستختزل الوجود البشري في تجربته الذاتية، وتختزل تجربته في تحصيل الثروة، ما سيجعل العالم بالنسبة إليه مادة استعمالية. ووفق هذا النمط الإدراكي سيعملُ تاريخ أوروبا على تحويل العالم إلى مادة استعمالية، وهنا تجتمع العلمانيَّة والعنف، حيث جعلت العلمانيَّة من الإنسان الأوروبي، ذاتًا مُتضخمة طاغية على غيرها، وعدوانية ضد الجميع، حيث إنَّ العالم بأسره هو مجال مادي(سواء أكان بشرًا أم طبيعةً)، وللإنسان الغربي حقُّ تملُّكه، من خلال إكراهه وقمعه، ونزع القداسة عن إنسانيته، ومن ثمّ الطغيان عليه والعدوان على حرمته.

وقد زاد عنف العلمانيَّة أكثر عندما تحول الولاء من الإله إلى الدّولة القومية، التي قادت الحركة الإمبريالية، والتي تحولت إلى بديلٍ عن الإله، كما صوَّرها كارل سميث، وقبله توماس هوبز، وهنا تبرزُ أهميةُ الحروب الإيطالية، حيث ضرورة التحرُّر من سلطة البابا وزيادة في هيمنة الإمبراطور. وقد عمل الأباطرة في أثناء هذه الحروب على تعزيز المنحى القومي، وهنا بدأ التفكيرُ في أمرين: التحررُ من البابوية وتعزيز قوة الدّولة بوصفها قوة سيطرة. وفي هذه المرحلة برزت العلمانيَّة باعتبارها فصلا للدين عن الدّولة، ما عزّز استقلالها عن البابا، والأمرُ الثاني تعزيزُ السيطرة الداخلية من خلال نزع القداسة، ما يسمح بتحول القيم المركزية للمجتمع، والتي ليست دينية بل هي اقتصادية، وهو ما يُعزِّز سيطرة الدّولة وضعف هيمنة الدين وسلطة البابا، وهذه تعدُّ واحدةً من أهمِّ نتائج الحرب الإيطالية.

3 - نتائجُ الحروب الإيطالية

يمكنُ تلخيصُ نتائج هذه الحروب الطويلة فيما سيأتي:

• إنَّ العلمانيَّة نشأت في منبت إمبراطوري، أي أنها تولدت نتيجة مساعي إمبراطورية كان غرضها إنتاج نمط اجتماعي جديد، يخرج من سلطة الكنيسة إلى سلطة مُتحررة تسمح بتكثير النشاط التجاري وزيادة سلطة السياسي على حساب الديني.

• تُصبح العلمانيَّة تبريراً لاستبدال منظومة اجتماعية بمنظومة أخرى، تحافظ على منطق السيطرة فيها وتستبدل مضامينه بوجهيها، الأول وهو العلمانيَّة الجزئية، وهي فصل الدين عن الدّولة، وتعملُ على تحرير السياسي، ليصبحَ هو النطاق المركزي في إدارة الشأن الاجتماعي، وتهميش الديني الذي سيصبح

شأنًا خاصًا بالفرد. أمَّا الوجه الثاني، فهو العلمانيَّة الشاملة، التي تعني نزع القداسة عن العالم، ليتحولَ إلى مجالٍ تجاريٍّ يمكن السيطرة عليه وتملكه كله، دون ضابط أو قانون بل بصورة مُطلقة، وهنا ينشأ عنف العلمانيَّة، بوصفه طغيان تتخارج فيه الذات عن حدودها، وعدوان بوصفه انتهاك حرمة الكائنات الأخرى.

• الإصلاح الديني كان معينًا للعلمانية الاستبدالية، حيث إنه حصر الدين في المجال الشخصي الفردي، وبالتالي، لم يعد له القدرة على إدارة الشأن الاجتماعي، وهو ما يتيحُ للعلمانية الاستبدالية، بأن تمارسَ عمليات الاستبدال الكبرى، باستبدال لوغوس الذات بالإله، من خلال الحركة الإنسانوية، والدّولة بالكنيسة، وأمَّا موقع الدين فهو مسألة شخصية.

• مآلات العلمانيَّة الاستبدالية، هو تغوّل الدّولة القومية وتحولها إلى إله مُدمر، حيث نشأت منه حركة استعمارية دمرت العالم لمدة ثلاثة قرون، ثم أنتجت حربين غربيتين الأولى والثانية.

ثالثًا: العلمانيَّة المارقة والإمبريالية الجديدة

لقد استبدلت العلمانيَّة الاستبدالية إلهًا غضوبًا بإله آخر مثله، وتمثل في الدّولة القومية الحديثة وفي اللوغوس والطبيعة، هنا انتبهت فلسفات ما بعد الحداثة أو الاختلاف كما يُسمِّيها البعض، إلى ضرورة التحرُّر من ضلال الإله، وهو ما عبرَّ عنه تيري إيغلتن في قوله: " في حين أنَّ الحداثةَ تختبرُ موتَ [الإله] على شكل صدمة، أو تحدٍّ، أو كمصدر للألم بالإضافة إلى كونه سببًا للاحتفال، فإنَّ ما بعد الحداثة لا تختبره على الإطلاق"[1]، وهذا راجع إلى أنَّ العلمانيَّة في مرحلة ما بعد الحداثة، ستمرق من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وهذا راجع إلى انتباهها إلى أنَّ الخطيئةَ في الحداثة أنها لم تتخلص من ضِلال الإله الذي توزَّعت مهامه. لكن مالا نُسلِّمُ به لتيري إيغلتن، هو أن العلمانيَّة المارقة مروقها من الدين، لا يعني أنها تخلَّصت من الإله، بل صنعت إلهًا آخر أشد طغيانًا، وهو الصيرورة العدمية الذي تُجسِّده الثقافة الاستهلاكية والإمبريالية السائلة، التي تدخل في كل مكان دون ضابطٍ أو حدٍّ وهي تعملُ على تعرية الإنسان من كل قيم أخلاقية وكل مسؤولية ومن كل ثورية، ليتحولَ إلى شخصية تافهة همَّها شهواتها وغرائزها العشوائية.

فإن كانت عملية الاستبدال حافظت على وجود الإله كقوالب وغيَّرت مضامين القوالب، فإنَّ سعيَ العلمانيَّة المارقة هو المروق عن قوالب الدين ذاتها، لكنها أنتجت آلهة أخرى وهي إمبريالية الاستهلاكية،

1 - إيغلتن، 2018، ص214

والتي تمارس إبادةً للطبيعة والفطرة البشرية معًا، وهذا من خلال حربها على القيم الأخلاقية والإنسانية العليا، ومروقها من الدين، أي أنها خرجت من الدين لأنها تريد إيجاد قوالب غير دينية، وما العنف الذي نشـهده اليوم: فلسطين(إسرائيل)، العراق، الشرق الأوسـط الجديد، داعش و..إلخ. كلها من نتاجات هذه العلمانيَّة، لأنها حروب تسعى إلى تفكيك كل القيم الإنسانية، باعتبار أنَّ الأخيرة هي مانع للهيمنة الأمريكية، والتي أدَّت إلى تحويل العالم لمادة استهلاكية. فالشركات تنتجُ وكل العالم يستهلك، ولكي يحصل هذا الهدف، لابدّ أن تنتجَ إنسـانًا لا يحمل قيمًا ولا مسـؤولية، يبحث عـن تلبية رغباته التي لا تنتهي، وخالٍ من روح المسؤولية، ومن القيم، ويستهلك كل شيء. أي أنها نزعة ضد الإنسان المُكلف والمستأمن والمحسن، وهنا ستمارس عنفها من خلال إبادة القيم ومن خلفها الإله المُنتج للقيم. وهذه العلمانيَّة يمُثلها فكريًا وفلسـفيًا جملةً من الفلسفات، منها: تفكيك بنية اللغة، لينتج سفسطائية جديدة تنتج دوال دون مدلولات، ولعلَّ أهمها، دال الإرهاب الذي تستعمله أمريكا دون مدلول مُحدد، لتعطي لنفسها الحق لتجاوز القانون الدولي، حيث قتلت ما قتلت، والآن تستعمل عبارة "حق إسرائيل في الدفاع عن النفس"، وهي دالٌ دون مدلول، وغيرها من تجليات هذه الفلسـفات التي أسَّست لعنف الإمبريالية السائلة. وجعلت من السطحي المحايث، إمكانية المساواة بين الجميع، بين المجرم والمسالم، وحوَّلت الإنسان إلى كائن سطحي دون عمق، لا يقدر على التمييز بين الأعلى والأدنى، خال من أيِّ قيمة.

مـا يعنـي أنَّ العلمانيَّة المارقةَ هي تعرية الإنسـان من أيِّ قيمةٍ من التعالي، مـن الإلهي ومن التجاوز، وقدرته على التمييز بين الخير والشر ومن المسـؤولية والثورة، ولهذا التحول نتيجتان، الأولى، هي زيادة القوى الاسـتكبارية من قدرتها على السـيطرة، والثانية، خلق نماذج بشرية يسهل التحكم بها، لأنها خالية من أيِّ مبادئ. مُتوسلاً في ذلك بوسائل الإعلام والتواصل الاجتماعي، التي شيأت مشاعر الناس وبلدتها، ومن الوجدان أخذت تحفر عميقًا لتصلَ إلى عنفٍ ضد الفطرة البشرية، هتكًا لحرمتها، من خلال فلسفات اللاهوية والاختلاف، ما يعني أن يصبح الإنسان بدون هوية، وهو ما يعني أنه بدون طبيعة تُميِّزه عن غيره من الكائنات، ليتساوى كل شيء، وهذا القول الفلسفي الذي ظاهره أنi يُكرِّسَ التنوعَ، في حين أنَّ جوهره هو تكريس الاختلال، حيث أصبح الإنسان بدون هوية ولا وجهة ولا تاريخ، حالة عدمية، ما يعدم التنوع ذاته.

خاتمة

في خاتمة هذا المقال، أعتقدُ أنَّ العنفَ جزءٌ أصيلٌ من العلمانيَّة، وهذا مردُّه إلى نزع القداسة عن العالم،

وتحويله إلى مادة استثمارية اقتصادية تحكمها السياسة، وأصالة العنف فيها، بناه من خلال النتائج الآتية:

1 - العلمانيَّـة في وجهها التاريخي الأول مع عصر الحداثة، عملت على اسـتبدال الطبيعة بالإله والعلم بالإنسان وغيرها من الآلهة، وهذه العلمية الاستبدالية أدَّت إلى خلق إمبريالية هي الأعنف عبر تاريخ البشرية.

2 - وعنف العلمانيَّة مسألة بنيوية عميقة في طبيعة الرؤية العلمانيَّة للعالم، فهي رؤية اختزالية تختزل الوجودَ في حدود عالم الدنيا، وعليه ستعملُ على إبادة كل ما لا ينسجم وطبيعة رؤيتها للعالم، تتحول إلى عدوان، ومن ثم إلى عنف.

3 - وممَّا زادَ من عنف العلمانيَّة الاستبدالية هو فصلها للقيمة الأخلاقية عن العمل، واستبدال القيم الاقتصادية والسياسية بالقيم الأخلاقية، ما من شأنه أن يحوّل العالم إلى مجال صراع، يكون فيه البقاء للأقوى، والأقوى لا تحكمه قيمه الأخلاقية، ما سيحوِّل القوةَ إلى عنف.

4 - المرحلـة الثانية للعلمانية، هي العلمانيَّة المارقـة، والتي ظهرت في عصر ما بعد الحداثة، فإذا كانت العلمانيَّة الاستبدالية مشكلتها مع الدين وضرورة استبعاده، فالعلمانيَّة المارقة مشكلتها مع الله، وتريد تصفية حضوره حتى على مستوى صفاته وتجلِّياته.

وأمَّـا المخرج والحـل المُقترح لعلاج عنف العلمانيَّة، فإنه يكمن في المشـكلة ذاتها، وهو الإله، فخطـأ الحداثة أنها تخلَّت عن الإله لتتخلَى عن الإنسـان وهو ما صدقـه قوله تعالى: ﴿**وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُـوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ**﴾[1]، لهذا كان على الفلسفات الغربيَّة، أن تجدَ الوصلَ بكل ما يصل بالإله الحق، حيثُ إنَّ نسـيانه يُؤدِّي إلى عنف نَسْي الإنسان، وذكره يُحقق إنسانية الإنسان، وعندها تتحدّد الحرمات ولا تنتهك. وهذا الوصل يجب أن يكون بما أمر الله به أن يُوصـل، وهو عينه الولاء للأدِلاّء الحقيقيين على الله، فالعلمانيَّة في جانب منها كشـفت عن الأدلاء المُزيفين والدجَّالين، الذين يكتبون الكتاب من عند أنفسهم، ثم ينسبونه إلى الله، ويتقوَّلون على الله مـا لم يقُل، ويُحرِّفون الكلم عن مواضعه، فالكشـفُ عن الدجل، لا يعني قطع الوصل مع الله، كما فعلـت العلمانيَّـة، فانتهت إلى العنف، بل يكون بالوصل مـع الأدِلاّء الحقيقيين، الذين هم كينونات قيمية عليا، تتصفُ بالأخلاقية العظيمة، التي من شأنها أن تُغيرِّ وجهةَ التاريخ، من الهتك إلى الحفظ، ومن العدوان إلى التكافل، ومن الفساد إلى الإصلاح، وهنا سيتوقف الظلم ويُقام العدل بقائمه.

1 - الحشر:19

قائمة المراجع والمصادر

الكتب العربية

- إيغلتن، ت. (2018) الثقافة وموت الإله، ت: رجمة أسامة منزلجي، دار المدى، ط1، بيروت.
- تايلور، ت. (2019)عصر علماني، ت: نوفل الحاج لطيف، جداول للنشر، ط1، بيروت.
- سـليمان، ع. و جمال الدين، م. ون. (1999) التاريـخ الأوربي الحديث، دار الفكر العربي، ط1، مصر.
- سـميت، ك. (2017) مفهوم السياسي، ت: سومر المير محمود، مدارات للأبحاث والنشر، ط1، مصر.
- سـميت، ك. (2018) اللاهوت السياسي، ت: رانية الساحلي ياسر الصاروط، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، ط1، بيروت.
- عبد الرحمان، ط. (2017) سؤال العنف، المؤسسة العربية للفكر والإبداع، ط1، بيروت.
- فيبر، م. (1995) الأخلاق البروتسـتانتية وروح الرأسمالية، ت: محمد علي مقلد، مركز نماء القومي، ط1، بيروت.
- المسيري،ع. (2002) العلمانيَّة الجزئية والعلمانيَّة الشاملة، دار الشروق، ط1، القاهرة.

الكتب باللغة الاجنبية:

- Larousse pratique : Larousse, Italie , Juin 2003 , P 1348.
- Morin, E. (2005) introduction a la pensée complexe, Edition du seuil.

التَّوسُّعُ الأوروبيُّ وإبادة السّكَّان الأصليّين بأمريكا خلال القرنين السادس والسَّابع عشر

■ أ. م. د. ريم اليعقوبي[1]
■ أ. م. د. بوبكر أحمد[2]

ملخّص

حـاول هذا البحث، اسـتعادة الذّاكرة التَّاريخيّة التي تجاهلت الخـوض في الجرائم المُرتكبة ضدّ السّـكَّان الأصليّين لـ «أبيـا يالا»، ضمن قراءة متأنّية للأحداث التَّاريخيّة، بهدف «إنصاف» الشّـعوب المغلُوبة وإمَاطة اللّثام وكشف المُلابسات المُرتبطة بالتوسّع الأوروبي (للبرتغاليين والأسبان والإنجليز والفرنسـيين)، بأمريكا الجنوبيّة وأمريكا الشماليّة خلال القرنين 16م و17م، ونفض الغبار عن أشكال العنف، والجرائم المُرتكبة وبشاعة ما اقترفوه، والذي يُعتبر إجرامًا منظّمًا وممنهجًا ضدّ الإنسانيّة، رغم مُحاولات محوِها وإنكارها من طرف بعض الأوسـاط الاستعماريّة، ودحض الأفكار المتداولة حول أنّ مـا حصـل إنّما هو حدث طبيعي زمن الحروب، ولا يرتقي إلى مسـتوى الإبـادة الجماعيّة، وإنّما كان دفاعًا عن النّفس. لقد سـعت هذه الدّراسـة، إلى إثبات دمويّة وعنصريّة الممارسـات التي أدّت إلى إبادة الإنسـان والمـكان، فكانت الإبادة إبادات، إبادة الأعراق الأصليّـة، وتدنيس الأرض، وفتك بالسّكَّان، وتهميش الإرث الثقافي والحضاري لهذه الأمة، ومحوِه من الذّاكرة المحليّة والإنسانيّة.

الكلمات المفتاحية: التوسّع الأوروبيّ- أبيا يالا- السّكَّان الأصليون- إبادة جماعية- فظاعة ووحشيّة- انهيار ديمغرافي- محو ثقافي.

---

1 - باحثةٌ في التاريخ الحديث، وتاريخ النوع الإجتماعي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية-جامعة تونس.
2 - باحثٌ في التاريخ المُعاصر، جامعة تونس.

المقدِّمة

تطرحُ دراسةُ التوسُّع الأوروبي بأمريكا أو بـ «أبْيَا يَالاَ»[1] خلال القرنين 16م و17م، وما ترتَّب عليهِ من إبادةٍ جماعيّةٍ للسكان الأصليّين، وكذلك الكثير من الصّعوبات التي تتَّصلُ بالكشف عن الجانب المُظلم من هذا التَّاريخ، المُتميّز بارتكاب مُمارسات لاإنسانيَّة ضدَّ «الهنود الحُمر»[2]. تطرح الكثير من الاسئلة وعلامات الاستفهام

إضافة إلى ذلك، نُدرة الدِّراسات التَّاريخيَّة التي تطرَّقت إلى هذا الموضوع، التي حتَّى وإن وُجدت -خاصَّة الغربية منها-، فإنَّها غير مُحايدة وغير موضوعية، أو أنَّها لا تُوليه القدر الذي يستحقُّه من الاهتمام. إذ أنَّ أغلبها يُحيل إلى وجود إبادة جماعيَّة للسكَّان الأصليّين بالأمريكيّتين، دون أن تُقدِّم تحليلاً شاملاً ومُعمّقًا لأساليب وطرق الإبادة. في الوقت الذي تُلحُّ فيه هذه الدراسات على كون التَّاريخ الإسلامي هو تاريخُ سفكِ دماءٍ وتنكيلٍ وتهجيرٍ، مع وصف هذه الممارسات بالبربرية، وقد ألحقت بالمُسلمين ظلمًا تاريخيًّا، استند إلى مقولات الإدانة، ووصم الفتوحات بأنَّها حملات للتَّصفية العرقيَّة للشُّعوب الأصليّة، والتي ترتقي إلى جرائم ضدَّ الإنسانيّة.

يعكسُ تستُّرُ عددٍ من الدِّراسات الغربيَّة على الجرائم المُرتكبة ضدَّ السّكَّان الأصليّين «بأمريكا»، والتنصُّل من المسؤوليّة التَّاريخيّة، -بقدر ما يُبيح هذه المُمارسات ويُبرِّرها إلى حدٍّ كبيرٍ- التأثُّر بالتّقاليد الاستعماريّة، وبنظريّة المركزيّة الأوروبيّة الغربيّة، المُروِّجة لمُحوريّة الإنسانِ

1 - Juncosa, F. 1987, p.39 / «أبيا يالا» (Abya-Yala) هو الإسم الأصلي الذي أطلقته قبيلة كونا في «بَنَمَا»(Panama) وشمال كولومبيا على القارة الأمريكيّة بأكملها، وهو يعني الأرض في مرحلة النّضج الكامل، والذي اعتمده جزءٌ كبيرٌ من الشّعوب الأولى في الأمريكيّتين لتسمية الأراضي التابعة لهم.

2 - إنَّ اعتمادَ تسمية «الهنود الحُمر»، يُعدُّ مُغالطةً اقترفها كريستوف كولومبس، وقد تمَّ تبنِّيها على أنَّها حقيقةٌ تاريخيّةٌ.

الأوروبيِّ وحضارته في الكون، كما تُشَرعِنُ التوسُّـعَ والهيمنةَ على بقيّة الشّعوب والحضارات الأخرى، والمحو المُمنهج لتاريخ السّكّان الأصليّين من الذّاكرة الجماعيّة محليًّا وعالميًّا.

لذا سـنحاولُ في هـذا البحث، نفضَ الغبـار عن الذّاكـرة التّاريخيّة التـي تجاهلت جرائم الأوروبيين في حقّ السّكّان الأصليّين، والذي يُعدُّ إجرامًا مُنظَّمًا ومُمنهجاً ضدَّ الإنسانيَّة، وذلك بالاعتماد على جملة من المصادر[1] والمراجع[2].

وقد كنّا نطمحُ الاعتماد على الأرشيف والكتابات التي وثّقت التّاريخ الشّفوي، لكنّ صعوبة الاطّـلاع عليها حال دون ذلك[3]. وكذلك تحديد الظروف الاقتصادية والسياسـيّة والسـياقات العلميّـة والتّقنيّـة والثّقافيّة التي دفعـت الأوروبيين إلى اجتياح «العـالم الجديد»[4] في مرحلة أولى. وسـنتطرق في مرحلة ثانية إلى التوسُّـع الأوروبيّ باختصار، ثمّ سنتناول بالتّحليل طرقَ وأشكالَ الإبادة، وبيان فظاعتها ووحشيتها. أمَّا المرحلة الثالثة من البحث، فتتعلقُ بدراسة النّتائج الدّيمغرافيّة والاجتماعيّة المُترتّبة عن هذه المُمارسات.

1 - ظروف التوسُّع الأوروبيّ في الفترة الحديثة

لا يمكنُ فهمُ أشـكال الإبادة للسـكّان الأصليّين «لأمريكا»، دون التطـرُّق إلى الظّروف التي مَهَّدت لتوسُّع الدّول الأوروبية وبسط نفوذها على مجالات جغرافيّة جديدة من العالم في نهاية

1 - يُعدُّ كتاب الإسباني بارتولومي دي لاكاساس (Bartolomé de Las Casas) عن «مذابح الهنود الحمر» من أهمّ ما كُتب في هذا الموضوع، إذ أطنب المؤلّفُ الذي عاصر الأحداث في وصف وحشيّة المُمارسات والجرائم والمجازر المُرتكبَة ضدّ السكّان الأصليّين خلال القرن 16م. في المقابل، فإنَّ كتابَ جاك كارتييه (Jacques Cartier) حول الرّحلات التي قام بها في «الأراضي الجديدة» بكندا، تطرَّق فيه إلى دراسة عادات وتقاليد وطقوس ولغة القبائل المحليّة خلال رحلاته الثّلاثة، دون ذكر الجرائم المُرتكبة ضدّ هذه الشّعوب خلال القرن 16م.

2 - أشار الأنثروبولوجي الأمريكي روسال ثورنتون (Russell Thornton) في مؤلَّفه «الهولوكوست وبقاء الهنود الأمريكيين: تاريخ السكان منذ عام 1492»، وكذلك المؤرّخ الأمريكي ديفيد ستانارد (David Stannard) في مؤلّفه «المحرقة الأمريكيّة: كريستوفر كولومبس وغزو العالم الجديد»، إلى فظاعة الممارسات المُرتكبة في حقّ «الهنود»، وذلك في إطار دراسة الإبادة الجماعيّة للسكان الأصليّين بأمريكا.

3 - إنَّ الوثائقَ الأرشيفيّة والشّفويّة، تتطلّبُ الحضورَ إلى عين المكان للاطّلاع عليها، إضافة إلى أنّها غير مُتاحة على المواقع الالكترونيّة.

4 - العالم الجديد (Le nouveau Monde): هي تسمية شائعة في عدد من المراجع للقارة الأمريكيّة، لكن يحمل مدلولها أنّها أراضي بكر خالية من السكّان، ويجوز للأوروبيّين بكُلِّ مشروعيّة تعميرها وإرساء نظمهم السياسيّة والاقتصاديّة والدّينيّة والثقافيّة فيها.

القرن 14م وبداية القرن 15م. وقد ساهمت جملةٌ من الدوافع الاقتصاديّة والسياسيّة والدينيّة في تنظيم عدّة رحلات «استكشافية» توسُّعيّة انخرطَ فيها كُلٌّ من إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا. كما ساعدت جملةٌ من العوامل التّقنيّة والعلميّة والثقافيّة على تحقيقها.

1 - الدَّوافع الاقتصادية

مثَّلتِ الدّوافعُ الاقتصاديّةُ أساسَ «الاكتشافات»[1] أو الحركات التوسعيّة الأوروبيّة «بأمريكا»، للهيمنة على المسالك التّقليديّة للتّجارة العالميّة من ناحية، والقضاء على وساطة واحتكار التجّار العرب وتُجّار المُدن الإيطاليّة (جنوة والبندقيّة) لهذا النّشاط وتجاوزهم من ناحية ثانية.

لقد امتدَّت الإمبراطوريّة الإسلاميّة من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي، وهيمنت اقتصاديًّا على هذا المجال بفضل امتلاكها للذهب ورواج عملتها عالميّاً من القرن 8م إلى بداية القرن 11م. وكانت البضائعُ مُتنوّعةً مثل: العنبر والصّمْغ والجلود والمجوهرات والنّسيج والتُّمور والقمح، لكن أهمّها كان الذّهب والملح والعبيد[2]. إذ استقرَّ العربُ على ساحل شرق إفريقيا وصولاً إلى زنجبار وجزر القمر ومدغشقر[3]. وربطت مراكبهم الشرّاعيّة موانئ باكستان (السند) بموانئ عُمان واليمن وموانئ شرق إفريقيا. وقد عمل التجار على ترويج المنتوجات الاستوائية (القهوة والأرز وقصب السكر)، والصينية (المسحوق والورق)، كما كانوا بالإضافة إلى ذلك يتعاطون تجارة الرقيق. وقد بلغ التجَّارُ العرب في نطاق تجارتهم مع المحيط الهندي، سواحل الهند وجنوب شرق آسيا، حيث أنشأوا مراكز تجارية مُهمَّة بساحل مالابار في سيرنديب (سيلان/سريلانكا)، وامتدّت رحلاتهم إلى سوندا (الجزر الإندونيسيّة والفلبّين) والصين، حيث قاموا بجلب المنتوجات الثمينة مثل: الحرير والتوابل. وفي المقابل سيطر الإيطاليون على التّجارة البحريّة في البحر المتوسّط، الذي ظلَّ محورَ الثقل الاقتصادي العالمي قبل الاكتشافات الكبرى. فقد سخَّرَ تجار جنوة والبندقيّة الإمكانات الأساسيّة لازدهار تجارة التّوابل والمنسوجات ورواجها على نطاق واسع انطلاقاً من البحر، بعد التخلّي تدريجيًّا عن الطُّرق

---

1 - Lebrun, F. 1999, p.29 / نسوق مصطلح «الاكتشافات الجغرافيّة» المُتداولة في أغلب الدّراسات الأنتروبولوجيّة والإتنولوجيّة والأركيولوجية والتّاريخيّة والحضاريّة والجغرافيّة بكلّ حذرٍ، لأنَّ ذلك يدخلُ في إطار توسُّعٍ وغزو وتدمير واستعمارٍ أوروبيٍّ لحضارة «أبيا يالا».

2 - Lebrun, F. 1999, p.29

3 - زنجبار: أرخبيل يقعُ على ساحل شرق إفريقيا ويخضع لحكم سلاطين مسقط.

البريَّة التي تربطُ أوروبا وآسيا، خاصَّة بعد سقوط الإمبراطورية البيزنطية لصالح الإمبراطوريّة العثمانيّة. لذلك أصبحَ البحثُ عن مسالك جديدة للوصول إلى الهند والقضاء على وساطة العرب من بين الدوافع غير المباشرة للحركة التوسُّعية الأوروبيّة، خصوصاً مع نُدرة التوابل والذهب والمعادن الثمينة[1]. فمنذ أواسط القرن 15م، عرف الاقتصاد الأوروبي انتعاشةً كبيرةً بعد فترة الانكماش الطويلة التي مرَّ بها، بسبب تَحسُّنِ الوضع الصحي، وارتفاع عدد السّكّان، وتنامي الطّلب على مواد جنوب شرق آسيا والهند خاصّة التوابلِ والحرير والقطن والسكر وغيرها، المُعتمدة في إعداد الطّعام وحفظ اللّحوم وإعداد الأدوية[2].

2 - الدّوافع السياسيّة والدينية

ارتبطت الحركاتُ التوسُّعيّة الأوروبيّة أيضًا، بأسباب سياسيّة وبحملات صليبية غير مُعلنة. فقد أولى ملوك أوروبّا اهتماماً كبيراً بالرّحلات «الاستكشافيّة» وعدُّوها دعامةً لبسط نفوذ الدّولة ودعم مكانتها السياسيّة والاقتصاديّة داخليّاً وخارجيّاً. فإلى جانب ما تُوفِّرُهُ من موارد إضافيّة، جديدة كانت أوروبّا في حاجة إليها، فهي تُساهم كذلك في توسيع المجال الجغرافي للدّول بالهيمنة على مناطق جديدة. وقد شَجَّعَ ملوكُ أوروبّا هذه الرّحلات رغبةً في التصدّي للتوسُّع العثماني، خصوصًا بعد سقوط القسطنطينيّة على يد الأتراك سنة 1453، وذلك لاسترجاع ثقة المسيحيّين من ناحيّة ونشر الدّيانة المسيحيَّة في المناطق الجديدة المُكتشفة من ناحية أخرى. إذ إنَّ مُواجهةَ المسلمين لقرون طويلة، أدَّى إلى ترسيخ العقليّة الصّليبيّة لدى سكان شبه الجزيرة الإيبيريّة (الإسبان والبرتغاليّون) وكذلك الشّأن بالنّسبة للفرنسيّين والإنجليز. فلا غرابة أن تكونَ هذه الرّحلاتُ الاستكشافية التوسُّعيّة امتداداً للحروب الصَّليبيّة التي اصطبغت من وجهة نظر ملوك أوروبا بمرجعيّة دينيّة للدّفاع عن «القضايا العادلة وحماية اللَّه»[3]. وفي السّياق ذاته تعزَّزت أيضًا روح الحملات التبشيريّة لدى رجال الكنيسة، الذين تسيطر عليهم فكرة التّنصير دون اللّجوء إلى العنف، من خلال حملات التّبشير، ومن ثمّة يتأكَّدُ أنَّ الرغبةَ في ضمِّ أراضٍ جديدةٍ هو كذلك بهدف نشر «الإيمان الحقيقي»، للحدِّ من انتشار الإسلام[4].

---

1 - Thomazi, A. 1961, p.65

2 - Lebrun, F. 1999, p.29

3 - Corvisier, A. 1999, p.283

4 - Lebrun, F. 1999, p.29

وتبرز الصّبغة الدّينيّة للبعثات «الاستكشافيّة» في ما أفصح عنه كريستوف كولومبس في مُذكّراته حول رحلته الأولى لسنة 1492: قائلاً: «إنَّ سموّكم، كاثوليكيين ومسيحيين وأمراء تُحبُّون العقيدةَ المسيحية وتَتُوقون لرؤيتها تتوسُّع، وكأعداءٍ لملَّةِ مُحمَّد وكلّ الوثنيّين والهراطقة، والذين رأوْا أنَّهُ من المُناسب أن يُرسلوني، إلى الأجزاء المُسمَّاة بالإندِيز للنّظر في الطّريقة المُمكِنة لتحويلهم إلى عقيدتنا المُقدَّسة»[1].

3 - العواملُ التّقنيّة والعلميّة

لقد استفادَ الأوروبيّون من المعارف والتّقنيات[2] العلميّة والخبرات[3] الحاصلة في الشرق والصّين وخاصَّة لدى العرب، في تطوير تقنيات الملاحة البحريّة وتدعيمها وتحسينها واستعمالها. ومن مظاهر هذا التطوُّر، تصميم بناء سفن جديدة مثل سفينة الكارافيل[4]، إضافة إلى إدخال تحسينات على البوصلة والإسطرلاب وهما: من أدوات الملاحة التقليديَّة، ممَّا أتاحَ معرفةَ مواقع السُّفن ومساراتها في البحار، ورسم الخرائط والمُرشدات البحريّة، وتحديد موقع القارَّات ومعرفة الطّرقات المُؤدِّية إلى السَّواحل بطريقةٍ أفضل[5].

وكان لرواج نظريّة كرويّة الأرض التي دعا إليها بطليموس منذ القرن الثاني قبل الميلاد، أهميّةٌ كُبرى في تطوير تمثيلٍ دقيقٍ للأرض الذي أثبت إمكانيّة تجاوز إفريقيا والوصول إلى آسيا من الغرب[6].

4 - العواملُ الثقافيةُ: الطُّموحُ وحبُّ المُغامرة

لا شكَّ أنَّ الفضولَ وحُبَّ المُغامرة كانَا من بين الأسباب التي دفعت بعضَ ملوك أوروبّا والمستكشفين إلى خوض هذه المغامرة. فمنذ القرن 13م، اطّلع الأوروبيون على حضارات بلدان الشرق الأقصى بفضل «كتاب العجائب» الذي كتبهُ تاجرُ البندقيّة ماركو بولو سنة 1298، الذي زارَ الصينَ والهند والهند الصينيّة (من 1271 إلى 1291)، وأكَّدَ أنَّ هذه البلدان غنيّةٌ بالتوابل والذّهب

1 - بْرَيَر، 2004، ص 86

2 - Corvisier, A. 1999, p.283

3 - Lebrun, F. 1999, p.28

4 - Lebrun, F. 1999, p.28

5 - Thomazi, A.1947

6 - Lebrun, F. 1999, p.28

والألماس والأحجار الكريمة. وقد ساهم هذا المُؤَلَّفُ في اتّساع خيال وفضول بعض البحّارة لاكتشاف خيرات وكنوز هذه المناطق النّائية، وأغرى العديدَ منهم إلى الانطلاق في مغامرة نحو المجهول. وهكذا، فقد تأثّر الأوروبيون بالقصص الأسطوريّة التي انتشرت على مدى قرون حول هذه البلدان الشرقيّة المجهولة الغنيّة بالثروات[1]. من ناحية أخرى، تمكّنَ الأوروبيون بفضل اطّلاعهم، من خلال ترجمات العرب للعديد من المؤلّفات اليونانيّة القديمة على بعض النّظريّات وتبنّيها ونشرها، ومن أهمّها نظريّة كرويّة الأرض التي دعا إليها بطليموس منذ القرن 2 ق. م.

II. التوسُّعُ الأوروبيُّ في "أمريكا" وأشكال التّنكيل من القرن 15م إلى القرن 17م

اتَّخذَ اتّصالُ الأوروبيّين بالسّكّان الأصليّين منذ نهاية القرن 15م طابعًا توسُّعيًّاً استيطانياً، على حساب قبائل الإنكا والمايا والأزتاك المُستقرِّين بأمريكا اللاتينيّة، وقبائل الإسكيمود-ألْيوت Esquimaude-aléoute (Inuite) وقبائل ألجونكويان Algonquinne، وقبائل إيروكويان Iroqouienne[2]. بأمريكا الشّماليّة، لكن، سنحاولُ قبلَ الخوض في دراسة أشكال وطرق التنكيل والوحشيّة، تقديم نبذة عن التوغُّل الإسباني والبرتغالي والفرنسي والإنجليزي دون التعمُّق في المُواجهات الاستعماريَّة وردود فعل السّكّان الأصليّين، وسنقتصرُ على دراسة مثالين إثنيْن: التوسُّع الإسباني الذي يُعدُّ أولَ توغُّلٍ «استطلاعي» بأراضي أبيا يالا، والتوسُّع الفرنسي الذي راوح بين المبادلات الاقتصادية والعنف مع السّكّان المحليّين. فالأمر لا يتعلق بإعادة بناء تاريخيٍّ للأحداث في الأمريكيّتين خلال العصر الحديث، بل محاولة تقديم نظرة عامّة حول العلاقات التي اتّسمت غالبًا بالصِّراع والمواجهة بسبب انتهاج العناصر الوافدة سياسة أساسها القّوة والعنف لإخضاع العناصر المحليَّة والهيمنة عليها.

1 - التوسُّعُ الأوروبيُّ في «أمريكا»

لقد حدَّدَ استعمارُ الدول الأوروبية «لأمريكا» طبيعة علاقة الهيمنة على السّكّان الأصليّين، وفقًا لمنظور التفوُّق العرقي- الحضاري، إذ كان الأوروبيّون يعدُّون أنفسهم رمزَ التقدّم والإنسانية، في حين

1 - Lebrun, F. 1999, p.30

2 - El Kenz, D. 2005

كان يُنظرُ إلى السّـكَّان المحلّيين على أنّهم برابرة ومُتوحّشـون[1]، لذلك برَّروا قدومهم وتوسُّعهم برغبة نشر الحضارة الأوروبيّة والدّيانة المسـيحيّة في هذه المناطـق، مُتجاهلين بذلك حضارة وديانة القبائل الأولى في هذه المنطقة. بدأت الحملاتُ الاستعماريَّةُ الأوروبيَّة لأمريكا مع الإسبان الغُزاة، والتي ضمَّت مُختلفَ الفئات الاجتماعيّة، بما في ذلك الجنود السابقين ورجال الدّين[2]. وبدأت أولى «الاكتشافات» مع غزو كريستوف كولومبس لهايتي في 28 أكتوبر 1492، التي أطلق عليها اسم هيسبانيولا، مُعتقدًا أنّه وصل إلى الهند، وسمَّى سكانهم خطأً بـ «الهنود الحمر». وأعقبتها مجموعةٌ من الحملات الاستيطانيّة مع رحلته الثّانية سـنة 1493-1496م، وتواصلت مع بقيّة رحلاته من سنة 1498-1500 و1502-1504م، التي كانت بداية تركيز المستوطنات الإسبانيَّة والتقدُّم في عمق البلاد[3]. وقد تمكَّنَ «الكونـكيـسـتـادور» (Conquistadores) منذ مُنتصف القرن 16م وبداية القرن 17م من إحكام السـيطرة ومزيدٍ من عمليات التغلغل لاسـتعمار الجزر والمقاطعات في بحر الكاريبي وفي أمريكا الوسطى والجنوبيّة[4]. لقد نجحَ الإسـبانُ في إرساء قواعد الاستغلال الاستعماري بكُلِّ وحشـيّةٍ، مُستفيدين من دعائم قوّتهم العسكريّة المُسـتندة إلى الخيول والمدفعيّة، لإخضاع السّكَّان والاسـتحواذ على أراضي شاسعة بأمريكا اللاتينيّة وتحويلها إلى مجالات جديدة للاسـتيطان البشري والاسـتغلال الاقتصادي، مـمَّا فتحَ المجالَ لتدفُّق المُستوطنين، بدافع البحث عن الثّروة والمكانة الاجتماعيّة والسّلطة[5].

انطلقت الحملاتُ التوسُّعيّة للبرتغاليين بداية من سنة 1500م، وتمكَّنوا من الوصول إلى أمريكا اللاتينيّة، وتحديدًا إلى السّـاحل الشّرقي أو ما يُعرف اليوم بالبرازيل على يد بيدرو ألفاريز كبرال (Pedro Alvares Cabral)[6]. وتمَّت السيطرة عليها كُليّاً سنة 1540 [7]، مُتّبعًا السّياسة التوسعيّة

1 - Leforestier, C. 2012, pp.3738-

2 - Corvisier, A. 1999, p.283

3 - بْرَيَر، 2004، ص81

4 - تضمُّ جزيرةُ سان خوان، جزيرة جامايكا، جزيرة كوبا، الجانب المُسمَّى فلوريدا، مقاطعة نيكاراغوا، إسبانيا الجديدة، مقاطعة غواتيمالا، مملكة يوكاتان، مقاطعة سانتا مارتا، مقاطعة قرطاجنّة، ساحل اللؤلؤ وباريا، جزيرة ترينيداد، الساحل من باريا إلى خليج فنزويلا، من نهر يوبا باري، من ريو دي لا بلاتا، من المقاطعات الكبيرة في بيرو، من مملكة غرناطة الجديدة؛ وهي الأسماء التي استخدمها دي لاس كاساس في كتابه.

5 - بْرَيَر، 2004، ص83

6 - بْرَيَر، 2004، ص 81

7 - Boqueho,V. 2020

الوحشية نفسها تجاه السّكّان الأصليين.

أمّا بالجزء الشّمالي من «أمريكا»، فقد سعت كُلٌّ من الإمبراطورية الفرنسيّة والإنجليزيّة إلى شنِّ حملات توسُّع، أفضت إلى إخضاع قبائل الإيروكوا والهورون والسّيوكس. ولأنَّ الهاجسُ الأساسي لتنظيم هذه الحملات، كان هو الرّغبة في الهيمنة والاستغلال الاقتصادي، فإنَّ ذلك طرحَ العديدَ من الصُّعوبات والعراقيل أمام الغزاة الأوروبيين، نظرًا إلى تشتُّت وانتشار القبائل على مساحات شاسعة[1]، وهو ما دفع كُلٌّ من الفرنسيين والإنجليز خلال القرن 16م وبداية القرن 17م إلى وضع استراتيجيَّات الغزو والهيمنة بهذه المناطق، وانتهاج سياسة مُغايرة تراوح بين المرونة والقوة، مقارنة بحملات الإسبان والبرتغاليين بأمريكا اللاتينيّة.

انطلقت حركةُ التوسُّع الفرنسي منذ نهاية القرن 15م وبداية القرن 16م (1534-1608) مع حملات جون كابوت، الذي قام برحلتين انطلاقاً من بريستول لاستطلاع سواحل كندا. كما تمكَّنَ جون فيرازان (1485-1528) في عهد فرانسوا الأوّل من الوصول إلى كندا سنة 1524، التي أطلق عليها اسم «نوفا قاليا». وفي سنة 1534 تمكَّنَ جاك كارتييه من الاستيلاء على هذه الأراضي باسم ملك فرنسا[2]. وبلغ في السّنة التالية قرية "ستاداكوني" ثمَّ قرية "هوشيلاغا" اللّتان أصبحَتا تُعرفان لاحقًا مع بداية القرن 17م باسم كندا ومونريال. لكن رغم ذلك، فإنَّ جهودَ فرنسا المُتتالية لتوسيع مجالها الاستعماري آلت في النّهاية إلى الفشل في "كاب روج" (Cap Rouge) سنة 1543[3]. وعلى امتداد الحملات الثّلاث (1534 و1535-1536 و1541-1542)[4] التي قام بها جاك كارتييه للتوسُّع بكندا، والتي تلتها حركات استيطانيّة أخرى أفضت إلى الاستحواذ على أراضي جزيرة «سابل» وجزيرة «سانت كروا» وتأسيس ميناء «بورت روايال»[5].

أصبحُ الاستعمارُ الفرنسي أكثر عدوانيّة مع وصول صموئيل دي شامبلان إلى «سانت لورنس»،

1 - Corvisier, A. 1999, p.281

2 - وقد نصب على هذه الأراضي صليبًا، رسم عليه شعار زهرة الزّنبق، نُقشَ عليه «يعيشُ ملك فرنسا». يرمزُ شعار زهرة الزّنبق (fleurs de Lys) إلى الشرف والانتساب إلى مجموعةٍ أو عائلةٍ حاكمة. ويكون رسمُ زهرة الزنبق ناصعَ البياض، وهو يرمزُ أيضًا إلى شعار الملكية في فرنسا.

3 - Temdaoui, J.C., 2017, p.3

4 - Turgeon, L. 2019, p.8

5 - El Kenz, D. 2006

وإنشاء مستوطنة كيبيك على ضفاف النهر سنة 1608، إذ مثّل إنشاءُ هذه المُستعمرة بداية التأسيس الفعلي للاستعمار الفرنسي وتركيز أُسُسه على حساب قبيلة ألجونكوين[1]. لقد اتّضحت معالمُ استراتيجيّة الهيمنة الفرنسيّة بداية من هذه الفترة، إذ اقترنت بتنظيم الحملات العسكريّة من جهة، وتوقيع المُعاهدات مع السّكّان الأصليين من جهة أخرى، إضافة إلى مواصلة البحث عن طريق تجاريٍّ باتّجاه الغرب، اعتقادًا أنّهُ سيؤدّي إلى الصّين والهند. ومنذ سنة 1615، انطلقت أولى الحملات الدّينيّة إلى وادي سانت لوران، وشرّعت لممارسة العنف غير المُعلن باسم الدّين. كما كُلّفَ صموئيل دي شامبلان مُنذ سنة 1627م، بالإشراف على مشروع الاستيطان بناءً على أوامر الوزير ريشيليو، الذي عَمَدَ إلى توطين الفئات المُهمّشة بفرنسا، مثل اللّقطاء والمُجرمين والمحكوم عليهم بالسّجن والنّساء المُومسات أساسًا[2]، الأمرُ الذي يكشف النّوايا المُضمرة لممارسة العنف تجاه السّكّان الأصليين.

أمّا بالنّسبة إلى إنجلترا، فقد انطلقت حملاتها التوسعيّة بأمريكا الشّماليّة بداية من القرن 16م، حيث عرفت ثلاث رحلات: الأولى سنة 1584 بتكليفٍ من إليزابيت ملكة إنجلترا لوالتر رالي (Walter Raleigh)، والرحلة الثانية سنة 1586، والثالثة سنة 1587، لمحاولة تركيز مُستوطنات على السواحل الشماليّة. لكنَّ هذه البدايات كانت مُتعثّرة نظرًا إلى صعوبة التّعامل مع السّكّان الأصليين من قبائل الروانواك (Roanoacs) والكرواتان (Croatoans) والبوهاتان (Legrand)[3]. وقد بدأت مرحلة الاستقرار الفعلي منذ سنة 1607، على إثر تأسيس مستوطنة جيمستاون، (Jamestown) فرجينيا، اليوم على يد جون سميث «John Smith»[4]، ثمَّ تطوَّرت هذه العلاقات لتأخذَ أشكالَ مُبادلات تجاريّة قائمة على تجارة الفراء التي احتكرها التجّار والشركات، مُقابل الالتزام بجلب المُستوطنين لتطوير المُستعمرات، وتأسيس مدن- مُستوطنات مثل: كيبك (1608)، إضافة إلى بعث مراكز تجاريّة وإبرام تحالفاتٍ مع القبائل، في إطار مبادئ الماركنتيليّة، وهي استراتيجيّة فرنسيّة، راوحت بين مُعاملات بسيطة تقومُ على إظهار روح المحبّة والطّيبة للرجل الأبيض المسيحي،

1 - Temdaoui, J.C., 2017, p.3
2 - Yacoubi, R. 2012, p.588
3 - Powhatans، O.2013, p.4
4 - Turgeon, L. 2019, p.8

واستثمار طيبة السّكّان والتزاوج لبعث الطمأنينة والأمان، وصولاً إلى استعمال الحيل لبسط النفوذ وأخذ الأراضي...إلخ، وكلّ ذلك لم يقع بطريقة سلميّة، بل تمّ عن طريق توظيف القوة والعنف [1]، كما أنّ تضاربَ مصالح القوى الاستعماريّة الأوروبيَّة، دفع فرنسا إلى إبرام تحالفات استراتيجيّة مع قبائل الهورون لمواجهة قبائل الأيركواي المُعادية لها والمُتحالفة مع إنجلترا، لذلك كانت ازدواجيّة السّياسة الفرنسية في عقد التّحالفات مع بعض القبائل، وتصفية قبائل أخرى، تهدفُ إلى ضمان مصالحها الاقتصاديّة وتدعيم حضورها العسكري، استنادًا إلى التّفريق بين القبائل، الأمرُ الذي أفرزَ اندلاع حرب في سنة 1689، وضعت وجهًا لوجه القوى الاستعماريّة ومن ورائها القبائل الحليفة.

هكذا تمكّنت الإمبراطوريّات الاستعماريّة الأوروبيّة، عن طريق الغزو، من توسيع مناطق نفوذها ومجالاتها الحيويّة الاقتصاديّة والسياسيّة، ووظفت أشكالاً مُختلفةً من القوّة والعنف، اتّخذت وتيرةً تصاعديّةً، واختلفت أساليبها من منطقة إلى أخرى. فلم تكن المعاملات والعلاقات مع سكّان «أبيا يالا» على الوتيرة نفسها في الأمريكيّتين، لكنّ النتيجة كانت واحدةً، فظاعةُ ووحشيةُ الإبادة تجاه السّكّان الأصليّين.

2. مظاهرُ التعذيب والتّنكيل والإبادة الجماعيّة تجاه السّكّان الأصليّين: دلالات الفظاعة والوحشيّة

تعدُّ مظاهرُ الإبادة [2] الجماعيّة للسكان الأصليّين بأمريكا، في الفترة الحديثة، من حيث فظاعتها ووحشيتها، من المواضيع المسكوت عنها إلى يومنا هذا، فأغلبُ الدّراسات التّاريخيّة تتناولُ هذه المسألة باقتضابٍ دون التعمُّق في الممارسات اللاإنسانيّة المُرتكبة، وحتّى إن تمَّ التطرّق إليها في كتابات الإسبان والبرتغاليّين والفرنسيين والإنجليز الذين عاصروا الأحداث، فتبقى نادرة،وتتغاضى عن موضوع أشكال العنف. في المقابل، يعدُّ كتاب «تاريخ الهنود» لرجل الدّين «دي لاس كازاس» من الكتب النّادرة، إذ عاصر الأحداثَ عن قرب ونقلها كما عاينها خلال القرن 16م، فهو المصدرُ الوحيدُ الذي ذكر تصفية عشرات ملايين البشر على يد الأوروبيّين، واصفًا أعمالهم للدّوق «فيليب» أمير إسبانيا بـ«الشرور والآثام والدّمار والخراب لهذه الممالك الكبيرة»[3]. وقد فضحَ مُمارسات العنف وكشف عن بربريّة وهمجيّة الغزاة الذين كرّسوا نيَّة

1 - Temdaoui, J.C., 2017, p.3

2 - Kutlu, O., 2021

3 - De Las Casas, B. 1983, p.46

القتل والنَّهب والسَّلب، بسابق إضمارٍ وترصُّد، مُجسِّدين المقولة المنسوبة إلى فيليب شيريدان: «الهنـدي الطيب الوحيد هو الهندي الميّت»[1]، مقُولةٌ تُلخّصُ عقيدةَ المُسـتعمر الأوروبيِّ التي عملَ على ترسـيخها منذ بداية غزوه «لأمريكا»، وهي تكشـف نظرة الاسـتعلاء تُجاه الشـعوب المُسـتقرّة هناك، والتي نُعتت بالوحشيَّة والبربريَّة، مُناقضين تمامًا الوصف الذي قدَّمه دي لاس كازاس، حيث يعدُّهم بسيطين وطيّبين للغاية، يعيشون أساساً على الصّيد والزراعة، مُؤكّدًا أنّهم «مُطيعون ومُخلصُون، وهم مُسالمون لأنّهم بلا ضغينة ولا كراهيّة ولا رغبة لهم في الانتقام»[2]، بل هم (شعب) سهلُ الانقياد» (المصدر نفسه، ص74).

يحيلنا تضاربُ الآراء والمواقف حول مشروعيّة القتل والتنكيل أو إدانة ما تعرَّض له سُكَّانُ «أبيا يالا» الأوائل منذ نهابة القرن 15م وصولاً إلى القرن 17م، إلى دراسة الإبادة من منظورٍ تاريخيٍّ، وهي تشـمل ثلاثة مسـتويات: الإبادة الجماعيّة (Génocide)، والإبادة العرقيّة (Ethnocide)، والإبادة البيئيّة (Ecocide). وقد تمَّ اعتـمادُ مصطلح الإبادة الجماعيّة لأوّل مرَّة من قبل رافائيل ليمكين (Raphael Lemkin) سـنة 1944 ويشيرُ إلى فكرة المذبحة[3]. أمَّا مفهومُ الإبادة العرقيّة فقـد ظهر سـنة 1960 للدّلالة على القضاء على الجذور العرقيّـة لمجموعةٍ بشريّة، بل يمكن أن تُحيـل أيضًا إلى إبادة ثقافيّة ناجمة عن محو وطمس ثقافة ولغة مجموعة بشريّة، دون أن يهدف إلى القضاء عليها جسديّا.

ويشـيرُ مفهومُ الإبادة البيئيّة الذي ظهر في بداية الستينيات إلى تدمير النّظام البيئي[4]. في هذا السـياق، فإنَّ الاستيطان الأوروبي لم يتمّ بطرق سـلميّة، بل كان توسُّعًا قائمًا على توظيف القوّة وتكريس الهيمنة بمختلف أشكالها، إذ مثّلت سياسةُ التطهير العرقي في المُستعمرات الأوروبيّة شـكلاً من أشكال المحو والقتل طويل المدى، وهي سياسةٌ لا تقلُّ فظاعةً عن القتل الماديّ أو الاغتراب والاستلاب الثقافي[5]. وفي هذا الإطار يُعدُّ فريديريك دورال (Frédéric Dorel) أهمَّ

1 - Garrait-Bourrier, A. 2015, p.122
2 - De Las Casas, B. 1983, p.49
3 - Bellier, I.2021, p.2
4 - Bellier, I. 2021, p.2
5 - Clastres, p.2002, Vol. 8, pp. 888- 890

من أرّخ للمذابح التي عرفتها الإنسانيّة عبر التّاريخ، ومنها إبادة سكّان «أمريكا»[1].

وبالنّظـر في اتّفاقية 1948، فـإنَّ مصطلحَ الإبـادة الجماعية، هو الأكثرُ اسـتخدامًا وتداولاً للحديـث عن مذبحة الشّـعوب الأولى في أمريكا[2]. وقد تمَّ تعريفُ الإبـادة الجماعيّة من قبل منظمـة الأمم المتحـدة في 9 ديسـمبر 1948 المتُعلّقة بمنع جريمة الإبـادة الجماعيّة والمعُاقبة عليهـا، على أنَّها جريمةٌ تُرتكب بقصد التّدمير كليّاً أو جزئيًا لمجموعةٍ قوميّةٍ أو إثنيّة أو عرقيّة أو دينيّة[3]، وهو التّعريف المُعتمد في القرن 20م، والذي يُؤكّدُ ويقرُّ ويعترف بحقيقة الإبادة في حقِّ السّكّان الأصليّين لأمريكا.

لقد قـامَ التوسُّـع الأوروبي بالأمريكيّين على مُمارسـات عنيفة مُتعدّدة مـن حيث طبيعتها وأشـكالها، إذ تراوحت مسـتويات العنف والقوة من أبسـط أشـكالها (العنف اللّفظي والإهانة والشـتم والثلب واللّكم...إلخ)، إلى أقصى حالتها (التّشـويه والتنكيل والتعذيب..إلخ.)، إلى درجة أنَّ الإفراطَ في ممارسـة القوة، كان المُبررَ الأساسي لإبراز تفوّق المستعمرين الأوروبيين. فالرَّغبة في ترويض «الآخر» دفع إلى إتقان لغة السّكّان المحلّيين، ممَّا ساهم في توطّد العلاقات شـيئًا فشـيئًا، وتطوّرت المعُاملات تدريجيًا بينهما، وأصبحت المقُايضة تتـمُّ بعيدًا عن الحذر، وتحوَّلت إلى مُعاملات تجاريّة[4].. وعليه تحوَّلت هذه الاستراتيجية الاستعماريّة من الاستطلاع والتبادل البسيط للبضائع إلى رغبة في التوطّن والهيمنة والاستحواذ.

وبذلك، فإنَّ عقيدةَ الاستعمار الفرنسي – مثلاً- كانت قائمةً على الخداع الواضح منذ الاتّصالات الأولى، إذ إنَّ الاتفاقيات المُبرمة والتّحالفات لم تكن سوى ذريعة للهيمنة ومدخلاً لبسط النّفوذ على أراضي الإينو واسـتعبادهم. ولم يكن الوضعُ بأحسـن حالاً مع المُستوطنين الإنجليز[5]، إذ استمرَّ اغتصابُ الأراضي وانتهاك حقوق السّكّان الأصليّين وفرض سيادة مُطلقة عليهم[6].

وغالبًـا ما يتمُّ اللجـوءُ إلى تبريرات واهية، تعدُّ أنَّ مَا ارتُكب في حقِّ الّسـكّان الأصليّين رغم

---

1 - Dorel, F.2006, p. 5- 6

2 - Bellier, I. 2021, p. 2- 3

3 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 15- 16

4 - Turgeon, L. 2019, p. 9

5 - Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p. 53

6 - Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p. 53

أشكال المذبحة الذي بلغته، لم ترتقِ إلى مستوى الإبادة الجماعيّة، ذلك أنّها لم تؤدِّ إلى القضاء النّهـائي على تلك المجموعات، بل تندرجُ تلك الممارسـات والأفعـال في إطار تغيير عادات السّـكّان وتهيئتهم لتنمية الأراضي واسـتغلالها، وهو ما ينفي نيّةَ ارتـكاب المذابح بما يتجاوز حتّى مفهوم جرائم الحرب. لقد روَّجَ هذه الفكرة عددٌ من المُؤرّخين، مُعتبرين أنَّ الحربَ وسيلةٌ من وسـائل الإخضاع، وليس للإبادة، لأنَّ الاختفاءَ المُطلق للسكان يُمثّلُ عائقاً اقتصاديًا يحولُ دون عمليّة اسـتغلال الأراضي المُصادرة. ولذلك فقد عمدَ تشـارلز الخامس الذي سـمحَ في البداية باسـتعباد السّكّان الأصليّين سـنة 1517، إلى منع هذه الممارسة سنة 1526، حتّى يكونوا أحرارًا ويُشـكّلون يداً عاملةً طيّعةً. وكذلك الشّأن بالنّسـبة إلى البابا بولس الثالث الذي أدان في مناسبتين متتاليين سـنة 1537 استعباد السّكّان الأصليّين وأكّد حقّهم في الحريّة والملكيّة. لكنّ عدم التمسُّـك بهذا الموقف والإصرار عليه وعدم الالتزام بالنّصوص الرّسميّة على مرِّ التّاريخ، لم يكن سـوى أداةً لتبرير استغلال سـكّان «أمريكا» وتهجيرهم، ممَّا يكشفُ ازدواجيّة السّياسة الاستعماريّة، ويُؤكّدُ ضلوعَ الاستعمار الأوروبي المباشر في التّخطيط لإبادة سكّان «أبيا يالا».

ففي أمريكا الشماليّة وإلى حدود نهاية القرن 15م وبداية القرن 19م، كانت إنجلترا، والولايات المتحدة الأمريكية، وفي إطار تبرير حركات التوسُّع الأوروبي، تُروِّج إلى نظرة مُفادها أنَّ السّكّان الأصليّـين هم رمز للشّرور، وذلك لدحض فكرة الاسـتيعاب، علاوة على أنّ الأوروبيين في نيو أنجلد (Nouvelle-Angleterre)، لم يكونوا في حاجة ماسّة – إلاَّ في حالات نادرة- إلى استعباد السّـكّان الأصليّين، بل كانوا يُريدون إجلاءهم للإشراف على الأراضي المصادرة واسـتغلالها بصفة مباشرة[1]. في المقابل، تُثيرُ الشّـهادات حول السّـكّان الأصليّين لأمريكا في القرنين 16م و17م، جـدلاً كبيراً حول عمليّـات النّهب والانتهاك والتّهجير والتّفقير والاسـتعباد والاضطهاد العرقي والثّقافي[2] دون أن تُقدّمَ تفاصيل عن فظاعة وقسـوة وعنف هذه الممارسـات، وخاصّة عن الإبادة الجماعيّة.

وفي إطار سحب المشروعيَّة للاستعمار الأوروبي، يُجيزُ جون قيناس دي سوبولفيدا (Ginés de Sepúlveda)، مُؤرِّخ الإمبراطور تشـارلز الخامس في كتابه «أسباب الحرب العادلة» (1543)

1 - Dorel, F.2006, p. 2

2 - Dorel, F.2006, p. 2

استعباد سكّان أمريكا وتحويلهم إلى الدّيانة المسيحيّة مُشيراً إلى أنَّ: «(...) هؤلاء الرِّجال الصِّغار، هم بشر مُتواضعون للغاية، يفتقدون إلى العلوم والفنون، وليس لهم أيُّ نُصب تذكاري سوى بعض اللّوحات ذات الاستحضارات غير الدّقيقة، ليس لهم قوانين مكتوبة، بل عادات وتقاليد همجيّة وبربريّة فقط، حتَّى أنَّهم يجهلون حقوق الملكيّة»[1]، ولا يُنظر إليهم على أنّهم بشر، بل فصيلٌ من «بهائم»[2] ومتوحّشون يجبُ القضاء عليهم. وعليه، يبقى بارتولومي دي لاس كاساس من بين الشهادات النادرة التي تكشف هذه الإبادة الجماعية بأدقّ تفاصيلها في كتابه: «سردٌ مُختصرٌ جدًا لتدمير جزر الهند»، الذي نُشر عام 1543، حيث يُندِّدُ بظلم هذا الاستعمار، من خلال تسليط الضّوء على قسوة مُمارسات وأفعال الغزاة الأوروبيين تجاه سكّان «أمريكا» الأوائل[3].

ويستمرُّ هذا التّعتيمُ عن حقيقة التوسُّع الاستيطاني بأمريكا فيما أفاد به مارك ليسكاربوت (Marc Lescarbot) المُحامي في البرلمان الفرنسي، والذي رافق شامبلان في رحلاته الأولى إلى كندا، إذ تجاهل في كتابه «تاريخ فرنسا الجديدة» (1609) الفظائع المرتكبة، واقتصر على وصف المُبادلات البسيطة والسّلميّة بين الفرنسيّين والسّكّان الأصليّين، مُعتبراً أنّ ذلك مثّل الوسيلة المُفضّلة للتّبادل والتّواصل والتّعارف وتقييم الآخر والانجذاب إليه، لكن باتّجاه واحد محوره الأوروبيّ-المتحضّر. ولئن عُدَّت هذه المبادلات التّجاريّة قد أثّرت في السّلوكات والممارسات المتولّدة عنها وحدّدت الطّبيعة النّفعيّة بالنّسبة إلى الطّرفين[4]، فإنّها نظرة لا تخلو من مغالطة تاريخيّة طغت على مواقف وآراء غُلاة الاستعمار لإضفاء الطّابع الإنساني السّلمي على هذا التوسُّع.

ولنا أن نستجلي حقيقةً، وهو أنَّ الاستعمارَ الأوروبيَّ كان مهوُوساً بامتلاك الذّهب وتضخيم الثّروة في وقت قصير بالاعتماد على عدّة استراتيجيّات: الاحتيال والمكر والخداع، من خلال التخفّي وراء المقايضة كوسيلة للاتّصال والتّبادل، ونسج العلاقات الوديّة وإبرام المعاهدات التجاريّة لسرقة

---

1 - Bellier, I.2021, p.2- 3

2 - De Las Casas, B. 1983, p.52

3 - كاتب إسباني (1470-1556)، شغل منصب كاهن في كوبا سنة 1512 وأسقف في المكسيك سنة 1543. اهتم «بالهنود» وأسس لهم مستعمرة زراعية. ألّف هذا الكتاب للإمبراطور تشارلز الخامس، والذي دافع فيه دي لاس كأساس عن «الهنود»، ضد سوء المعاملة، وندّدَ بالمذابح التي ارتكبها المستعمرون الإسبان. يعود تاريخ رواية دي لاس كاساس إلى عام 1541، أي بعد 49 عامًا من «اكتشاف» كريستوفر كولومبوس لجزر الهند وتأسيس الإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية في «أمريكا».

4 - Turgeon, L. 2019, p.10

أملاك السّـكَّان الأصليّين بطريقة أفضل. ولتحقيق ذلك، لجأ الغُزاة منذ بداية التوسُّع في «أمريكا» إلى ارتكاب مختلف الممارسـات العنيفة والمُهينة للسـكّان الأصليّين الذيـن كانوا يتعرَّضون إلى الجلد بالسّـوْط والضّرب بالعصيّ واللّكم والشّتم...[1]. ثمَّ تطوَّرت درجةُ العنف وأصبحت هذه المُمارسات أكثر حدّة وشرورًا وآثامًا ودمارًا وخرابًا[2] ليس من قبل الإسبان فقط، ولكن أيضًا من قبل الفرنسيّين والإنجليز، الذين ارتكبوا شتّى أنواع السّرقة والنّهب والمجازر[3].

وقد أدَانَ دي لاس كاسـاس هذه الممارسات اللاإنسانيّة، مُشيرًا إلى فظاعة الطّرق المُعتمدة للقيام بهذه الأفعال: «إنّهم يمُزّقونهم إربًا، ويقتُلونهم ويَقْلُونَهُم ويُؤْذُونَهم ويعذِّبُونهم ويُدمّرونهم بقَسوةٍ غريبةٍ ومُتنوّعة وغير معهودة لم يسـبق لها مثيل من قبْـلُ (...)»[4]. وهذه الصّورُ الدّمويّةُ يُلخِّصها دافيد اسـتنارد في إطار الحديث عن تداعيات الغزو وأشكال العنف، حيث يُؤكّدُ أنَّ المشهدَ كان: «مُخيفًا أن نَراهم يُقْلُونَ في النّار وتيّارات الدّم تطفئ نفسها، وكانت الرّائحة الكريهة فظيعةً (...). لكنّ النّصرَ بدَا ذَبيحةً حُلوةً»[5]. كما يحدث أن تتّخذَ هذه الفظائع أشكالاً أخرى، مثل الإقدام على حرق الأسرى أحياءً أو يتمُّ شِواؤهم على النَّار، وهو تعذيبٌ وتنكيلٌ يتمُّ ببطءٍ للتلذّذ بمشاهدة هذه الصّور الدّموية وآلام الأشخاص. وقد تصلُ هذه الفظائع إلى حدٍّ يُنذرُ بالخطر بالاستمتاع بتعذيب رئيس قبيلة، الذي « تمَّ ربطه (...) وأشعلوا النّار تحت قدميه حتَّى خرج نخاعه من باطن قدميه[6]، إضافة إلى استعمال الكلاب المُروَّضة في عمليات التّنكيل والتّعذيب وتدريبهم على تمزيق أجسـام الأشـخاص في أسرع وقت [7]. وفي السّياق نفسـه يواصل دي لاس كاساس إبرازَ أنَّ التّعذيبَ اتّخذَ أشكالاً مُتنوّعةً، وأنَّ ما أورده لا يُمثّلُ سوى جزءٍ من الألف ممَّا رآه وعايَنَهُ[8]. ثم يؤكد: «لقد قتلوا وأحرقُوا وشوَوْا وألقوا النّاس إلى الكلاب الشّرسة»[9]، وأُجبر السّكَّان على العمل القسري[10]، مُضيفًا:

1 - De Las Casas, B. 1983, p.64
2 - De Las Casas, B. 1983, p.46
3 - De Las Casas, B. 1983, p.53
4 - De Las Casas, B. 1983, p.50
5 - Stannard, D.1993, p.114
6 - De Las Casas, B. 1983, pp.5455-
7 - De Las Casas, B. 1983, pp.55 -56
8 - De Las Casas, B. 1983, p.61
9 - De Las Casas, B. 1983, p.64
10 - Dorel, F.2015, p.3

«هاجموا القرية وأضرموا النّار في المنازل، وأحرقوا الأطفالَ والنّساءَ والعديدَ من الرّجال أحياءً قبل أن يعودوا إلى رشدهم. كما تمَّ استخدام المكر والحيلة لحرق 300 شخصاً من قبيلة كزاراغوَا (Xaragua) في منزل من القشّ، والباقون قُتلوا بالرّماح وآخرون بالسّيوف»[1]. لقد قتلوا من أرادوا وعذّبوا حتّى الموت من أخذوهم أحياءً لجعلهم يشيرون إلى قرى أُخرى ومناطق أخرى بها الذّهب (...)، أمَّا أولئك الذين بقَوْا أحياءً فيَسِمُون عليهم بمَيْسَمٍ من حديد شارة الرقّ»[2]، في حين أصبحَ آخرون خَدَمًا بين سنة 1514 و1522 [3].

كما عانت قبائلُ الغواراني (Guarani) والتوبيناميا (Tupinamba) بأمريكا الجنوبيّة من ويلات الغزو البرتغالي، الذي أتىَ على تدمير وإحراق الآلاف من القرى إلى درجة ترى فيها الجُثث مُتناثرة على طول الشـواطئ، تحت مُبرِّر الانتقام من المقاومة التي أبداها السّكّان الأصليين[4]. وكذلك قام المستوطنون الفرنسيّون سنة 1665 في إطار إخضاع قبائل الأيروكوا (Iroquois)، بتوجيه حملات عسكريّة واجتياح أراضي منطقة «الموهوك» (Mohawk) وإحراق القرى والمحاصيل. وتواصلت هذه الاعتداءات العنيفة وعمليات التّنكيل بالسّكّان في ثمانينيات القرن 17 (1680)[5].

وهـذه الممارسـات التدميريّـة، لم تكن تهدفُ إلى إحكام السـيطرة على أكـثر ما يمكن من المجالات الشّاسعة التي كانت مناطق جذب وإغراء بالنّسبة إلى القوى الاستعماريّة المُتنافسة، بل إلى محو الوجود البشري بهذه المناطق.

كما أشـارَ بعضُ المؤرّخين إلى تعدُّد وتنوُّع الاسـتراتيجيات المُعتمدة في المجازر المُرتكبة من قبل المستعمرين الأوروبيّين، فبعد أن أوْهَمَ المستوطنون بعض السّكّان بدعوتهم إلى وليمة، قامـوا بذبحهم، «شـكرًا لله الذي أعانهم عـلى القضاء على المُتوحّشـين»[6]. كما وصلت هذه الفظائع إلى حدِّ مُباغتة السّكّان ليلاً وأسرهم وحرق القرية بأكملها، ولم يسلم منها سوى 5 أفراد تمَّ سلخُ فروة رؤوسهم بعد القبض عليهم[7].

1 - De Las Casas, B. 1983, p.60
2 - De Las Casas, B. 1983, p.71
3 - De Las Casas, B. 1983, p.60
4 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, pp.15- 16
5 - Beaulieu, A. 1997, p.42
6 - Kutlu, O. 2021
7 - Baddeley, S. 2011

كما شـملت هذه المُمارسـات أيضًا اختطاف النّسـاء والأطفـال، ما بين 70 و80 فتـاة وامرأة[1] وعزلهم عن عائلاتهم والاعتداء عليهن بالضَّرب واللّكم والاغتصاب، ونزع أحشاء النّساء والفتيات الصغـيرات، ولم يتركوا أحدًا على قيد الحياة ولم يسـلم أحدٌ من شرور أفعالهم[2]. وكما شـملت هذه الممارسـات الوحشيّة زعماءَ القبائل، و»وصل تهوُّرهم ووقاحتهم إلى درجة أنَّ قبطانًا مسيحيّا اغتصب زوجة كبير زعماء القبائل بالجزيرة». وكان المسـتعمرون الإسبان يتفنّنون في أعمال القتل والتعذيب، إذ بلغت مُمارسـات العنف ذروتها « في القرى ولم يتركوا أطفالاً ولا شـيوخًا ولا نساءً حوامل لم ينزعوا أحشاءهم ويمزّقوها إربًا، كما لو كانوا يُهاجمون الحِملان». كما أصبحوا يتسلَّوْن في التّنكيل بالأشخاص: «لقد راهنوا على من سيقطع الرّجل بسكّين، واختطفوا الأطفال الرضّع من أمّهاتهم وأمسكوهم من أقدامهم وضربوا رؤوسهم بالصّخور وألقوا بآخرين في الأنهار (...) وصنعوا مشـنقة طويلة، حيث تـكاد الأقدام تُلامس الأرض في مجموعات مـن ثلاثة عشر لتبجيل وتكريم المولى والرّسـل الإثني عشر، وأشـعلوا النّارَ فيهم فأحرقوهم أحياءً. وقام آخرون بربط أجسـادهم بالكامل بالقشّ الجافّ وإشعال النّار فيها، وهكذا أحرقوهم. أمَّا من أراد النّجاةَ بحياته فقد تمَّ تقطيعُ أيديهـم وهم أحياءٌ»[3]، وتمزيق البعض الآخر إلى أشـلاء، والقبض على من حاول الهرب من هذه المذابح وتحويلهم إلى عبيد[4].

ويُصوِّرُ روسـال تورنتون ردودَ الفعل على فظاعة التّنكيل بالسّـكّان الأصليّين، بعد أن تحوَّلوا إلى غرباء في أراضيهم مُهدّدين في وجودهم والموت المحتوم يُهدّدهم: « أنا مجروح، ومِن قبل مَـنْ، مِن قِبل البيض أنفسـهم الذين كنت اعتبرهم، وأعاملهم دائمًـا كإخوة، لا أخشى الموت يا أصدقائي. أنت تعرف ذلك، ولكن أن أموت ووجهي مُشوَّه، حتى الذئاب سوف ترتدُّ برعب عند رؤيتي (...). استمع جيدًا إلى ما يجب أن أقوله، لأنها ستكون المرة الأخيرة التي تسمعني فيها»[5].

---

1 - De Las Casas, B. 1983, pp.54- 55

2 - De Las Casas, B. 1983, pp.72- 73 / بالنسبة إلى بعض القبائل، يُعدُّ قتلُ «إيرا» (Ira) (الاسم الذي يُطلقُ على النساء لدى بعض القبائل)، علامة على القسوة والوحشية البغيضة بين الرِّجال، نظرًا إلى مكانة المرأة/الأمّ في هذه المجتمعات.

3 - De Las Casas, B. 1983, p.55

4 - De Las Casas, B. 1983, p.64

5 - Thornton, R. 1987, p.99

ومن هنا أصبح «الهنود» يُفكِّرون في طرد المسيحيّين من أراضيهم»[1]، وعندها قام البعضُ من الأهالي بمطاردة الغزاة ومحاولة البحث عن زوجاتهم وبناتهم وحماية ذويهم[2]. لكن يُقرُّ دي لاس كاساس، أنَّ ردودَ الفعل على هذه الفظائع نادرةٌ لأنَّها تُؤدِّي إلى أفظع منها، لأنَّ قتل مسيحيٍّ واحدٍ يترتّب عنه قتل مائة شخص من السّكّان[3].

لقد أدّت المذابحُ والمجازرُ التي قام بها الغُزاة الإسبان إلى فرار السّكّان ولجوئهم نحو الشّمال والجنوب[4] ونحو شواهق الجبال والغابات الكثيفة خوفًا من البطش والظّلم المُسلّط عليهم. لكن المؤكّد أنَّ عنفَ هذه الأفعال وقساوتها، أدَّت في النّهاية إلى تجريدهم من أراضيهم وجميع ثرواتهم: «وهكذا أخذ المسيحيّون من ‹الهنود› الأراضي التي كانت لهم والممتلكات التي كانت تدعمهم»[5]. لقد قامت استراتيجيّة الغُزاة الإسبان على شنِّ حروبٍ قاسيةٍ ودمويّةٍ ضدّ السّكّان الأصليّين، ممَّا سمحَ لهم باستعمار الجزر وتنصيب أنفسهم أسياداً عليها ومالكين لها[6]، فقد كانوا أوّل من استوطن جزيرة اسبانيولا (Hispaniola) بعد تصفية الجزء الأكبر من سكانها وإجلائهم ضمن استراتيجيّة قائمة على التّدمير ثمّ التّهجير[7]. كما شهدت نيكاراغوا (Nicaragua) المصيرَ نفسه من الدّمار والقتل والاستعباد النّاجم عن التوحّش الأوروبي[8]. ثم كان يُعمدُ إلى عزل النّساء والفتيات والأطفال وتقسيمهم إلى مجموعاتٍ على المستوطنين واستخدامهم كعبيدٍ في الحقول. في حين كان يتمُّ إرسالُ الرّجال للعمل في مناجمِ الفضّة بالمكسيك والأرجنتين والذّهب بالبيرو، إذ كان «يُقيّد العمال بالسّلاسل في أعناقهم حتّى لا يتركوا الأحمال الثقيلة التي على ظهورهم. وقد يُضطرُّ إلى قطع أعناقهم في حالة التّعب أو

---

1 - De Las Casas, B. 1983, pp.54 - 55

2 - De Las Casas, B. 1983, pp.72- 73

3 - De Las Casas, B. 1983, p.56 / لا نُبالغ إذا اعتبرنا التّشابُهَ الكبيرَ بين ما حدثَ من إبادة «بأمريكا» وما يحدثُ من إبادة بقطاع غزَّة إثر انطلاق «طوفان الأقصى» في 7 أكتوبر 2023، إذ تجلّت الرّغبة الانتقاميَّة الصّهيونيّة في تصفية (إلى حدِّ يوم 18 جانفي 2024) ما ينوف عن 30 ألف قتيل فلسطيني وأكثر من 60 ألف جريح بغزّة انتقامًا لفقدان 1400 إسرائيلي. سؤالنا هل ستتوقّفُ آلةُ الحرب الانتقاميّة الصّهيونيّة عندما يبلغ عدد القتلى الفلسطينيّين 140 ألف بترتيبات الغُزاة الإسبان بأمريكا اللاتينيّة في القرن 16م (قتيل واحد من الغُزاة مقابل 100 قتيل من السكان الأصليّين)؟

4 - De Las Casas, B. 1983, p.71

5 - De Las Casas, B. 1983, p.76

6 - De Las Casas, B. 1983, p.52

7 - De Las Casas, B. 1983, p.54

8 - (De Las Casas, B. 1983, p.74

الإصابة أو السّقوط بسبب الجوع والإجهاد والضّعف والمرض، حتّى لا يتكلَّفوا عناءَ فكِّ قيودهم»[1] ومارسوا ضدّهم كُلَّ أساليب الازدراء والتّجويع، فكانوا يُقدِّمون لهم الأعشاب تشبيهًا لهم بالحيوانات، ويحرموهم من الأكل حتّى يجفَّ الحليب في أثداء النّساء اللاتي ما كنّ يَلِدْنَ حتّى يموت الأطفال بسرعة بسبب الإهمال، وأحيانًا تضطرُّ المرأةُ إلى قتل طفلها لتأكلهُ بسبب الجوع[2].

كما أُخضع النُّسوة العاملات في المزارع، والرِّجال في المناجم إلى السُّخرة، بعد أن تمَّ تقييدهم بالقوة وإرغامهم على العمل، وكانوا يموتون من الإرهاق والجوع، في حين يُقتلُ كُلُّ من يحاول الفرار[3]. وبذلك فَقَدَ المحلّيون حرّيتهم، وأصبحوا يعانون أشدَّ أنواع القمع والعبوديَّة وأكثرها قسوة، ممَّا خلَّف آلاف الضّحايا وتهجير وإخلاء التجمُّعات السّكَّانيّة والاستحواذ على أراضيهم وممتلكاتهم، بحيث لم يبقَ أيُّ أثرٍ أو علامةٍ على وجود سكّان في هذه المناطق[4].

نستنتجُ إذن، أنَّ السّياسة القمعيّةَ التي توخّتها كُلٌّ من إسبانيا والبرتغال وفرنسا وإنجلترا، لا تختلفُ في أساليبها وفي غاياتها التّدميريّة، رغم أنَّ عدداً من المؤرّخين يعدُّون أنَّ الاستعمارَ الإسباني أكثر وحشيّةً، والاستعمارُ الفرنسي أكثر لينًا من الاستعمار الإنجليزي[5]. وفي حقيقة الأمر نقفُ على انتهاج استراتيجيّة التّخريب والتّعذيب والحرق والسّرقة والاستعباد والقتل نفسها في كُلٍّ من الأمريكيّتين. وهكذا قامَ الأوروبيُّون بإبادة الشّعوبِ الأصليَّة بالأمريكيّتين منذ بداية القرن 16م وصولاً إلى القرن 18م، بدعم من دُوَلهم، متّخذين الدّين غطاءً لهم. ولذلك فقد مثَّلَ المُقدّس مطيّة لهذا العنف الشّديد، والدَّافع الأساسي لارتكاب الفظائع والمجازر، ومُبررًا «أخلاقيًّا» لسياسة التعسُّف والقتل والتَّنكيل.

لقد تأسَّست الإبادةُ والتَّطهيرُ العرقي[6] للسكّان الأوائل لأمريكا في المنظور الأوروبيّ على منطق الاستعلاء والتفوُّق الحضاري والثَّقافي والعرقي مُقارنة بالأجناس الأخرى. وهذا التّصنيف يكشفُ الجانبَ العدائي في شخصيّة الغازي الأوروبي وتجذُّرُ النّزعةُ الإقصائيّةُ[7] في سلوكاته

1 - De Las Casas, B. 1983, p.75
2 - De Las Casas, B. 1983, p.76
3 - De Las Casas, B. 1983, p.62
4 - De Las Casas, B. 1983, p.73
5 - Delâge, D.2002, pp. 1343- 1344
6 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216
7 - El Kenz, D. 2005

ومُعاملاته. ووفقًا لهـذا التصوُّر تجرُّد الأوروبيّين من كُلِّ الضّوابط الأخلاقيّة والإنسـانيّة للقيام بهذه الممارسات الانتقاميّة والوحشيَّة التي أخذت أشكالاً مُختلفةً من التَّعذيب والتَّنكيل، مسَّت الإنسانَ في كينونته (الذبح والحرق وتقطيع الأعضاء والسلخ وانتزاع الأحشاء والتّجويع...إلخ)، وانتهكت الأرضَ (تدمير القرى وحرقها وسلب الأراضي وتقسيمها وتكوين مُستعمرات لاستيعاب المُهاجرين الجُدد...إلخ)، ودمَّرت الطّبيعة (تدمير أساليب الحياة عن طريق الاستغلال المُفرط، للـثروات الطبيعيَّة الحيوانيَّة والبحريَّة والمنجميّة..إلخ.). وحُوصرت الثقافة (التغريب التّهجين والمحـو والدَّمج في الثَّقافة الأوروبيَّة). وبذلك أدَّت هذه المُمارسـات اللاإنسـانيّة إلى الإبادة الجماعيّة المُمنهجة لسـكان «أبيا يالا»، وإلى طمسِ هويَّتهـم الثّقافيّة والحضاريّة التي لازالت من المواضيع المسكوت عنها.

III. نتائج الإبادة: بين المرويّ والمسكوت عنه

1 - النتائج الدِّيمغرافيّة

اختلفت التقديراتُ لعدد السّكّان الأصليين للأمريكيّتين خلال الفترة الحديثة إلى حدِّ التّضارب، إذ يُقدِّرُ كُلٌّ من «فريديريك دورال» و»ريجيس دوبراي»، أنَّ العددَ الإجمالي لسكان «أمريكا» قبل الغزو (1492) بحوالي 100 مليون نسمة[1]. في حين يذهبُ كُلٌّ من «بوركولدر» و»جونسون» (Burkholder and Johnson) إلى أنَّ العددَ يتراوحُ بين 35 مليون 45 مليون نسـمة (بْرَيَر، 2004، ص410)، بينما يُقدِّرُ «ريكارد» (Richard) أنَ العددَ لا يتجاوز 20 مليون نسمة و»هوربون»(Hurborn)، يُحدِّدُهُ بـ 15 مليون نسمة[2]. ويذهب كُلٌّ من مارسـال قرندان (Marcel Grondin) ومويما فيزار (Moema Viezzer) أنَّهُ تمَّت إبادةُ 18 مليون نسمة قبل القرن 17م من سكان أمريكا الشماليَّة[3].

وتُؤكِّـد دراسـةُ هذه المجموعة من الأمثلة عـن الإبادة، تباين الأرقام وتذبذبها. فعلى سـبيل المثال؛ قُدِّرَ عددُ سكّان «جزيرة هيسيانيولا» (Hispaniola) مع وصول كريستوف كولومبس سنة 1492 بحوالي 300 ألف نسـمة، - وهو رقمٌ ضخمٌ مُقارنة بمـا أورده بقية المؤرخين- ثمَّ بدأ هذا

---

1 - Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56

2 - بْرَيَر، 2004، ص410

3 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216

العددُ في الانخفاض الحادِّ ليصلَ إلى 50 ألف نسمة سنة 1510، ثمّ تقلَّصَ إلى 16 ألف نسمة سنة 1530، ولم يبق إلاَّ 1000 نسمة سنة 1540 [1].

أمَّا المثال الثاني فيتعلّقُ بأمريكا الشَّماليَّة، فإنَّ عددَ السّكَّان حسب تقديرات كُلٍّ من جيمس موني «James Mooney» وهنري ف. دوبينز «Henry F. Dobyns»، قد انخفضَ من 7 ملايين نسمة قبل الغزو الأوروبيّ إلى 375000 نسمة سنة 1900، أي بنسبة انخفاضٍ حادٍّ قُدِّرَ بحوالي 94 % [2].

ويُرجعُ العديدُ من المؤرِّخين هذا الانهيارَ الدّيمغرافي، إلى المذابح التي ارتكبها المستوطنون الأوروبيُّون، وإلى الإبادة المُنهجة للجنس البشري على امتداد خمسة قرون، والتي ذهب ضحيتها ما يقارب 100 مليون من السّكَّان الأصليّين في النّصف الغربي من الكرة الأرضيَّة، حسب تقديرات المؤرِّخ الأمريكي ديفيد ستانارد (David Stannard) في كتابه «المحرقة الأمريكيَّة: كريستوفر كولومبس وغزو العالم الجديد».

ووفقاً لما ذكره، عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي راسل تورتنون (Russell Thornton) في كتابه «الهولوكوست وبقاء الهنود الأمريكيين: تاريخ السّكَّان منذ سنة 1492»، أدَّت الحروبُ إلى إبادة حوالي 12 مليون من السّكَّان، بين سنة 1492-1900 [3].

وتبقى الإبادةُ حقيقةً تاريخيَّة، لا يمكن إنكارها - رغم اختلاف التقديرات-، إذ إنَّ الأوروبيين تسبَّبوا في القضاء على أغلب السّكَّان الأصليّين للأمريكيّتيْن، حيث إنَّ الخسائرَ البشريَّةَ المُترتبة عن الغزو الأوروبيّ خلال الفترة الحديثة تُعدُّ مُهمَّة، فحسب مارسال قراندان تصلُ إلى ما بين 90 % و95 % من الضحايا الذين تمَّت إبادتهم والقضاء عليهم إثر الحروب الوحشيَّة، وعمليات القتل العشوائي ومناهج التَّنكيل والاستعباد والتَّجويع، واستراتيجيَّات التّهجير القسري وآليَّات النَّهب وطرق الاستغلال الفاحش والتّفقير[4]، وهذا ما يُؤكِّدهُ جون كريستوف تمداوي (Jean Christophe Temdaoui)، من أنَّهُ لم يتبق من السّكَّان المحلّيين سوى 5% [5].

تُعدُّ هذه التقديرات مُقتضبةً ومُتضاربةً حول تحديد نسبة الإبادة السّكَّانيَّة بالأمريكيّتين، لكن

1 - Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56

2 - Dorel, F.2015, pp.2- 3 ; Debray, R. 1991, pp. 51- 56

3 - Kutlu, O. 2021 ; Thornton, R. Vol. 186, 1990, pp. 51- 56

4 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p.216

5 - Temdaoui, J.C., 2017, pp.10- 11

رغمَ ذلك، يبقى كتابُ دي لاس كاساس، أهمَّ المصادر التي تمُيطُ اللّثام عن عدد الضّحايا لكُلِّ قبيلةٍ، دون أن يكشفَ لنا عن المصدر الذي استقى منه هذه المُعطيات. ومع ذلك فهي تظلُّ من بين الشّــهادات النادرة عن هذه الإبادة الجماعيَّة في القرن الســادس عشر. حيث يُقدِّرُ أنَّ عددَ الضحايــا قد تجاوزَ 12 مليون رجل وامرأة وطفل في جــزر الأنتيل (Les Antilles)، وتمَّ تقريبًا القضاء على سكان جزيرة كوبا (L'île de Cuba) بالكامل، في فترة لا تتجاوز تقريبًا 50 سنة[1].

وبحســب دي لاس كاساس، مات أكثر من ســبعة آلاف طفل في هذه الجزيرة[2]، إضافة إلى القضاء على أربعين ألف شخص[3]. وهكذا دمّر المسيحيون الجزيرة بأكملها وأخلوا سكانها[4]. كما أشار إلى أنّه لم يتبقّ من سكّان جزيرتي سان خوان (San Juan) وجامايكا (La Jamaïque)، ســوى عدد قليل لا يتجاوز 200 شــخص في كلّ منهما، بعد أنْ كان العدد الإجمالي للســكّان بهما يتراوح بين 600 ألف ومليون نســمة[5]. كذلك الشّــأن، بالنّسبة إلى المقاطعات التابعة إلى نيكاراغوا، التي أُبيد بها أكثر من 800 ألف شخص على أيدي الإسبان. وتواصلت عملياتُ الإبادة والاستئصال لما تبقَّ من السّكّان إلى حدود سنة 1553 [6].

وتذهبُ أغلبُ الدّراســات التّاريخيّة، إلى أنَّ وحشيّةَ الإنسان الغربي وممارساته الفظيعة، لم تكن السَّــببَ الوحيدَ في الانهيار الدّيمغرافي لســكان أمريكا، بل تتبنَّى الطَّــرحَ الذي يقول: إنَّ تفشِّي الأمراض السّــارية مثل الطّاعون والجدري[7]، والأوبئة الوافدة مع الأوروبيّين، كانت سببًا في تسريع نســق الانهيار الحادّ لعدد سُكّان «أمريكا» الأوائل[8]. وهو ما أكّدهُ دي لاس كاساس، مُعترفًــا أنَّ وحشــيّةَ الوافدين لم تكن العاملَ الوحيــدَ المُفسِّر للإبادة، بل يذهــبُ إلى اعتبار أنَّ «الهنودَ يموتون بسهولةٍ شديدةٍ بسبب أيِّ نوعٍ من الأمراض»[9]، فقد سهَّلت الحملات التوسعيّة

1 - De Las Casas, B. 1983, p.49
2 - De Las Casas, B. 1983, p.67
3 - De Las Casas, B. 1983, p.70
4 - De Las Casas, B. 1983, p.68
5 - De Las Casas, B. 1983, p.70
6 - De Las Casas, B. 1983, p.72

7 - بْرَيَر، 2004، ص102

8 - Grondin, M. Viezzer, M. 2022, p. 216
9 - De Las Casas, B. 1983, p.49

«الاتّصال الجسدي والفيروسي»، ويرى «أنَّ الاختلاطَ بين السّكَّان الذين يتردّدون على الإسبان في أثنـاء عملهم في المنزل يُصابون بأمراضٍ شـتَّى مجهولة لديهم، ولا تحُول مناعتهم الطّبيعيّة دون مُقاومتها وانتشـارها، على غرار الأنفلونزا والحصبة والجدري والزهري...»[1]، وهو موقفٌ يتعارضُ مع ما أفاد به في وصفه لمظاهر التعذيب والتنكيل.

في المقابل، يُؤكِّدُ هذه الفكرة جملةٌ من المؤرِّخين، وعدُّوها المُحدِّدَ الوحيدَ المُفسِّرَ للكارثة الدّيمغرافية التي عاشها سكان «أمريكا»، وأكدوا أنَّ «الظّروفَ التي سهَّلت من آثار الأوبئة المرُوِّعة التي جاء بها الأوروبيّون والأفارقة. (...) تلك الأوبئة الجديدة، التي لم يكن السّكَّان المحلّيون مُحصَّنين ضدها، أدَّت، أكثر من أيِّ سببٍ، إلى نِسَبٍ فلكيّةٍ في الوفيات (...) وكان وباء الجدري والحصبة مصدر القتل الأساس»[2].

لقـد أظهرت بعـض الأبحـاثُ، أنَّ وصولَ جملـة الأمراض المذكـورة، كانـت وراءَ اختفاء مُجتمعات بأكملها خلال بضع سـنوات، إضافة إلى انتشـار الجراثيم على البضائع المتُاجر بها (الأدوات والأواني الزجاجيّة)، وعلى الحيوانـات (الأبقار والخنازير والدّواجن)، وكذلك على الطّفيليّات. ففرضيّة الصّدمة البكتروبيولوجية المتأتّية من أوروبَّا، كان تأثيرها مباشرًا على السّكَّان المحلّيين الفاقدين للمناعة ضدَّها[3]، من ذلك مرض الجدري في بلاد الإنكا (1525)، والتيفوس في المكسـيك (1546)[4]، و كذلك الأنفلونزا (1558-1559)، والحصبة في المكسيك (1530)، والنّكاف والخُناق منذ أكتوبر1492. وجميعها عُدَّ من العوامل الرَّئيسة « في اختفاء ملايين الأفراد الذين لم يفهموا الوضع الجديد، واعتقدوا خذلان آلهتهم التقليديَّة، الأمرُ الذي سـهَّلَ تسليمهم إلى عمل المُبشِّرين»[5].

وإمعانًا في هذا التوجُّه، عُدَّ رجلُ الدِّين الإسباني «فراي توريبيو» أنَّ ما أصابهم، إنَّما هو ابتلاءُ الله بسبب «وثنية السّكَّان المحلّيين»[6]، ولدرء هذه الخطايا والآثام وجب تنصيرهم وتعميدهم.

---

1 - De Las Casas, B. 1983, p.49

2 - بْرَيَر، 2004، ص102-103

3 - Dorel, F.2015, p.4

4 - Dorel, F.2015, p.3

5 Dorel, F.2015, p.4

6 - بْرَيَر، 2004، ص 97

غير أنَّ عددًا من المؤرِّخين يجزم أنَّ عمليّةَ التّهجير القسْري للسـكّان إثر الحروب التي خاضها الأوروبيُّون ضدَّهم وظروف العمل القاسية والتّجويع[1]، والسُّخرة التعسُّفيّة وما تبِعَها من مجاعة وسـوء التّغذية والكـوارث الطّبيعيَّة، التـي كانت تقضي على المحاصيل بأكملهـا[2]، و«الضرّر النّفسي» هي التي أثّرت وأضعفت «من عزيمة السّكّان في العيش والتناسل»[3].

2 - النتائج الثّقافيّة

كان من تداعيات الحركة التوسُّعيّة للاستعمار الأوروبيّ خلال القرنين 16م و17م «بأمريكا»، القضاء على ثقافة «المتُوحّش»[4]، وهو التوصيف الشّـائع والمُتداول الذي يُطلقُ على السّـكّان الأصليّين، تحقيراً لهم ولثقافتهم «البدائيّة» و«التقليديّة»، كما يُجرِّدهم من صفة الإنسانيّة وينزلهم منزلة الحيوان، الذي يحتاج إلى التّرويض والتّدريب، لذلك قامت الحركاتُ الاستيطانيّةُ الأوروبيّة على منهجٍ يهدفُ لطمس الخصوصيّة الثقافة والمرجعيّة الحضاريّة للسكان الأصليّين من جهة، وفرض الثقافة الأوروبيّة «المُتفوّقة» وترويجها بين السّكّان الأصليّين من جهة ثانية، ودفعهم إلى اعتناق الدّيانة المسيحيّة[5].

هذه النّظرةُ تعدُّ الأوروبي محور الحضارة الإنسانيّة، وتُحقِّرُ وتزْدَري في المقابل ثقافة الآخر، مُتجاهلة بذلك الثقافات والحضارات ما قبل الكولومبيّة المتطوّرة لقبائل الأُولمك والمايا وتُلتك وأزْتيك والإنـكَا[6]. إذاً، وبدافع الهيمنة وتثبيت فكرة مركزية الحضارة الأوروبيّة وتفوُّقها، مُقارنة بحضارة «أبيا يالا»، قام المبُشِّرون ورجال الدّين أساسًـا بدعم من الكنيسـة الكاثوليكيّة بالدَّور الأساسي في عمليّات التّهجين التعسُّفيّة والاستيعاب القسري للسكّان الأصليّين في صلب الثقافة والحضارة الأوروبيّة.

بالنسـبة إلى الأوروبيين الذين اسـتقرُّوا في «العالم الجديد»، أصبحَ من الضروري لهذه الأمم

1 - بْرَيَر، 2004، ص 82
2 - بْرَيَر، 2004، ص102
3 - بْرَيَر، 2004، ص102-103
4 - Hirsch, S. Moisan, S. p.14
5 - Hirsch, S. Moisan, S. p.5
6 - بْرَيَر، 2004، ص 82

أن تتخلّى عن حالتها البدائية (الحالة الطبيعة)، لتُحقِّقَ التقدُّمَ في مستوى العادات ونمط العيش والمعرفة والأفكار، بغرس القيم وأساليب الحياة الأوروبية فيهم، من أجل إخراجهم من حالتهم «الوحشية» و«البربرية»، وذلك عن طريق: انتهاج سياسة تُفضي إلى تغيير المُعتقدات الدّينيّة، أو باعتماد العزل والفصل والاستيعاب عن طريق التعليم أو المُؤسَّسات التعليميّة، كوسيلة لاحتواء السّكّان وإخضاعهم اجتماعيًّا وثقافيًّا، وفي هذا السِّياق اضطلعت البعثاتُ البروتستانتيةً والكاثوليكية، التي نظَّمتها الإمبراطوريّات الاستعماريّة بالتّزامن مع البعثات العسكريَّة، بالدّور البارز في دمج السّكّان الأصليّين في الثقافة الأوروبيَّة[1]. وقد تمّت الاستفادة من جهود المبشّرين لتدمير ثقافة السّكّان الأصليّين ومحوها من ذاكرة الشعوب الأصليّة.

ففي المُستعمرات الكنديَّة وأمريكا الشَّماليَّة، عمل التُّجَّارُ والمُبشِّرون الفرنسيُّون على نسج علاقات قائمة على التّحالف والتّبادل التّجاري مع السّكّان الأصليّين، ممَّا مهَّدَ الطّريقَ إلى اعتناق الكثير منهم الدّيانة المسيحيَّة، عن طريق البعثات التبشيريّة المُتعدّدة التي تُنظِّمها الكنيسة، والتي كان يُشرفُ على إدارتها المُبشِّرون في المحميّات للتشجيع على اعتناق الدّين المسيحي والتعرُّف على الثقافة الأوروبيّة.

وهذا النشاط نجدُ لهُ صدىً أيضًا في المُستعمرات الإنجليزيّة، التي كُرست فيها الجهود على إضفاء الطابع الثقافي[2]. لقد تأسَّسَ العملُ لنشر نمط العيش والثقافة الفرنسيّة على نظرة دونيّة تحطُّ من منزلة الثقافة المحليّة، وعلى اعتبار أراضي السّكّان الأصليّين، أراضي مُتوحّشين يغيبُ فيها التنظيم السياسي والهرمي والعائلي[3]. وهذه النّظرة كانت تُجيزُ لهم القيام بفعل التحضرُّ والتّثقيف دون مُراعاة للاختلاف الحضاري الثقافي.

كما قامت عملياتُ الاستيعاب، عن طريق آليَّة تدمير البيئة الاجتماعيَّة والثقافيَّة والدّينيّة، بالعمل على استبدال المرجعيّة الأصليّة للسكان بالمرجعيَّة الأوروبيَّة، لا سيّما عن طريق التّبشير والتّنصير عن طريق اتّباع نظام المحميّات، الذي يضع السّكّان الأصليّين تحت سلطة ورقابة مُؤسَّسات دينيّة أو لائكيّة، خاصّة ممَّن اضطرَّ إلى الالتحاق بهذه المراكز بعد أن فقد أراضيه وأملاكه، ممَّا أدَّى تدريجيّاً إلى فقدان الخصوصيّة الثقافيّة واللغويّة، وهذا النّظام مثّل شكلا من

1 - Leforestier, C. 2012, p.38

2 - Jaenen, C.J. 2007

3 - Temdaoui, J.C., 2017, p.4

أشكال الاندماج القسري في «أمريكا» الشّماليّة[1].

لقد كانــت عمليّات الاختراق الثقافي قويّة بالنّظر إلى تنامــي حضور العنصر الأوروبي بهذه المجالات، وهو ما أدَّى تدريجيًّا إلى تدعيم ثقافة المُستعمر وهيمنتها على حساب الثقافة الأصليَّة للسكّان الأصليّين. فلم يكن الأمرُ هنَا، يتعلّق بغزو الأرض والهيمنة على مجالات شاسعة فقط، بل بغزو الذّاكرة الثقافيّة[2]، وتفكيك ثقافة هذه الشّعوب تمهيدًا للاستيعاب والدَّمج الثقافي.

ومن أهمِّ أســاليب الهيمنة والســيّطرة، محو الذَّاكرة وتغييب الشواهد والعلامات والمُميِّزات والصــور الثقافيّة من ذاكرة المُجتمع الأصلي، وهو ما يُفسِّرُ الآثارَ المأســاويَّةَ النّاتجةَ عن الغزو الثقــافي الأوروبيّ للشــعوب الأصليّة. فالاســتيلاءُ عــلى الأراضي ارتبطَ إلى حــدٍّ كبيرٍ بدوافع ثقافيّــة- دينيّــة، مُعتبريــن أنَّها أراضي مُشــاعة وغير مأهولة. ووفقــاً لهذا المبــدأ، فإنَّهُ يجب أن تخضعَ للمســيحيّين[3]، مماَّ يُبينُّ أنَّ العنفَ الذي لحق بالأرض، سيمتدُّ تأثيرهُ إلى السّكَّان وإلى ثقافتهم. فلم يكن التملُّكُ والامتلاكُ ســوى تمهيدًا لعمليات الاستيعاب ومُبرِّرًا للهيمنة الثقافيَّة على السّــكَّان. وهي سياســةٌ أشــبهُ ما تكون بعمليّة اجتثاثٍ من الأرض، ومحوٍ للإرث الثقافي والحضاري.

خاتمة

لــئن أفضت حركاتُ التوسُّــع الأوروبيِّ إلى الانتهــاك والتّنكيل والقتــل والحرمان ومصادرة الأراضي، فإنَّ هذه الممارســات، لم تكن ســوى وجهاً من وجوه الإبــادة الجماعيَّة المُنهجة، بــل مهَّدت الطّريق إلى الهيمنة والإخضاع الكلّي والقسري، وإلى الإدماج والاســتيعاب الثقافي والحضاري للســكّان الأصليّين. ويمكن مُعاينةُ آثار هذه الممارسات اليوم، في صعوبة تأسيسِ معرفةٍ حقيقيّةٍ لتاريخ وحضارة ســكّان «أبيا يــالا» الذي وقع تغييبه وتجاهله على مرِّ التَّاريخ، بل والانتقال به من التّهميش إلى النّسيان، ولم يبق منه سوى ما اختمرَ في الأذهان عن تاريخٍ دمويٍّ خلّدته الذّاكرة الإنسانيَّة في الرِّوايات المُتداولة.

1 - Dorel, F.2015, p.9

2 - Ross-Tremblay, P. Hamidi, N., 2013, p.52

3 - Samson, J.C. Vol. 5, 2008

لقد اعتمد منهجُ الإبادة العرقيّة الثقافية لسـكّان «أبيا يالا»، على المنبع السياسي والإيديولوجي نفسه، وهو مرجعيّةٌ استعماريّةٌ، يمكن أن تُقرأَ في مُختلف السيِّاقات والأحداث التَّاريخيّة، على أنَّها «جريمة إنسانيّة»، رغم أنَّ العديدَ من الدِّراسات والأبحاث المُتحمِّسة والمُناصرة للعقيدة الاستعماريَّة لازالت إلى اليوم تُبرِّرُ الغزوَ والقتلَ باسم الحضارة والتمدُّن، ومُقاومة الوحشيّة والبربريّة.

ولا شكَّ أنَّ هذا الانحيازَ والتّعتيم، يفتحُ جدلاً تاريخيًّا وبحثيًّاً حول حقيقة الجرائم والفظائع التي ارتكبها المُستوطنون، منذ السّنوات الأولى من الغزو والتّوسُّع «بأمريكا»، ومن ثمّ الكشف عن التَّاريخ الدّموي للاستعمار الأوروبي الذي لا زال إلى اليوم، يتنصَّلُ من المسؤوليّة التَّاريخيّة والتّدميريّة لمجتمعات وحضارات عريقة.

ولا يخفى في هذا السِّـياق مُخلّفات التدخُّل العسـكري الاستعماريّ واسـع النّطاق في العراق وأفغانسـتان، وغيرهما من الدُّول، والانحياز إلى تبرير عمليّات القتل والتّدمير العشـوائيّ والإبادة الجماعيّة للفلسطينيّين. أليس هذا تاريخ الدّول الأوروبيّة، التي تتفاخرُ بقيم الحرّية والعدالة وحقّ الشّـعوب في تقرير مصيرها، أليس هـذا التّواطؤ يجعل الهيمنةَ والاسـتعبادَ والاسـتغلالَ والظلمَ والانتهاكَ وخرق المُعاهدات والاتفاقيات، سمة مُميّزة للتاريخ الاستعماري، الذي يجعل الإدانة دون مُستوى الإبادة والجرائم المُرتكبة ضدّ الإنسانيّة. أليس هذا ما يجعل القوانين والتشريعات الدوليّة تصمتُ في هكذا مسائل، مثل الحقوق والحرّيات وحماية الأعراق والدّيانات والثقافات المُختلفة!؟

إنَّ الإبادةَ في مضمونها، إباداتٌ مُتنوّعةُ الأشـكال ومُتزامنة الأوقات ومُتراصَّة الغايات، تعمَدُ كُلُّهـا إلى الإيذاء المادّي والمعنوي- الرَّمزي لمجموعاتٍ بشريّـةٍ أحالتها الظُّروف إلى هوامش التَّاريخ والمجال. غير أنَّها لا تمُحى من الذّاكرة الجماعيَّة للشّعوب المعنيّة، مهما حالت آليَّات «المُتفوِّق-المُبيد» وأدواته إلى رميها طيّ النّسيان.

وفي هذا الإطار، لنا أن نتساءلَ، لماذا أغلبيّة شعوب ودول أمريكا اللاّتينيّة تدعمُ الحقَّ الفلسطينيَّ في تقريـر المصير، وتُطالبُ بوقف العدوان في غزّة، والذي ارتقى إلى مُسـتوى الإبادة الجماعيّة. هل يعود ذلك إلى مُجرَّد وعي النُّخب والقيادات السياسـيّة التقدُّميّـة ببوليفيا وفنزويلا وكولومبيا والبيرو والشيلي وغيرها؟ أم لاستبطان شعوب تلك القارّة للمجازر المُقترفة ضدَّ الفلسطينيّين كتلك المجازر والإبادة الجماعيَّة التي تعرَّضت لها أثناء الغزو والتوسُّع الأوروبيّ في القرنين 16م و17م؟

المراجــــع والمصادر

المراجع باللّغة العربية:

■ بْرَيَر، م. (2004)، الكتاب المقُدّس والاستعمار الاستيطاني: أمريكا اللاتينية، جنوب إفريقيا، فلسطين، ترجمة أحمد الجمل وزياد منى، ط.2، قُدْمُس للنّشر والتّوزيع، دمشق، سوريا.

المراجع باللُّغة الأجنبيّة:

■ BADDELEY, S. (2011). « Le récit de l'île du Massacre Jacques Cartier, Discours du voyage fait par le capitaine Jacques Cartier (15341545-) », La Clé des Langues Lyon, Ens de Lyon/Dgesco (ISSN 21077029-), Consulté le 222024/01/. URL: https://cle.ens-lyon.fr/anglais/litterature/litterature-britannique/le-recit-de-voyage-a-l-epreuve-des-langues-le-cas-des-recits-de-voyage-de-jacques-cartier-15341545--

■ BEAULIEU, A. (1997). Les autochtones du Québec: des premières alliances aux revendications contemporaines, Coperation musée de la civilisation, Editions Fides, Québec.

■ BELLIER, I. (2021). « Les peuples autochtones face au génocide, à l'ethnocide, à l'écocide », 17. p. URL : https://gitpa.org/web/Bellier%20Genocides.pdf.

■ BOQUEHO, v. (2020). « XVIe-XVIIe siècle : Espagnols et Portugais à la conquête de l'Amérique», in hérodote.net, URL : https://www.herodote.net/Espagnols_et_Portugais_a_la_conquete_de_l_Amerique-synthese-488.php , mis en ligne le 092020/05/.

■ CARTIER, J. (1598). Discours du voyage fait par le capitaine Jacques Cartier aux terre-neufves de Canadas, Norembergue, Hochelage Labrador et pays adiacens, dite nouvelle France, avec particulieres mœurs, langage et ceremonies

des habitans d'icelle, ed., de l'imprimerie de Raphaël du Petit Val, Librairie& imprimeur du roy, à l'Ange de Raphaël, Rouen.

■ CLASTRES, P. (2002). « Ethnocide », in Encyclopaedia Universalis, vol.8, Paris, pp. 888890-.

CORNELIUS, J. (2007). « Relation entre les autochtones et les français », in, Encyclopédie Canadienne, URL : https://www.thecanadianencyclopedia.ca/fr/article/relations-entre-les-autochtones-et-francais

■ DE LAS CASAS, B. (1983). Très brève relation de la destruction des Indiens, ed., La Découverte/ Maspero, Paris.

■ DEBRAY, R. (1991). Christophe Colomb, le visiteur de l'aube. Paris, La Différence.

■ DOREL, F. (2015). « La thèse du «génocide indien»: guerre de position entre science et mémoire», in Amnis, (13p.), URL: https://www.researchgate.net/publication/28219750

■ El Kenz, D. (2005). Le massacre, objet d'histoire. Paris, Gallimard, coll. Folio histoire, 557 p.

■ GARRAIT-BOURRIER, A. (2015). « Du génocide « éprouvé » à l'ethnocide affirmé », Témoigner. Entre histoire et mémoire, n°120, pp.122136-. URL : https://doi.org/10.4000/temoigner.2185

■ GRONDIN, M. VIEZZER, M. (2022). Le génocide des Amériques : Résistance et survivance des peuples autochtones, Traduction du portugais (Brésil) par Yves Carrier, avec la collaboration de Raymond Levac, Préfaces de Ailton Krenak, Jacques B. Gélinas, Les Éditions Écosociété, Quebec, pp. 1516-.

■ Hirsch, S. Moisan, S. « Le génocide des premiers peuples au canada », 31p. Étudier les Génocides, URL : https://oraprdnt.uqtr.uquebec.ca/pls/public/docs/

GSC1022/O0004063090_01_04_A_Genocide_des_Premiers_peuples_FRA.pdf

■ JUNCOSA, F. (1987). « ABYA-YALA: Una edictorail para los indios », in Chasqui, n°23, pp.3942-.

■ Kutlu, O. (2021). « États-Unis: une Histoire à l'enseigne des massacres et des génocides», Traduit de l'Anglais par Mourad Belhaj, URL: www.aa.com.tr/fr/monde/états-unis-une-histoire-à-l-enseigne-des-massacres-et-des-génocides/226198

■ Kutlu, O. (1987). « États-Unis: une Histoire à l'enseigne des massacres et des génocides » , Thornton, R. American Indian Holocaust and Survival: A Population History since 1492, Vol. 186 of Civilization of the American Indian series, University of Oklahoma Press, Social Science, 292 p.

■ LEBRUN, F. (1999). L'Europe et le monde XVIe, XVIIe, XVIIIe siècle, Ed., Armand Colin, 4ème Ed., Paris.

■ Leforestier, C. (2012). L'assimilation des indiens d'Amérique du Nord par l'éducation: une étude comparative, Education, Université Michel de Montaigne, Bordeaux III, 2012. Français. 477p., NNT: 2012BOR30005. URL: https://theses.hal.science/tel-00730946/document

■ LEGRAND, O. (2013). « Le mystère de Roanoke: un supplément pour le jeu de rôle SOLOMON KANE », Inspiré de l'œuvre de Robert E. Howard, 14 p. URL : http.//solomonkane.free.fr/ROANOKE.pdf

■ ROSS-TREMBLAY, P. HAMIDI, N. (2013). « Les écueils de l'extinction Les Premiers peuples, les négociations territoriales et l'esquisse d'une ère postcoloniale», la revue Recherches Amérindiennes au Québec, XLIII, n° 1, pp. 5157-.

■ SAMSON, C. (2008). « The Rule of Terra Nullius and the Impotence of International Human Rights for Indigenous Peoples », in Essex Humane Rights

Review, vol.5, n°1, Huly, pp.112-, URL : https://repository.essex.ac.uk/17961//terra_nullius_ehhr_2008.pdf

■ STANNARD, D. (1993). American Holocaust, Columbus and the Conquest of the New World, Oxford University Press.

■ Temdaoui, J.C., (2017). « L'Amérique du Nord française (XVIIe-XVIIIe siècle)», in Licence. Hal Open Science, France, 12p. URL: https://shs.hal.science/halshs-03090644/document.

■ Thomazi, A.(1947). Histoire de la navigation, Collection «Que sais-je ?», Ed. p.U.F., Paris, 128 p.

■ Thornton, R. (1987). American Indian Holocaust and Survival. A Population History since 1492, Norman, University of Oklahoma Press.

■ TURGEON (Laurier), (2019). Une histoire de la Nouvelle-France : Français et Amérindiens au XVIIe siècle, Ed, Belin, Paris.

■ Yacoubi, R.(2012). La marginalité féminine à Aix-en-Provence au temps de Louis XIV, Thèse de doctorat en histoire moderne occidentale, Sous la direction de Hassen El Annabi, 2 Tomes, Faculté des Silences Humaines et Sociales de Tunis, Tunis.

الإرهابُ والتَّطرُّف بأوروبا في القرون الوسطى

■ أ.د. راغدة محمد المصري[1]

ملخّص

يشـهدُ العالمُ اليوم معاناة الشـعب الفلسـطيني، في ظلِّ صمتٍ رهيبٍ، وغياب للمنظمات الدولية والحقوقية، وغربة للقيم الإنسانية، لما تتعرض له غزة من مجازر وحشية وإبادة جماعيّة، وتنفيـذ الصهاينة جرائم حربٍ بكلّ مـا للكلمة من معنى، مع صمت بل ودعم غربي. وإذا أردنا أن نعرفَ الخلفية الإجراميّة لهذا السـلوك، كيف تشـكّل، لا بدّ أن نتعرفَ على البيئة السّياسـيّة التاريخية لأوروبّا، فهذا سيُساعدنا على فهم الدور الغربي الداعم للإرهاب والتطرُّف الصَّهيوني.

سـنحاول في هذه الدراسة، تسليط الضوء على التطرُّف والارهاب في أوروبا خلال العصور الوسـطى، باعتماد المنهج التاريخي الموضوعي، من خلال عرض وتحليل مشـاهد لأحداث تاريخية حصلت في أوروبا خلال الحقبة الوسـطى، ورسـم صورة لجذور الإرهاب والتطرُّف، ورفـض الآخر في تلك الحقبة، وهنا تطرح الإشـكالية الآتية كيف رسـمت الحـروب الدِّينية، ملامح تاريخ أوروبّا الوسطى، وتركت بصمتها الإرهابية الدموية في تاريخ البشرية إلى اليوم؟

وبعد ذلك سـنطرح السـؤال التالي، هل كانت تلـك المحطات التاريخيـة الدموية، خلفية حقيقية لمشروعات الاسـتنارة والوطنية والسّـلم العالمي؟ أم كانت حلقة من حلقات الإرهاب والتطرُّف العالمي الذي نشهده اليوم؟

الكلمات المفتاحية:

التطرُّف- الإرهاب- الجرمان- الفرنجة- البابوية- محاكم التَّفتيش.

1 - كلية الآداب والعلوم الإنسانية في الجامعة اللبنانية.

مقدِّمة

إنَّ مـا يجري اليوم في العالم، مـن مجازر وإجرام وحشيّ بحقِّ شـعبٍ احتلَّت أرضه، واغْتُصبت مقدساته، في غزة - فلسطين - حيث، بُيوت تُهدم، وأطفال ونساء وشيوخ يتعرضون لمجازر وإرهاب شـبيه بتلك التي حصلت في أوروبا الوسطى، فما الرابط وما أوجه التشابه بينهما؟ لقد عاشت أوروبا في العصور الوسـطى تاريخًا أسودًا من الانقسـامات، عرفت فيها أنواعًا من الحروب الدِّينية، وكلها باسم الإنجيل، من هذه الحروب: حروب المذاهب الدِّينية المرعبة بين الكاثوليك والأرثوذكس، وبين الكاثوليك والبروتستانت، التي استغرقت زمنًا طويلاً، بالإضافة إلى الحروب الصّليبية التي استهدفت المشرق العربي، وقد اتّسع هذا الإرهاب ليشمل كُلَّ من خالف عقيدتهم وفكرهم.

ستُظهر هذه الدراسة، ملامحَ من تاريخ الوحشية والتطرُّف الذي ساد فتراتٍ طويلةٍ من تاريخ أوروبا خلال العصور الوسـطى، وذلك من خلال اسـتعراض أثر الغزوات البربرية عـلى بنية المجتمعات الأوروبية، ومعالجة الأحداث التي جرت في الدولة الميروفنجية و حروب الفرنجة، والعلاقة الشائكة بين البابوية والدولة الكارولنجية، من أجل رسـم صورة لجذور الإرهاب والتطرُّف، ورفض الآخر في تلك الحقبة، وهنا تطرح الإشـكالية الآتية، كيف رسـمت الحروب الدِّينيـة، ملامحَ تاريخ أوروبا في القرون الوسطى، وتركت بصمتها الإرهابية الدموية في تاريخ البشرية إلى اليوم؟

المبحث الأول: الكنيسة والتحوُّلات الاجتماعية والسّياسيّة بأوروبّا في العصور الوسطى

أطلـق المؤرّخون مصطلح العصور الوسـطى على المرحلة التي تفصل بـين انهيار الإمبراطوريّة الرُّومانيّة وبين ما عُرف باسـم عصر النهضة، وتعدّدت الآراء وتعارضت إلى حدِّ التباين حول تحديد السّنة أو الحادثة التي تدلُّ على بداية عصور وسطى، كانت فيها أوروبا قابعة في ظلمة جهل، وعاشت فيها سلسـلة من الحروب الطّويلـة و الّصراعات الدموية، التي فتكت، ليـس بالمجتمعات الأوربية

فقط، بل بجماعات وشعوب أخرى. في تلك الفترة لم يكن هناك أي فصل بين الدولة والكنيسة التي مارست نفوذها الدِّيني وسلطتها، على مكونات المجتمع المتعدد الأعراق والديانات، وكان شعارها هو حماية الدِّين المسيحي ونشره ومحاربة الهرطقة.

أولًا: غزوات القبائل الجرمان البربريّة

إنَّ المدخـلَ الطبيعيَّ لدراسـة التاريخ الأوروبي في العصور الوسـطى، يبدأ باسـتعراض أحوال الشّـعوب المختلفة التي أثَّرت في تاريخ أوروبا القديم والوسـيط، منهـا الإمبراطوريّة الرُّومانيّة التي شكَّلت رمزًا للحضارة الأوروبية القديمة[1].

ولا ننـسى قبائلَ الجرمان البربرية المُتعددة، الذين كان لهم الدّورُ الأكبرُ في تاريخ أوروبا الوسـيط، حتَّى بدايات العصر الحديث[2]، بالرَّغم من الفوارق في التَّباين الحضاري الكبير الذي لا يمكن مقارنته بـين حضارة ونظم روما والقبائل البربريّة. فكلَّـما ازداد تأثير القبائل في المجتمع الأوروبي زاد التَّراجع الحضاريّ للشُّعوب. واستمرَّ هذا الأمر حتَّى القرن الثالث عشر، حيث لم يبقَ فى أوروبا حضارة سوى بقايا إرث الرُّومان الحضاري، فجاءَ التَّاريخُ الأوروبيّ في العصور الوسـطى مزيجاً من حضارة الرُّومان وثقافة العناصر البربريَّة التي اجتازت حدودَ الدَّولة الرُّومانيّة، واستقرَّت داخلَ أراضيها واختلطت بأهلها.

لقـد انقسـمت الإمبراطوريّة الرُّومانيّة بعد انهيارها إلى قسـمين: الغربي والشرقـي، وعُرفت فيما بعد بالإمبراطوريّة البيزنطيّة، جاء ذلك بعد الاعتراف بالمسـيحية من خلال مرسـوم ميـلان عام 313م. وكان السّببُ الرئيس والمباشر لسقوط الإمبراطوريّة الرُّومانيّة - كما ذكرنا - غزوات البربر (الجرمان)، حيث بدأت هذه الغزوات تضربُ الإمبراطوريّة من الشّـمال، ومن الحدود الشَّرقية، وصولاً إلى إيطاليا، وقد صاحبَ ذلك، انحلال سـياسيّ وانهيار اقتصاديّ واجتماعيّ، كما انتـشر الطَّاعون الذي فتك بالنَّاس، إضافة إلى أسبابٍ أخرى أجمع عليها بعضُ المؤرخين، ساهمت في سقوط الإمبراطوريّة الرُّومانيّة، منها[3]:

- التفكّك الإداري.
- الخلل المالي.

1 - برستيد، 1945، ص488

2 - ديفز، 1958، ص27

3 - يوسف، 1984، ص54

- تمركز القوّة الحقيقيّة للدّولة في أيدي العناصر الجرمانية المرتزقة.
- الأخطار الخارجية المتمثلة بالخطر الفارسي والبرابرة الجرمان.
- انحطاط الزّراعة والتجارة والصّناعة.
- انغماس الرُّومان في حياة التَّرف و الملذَّات.
- الاختلافات الحضاريّة واللغويّة والمذهبيّة بين شطري الإمبراطوريّة.
- اقتباس روما والغرب من الدّيانات الشَّرقيّة.
- ظهور المسيحيَّة واعتناقُ الرُّومان لها.

ثانيًا: الدولة الميروفنجية (481 – 751) (Merovingsم) و حروب الفرنجة – (The Franks Wars)

تعدُّ الفرنجة، من أهــمِّ قبائل الجرمان الفاعلة التي تركت بصمةً قويــةً في الحروب المُتعددة التي شــهدتها أوروبا في العصور الوســطى، وموطن الجرمان الأصلي اسكندنافيا، وسواحل بحر البلطيق وشــمال (أوروبا)، اشــتهروا بعد انتشــارهم وســط وغرب أوروبا[1]. وقد انقســموا-بعد هجرتهم من موطنهم الأصلي في القرن الثاني الميلادي، إلى وسط وغرب أوروبا- إلى قسمين: الفرنجة الشّرقيين (الريبواريون)، والفرنجة الغربيين (السّــالين)[2]. ثــمّ تحالفَ الفرنجةُ في موطنهم الجديد على حدود الإمبراطوريّــة الرُّومانيّة، مع هذه الإمبراطوريّة التي منحت زعماءهم بعض الامتيازات لحماية حدود الإمبراطوريّة من غارات السكسون[3].

وقد تأثــرَ الفرنجةُ بالنظــم الرُّومانيّة الأكثر تحضُّرًا، بالرغــم من احتفاظهم بعاداتهــم القبلية التي وضعتهــم موضع ازدراء الرُّومــان، كونهم برابرة، حيث اندمجوا تدريجيًّــا بالمجتمع الرُّوماني، وكان لهم تأثيرٌ في الكيان الاجتماعي للإمبراطورية، الذي بدأ يزدادُ على حساب الضعف في الإمبراطوريّة، فانحسرَ الرُّومان في إيطاليا، التي لم تســلم من هجمات القبائل (البربرية)، ممَّا مهَّد لسقوط روما في عام 476م، وهذا ما سمح بازدياد نفوذ الفرنجة.

وقد تعزَّزَ دورُ الفرنجة، بعد تولّي كلوفس (481م–511م) Clovis واعتناقه المسـيحية الكاثوليكية

1 - ديفز، 1984، ص27

2 - العريني، 1968، ص122 – 123

3 - Grant , A,J. 1927, p227

وتحالفه مع البابوية للدفاع عنها، وقد ساعدت الظروف السّياسيّة آنذاك كلوفس على توسيع رقعة دولته وتقويتها، فوحَّدَ غالة، ثمَّ مدَّ نفوذه إلى وسط أوروبا وراء نهر الراين[1].

رافق توسُّعه السياسي والعسكري نشر المسيحية بين القبائل الجرمانية الوثنيَّة، وتحالفَ مع الأساقفة وعملَ على حماية المُبشرين في غالة وجرمانية، فجاءت جهوده (أداة الله) لخدمة المسيحية، حيث نالَ تأييدَ البابوية، القوة الجديدة التي خلفت الإمبراطوريّة بعد سقوطها، وبذلك حصل على اعتراف الإمبراطوريّة البيزنطيّة صاحبة الشرعية السّياسيّة به.

بعد موت كلوفس (511م)، أصابت الدولة الميروفنجية الانقسامات، ومع مجيء ملوك ضعفاء، برزت قوةٌ سياسيةٌ جديدةٌ (رئيس البلاط)، حكمت الممالك التي انقسمت إليها الدولة الميروفنجية[2]، من أشهرهم بيبن الثاني هرستال (ت714م) Pepin of Herstal رئيس بلاط مملكة استراسيا، الذي وحَّدَ المملكةَ، وجعلَ المنصبَ وراثيًا في عائلته، وكان ملكًا غير مُتوَّجٍ، وإليه تنتمي الأسرة الحاكمة بعد الميروفنجين، وهم الكارولنجيين (م 891- 751 Carolingian Dynasty). حكم بعد بيبن ابنه شارل مارتل (714 - 741م)، ثم بيبن الثالث (القصير) (741 - 768م)، الذي لُقِّبَ بالملك (751م) بتأييد البابا بونيفاس (Pope Boniface).

ولم يمضِ على قيام دولة الفرنجة ثمانون عاماً، حتى توقفت عن التوسُّع، ودخلت في الفوضى والحروب الأهلية قرابة القرن والنصف، وظهر في هذا الدور ضعف ملوك البيت الميروفنجي من سلالة كلوفيس، وانقسمت فيه دولة الفرنجة إلى ثلاث ممالك: أوستراسيا- نستريا- برجنديا، ومن مظاهر ضعف ملوك الفرنجة في هذه الأقسام الثلاثة، زيادة نفوذ رجال الدِّين والكنيسة. واختيار نبلاء أوستراسيا زعيمهم ليتولى وظيفة رئيس البلاط في القصر الملكي، وكانت الوظيفة في أوّل أمرها متواضعة، يقوم صاحبها بالإشراف على خدم القصر ومُوظَّفيه، ولكنها بدأت تسمو حتّى أصبح صاحبها بمثابة الوزير الأول، وهكذا لم يعد تاريخ الميروفنجيين مرتبطاً بالملوك وإنما برؤوساء البلاط، وكان أبرزهم شارل مارتل Charles Martel المعروف بـ « بشارل المطرقة»[3].

تسلَّم شارل مارتل رئاسة البلاط سنة 714 ميلادية، وقد بلغت شهرته الآفاق، بعد سلسلة من معاركه الحربية، وخصوصاً بعد موقعة بواتييه أو موقعة بلاط الشّهداء، وسُمِّيت بذلك، لكثرة شهداء المسلمين

1 - روثفن،2007، ص67
2 - العريني، 1968، ص231
3 - مرسي،2006، ص17

فيها بالقرب من البلاط وهو القصر. ولم يرد في الرّوايات الإسلامية حصرٌ دقيقٌ لشهداء المسلمين في موقعة بلاط الشـهداء، إلّا أنَّ النَّصارى قالوا بانّه قُتل من المسلمين في موقعة بلاط الشهداء ثلاثمائة وخمسة وسبعون ألف مسلم، وهذا مبالغ فيه جدًا، لأنَّ جيشَ المسلمين كان خمسين ألفًا[1].

عندما جاء شـارل مارتـل إلى الحكم، وجد دولة الفرنجة في حالة يُرثى لها، بسـبب الخلاف بين رؤوسـاء البلاط من جهة والأخطار الخارجية من جهة أخرى، فقام بسلسلةٍ من الحروب لتأمين دولة الفرنجة ضد السكسون والألمانيين والبافريين والمسلمين، وجاء انتصاره على المسلمين ليجعلَ منه بطل المسيحية في الغرب.

لقد كانـت الفترة التي عاصرها تحديداً، غنيّة بالحروب الدِّينية التي اسـتمرت لعشرات السّـنين، والجدير بالذكر أنَّ الكنيسةَ كانت المسيطرة بشكلٍ أساسي على مُجريات الأمور في أوروبا في العصور الوسطى، ولم يكن نفوذها دينياً فقط، بل كان لها رؤى وقرارات سياسيّة واقتصاديّة وعسكريّة أيضاً.

ثالثاً: إيطاليا بين ثلاث قوى في القرن السابع الميلادي

كان اللومبارديون آخر الشّعوب الجرمانيّة التي اجتاحت الإمبراطوريّة الرُّومانيّة في 2 أبريل عام 568 م، بقيادة ألبوين Alboin، حيث قدَّموا رجالاً ونسـاءً وأطفالاً، ومعهم عبيدهم وماشيتهم وعرباتهم. وكان جيشُ ألبوين يضمُّ عدة عناصر من شـعوبٍ بربريَّةٍ مختلفة الطباع والنزعات وميَّالة بفطرتها إلى إحداث الفتن والفوضى، ولا يتـورَّعُ زعماؤها عن إطلاق العنان لارتكاب الأعمال الهمجيّة والنَّهب والسَّـلب، إذ كانوا عشرين ألفاً، تصحبهـم زوجاتهم وأطفالهم، وانطلقـوا في صورة هجرة عامة من بقايا بلغاريين، وبافاريين، وقبائل أخرى، غالبيتهم قبائل مسيحية على المذهب الآريوسي المُناهض للمذهـب الكاثوليكي، والبقية منها احتفظـت بوثنيتها. وقد قُدِّرَ المحاربـون بين مئة ومئة وعشرين مُحاربًا، عملوا في البداية كجندٍ مرتزقةٍ في جيوش الإمبراطوريّة البيزنطيّة، ومن ثم توحَّدوا تحت زعامة ملكٍ واحدٍ يُدعى ألبوين واستولوا على مدن ميلان وفيرونا وبافيا التي جعلوها عاصمتهم، وكان الفرقُ بينهم وبين الشّعوب الجرمانية الأخرى أنهم كانوا أكثر تعصباً لعنصرهم الجرماني، وقد انتزعوا جميعَ الأراضي الزّراعية من أصحابها وأنزلوهم إلى مرتبة التبعية[2].

1 - السرجاني، الأندلس من الفتح إلى السقوط، ج3، ص8

2 - سعيد،2013، ج1، ص152

حـاول أباطرة الدولة البيزنطيّة مواجهة اللومبارديين، وطلبوا مسـاعدة الفرنجة، لكنهم فشـلوا في ذلك، فاضطُّروا إلى توقيع معاهدة مسـالمة من اللومبارديين مقابل جزيةٍ سـنويّةٍ، وبعد ذلك، توسع اللومبارديين وأتمّوا غزو شمال إيطاليا واستولوا على الأراضي التي كان يسير عليها الإغريق، وأصبحتِ الإمبراطوريّة في القرن السابع مقسَّمة بين اللمبارديّين والبيزنطيّين والبابويّة.

لقد تعرَّضت البابوية في عهد البابا غريغوري "Gregory» لخطر اللومبارديين، الذين استولوا على الأملاك البابوية في شـمال إيطاليا وأجزاء من وسـطها، ولا بدّ من الإشارة إلى أنّه كان لبابا غريغوري "Gregory» دورًا كبيراً في تاريخ البابوية الكاثوليكية في روما، فقد اتخذت البابوية فى عهده صيغتها العالمية القوية، التى ميزتها طوال العصور الوسطى. كما قام بتنظيم وسائل الدفاع ضد اللومبارديون. وكان سبق أن فاوضهم بنفسه، وعقد معهم معاهدة صلح عام 592م، وتحالفت البابوية مع الفرنجة ضد اللومبارديين، وغزت جيوش الفرنجة شـمال إيطاليا، عام 754 ولم يستطع القائد اللمباردي أستولف "Aistulf" المقاومة، حيث حلت به هزيمة كبرى، فاضطر لتوقيع معاهدة، تعهّد فيها بإعادة الأراضي المسـلوبة للبابوية، لكنه راح يمُاطل، فقام الإمبراطور البيزنطي بمحاصرته وفرض شروط أشدّ قسوة عليه. ومن بعدها توفي اسـتولف ولم تعد للومبارديين أيّ قوّة تذكر، وغدت البابوية أكبر قوة، حيث اكتسبت سلطاناً زمنياً وروحياً حتى القرن التاسع عشر.

رابعاً: البابوية والدولة الكارولنجية

من أشهر ملوك الأسرة الكارولينجية في العصور الوسطى، شارلمان (م 814 - 768 Charlemagne)، وقد سيطرت إمبراطورتيه على أجزاء واسعة من أوروبا، حظي بدعم البابوية وتوّج من قبل البابا ليو الثالث (795 – 816 م) Leo III إمبراطوراً في سـنة 800م[1] لتظهرَ إلى الوجود الإمبراطوريّة الرُّومانيّة المُقدَّسـة.

لقـد تعاظـمَ دورُ البابويّة والفرنجة في أوروبا بعـد عملية التّتويج، لتُظهـرَ تعزيزَ مكانة روما على حساب بيزنطة، بعد إبعادها من مناطق نفوذها في إيطاليا، فكان الفرنجةُ يرون أنهم يمُثلون المسـيحيين والرُّومان معًا. كما قام شـارلمان بعدَّة معارك عسكرية ضد المسلمين في الأندلس واللومباردين والسكسون والبافاريين، ونشر المسيحية بين الأقوام الجرمانية الوثنيَّة، وقد اعتمد البابا أوربان الثاني على مكانة شـارلمان في دفـع الفرنجة أواخر القرن الحادي عشر، وقام بنشر

1 - دلماس، 1970، ص15

ثقافة الوازع الدِّيني لخدمة المسيح والكنيسة، فحثّهم على قتال الوثنيين – المسلمين- ومما قاله: « يا شعب الفرنجة... يا من اختاركم الرب وأحبكم، كما يتجلَّى واضحاً من خلال أعمالكم الكثيرة...ولتكن قصص أسلافكم العظام حافزاً يُحرِّككم ويُثير أرواحكم، صوب القوة من أمثال شارلمان وابنه لويس وغيرهما من ملوكهم الذين دمَّروا ممالك الوثنيين، ومدُّوا حدودَ الكنيسة المقدسة داخلها[1].

لم يخاطب البابا أوربان الثاني الحاضرين أمامه كونهم فرنجة فرنسا فقط، وإنما فرنجة وسط وغرب أوروبا، أي المناطق التي كانت خاضعة للإمبراطورية الكارولينجية، ويؤكد لنا ما ورد في كتاب (أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس)، أنَّ الفرنجةَ كانوا هم الغالبية العُظمى والقوة الرّئيسة من المُتوجّهين نحو القدس، تلبية لأمر البابا أوربان الثاني[2]. وهكذا يتبين أنَّ اغلبَ الذين لبُّوا دعوة البابا أوربان الثاني Urban II كانوا من سكان مناطق أفرنجية، والتي تشمل فرنسا الحالية حتى وسط أوروبا مع امتداد الإمبراطوريتين السابقتين الميروفنجية والكارولينجية، من هذا المنطلق جاء مصطلح الفرنجة في الدّراسات الحديثة للمُؤرخين المُعاصرين عند كلامهم عن مكونات الجيش المُتوجه إلى فلسطين، وعلى الرغم من ظهور بوادر التمايز بين المجموعات العرقيّة المكونة للجيش، لكنها لم تؤثّر في وحدته[3].

المبحث الثاني: حروب الفرنجة The Frank Wars

كانت الكنيسةُ تُمثِّلُ الحاكم الحقيقي لمُعظم دول أوروبا خلال القرون الوسطى. وهنا تأتي الإشكالية حوب من هو المسؤول عن الجرائم والحروب دينية التي شهدتها أوروبا، هل هم البربر؟ أم الفرنجة؟ أم العلماء والمفكِّرون؟ أم الكنيسة؟

أوّلا: المجازر الجماعيّة

جاءت الحروب الدِّينية والمجازر، تحت شعار محاربة الوثنيَّة والهرطقة، بأشكال وأساليب مُتعددة

1 - عبدة، 2001، ص78
2 - المصدر نفسه
3 - العريني، 1968، ص408

مُختلفة من: محارق جماعيّة، إلى ذبحٍ في الشّوارع باسم المسيح، نذكر منها كشواهد على سبيل المثال:

■ في عام 1209م أمر البابا أنونسنت الثالث بإطلاق حملة ضد البيجان، وقد تمَّ ذبحُ 7000 شخص في كنيسة مادلين وحدها[1].

بعد عامين حصلت جريمة كبرى في ستراسبرغ، تمَّ فيها حرق العديد من « الكُفَّار» وفق معتقدهم أحياء[2].

■ بلغت الحرب بين الكاثوليك والبروتستانت في فرنسا أشدّها وقد استمرت 40 عامًا، وثمانية حروب، وكانت ذروتها مذبحة سان بارتيليمي عام 1572، التي ذُبحَت خلالها أعدادٌ تُقدَّرُ ما بين 5 آلاف إلى 30 ألف بروتستانتي فرنسي على يد السُّلطات الكاثوليكية والمُتعصِّبين من الكاثوليك، وكان الهدفُ منها القضاء على البروتستانت تماماً[3].

كان ذلك بأوامر من الملك شارل التاسع ووالدته كاترين دي ميديشي، وترحيب من بابا الكنيسة الكاثوليكية البابا غريغوري الـ13، خوفاً من سطوة وانتشار البروتستانتية، وقد تلقَّى غريغوري الـ13 نبأ قتل البروتستانت بفرحٍ غامر، بصفته علامة على عناية الله ورحمته، وهنَّأ ملكَ فرنسا على هذا العمل الجليل الذي استأصل طاعون الزندقة من المملكة الفرنسية الطاهرة[4].

أخذَ الإرهابُ بالتمدد والانتشار أكثر فأكثر في العصور الوسطى، وازداد وحشية وإجرامًا، من خلال محاكم التَّفتيش في أوروبا، ثم حروبها الصّليبية الدِّينية ضد الشرق المسلم، للاستيلاء على بيت المقدس، وتزامن ذلك في وقت كانت الأجواء السّياسيّة مكفّهرة، مشحونة بالحروب الصّليبية ضد المسلمين، وبالكراهية المقيتة لليهود وملاحقتهم، ولا ننسى ما جرى في نهايات القرن الخامس عشر، وخصوصًا بعدما استعادت الإمبراطوريّة الكاثوليكية ممتلكاتها في إسبانيا من أيدي المسلمين، وعاملتهم بقسوة مُتناهية، وعانى المسلمون واليهود والعلماء والمُفكِّرون من أقسى أنواع الأحكام التي أصدرتها محاكم التَّفتيش الدِّينية، هذا بالإضافة إلى الإجرام الوحشي بحقّ كل من عارضهم.

---

1 - عبد الواحد، 2002، ص20

2 - موسى، 2015

3 - سوهيلة، 2013

4 - Benedict, 1978, pp. 205- 225

ثانياً: محاكم التَّفتيش 1217-1834م

تُعدُّ محاكمُ التَّفتيش وصمةَ عارٍ في تاريخ البشريّة، وفي تاريخ الكنيسة الكاثوليكيّة بصفةٍ خاصَّة. لقد أُنشئت محاكم التَّفتيش للتحقيق في الحالات المزعومة للجرائم، وقد استُخدمت محاكم الكنسية بداية من أجل مجموعةٍ واسعةٍ من الجرائم مثل: الزواج السري والزواج المُتعدد، وكانت تُعقد تحت رعايتها، كما عملت على محاربة السحرة والمشعوذين والدجَّالين الذين يُؤمنون بالغيبيات، فكانت تُصدر عليهم أحكامَ الموت عن طريق الشنق أو الغرق. ومع

تنامي سلطات الكنيسة، أصبحت محاكم التَّفتيش تابعة لها، وتعددت فيما بعد الاتهامات لكل من يعارض الفكر الكنسي، أو يدعو إلى التحرر أو الثورة والتمرُّد على ذلك النظام المُجرَّد من الإنسانية، خاصَّة مع ازدياد وعيّ العامة، ونشر نسخ من الأناجيل باللغات المحلية، ممَّا كشف للمسيحيين أنَّ ما تقوم به الكنيسة، بعيدٌ كل البُعد عن تعاليم الإنجيل الرحيمة، وكان يحقُّ لمحاكم التَّفتيش أن تُطلقَ لقبَ مهرطق أو مُبتدع على أيّ شخص تشكُّ فيه، مجرد الشك في إيمانه أو انحراف عقيدته عن تعاليم الكنيسة الكاثوليكية، ثم تفنَّنَ رجالُ الكنيسة في ابتكار وسائل للقتل والتعذيب تُعدُّ الأبشع والأفظع على مرِّ العصور مثل: الحرق ميتاً إلى النشر بالمنشار، إلى الجلوس على الخازوق.ـ أو كرسي المسامير أو الشوي داخل الثور المعدني، حيث تحمى عليه النّار، إلى السلخ حيًّا، ثم ترك جثة المهرطق في العراء لتأكلها الضواري والطيور الجارحة[1].

وقد عرَّفَ المُؤرِّخُ الفرنسي جان بابتيست غيرو (1866-1953) محاكم التَّفتيش في العصور الوسطى بأنها: «نظام الوسائل القمعية، وبعضها مؤقت والبعض الآخر من النوع الروحي، الذي تصدره في الوقت نفسه السلطات الكنسية والمدنية، من أجل حماية العقيدة الدِّينية والنظام الاجتماعي، الذين تهددهما المذاهب اللاهوتية والاجتماعية للهرطقة»، وعرَّف أسقفُ لينكولن، روبرت جروسيتيست، الهرطقة بأنَّها: «رأي تمّ اختياره من خلال التصور البشري، إذ تمَّ إنشاؤه بوساطة العقل البشري، والذي تمَّ تأسيسه على الأسفار المُقدسة، على عكس تعاليم الكنيسة، وأعلن عنه بشكل صريح ودُوفع عنه بعناد»[2].

وفي عام 1022م قام «روبرت الورع» ملك فرنسا، بحرق مجموعة من الزنادقة تقرُّبًا إلى الله، دون

1 - الحايك، 2022

2 - المصدر نفسه

أن يأسف أو يندم. وفي ميلانو عام 1028م، وفي ساسون عام 1114م، وفي كولونيا عام 1143م، قامت الغوغاء الغاضبة بالهجوم على السجون الكنسية. فأخرجوا منها الزَّنادقة وقاموا بحرقهم على الأوتاد في عام 1184م، كما أصدر البابا لوسيوس الثالث مرسومًا، استُخدمت مبادؤه فيما بعد كأساسٍ لمحاكمة الزّنادقة والكفار. من هذه المبادئ: كلُّ من يساعد أو يحمي أو يدافع عن زنديق، يلقى العقوبةَ نفسها التي يلقاها الزّنديق، بما في ذلك، فقده لحياته ومصادرة ممتلكاته.

وما فعلتهُ محاكمُ التَّفتيش الإسبانية مع من بقي من المسلمين، على أرض الأندلس ليس من ذلك ببعيـد. فعندما توقفـت محاكمُ التَّفتيش عـن مجازرها عام 1834م، كان ضحاياهـا قتلُ مئات ألوف الأبريـاء، غير الأعداد الكبيرة التي سُـجنت غدرًا وغبنًا، وعذِّبت بآلات وحشـية. وهناك مجتمعات بأكملها تمَّ تهجيرها وتشريدها، ومدن تمَّ إبادتها، والكنيسة الكاثوليكيَّة هي المسؤولة عمَّا حدث.

لقد شملت محاكم التَّفتيش، بلداناً عديدةً في أوروبا وأمريكا. ووصلت إلى المكسيك وبيرو وجزر الكناري. وقد كانت التّهمة الوحيدة "الهرطقة"، والهرطقة كلمة إغريقية، تعني رأي مخالف لما تقبله الكنيسة. وقد استخدمت لتحقيق مصالح شخصية أو سياسية[1].

لقد اسـتمرت محاكمُ التَّفتيش فترة 600 سنة، والهرطقة ليست تهمة توجه فقط إلى كل من يزدري الأديان، أو يسبُّ الآلهة أو الكنيسة أو كل ما ترمز إليه، إنما هي أيضًا تهمة عامة وجريمة لا تُغتفر.

يروي الكولونيل ليموتسـكي في مذكراته، وهو أحدُ ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا التي أرسلها نابليـون بعد أن ألغى دواوين محاكم التَّفتيش أنَّهُ: "خـلال عمليات تعقُّب بعض أفراد دواوين التَّفتيش الذين كانوا يستهدفون الجنود والقادة الفرنسيين بالقتل، طاردنا بعضهم إلى داخل أحد الأديرة، وكادت جهودنا تذهب سـدى ونحن نحاولُ العثورَ على قاعات التعذيـب. فحصنا الديرَ وممراته وأقبيته كلها، فلم نجد شيئًا يدلُّ على وجود ديوانٍ للتفتيش، وقبل خروجنا استوقفني أحدُ الجنود طالباً فحص أرضية قاعة مكتب رئيس الدير، عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنودَ أن يرفعوا السـجاجيد الفاخرة عن الأرض، وأن يصبُّوا الماءَ بكـثرة في أرض كل غرفة على حدة – وكنَّا نرقـب الماء– فإذا بأرض إحدى الغرف قد ابتلعته، فنظرنا فإذا بالباب قد انكشـف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتحُ بطريقةٍ ماكرةٍ بواسـطة حلقة صغيرة وضِعت إلى جانب رِجْل مكتب رئيس الدير. وهبطتُ درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم، فإذا نحن في غرفة كبيرة مُرعبة، وهي عندهم

1 - زكريا،2023

قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديد ضخمة، وربطت بها سلاسل لأجل تقييد المحكومين بها... وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التَّفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثمّ توجّهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض. رأيت فيها ما يستفزُ نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزُّز طوال حياتي. رأينا غرفاً صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفاً على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية مُمدَّداً بها حتَّى الموت، وتبقى الجثثُ في السّجن الضيّق حتى تُبلى، ويتساقط اللحمُ عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المُنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي... وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها. ثمَّ انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، آلاتٌ رهيبةٌ للتّعذيب، من بينها آلات لتكسير العظم، وسحق الجسم البشري. كانوا يبدأون بسحق عظم الأرجل، ثم عظم الصدر والرأس واليدين تدريجاً، حتى يُهشَّم الجسم كله، وتخرج من الجانب الآخر كتلة من العظم المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم. ثمَّ عثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تماماً، يوضع فيه رأس الذي يريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسَّلاسل والأغلال حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصّندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام، في كلّ دقيقة نقطة، وقد جُنَّ كثرٌ من هذا اللَّون من العذاب، ويبقى المُعذَّبُ على حاله تلك حتَّى يموت. كذلك عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المُعذب ثم تُشَدّ ليخرج اللّسان معها، ليُقصُّ قطعةً قطعةً، وكلاليب تُغرسُ في أثداء النّساء وتُسحبُ بعنفٍ حتى تتقطعَ الأثداء أو تُبتر بالسكاكين[1]. رغم قسوة تلك المشاهد، فإنها حقيقة عاناها مئات الآلاف عبر قرون، ورغم انتهاء محاكم التَّفتيش من عالم اليوم، فإنَّ أفكارها وممارساتها تظلُّ حيةً ومُلهمةً لعصابات الإجرام والإرهاب في عالمنا المُعاصر.

المبحث الثالث: الحروب الصّليبية Crusades

الحروبُ الصّليبيةُ سلسلةٌ من حلقة الصراع العسكري - الدِّيني، خاضته الكثيرُ من دول أوروبا ضدّ المشرق العربي والمسلمين بالتحديد، برعاية ومباركة البابوية، لترسم في طياتها العنصرية والحقد بأبشع المجازر الوحشية.

1 - البهجي، 2018، ص848

أولاً: الحروب الصّليبية والإرهاب

تبقى الحملة الصّليبية الأولى وما رافقها من ممارسات إرهابية بشعة، حاضرة في ذاكرة التاريخ رغم توالي الحروب الصّليبية عبر عقود لاحقة. وقد بدأت هذه الحملة بعد أن دعا البابا إربان الثاني (1088 - 1118)، إلى مجلس في كليرمون في 18 نوفمبر 1059، وألقى خطاباً حثَّ فيه الممالك الأوروبية على توجيه قواها القتالية لخدمة غرض مُقدَّس.

■ مذبحة القدس في 15 يوليو 1099

دخلت جيوشُ الصّليبيين مدينة القدس، وبدا واضحاً تأثير الشحن الدِّيني الذي مارسته الكنيسة الكاثوليكية، التي صوَّرت أنَّ ذبحَ المسلمين تنفيذٌ حرفيٌّ لنصوص الكتاب المُقدس ووسيلة لدخول الجنة، ولم يكن للمسلمين المحاصرين داخل القدس من هَمٍّ إلَّا الفرارَ من الجنود الصّليبيين الذين كانت تبدو عليهم علامات الوحشية، فلم يجد السكان المذعورون أملاً في النَّجاة إلَّا في الاعتصام بالمسجد الأقصى، لكن الجيشَ الصّليبي شرع في جموع المقدسيين العُزَّل ذبحاً وتقتيلاً. فقد شهد بيتُ المقدس عندما اجتاحوه في الحملة الأولى، مذبحة من أبشع المذابح التي عرفها التاريخ، حيث بلغ عدد الشهداء المظلومين من النَّاس سبعين ألفاً، حتى أنَّ الدماءَ سالت أنهارًا في المسجد الأقصى[1].

ويعرضُ المؤرخ الفرنسي ميشو في حديثه عن صور المجازر الوحشية في بيت المقدس، والتي سرعان ما صارت مذبحة عامة: ذُبح المسلمون في الطرقات وفي المنازل، ولم يعد في بيت المقدس ملجأ للمغلوبين، فبعض الذين فرُّوا من الموت ألقوا بأنفسهم من فوق الأسوار، والآخرون جروا، وجماعات يختبئون في القصور والأبراج، وبخاصة المساجد، ولكنهم لم يستطيعوا أن يفروا من أن يتبعهم الصّليبيون، أمَّا وقد صار الصّليبيون سادة المسجد الأقصى الذي دافع المسلمون عن أنفسهم حينًا فيه، فقد جدَّدوا فيه المناظر المُحزنة، دخله المشاة والفرسان، واختلطوا بالمنهزمين، وفي وسط أشنع ضوضاء، كنت لا تسمع إلَّا الأنين وصيحات الموت، لقد كان المنتصرون يسيرون على أكوام من الجثث ليتبعوا من يحاول الفرار عبثًا[2]. وينقلُ "ول ديورانت" عن شاهد عيان لتلك المذابح، القس ريمند الإجيلي" قائلا: وشاهدنا أشياءً عجيبةً، إذ قُطعت رؤوسُ عددٍ كبيرٍ من المسلمين، وقتل غيرهم رميًا بالسهام، أو أرغموا على أن يلقوا

1 - علوان،2012، ص44
2 - المصدر نفسه

أنفسهم من فوق الأبراج، وظلَّ بعضهم الآخر يعذبون عدّة أيام، ثم أُحرقوا في النار. وكنت ترى في الشوارع أكوام الرؤوس والأيدي والأقدام، وكان الإنسان أينما سار فوق جواده يسير بين جثث الرجال والخيل"[1].

ويذكر «ستيفن رنسيمان» في كتابه «تاريخ الحروب الصّليبية»، ما جرى في القدس يوم دخلها الصّليبيون، فيقول: «وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، اقتحم باب المسجد ثلةٌ من الصّليبيين، فأجهزت على جميع اللاجئين إليه، وحينما توجَّه قائد القوة (ريموند أجيل) في الضحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمَّسُ طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه، وقد تركت مذبحة بيت المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم، وليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها، غير أنها أدَّت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود، بل إنَّ كثيراً من المسيحيين اشتدَّ جزعهم لما حدث[2].

■ مذبحة معرَّة النعمان في 12 ديسمبر 1098

لم تقتصر المذابح الصّليبية على القدس، فقد كان الحقدُ والوحشية منهجاً التزم به الصّليبيون في المدن التي دخلوها، ومن المذابح التي لا تُنسى في هذا السياق أثناء الحملة الصّليبية الأولى، مذبحة معرَّة النعمان في 12 ديسمبر 1098، إذ تشيرُ معظمُ كتب التاريخ إلى أنَّ الصّليبيين قتلوا جميع من كان فيها من المسلمين اللاجئين في الجوامع والمختبئين في السراديب، فأهلكوا ما يزيد عن مئة ألف إنسان[3].

إنَّ عناصرَ تلك القوات الهمجية بقيادة ريموند دي سانت گيل وبهمند من ترانتو، أضافوا عنصراً جديداً لم ينافسهم في وحشيته أحد، فقد التهموا كثيراً من سكان المدينة وتنافسوا في شواء الأطفال! ويصفُ أحدُ الجنود الصّليبيين، واسمه رودولف دي كاين، ما حدث بالقول: "في معرة النعمان، أقدم جنودنا على غلي الوثنيين (يعني المسلمين) في القدور، وحوّلنا لحوم الأطفال إلى أسياخ لالتهامها مشوية[4].

■ الحملة الصّليبية الثالثة ومذبحة عكا

قامَ قائدُ الحملة الصّليبية الثالثة، «ريتشارد قلب الأسد» بذبح أسرى المسلمين في عكا، وذلك بعد تمكُن الصّليبيين من دخول المدينة، بعد هدنة عُقدت بين الجانبين الإسلامي والصّليبي، وكان سببُ

1 - ديوارنت، 1988، ج15، ص25
2 - رنسيمان، 1997، ج1، ص406
3 - ابن الأثير، 1997، ج8، ص240
4 - 12 ديسمبر 1098، https://www.aljazeera.net

موافقة صلاح الدِّين على عقد هذه الهدنة عدم تمكُّنه من الوصول إلى المسلمين الذين داخل عكا، وإمدادهم بالسلاح والمؤن، وكان من ضمن شروط هذه الهدنة السماح للمسلمين الذين في عكا بالخروج بأموالهم وأنفسهم، إلّا أنَّ ريتشارد قلب الأسد نقضَ العهد، وغدرَ بالمسلمين ودفع بالأسرى إلى خارج أسوار عكا، وأمرَ بضرب أعناقهم جميعاً، ونقضَ جميعُ شروط الهدنة[1].

ثانياً: الحملات الصّليبية والمشروع الصَّهيوني

إنَّ ما يحصلُ اليوم في غزة. يدفعُ بنا للتساؤل ما العلاقة بين المشروع الصَّهيوني والحروب الصّليبية؟

يُبيِّنُ المسيري أوجه التشابه بين الحملات الصّليبية والمشروع الصَّهيوني، من خلال ملاحظة عمق التَّرابط بين المشروع الفرنجي الصّليبي والمشروع الصَّهيوني الإسرائيلي، فكليهما جزءٌ من المواجهة المُستمرة بين التشكيلتين الحضارتين السائدتين في الغرب والشرق العربي. فحملات الفرنجة التي انطلقت تتوسَّع من أوروبا لبسط سيطرتهما على الخارج، احتوت كُلَّ بذور أشكال الإمبرياليّة الأوروبيّة، فأصبحت حملاتُ الفرنجة صورةً مجازية أساسية في الخطاب الاستعماري الغربي. ويرى الكثيرُ أنَّ المشروعَ الصَّهيوني هو إحياءٌ للمشروع الصّليبي، ومحاولة وضعه موضع التَّقييد من جديد في العصر الحديث. فقد ألَّفَ (سي آر. كوندر) عام 1897م- وهو صهيوني غير يهودي ومؤسس صندوق استكشاف فلسطين - كتاباً عن تاريخ المملكة اللاتينية في القدس، أشار فيه إلى أنَّ الإمبرياليةَ الغربية نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصّليبية". ويمكننا أن نقولَ " إنَّ المشروعَ الصَّهيوني هو نفسه المشروع الفرنجي بعد أن تمَّت علمنته، وبعد أن تمَّ إحلال المادة البشرية اليهودية التي تمّ تحديثها وتطبيعها وتغريبها وعلمنتها محلّ المادّة البشريّة المسيحية"[2].

ومن خلال مقارنة المسيري للحملات الصّليبية والاستيطان الصَّهيوني يلاحظ:

إنَّ كلاً من ممالك الفرنجة والدولة الصَّهيونية، بسبب طبيعتها الإحلالية خلقت مشكلة اللاجئين.

إنَّ هؤلاء اللاجئين تحولوا إلى وقود، جنّد سكان المنطقة ضدّ الدّولة القلعة.

تطرح الدّولة الصَّهيونية نفسها باعتبارها قاعدة للحضارة الغربية كلها في مواجهة العالم الإسلامي، ويشيرُ أحد الدارسين الإسرائيليين إلى أنَّه كان هناك جبايةٌ فرنجيةٌ مُوحَّدة تماماً مثل الجباية

1 - عثمان، 2022، ص11

2 - المسيري، 1998، ج6، ص131-132

اليهوديــة الموحدة، وبالنَّتيجــة "فالحركة الصّليبية في جوهرها حركة اســتيطانية"[1]، وهي حلقةٌ من حلقــات الصّراع بين الشّرق والغــرب، وهي حركةٌ كبرى نبعت من الغرب الأوروبي المســيحي في العصور الوسطى. واتخذت شكل هجوم حربي استيطاني على بلاد المسلمين، وبخاصة في الشرق الأدنى بقصــد امتلاكها، وقد نبعــت هذه الحركة عن الأوضــاع الفكريّة والاجتماعيــة والاقتصادية والدِّينية التي سادت غرب أوروبا في القرن الحادي عشر[2].

لم تخرج أوروبا من هذا النفق المُظلم، حتى انتهت العصور الوسطى بأحقابها الثلاث الطويلة، التي دامت قرابة 1500 ســنة. وعدَّ المؤرخون الأوربيون سقوط القســطنطينية عام 1453م، حدًّا فاصلاً بين العصور الوسطى والعصر الحديث، ولكن هل بدَّلَ العالمُ فجأةً العقليات القديمة بعقليَّات جديدة؟

الخاتمة

اعتمدت الحركــةُ الصّليبية على المقولة الدِّينية لتثوير الغرب الأوروبي وإثارة الدافع الدِّيني لديه، وكان شعارها تحرير البلاد المقدسة من براثن (الكفار)، امتثالاً (لإرادة الله). وهذه الحروب الإجراميّة في أوروبــا، هي التي بعثــت الحركة الصَّهيونية من ركام التاريخ، لتحمل شــعاراتها (أرض الميعاد)، و(شعب الله المختار)، و(العهد) و(صهيون)، و(يهودا) و(السامرة) و(أورشليم).

لقد تغيَّرت الأســماءُ والأمكنة والأزمنة بين العصور الوسطى والقرن العشرين ويومنا الحاضر، وتغيَّرت الرموز والشــعارات، إلَّا أنَّ الحقيقةَ تبقــى واحدة وهي: التناقض بين الغرب المســيحي من جهة، والشرق المُسلم من جهة أخرى، والذي يتجسد اليوم في الصراع بين اليهود والعرب، أو ما يُوصف بالقضية الفلسطينية.

إنَّ العدوَ الصَّهيوني الغاصب، الذي قدم إلى فلسطين، أغلب مكوّناته البشريّة من يهود أوروبا، وقد جاء حاملاً في وعيه، ثقافة الإجرام والإرهاب التي عاشــها فترات طويلة، إضافة إلى معتقداته الدِّينية الاستعلائية. لذلك، ليس بغريب عليه هذا الإجرام الذي يقوم به في فلسطين اليوم.

والحرب الحقيقيّة، مُستمرةٌ مع المسلمين منذ الفتح الإسلامي، وإن أخذت عناوينَ مختلفةً، إلَّا أنَّها ستبقى حربًا وجوديةً، بين القيم الإنسانيَّة التي تحملها شعوبنا، وقيمهم المُتوحّشة المُتجسّدة اليوم في الصَّهيونيّة.

1 المسيري، 1998، ج6، ص124
2 عاشور، 2002، ج1، ص19

لائحة المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية

■ ابن الأثير، أبو الحسن علي. (1997) الكامل في التاريخ، تحقيق عمر عبد السلالم تدمري، دار الكتاب العربي، ط1، بيروت.

■ البهجي، إ. (2018) تاريخ دولة الأندلس، مركز الكتاب الاكاديمي، ط1، عمان.

■ العريني، ب. (1968) تاريخ أوروبا في العصور الوسطى، دار النهضة العربية للطباعة والنشر،ط1، بيروت.

■ العريني، ب. (1962) مؤرخو الحروب الصّليبية، دار النهضة العربية،ط1، القاهرة.

■ المسيري، ع. (1998) موسوعة اليهود واليهودية والصَّهيونية، ط1، دار الشروق، القاهرة.

■ لغرس، س. (2013): التيارات السوسيولوجية لعلاقة الدِّين بالعنف، الديانات التوحيدية نموذجا، كلية الآداب واللغات والعلوم الاجتماعية والإنسانية، مجلة متون، جامعة سعيدة، الجزائر، العدد السابع والثامن.

■ عاشور، س. (2002) الحركة الصّليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد الإسلامي في العصور الوسطى، مطبعة الانجلو المصرية، ط1، القاهرة.

■ عبد الفتاح، س. (2013) أوروبا في العصور الوسطى، مكتبة الانجلو المصرية، ط1، القاهرة.

■ علوان، ع. (2001) صلاح الدِّين بطل حطين ومحرر القدس من الصّليبين، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، الاردن.

■ قاسم، ع. (2001) الحملة الصّليبية الأولى (نصوص ووثائق تاريخية)، دار عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية، ط1، القاهرة.

■ لؤلؤة، ع. (2002) الصوت والصدى، دراسات ومترجمات نقدية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، بيروت.

■ مرسي، م. (2006) دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس، مؤسسة الثقافة الجامعية، ط1، بيروت.

■ يوسف،ج. (1984) تاريخ العصور الوسطى الأوروبية وحضارتها، مؤسسة شباب الجامعة، ط1، الإسكندرية.

الكتب المترجمة

■ دلماس، ك. (1970) تاريخ الحضارة الأوروبية، ت: توفيق وهبة، منشورات عويدات، ط1، بيروت.

■ ديفز، هـ. و. (1958) أوروبا في العصور الوسطى، ت:عبد الحميد حمدي محمود، مشاة المعارف، ط1، الاسكندرية.

■ رنسيمان، س. (1997) تاريخ الحروب الصّليبية، ت: الباز العريني، دار الثقافة للطباعة والتوزيع والنشر، ط1، بيروت.

■ أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، القاهرة، 1958.

■ ماليز، و. (2007) الاطلس التاريخي للعالم الاسلامي، ت: سامي الكعكي، أكاديميا انترناشونال، ط1، بيروت.

■ ديوارنت، و. (1988) قصة الحضارة، ت: محمد بدران، دار الجيل، ط1، بيروت.

الرسائل الجامعية.

■ حايك، ف. (2022) اليهود ومحاكم التفيش في اسبانيا، 1478-1429م، إشراف أ. د طارق شمس. رسالة أعدت لنيل الماستر في التاريخ الوسيط، كلية الآداب والعلوم الانسانية، بيروت.

■ عثمان، ح. (2022) مذبحة تل العياضية عند عكا، الحملة الصّليبية الثالثة)27رجب 587هـ / 20 أغسطس 1191م(إشراف: أ.د. محمد مؤنس عوض كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية جامعة الشارقة- دولة الامارات العربية المتحدة.

المواقع الإلكترونية

■ السرجاني: راغب، الأندلس من الفتح إلى السقوط، منشور على الرابط: https://shamela.ws/136/book/21877

■ موسى: محمد، العذاب المقدس: نظرة في العنف الدِّيني، 28 فبراير 2015 https://www.noonpost.com/5640

■ فرنسا تشهد أكبر كارثة فى تاريخها بواقعة سان بارتيليمي، 24 اغسطس 2022.- https://www.elbalad.news/541159

■ توفيق محمد زكريا، محاكم التَّفتيش في القرون الوسطى، الحوار المتمدن، https://www.ahewar.org 12 ديسمبر 1098.. اليوم الذي التهم فيه الصّليبيون سكان معرة النعمان.

*** الكتب الأجنبية**

■ Benedict, P. (1978) «The Saint Bartholomew›s Massacres in the Provinces,» The Historical Journal, Vol. 21, No. 2 (Jun., 1978).

■ Grant, A, J. (1927) A history of Europe, (The Middle age) vol II, London.

جرائمُ الاستعمار الأوروبي في إفريقيا وآسيا

■ عبد الله بن عمارة[1]

ملخّص

اشـتملت هذه الورقة البحثيّة، على ذكر نماذج من الجرائم التي نفَّذها الاستعمار الأوروبيّ، في كُلٍّ من إفريقيا وآسيا، خلال القرنين 19م و20م. وقد عمدنا إلى قراءة السـياق التَّاريخي الذي أُرتكبت فيه، كما أشرنا إلى مُحدِّدات الخطاب الكولونياليّ، معتمدين في ذلك على المنهج التَّاريخي الوصفيِّ الأكثر مُلائمةً لهذا الموضوع.

وقـد اخترنا أربعة نماذجَ من جرائم الاسـتعمار في إفريقيـا، واكتفينا بذكر أكثرها وحشيّةً، وهي جرائمُ الإبادة الجماعيّة في الجزائر خلال القرن 19م و20م، ومجزرتي «دْيَابِي» و«مَاكُونْدِيي» في ساحل العاج، ثمَّ جرائم الاستعمار البلجيكيّ في الكونغو، واختتمنـا نماذجَ الجرائم في إفريقيا، بجرائم الاسـتعمار الألمـانيّ في ناميبيا. بينما اخترنا جرائمَ الاسـتعمار البريطانيّ في الهند، وجرائم الاسـتعمار الفرنسيّ في الهند الصينية، كنموذجين عن آسيا.

كما أنّ طبيعة هذا البحث، تتطلَّبُ جهدًا توثيقيًّا أكثر، لإحصاء كُلِّ جرائم الاستعمار في باقي قارات العالم، ابتداءً من القرن 16م، وتفكيكًا للخطاب الكولونياليّ بالتعمُّق أكثر في بنيته.

الكلمات المفتاحية:

الاستعمار الفرنسيّ- الاستعمار البريطانيّ- جرائم الإبادة- إفريقيا – الجزائر.

1 - باحث في قضايا الاستعمار، الجزائر.

مقدِّمة

بدأَ الاستعمارُ الأوروبيُّ كظاهرةٍ في القرن 16م، عقب الاكتشافات الجُغرافية الكبيرة، وتكثَّف في القرن 17م، وقد اتّجه أساسًا في هذه المرحلة، صوب البلاد البعيدة، فيما عُرفَ بالعالم الجديد، وتميَّزَ بشكله الاستيطاني. أمَّا ابتداءً من القرن 19م وما تلاه إلى القرن 20م، ومع ذروة الصّعود الرّأسماليّ في أوروبا الغربية، فقد استهدف أجزاءً من بلاد العالم القديم في إفريقيا وآسيا، واتَّسمَ بالطّابع الاستغلالي[1]. وتلازُم الاستعمار الحديث مع صعود الرأسماليّة، شرحه عالم الاجتماع البريطانيّ: توم بوتومو[2]، وسبقهُ في ذلك لينين في كتابه الشهير: «الاستعمار أعلى مراحل الرأسماليّة»، حيث شرحَ كيف أنَّ الاستعمارَ مكَّنَ الرأسماليّةَ من دخول طورٍ جديدٍ، اتَّسمَ بتصديرِ الرَّأسمال الماليّ وفائضِ الإنتاج للبلادِ المُسْتَعْمَرة، مُعتمدةً على استغلالها لليد العاملة الرَّخيصة، ونهب المواد الأوّلية.

ومن أجل تنفيذ مشاريعها، عمدت القوى الاستعماريّة، إلى استهداف البُنى السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة والاجتماعية للبلاد المُسْتَعْمَرة، وإعادة تشكيلها بُغية إخضاعها، كما اعتمدت خطابًا إيديولوجيًّا، نظَّرت إليه أسماءٌ بارزةٌ في عالم السّياسة والفلسفة والفكر والأدب، مثل: سيسل رودس، وجول فيري، وألكسيس دو طوكفيل، وألفونس دو لامارتين. ويقومُ هذا التَّنظيرُ على نفي الوجود الحضاريِّ للبلدِ المُستعمَر، ويُكرِّس «المهمة التمدينية» للاستعمار، التي تُعبِّرُ ضمنيًا عن التفُّوق الحضاري الأوروبي، من خلال ثنائيات «الأبيض» مقابل «الأسود»، و«المتوحش» مقابل «المُتمدِّن»، التي استعملها المُسْتَعْمِر من أجل تبرير هيمنته على المُسْتَعْمَر[3]، نفيٌ يسلبه إنسانيته ويُحوِّلـه إلى شيءٍ، كـما ذهبَ الكاتبُ المارتينيكي إيمي سيزير الذي صاغ معادلة: الاستعمار

1 - Church, R. 1951, p18

2 - Bottomore, T. 1983, p81- 85

3 - Le Cour Gandmaison, O. 2005, p81- 89

يســاوي التّشْــيِيءَ[1]، مع كُلِّ ما يقتضيه ذلك، من «شْرَعَنَة» للعنف والقسوة ضد الفئات المُقاومة له، والتي ســتتحوَّل، وفق الخطاب الكولونياليّ، إلى قُوىً مُتوحشة يجب إبادتها؛ لأنَّها تقفُ عقبةً أمام استكمال المسار التَّمديني. من هنا تبرز حاجة الاستعمار البنيويَّة لاتّباع نهج الإبادة من أجل تنفيذ مشروعه، وهذا ما تجلَّى واقعًا في تجارب اســتعماريّة استيطانيّة عديدة، كما وقع في أمريكا وأستراليا وغيرها، حيث نجدُ تلازمَ الغزو والاستيطان مع الإبادة الجماعيّة[2].

الإبادةُ الجماعيّة إذاً، هي في صميم الحرب الاستعماريّة، مباشرة، أو غير مباشرة، بتفكيك البُنى الاقتصاديّة للشّعوب المُستعمرَة، حيث تخلق شروطًا موضوعية للمجاعة وانتشار الأوبئة القاتلة.

وقــد ارتأينا في هــذه الورقة البحثية - معتمدين في ذلك على منهــجٍ تاريخيٍّ وصفي -، تحديد الحديث عن جرائم الاســتعمار الأوروبي زمانيًّا، في القرنين 19م و20م، ومكانيًا في إفريقيا وآســيا فحســب، مع الاكتفاء بذكر أربعة نماذج في إفريقيا، واثنين في آسيا على سبيل الحصر، - لأنها لم تكــن الوحيدة في تلك البلدان -، بدءاً بالجزائر، حيث اخترنا في هذا الصدد، مثالين فقط للجرائم التي ارتكبها الاســتعمار الفرنسيّ طيلة 132 سنة، إحداهما في القرن 19م، والجريمة الثانية وقعت في مُنتصف أربعينيات القرن 20م، ثم نموذجا آخر، عن الجرائم في ساحل العاج، والتي اكتفينا فيها بذكر مجزرتي «دْيَابِي» و«مَاكُونْدِيي» دون غيرهما، ونموذج آخر عن جرائم الاســتعمار البلجيكيّ في الكونغو، وختمنا النماذج المُختارة من إفريقيا، بالإبادة الجماعيّة للاســتعمار الألماني في حقِّ قبائل الهيرورو والناما في ناميبيا. فيما اخترنا نموذجين عن الجرائم الاســتعماريّة في آســيا، هما: جرائم الاستعمار البريطانيّ في الهند، وجرائم الاستعمار الفرنسيّ في الهند الصينية.

وقد ألقينا الضوءَ باختصارٍ، على الســياق التاريخي الذي جرى فيه الحدث الاســتعماري، وما رافق ذلك من سياسات نهبٍ وتدميرٍ، للتأكيد على تلازم النّهب والاستغلال، مع الإبادة والمجازر.

أوَّلاً: جرائمُ الاستعمار في إفريقيا

1 - جرائم الاستعمار الفرنسيّ في الجزائر

نجحت الحملةُ الفرنسيّة بقيادة دو بورمون سنة 1830م في إسقاط مدينة الجزائر، وكانت الأطماع

1 - Césaire, A. 1955, p 13

2 - Moses,A. 2013, p 23- 44

في نهب ثرواتها الزّراعية والمعدنيّة عاملاً رئيسًا في هذه الحملة، وبعد انهيار الحكم المركزي، لم يعد أمام الجزائريّين في المناطق الداخليّة، سـوى التحصُّن ببنياتهم التَّقليديَّة القبليّة والدّينيّة، من أجل مُقاومة الغزو من جهة، وإدارة شؤونهم من جهة أخرى.

أ. الإبادةُ الجماعيّة للقبائل في القرن 19م

عندمـا بدأَ الجيشُ الفرنسيّ يتقدمُ نحو سـهل مَتِّيجَة الخصـب، في ضواحي مدينة الجزائر في شـهر نوفمبر من السّنة نفسـها، شعر سـكان السّـهل بالخطر فتداعوا إلى تنظيم أنفسهم وإعلان المقاومة. فهاجمت المقاومةُ الشَّعبية بقيادة ابن زعموم، زعيم قبيلة فْلِيسَة، حاميةً فرنسيةً في حاضرة البُلَيْدَة، وألحقت خسائر كبيرة بها، وقد التحقت بها قوات يقودها الشيخ الصوفي سيدي السعدي، وتكاملـت مع قوات بومزراق الحاكم السـابق للمنطقة قبل انهيـار الإدارة المركزية، وكانت تلك فعليًّا أولى عمليات المقاومة الشَّعبية للجزائريين بعد سقوط عاصمتهم، حيث أمرَ عَقِبها الجنرال كلوزيل، الذي خلف قائد الحملة دو بورمون، بغزو الحاضرة وإبادة سكانها، بحيث شرع جنوده، بتنفيذ مجزرةٍ مروعةٍ، بذبح السّـكّان في الشوارع، فلم يسلم منها الشّيوخ والنّساء والأطفال ناهيك عن الرجال، كما ينقل إلينا الكاتب الفرنسيّ ديوزيد[1].

بـل حدثَ تقطيـعٌ للرُّضع وهم على صـدور أمهاتهم، كما أكد ذلك حمـدان خوجة المُعاصر للأحداث[2]. بحيثُ لا نعلم شـيئًا عن عدد الضحايا، ولكن قد يكونون بالآلاف، بالنَّظر إلى حجم المدينة آنذاك، وإلى قرار الجنرال كلوزيل الصَّارم بالإبادة الشَّاملة.

وفي سـنة 1831م، عُيِّنَ الدوق دو روفيغو، لقيادة المشروع الاسـتعماريّ في الجزائر، حيث واصل سياسة خَلفه الإجرامية، فلم تكن الإبادةُ الجماعيّة سياسةً ظرفيةً ولا استثنائيَّة، بل كانت مشروعًا مُمنهجًا وضروريًّا للحكومة الفرنسيّ[3]، من أجل اسـتكمال التوسُّع والاستيطان وإخضاع المقاومة، فأمرَ جيشه سنة 1832م، بمُباغتة مساكن قبيلة العَوْفِية، على ضفاف وادي الحرَّاش ليلاً وهم نيام، حيث لم يُوفر فيها القناصة، رجلاً ولا شيخًا ولا طفلاً ولا امرأةً، دون أن تتسنى لهم فرصة الدفاع عن أنفسه[4]، ثم عادَ بعدها

1 - Dieuzaide, V., 1880, p164

2 - خوجة، 2005، ص216

3 - Gallois, W. 2013, p69 - 88

4 - Christian, P. 1846, p143

فرسان الجيش الفرنسيّ مُبتهجين برؤوس القتلى على رماحهم[1]، وجاءَ بعضُ الجنود إلى أسواق الجزائر، لبيع أقراط النساء المقتولات، وهي لاتزال مُلطَّخة بالدماء، وأساور لاتزال مُلتصقة بالمعاصم المقطوعة، وبقايا اللَّحم البشري عالقة بها. وينقلُ لنا الكاتب الجزائري أبو العيد دودو في كتابه: «الجزائر في كتابات الرَّحالين الألمان: 1830م- 1855م»، قصة ذكرها الرحَّالة وعالم النبات الألماني فيلهلم شـيمبر، الذي أقام في الجزائر بين سنتي 1831 و1832م، في كتابٍ له، رواها له أحدُ الجنود الفرنسيّين المُجرمين الذين شاركوا في إبادة قبيلة العَوْفِيَة بفخرٍ وكبرياء: « كان هناك طفلٌ واقفاً في مُؤخرة الخيمة، فصحت به: اخْرج يا حقير وإلَّا سـوف أطلق رصاصةً في فمك، ولكن البهيمةَ لم يطعني، وعندما ضغطت على الزّناد طار نصف رأسه وتعلَّق بكتان الخيمة»، ويُعلِّقُ المُؤلف الألماني على رواية الجندي القاتل، فيقول بسخريّة مُـرَّة: «كان ينبغي للطفل البدوي البريء الفزع، أن يطيع أمرا وُجِّه إليه بلغةٍ أجنبية لا يفهمها...»[2]، وقد قدَّر الباحثون الجزائريون الجادون، عدد الضحايا في هذه المذبحة، باثني عشر ألفًا، هم العدد الإجمالي للقبيلة، وقد أجَّجت هذه المجزرة روح المقاومة في المنطقة من جديد.

ابتكرَ الجيشُ الاسـتعماري أسلوبًا أكثر فتكًا بالسّـكّان وأقل تكلفةً، هو أقرب إلى الإعدام في غرف الغاز، ففي سـنة 1845م، تداعت طُرق صوفية عديدة إلى إعلان الجهاد، وقد شاركت قبيلة أولاد رياح في هذه الانتفاضة، فغزاها بيليسييه، تنفيذًا لأوامر قائده بيجو، فأحرقَ ممتلكاتها وصادر أراضيها، فاحْتمت، - وعددها فاق الألف شخص رجالاً ونساءً وأطفالاً مصطحبين بهائمهم-، بغارٍ مُحصَّن في جبال الظهرة في غرب البلاد. ولما رفضت أوامره بالاستسـلام، جلب الحطب وأوقده عند مداخل الغار، وفي اليوم الثـاني ضاعف إيقاد النار بمزيدٍ من الحطب، ليختنقَ أزيد من ألف شخص في هذه المجزرة، كما تُؤكد مصادرٌ فرنسيةٌ عديدة. إذ كان الأطفالُ الرضع مُلتصقين بأثداء أمهاتهم، والجثث مُتراكمة بعضها فوق بعض، وبسبب هول الاختناق الذي هيَّج الحيوانات داخل الغار، فقد بدأت ترفس الأطفال والنساء، وكان الرجالُ يحاولون وقفها فيمسكونها من قرونها، وقد وُجدت جثث لرجال متشبثين بقرني ثور للدفاع عن نسائهم وأطفالهم، وقد أحدثت المجزرة - بعد تسريب أخبارها - ضجة في أوروبا[3]؛ حيث وصفت جريدة التّايم اللّندنية في عددها في 14 جويلية

1 - Pélissier de Reynaud, E. 1854, p247

2 - دودو، 1975، ص19-20

3 - Gallois, W. 2012, p35- 59

1845م المجزرةَ، بأنَّها «مذبحة فظيعة جعلت حتَّى المتوحِّشين يخجلون»، ومع ذلك فقد اندفعَ الجنودُ الفرنسيّون لنهب الأشياءِ الثَّمينة عند الضَّحايا[1]. ليست هذه سوى بعض النَّماذج من سياسة الإبادة التي انتهجها الاستعمارُ الاستيطانيّ في الجزائر في عقوده الأولى، ويحقُّ لنا أن نتساءلَ عن إمكانيَّة الجزم بأرقام دقيقة لضحايا السّياسة الاستعماريّة في القرن 19م، من خلال التقديرات النسبية للباحث الجزائريّ المُتخصص في الدّراسات الدّيموغرافية: كمال كاتب، التي تأخذ في الحسبان ضحايا القوى الجزائرية المقاتلة أثناء المعارك وبعدها، فإنَّ عددَ ضحايا الغزو الاستعماري من الجزائريين بين 1830-1875م، يصلُ إلى 825000 قتيل. يُضاف إليهم الخسائر البشريّة الناتجة عن سياسة المُصادرة والتفقير المُنهجة للمشّروع الاستعماريّ في النّصف الثاني من القرن19م، التي جعلت السّكّان أكثر عُرضة للأوبئة والمجاعات، أدَّت إلى تناقصٍ كبيرٍ في عدد سكان الجزائر الذي قُدِّر بحوالي 3ملايين ونصف في 1830م[2]، ما يعني أنَّ الاستعمارَ في الجزائر في القرن 19م قد أبادَ أكثرَ من ثُلث سكان البلاد.

ب: مجازر 8 ماي 1945 في سطيف وغالمة وخرَّاطة

قد تكون بعضُ ملامح المشروع الاستعماري الفرنسيّ في الجزائر، تغيَّرت من حيث الشكل في القرن 20م، مُقارنة بالقرن 19م، لكن مضمونه بقي يعكسُ العقيدةَ الكولونياليّة نفسها، وظلَّت سياسة الإبادة تُعيدُ إنتاجَ نفسها وتُجدد أسماءها الإجرامية من كلوزيل وبيليسييه وبيجو وغيرهم الكثير، من المُجرمين الذين تفنَّنوا في الإبادة، إلى الجنرال رايموند دوفال، الذي ارتكب واحدةً من أفظع الجرائم الفرنسيّة في شهر ماي من سنة 1945م.

بعد انتهاءِ الحرب العالميّة الثانية، دعا حزبُ الشّعب المحظور أنصاره، إلى الخروج في مظاهرات سلميّة تحملُ الأعلامَ الجزائريّة، وترفض اعتقال زعيمه مصالي، وتطالبُ بالاستقلال التّام[3].

بدأت المظاهراتُ في أول ماي، عيد العمّال العالمي، في مُختلف المدن الجزائرية، فحدثت اصطدامات مع الشّرطة الفرنسيّة في مدينتي الجزائر ووهران، وسقطَ قتلى وجرحى، ثم بدأت

1 - سعد الله، 1992، ص228 - 230

2 - Kateb, K. 2010, p46- 47

3 - Benot, Y. 2001, p 9- 19

الاحتكاكات بين المُتظاهرين الجزائريّين والمُستوطنين في الأيام التي تلته. في 8 ماي انقلبت الأوضاع في منطقة الشمال القسنطيني، حيث انطلقت مظاهراتٌ كبيرةٌ في مدينة سطيف، تحمل شعارات تطالب بإطلاق سراح مصالي وبالاستقلال، ثم أطلقت الشّرطة الفرنسيّة، مدعومةً من المُستوطنين، النَّار على متظاهـرٍ كان يحمل العلم الجزائري فأرْدَته قتيلاً، وسـقط آخرون جرحى، ليرد المتظاهرون الغاضبون باستهداف الأوروبيين في الشوارع بالأسلحة البيضاء. وسرعان ما تحوَّل الغضب إلى انتفاضة واسعة، امتـدت نحو المدن والأرياف القريبة من سـطيف كخرَّاطة، وأوقاس وصـولاً إلى ڤالمة، حيث بدأت الإدارةُ الاستعماريّة في توزيع السلاح على المستوطنين، الذين بدأوا يطلقون النار على كُلِّ ما يتحرك.

وابتداءً من 10 ماي 1945م، باشر الجنرال دوفال في مخططٍ عسكري لسحق الانتفاضة، اعتمد فيه على الغارات المُكثَّفة للطيران اسـتمرت أسـبوعين، وعلى القصـف العنيف من البحرية التي دكَّت القرى الجبلية، والتي أبادت تجمُّعات سكنية كاملة، ناهيك عن جرائم مليشيات المُستوطنين الأوروبيـين التي سـلَّحها الجيش الفرنـسيّ، والتي نفَّذت يوميًّـا عمليات انتقاميـة بالجملة ضد الجزائريين، وقد كتب أحد الصحفيين الأمريكيين يصف ذلك: « الجثث في كُلِّ مكان في الشوارع، القمع كان أعمى، إنها مجزرة كبيرة، رأيت جنودًا سينغاليين(يخدمون في الجيش الفرنسيّ) يقتلون، يغتصبون، ينهبون...»، كان يُطلق النار على كُلِّ عربيٍّ لا يحملُ شـارةً مربوطةً في ذراعه تُسلَّم من الإدارة الاستعماريّة لمن يعملون في خدمةٍ عموميةٍ[1].

وقـد خلص تقرير فرنسي عن أحداث سـطيف بهذه العبارات»: في كُل مسـاء، ولأيام عديدة، كانت السـيارات المُصفَّحة للَّفيف الأجنبي والوحدات السـنغالية، تجول شوارع المدينة وتُطلق النارَ على الأهالي (الجزائريين)، وتُنفِّذ توقيفات بالجملة»[2].

يصعـبُ الجزمُ بعـددٍ دقيقٍ لضحايا مجازر مـاي 1945م، إذ تتحدثُ المصـادرُ الجزائرية عن 45000 قتيل، وفي تصريحٍ منسـوب إلى السـفير الأمريكي في القاهرة آنذاك، ينقل العدد نفسـه، وتختلفُ تقديراتُ الضحايا في المصادر الفرنسـيّة، ويُعدُّ رقم 15000 قتيل هو أعلاها، وهو الذي أوردته لجنةُ التحقيق برئاسة الجنرال توبير[3].

1 - Mekhaled, B. 2000, p133- 134

2 - Goldzeiguer, A.R. 2002, p285

3 - Courrière, Y. 1968

2 - جرائمُ الاستعمار الفرنسّي في ساحل العاج : دْيَابي ومَاكُونْدِيي

سقطَ غربُ إفريقيا في يد القوى الأوروبية، كنتيجةٍ مباشرةٍ للاستكشافات الجغرافيَّة التي بدأت مُبكرًا، وما تلاها من فتح مراكز تجاريّة جسَّدت الأطماع في نهب ثروات المنطقة، وقد بدأ المشروع الاستعماريّ في هذا البلد، بين سنوات 1838-1842م[1]، متجسّدا في شكل مُعاهداتٍ مع الزّعماء المَحليين في المناطق السَّاحلية.

رافقت المُواجهات العسكريةُ مع الفرنسيّين - التي خاضتها المقاوماتُ الشَّعبية المُختلفة لقبائل ما أصبح يُعرف لاحقًا بساحل العاج في القرن 19م، - إجراءات مصادرة الأراضي والنهب والجرائم ضـد الأهالي، التي تقـعُ في بنية أي مشروع كولونيالي غربي، لكننا سـنكتفي بالتطرُّق إلى مجازر دْيَابِي ومَاكُونْدِيي في شهر جوان من سنة 1910م.

من بين القبائل التي قاومت الاستعمار بشراسة سنة 1910م، كانت قبائل الأباي، والتي تحالفت معها قبائل الأَتِيي، وتنسـبُ كلاهما نفسـيهما إلى المجموعة اللغوية والإثنية الكبيرة المُنتشرة في غرب إفريقيا المعروفة بالأكان[2]، والمجزرتان ارتُكبتا في قريتين، إحداهما دْيَابِي التي ينتمي سكانها إلى قبائـل الأَتِيي، والأخرى، إلى الأباي وهي مَاكُونْدِيي، بـإشرافٍ من الحاكم العام الفرنسيّ في سـاحل العاج غابريال غابريال أنغولفان، في حقِّ السّكّان، بما فيهم الشـيوخ والنسـاء والأطفال.

أ. مَجزرة دْيَابي

حدثت هذه المجزرة، عندما هاجمت مجموعاتٌ من الرُّماة الفرنسيّين - بقيادة أليساندري - قريةَ دْيَابِي بحثًا عن مقاومين ادّعت أنهم وجدوا ملاذًا فيها، وباشرت في اعتقالات أرعبت قبائل الأَتِيي، الذين هرعوا فارين من القمع، فبدأ الجنود الفرنسـيّون في إطلاق النار عليهم، فأردوا أربعةَ رجال وطفل في العاشرة من عمره، وست نسـاء، ستُقطع رؤوسهن بعد ذلك، ثم أضرموا النار في القرية ونهبوا ما فيها من الماشية، ثم أيامًا بعد ذلك، جمع الجنود النساء والأطفال في ساحة القرية، وبدأوا بإطلاق النار عليهم من مسـافةٍ قريبة، ثم قطعوا رؤوسـهم، وأطلقوا النار على من حاول الفرار من المجزرة، فكانت الحصيلة 54 قتيلاً بينهم 20 رجلاً و22 امرأة و10 أطفال، كما ألقى الجنودُ القبضَ

1 - Gouvernement Générale, 1906, p5- 17

2 - كيبري، 1988، ص335

على ثلاثة رجال ممن حاولوا الفرار، فقطَّعوا رؤوسهم، فيما أُطلقت النار على الأطفال الصغار وهم على ظهور أمهاتهم[1].

ب. مجزرةَ ماكُونْدِيي

في الوقت الذي كان فيه الجنودُ الفرنسيّون يمارسون القتلَ الذريعَ بحقِّ قبائل الأَتِيي، فإنَّ آلة القتل لم توفر جيرانهم من الأباي في قرية ماكُونْدِيي، فالمجزرة بدأت في سياق انتقامٍ من القرية التي ينتمي إليها دليلٌ فارٌ، والذي كان يعملُ لصالح الفرنسيّين، ممَّا تسبَّبَ في فقدان الجنود الفرنسيّين للطريق، وقد طلبَ القائدُ لافيجري من مرؤوسه السينغالي اقتحام القرية وأخذ عشر رهائن من أعيانها، حتى يُسلِّموا الدَّليلَ الهاربَ خلال نصف يوم، وقد بحث أبناءُ القرية عنه بلا جدوى، طالبين تمديد مُهلة التَّسليم، لكنَّ قائدَ الجند، لم ينتظر، وأمر بقتل الرَّهائن وقطع رؤوسهم ثم آذانهم، وتسليمها إلى القائد الفرنسيّ لافيجري، كدليلٍ على تنفيذ المهمة[2].

جاءت هاتان المجزرتان، في أعقاب انتفاضة الأباي، التي أُخمدت بشدةٍ وراحَ ضحيتها المئات من المقاومين المُسلحين، كما راحَ ضحيتها العديد من السّكّان العُزّل.

3 - جرائمُ الاستعمار البلجيكيّ في الكونغو

عرفت المنطقةُ الوسطى من إفريقيا، المُمتدة من جمهورية إفريقيا الوسطى إلى أنغولا، ومن المُحيط الأطلسي إلى البُحيرات الكُبرى، تنافسًا استعماريًّا كبيراً للسيطرة عليها، كنتيجةٍ مُباشرةٍ لحركة الاكتشافات الجغرافية، فسقطت فعليًا في يد القوى الاستعماريّة الأوروبية في نهاية القرن 19م، وإن كانت هذه المشاريعُ وفيةً لأساليب النهب والجرائم الوحشية نفسها ضد السّكّان الأفارقة، إلَّا أنَّ ما حدث في دولة الكونغو الحرة، أو ما أصبح يُعرف لاحقا بالكونغو البلجيكيّة، التي تحوَّلت لمِلْكِية خاصة[3] للملك ليوبولد الثاني، في أعقاب مؤتمر برلين (1884-1885م)، يُعدُّ بلا شك النموذج الأكثر تجسيدًا للإبادة الجماعيّة الممنهجة.

1 - Viti, F. 2017, p61- 66

2 - F. Viti, les massacres de.., p67- 70

3 - Castelein, A. 1907, p9- 10

لا تـتردّدُ الكثيرُ من المصادر والكتابـات التاريخية الغربية، في اسـتعمال مصطلحات صادمة للتعبير عن وحشية الاستعمار البلجيكيّ في الكونغو، بقيادة الملك ليوبولد الثاني، من قبيل الإبادة الجماعيّة والجرائم الوحشية، بل ومصطلح «الهولوكست المنسي» عند الكاتب والمؤرخ الأمريكي آدم هوتشسـكيلد (Hochschilid, A. 1998)، وقـد رسَّـخ نظامًا قائمًا على نهـبِ الثروات، نظامٌ مصحوبٌ بأفظع الجرائم وأبشعها بحقِّ السّكّان المحليين، الذين أُجبروا بالقوة على العمل لحسابه في اسـتغلال المطّاط والعاج ونقله إلى موانئ التصدير، وقد كان منهم كبارٌ في السّـنِّ، ناهيك عن النساء والأطفال، وسط حملات مُنظَّمة من العنف، من تعذيبٍ وقتلٍ جماعيّ وتدميرٍ كاملٍ لقُراهم[1].

كـما كانت حمـلاتُ العقاب الجماعي تـزدادُ حدةً، كلما انطلقت مقاومةٌ شـعبيةٌ مُسـلَّحة بين السّـكّان، كما حدثَ في منطقة كاسـاي، التي مارس فيها الجنود البلجيكيّون أبشع أنواع الجرائم، من قتلٍ وتشويه للسكان بقطع الأيدي والأرجل. لم يُوفر جنودُ الملك ليوبولد الثاني، في ممارساتهم الوحشية أحدًا من السّكّان المحليين في الكونغو، بمن فيهم الأطفال والنساء، وقد تواترت الشهاداتُ في أواخر القرن 19م لمُبشرين مسـيحيين وصحفيين وقناصل غربيين عن مجازر الإبادة الجماعيّة ضد الرجال والنساء والأطفال، التي شاهدوا آثارها القاسية، على غرار شهادات تحدَّثت عن الضابط ليـون روم، الذي كان يتباهى بالسـياج الذي يحيـطُ بحديقته، لكونه بناهُ بجماجم السّـكّان الذين اصطادهم بيده، أو الضابط فان كيرك هوفن، الذي كان يتفاخرُ بأنه كان يُعطي مكافأة مالية لجنوده، لكُلِّ من يأتيه برأسٍ من السّـكّان المحليين، أو عن وجود خمسـين من الجثـث المُتراكمة لرجالٍ ونساءٍ وأطفال، قتلهم الجنود البلجيكون في إحدى القرى فقط، لأنهم لم يجمعوا كمياتٍ كافيةٍ من المطاط[2]، أو شهادات عن انتهاكات وحشية عاينها أصحابها عن قرب، من قطع للأيدي وللأرجل وللأنوف والآذان وللأعضاء التناسلية وللاغتصاب، التي كانت غالبًا عقابًا للسكان المُجبَرين على جمع المطاط ونقله، مثل شهادة تشالرز ليزيمر الحاكم البلجيكيّ للمنطقة الاستوائية، التي أدلى بها عند خروجه من الخدمة، قال فيها: إنه كان يجب عليه أن يقطعَ الأيدي والأرجل والأنوف والآذان، حتى يضمنَ نجاحَ عمليات جمع المطاط، أو من قبيل شهادة غاي بوراوز، وهو قائدٌ إنجليزي عمل لصالح الملك ليوبولد الثاني في الكونغو لسـتّ سنوات، لكنه آثر بعد أن رجع إلى بلاده أن يفضحَ

1 - Doyle, A. 1909, p3- 37

2 - Calmeyn, M. 1912, p 268

ما شـاهده من ممارسـات البلجيكيّين الوحشـية في حقِّ الأهالي، جمعها في كتابٍ بعنوان :» لعنة إفريقيا الوسـطى»، كان أكثرها قساوة شـهادته عن ضابطٍ بلجيكي قطع وأحرق أيادي رجال ونساء وأطفال من السّكّان المحلّيين، لأنهم لم ينجزوا ما طُلب إليهم من جمعٍ للمطاط، على أكمل وجه، وأخرى عن مشاهدته لثمانين امرأة، قام الجنود البلجيكيّون باستئصال أثدائهن ثم تُركن حيّات، وقد اتهمَ القائدُ الإنجليزيُّ الحكومةَ البلجيكيّة بممارسة الاستعباد في حقِّ السّكّان المحليين، وبتشجيع جنودها على ارتكاب الجرائم، بالتستُّر عليهم وحمايتهم[1]. لقد تسبَّبَ مشروعُ الملك ليوبولد الثاني الاسـتعماري، في خفض السّكّان المحليين إلى النصف، فقد دفع فعليًا عشرة ملايين من السّكّان حياتهم، إمَّا قتلاً أو مرضًا أو جوعًا، على مذبح نهب المطاط في الكونغو.

4 - جرائمُ الاستعمار الألماني في ناميبيا: قبائل «هيرورو» و«ناما»

التحقت ألمانيا مُتأخّرة بركب الدُّول الأوروبيَّة التي تقاسـمت مناطق واسـعة في إفريقيا، حيث بدأت بالاسـتيلاء على الأراضي التي لم تُسـتعمر بعـد، وكانت ناميبيا إحداهـا، وكان الهدفُ هو السّيطرة على موادها الأولية، وتحويلها إلى سوقٍ لتصريف الفائض من إنتاجها.

في النّصف الثّاني من القرن 19م، اسـتقرَّ أوائلُ المستوطنين الأوروبيين في ناميبيا، وكان أغلبهم من المزارعين الألمان، الذين اهتموا بتربية المواشي، وكان ذلك يتطلب أراضٍ واسعة، فكان توقيعُ أول عقدٍ لشراء الأرض في سـنة 1883م، وقَّعه تاجر ألماني هو أدولـف لودريتز مع أحد زعماء قبيلة ناما، أعقبته اتفاقات أخرى مع الزعامات القبلية المحلية[2]، فكان هذا الاختراق الرأسماليّ فعليًا البداية غير الرسمية لاسـتعمار ناميبيـا[3]. ومع نهاية القرن 19م، أصبحت أحسـنُ الأراضي الرعوية الناميبيـة مُلكًا مُحتكرًا للشركات الألمانيّة، فأضحى أبناءُ القبائل المحلية يعملون لدى الألمان على أراضيهم بأجور زهيدة[4].

وهكذا وجدت قبائل ناميبيا نفسـها، محاصرةً في مناطقها القبلية الفقيرة، فلم يكن ثمةُ من خيار أمامها سـوى المُقاومة، بدأت قبيلة الناما انتفاضتها على الاسـتعمار الألماني في سـنة 1897م، ثم

1 - Burrows,C. 1903
2 - Lindqvist, S. 1998, p197- 198
3 - Alexander, N. 2013, p28- 30
4 - Stenmetz, G. and Hell, J. 2006, p147- 183.9

تبعتهـا قبيلة الهيرورو بعد ذلك بسـبع سـنوات، بقيادة صامويل ماهاريرو، حيـث بدأت المقاومة بتخريب خطوط السـكك الحديدية، التي كانت تخترقُ أراضيهم لتنقلَ ما تدرُّه ماشـيتهم من ثروة إلى ألمانيا، وسرعان ما تحوَّلت هذه المقاومة إلى مقاومة شـعبية ناميبية، بعد أن انضمَّ إليها العديدُ من المُتضررين من السّياسـة الاسـتعماريّة الألمانيّة، من قبيلة الناما وغيرهم[1]. وكان الردُّ الألماني عليها، تعيين جنرال ألماني، عُرف بأساليبه الوحشية التي سبق وأن طبَّقها في شرق إفريقيا، هو لوثار فون تروثا، الذي كان قراره حاسـمًا، الانتهاء، من قضية قبيلة الهيرورو[2]، أي الإبادة الجماعيّة لكل قبيلـة الهيرورو، ففي معركة هاماكاري- واتربيرغ في صيف سـنة 1904م، قرَّرَ تروثا أن يُبيدَ، - زيادة على سـتة آلاف مُقاتل- كل من كان يرافقهم من المدنيين، وقد كان عددهم يتراوح بين عشرين ألفًا وثلاثين ألفًا. كتب أحدُ العسكريين الألمان في يومياته: « قيل لنا بصراحة، إنَّ هدفَ العملية هو إبادة القبيلة عن بكرة أبيها»، وفي نصٍ للجنرال تروثا نفسه يُخاطب فيه جنوده:» كل من يجلب لنا فردًا من الهيرورو سـنكافئهُ ب1000 مارك، ومن يجلب لنا قائدهم صاوميل ماهاريرو سيتسلم 5000 مارك، كل فـرد من الهيرورو عليه مغادرة البلاد، وإلاَّ أجبرتهم على ذلك بمدافعي الكبيرة، كل واحد منهم وجدتموه في حدود أرضنا، مُسـلحًا أو غير مُسلَّح، بماشيته أو بدونها، سيُقتل، لن أقبلَ أيَّ امرأةٍ أو طفلٍ، عليهم أن يرحلوا أو يموتوا، هذا قراري فيما يتعلَّق بشعب الهيرورو»[3].

وفي إحـدى رسـائله في 4 أكتوبـر 1904م يكتبُ بصراحـة وعنهجية عنصريـة صارخة: « أمة الهـيرورو يجـب أن تُباد، أو أن تُطرد من المنطقـة إن تعذَّر ذلك عسـكريًا... لقد أعطيت أوامري بإعدام المساجين، وإبعاد النساء والأطفال إلى الصحراء..إنها بداية حرب عرقية»[4]

وفي شهادة أخرى، لأحد قادة الحملة الألمانيّة يقول:»...أنا أعتبر أنه يجب إبادة أمة الهيرورو، أو طردها من المنطقة بكل الوسائل المُمكنة، إن لم يكن ذلك ممكنًا من الناحية التكتيكية...الأنسب هو هلاك هذه الأمة،..سياستي هي استعمال العنف بكُل الوسائل المُمكنة، بما فيها الإرهابية، أُدمرُ القبائلَ الإفريقية بإهراق الدم والمال، ولن يظهرَ شيءٌ جديدٌ ومُستدامٌ سوى باستكمال عملية التطهير»[5].

1- Alexander, N. Op.Cit. p56- 62

2 - Bley, H. 1971

3 - Bridgman, J. Worley, L.J. 1997, pp. 3- 40, p. 14

4 - Drechsler, H. 1980, p161.

5 - Gewald, J.B. 1999, p174.

بعد سحقه لمقاومة الهيرورو، وإبادته لأغلب أفراد القبيلة، ووضع الآلاف منهم في مُعسكرات الاعتقال الوحشـية، وفرار بعضهم إلى جنوب إفريقيا، عاد تروثا في سـنة 1905م لتنفيذ المخطط نفسه بحقِّ قبيلة الناما، التي عرفت المصير نفسه، وتوزع الباقي بين معسكرات الاعتقال والنفي.

تختلفُ التقديرات عن عدد ضحايا الإبادة الجماعيّة لقبيلتي الهيرورو والناما، ففيما أحصى تقريرٌ لمنظمة الأمم المتحدة في سـنة 1985م، عدد ضحايـا قبيلة الهيرورو بـ 65000 ضحية ، وهم ثمانون بالمئة من أفراد القبيلة، وخمسين بالمئة من قبيلة الناما، أي 10000 ضحية، تحدَّثَ البعضُ عن 24000 ضحية من الهيرورو، وذهبَ بعضُ المُؤرِّخين إلى حدِّ إحصاء 100000 ضحية، لكن هذا الاختلاف لا ينفي إجماعَ المُؤرخين حول الإبادة الجماعيّة التي حصلت في بداية القرن 20م بحقِّ هاتين القبيلتين[1].

ثانيًا: جرائمُ الاستعمار في آسيا

1 - جرائم الاستعمار البريطانيّ في الهند

إنَّ المقصودَ بالهند في هذا السياق، هو المجال الواسع في جنوب آسيا، والذي يمتدُّ من جبال الهملايا إلى رأس كمورين، ومن بلوشتسان إلى بورما. وقد استغرقت السيطرةُ على هذه المنطقة من قِبَل البريطانيّين، أكثر من قرن من الزمان، ابتداءً من سـنة 1757م، لتولد معها «الهنـد البريطانيّة» أو «الراج البريطانيّ»، أكبر الكيانات الاستعماريّة آنذاك، والتي أضحت تتشكَّلُ منها حاليّا أربع دول هي: الهند وباكستان وبانغلادش وبورما. وفي تجسيدٍ آخر للتلازم بين الرأسماليّة والاستعمار، لعبت الهيئةُ الكولونياليّة المُسمَّاة «شركة الهند الشرقية»، الدورَ الرئيسَ في السـيطرة على الهند. لقد اهتدى الاستعمارُ البريطانيّ، عندما فشلَ في السيطرة العسكرية الكاملة على الهند قبل سنة 1757م، لمشروعٍ أقل كلفة من السيطرة العسكرية، وهو نهبُ البلاد من خلال منظومة قانونية جبائية واجتماعية واقتصادية، شرَّعت نهبَ واستغلالَ مواردَ الهند ودمجها في الاقتصاد الرأسماليّ الاستعماري، باعتبارها مصدرًا لليد العاملة الرخيصة وللمواد الأولية، وسوقها للبضائع المُصنَّعة لخلق التراكم الرأسماليّ للمركز في بريطانيا، مع ترسيخٍ للبندين المؤسسين للخطاب الكولونياليّ، وهما: المركزيـة الأوروبية والمهمة التمدينية للاسـتعمار، بدمج الهنود في المدنيّة الأوروبية، كما أشـارَ المُؤرِّخُ والسياسي البريطانيّ توماس بابينغتون ماكولاي في تقريره الشّهير[2].

1 - Kotek, J. 2008, p189

2 - Maculay, T.B. 1835

وكان ما يُسـمَّى قانونُ القبائل الإجرامية الصادر في سنة 1871م، واحدًا من أشدِّ أجزاء تلك المنظومة القانونية عنفًا وعنصريةً، بحيث صنَّف تجمعات قبلية برمَّتها، في خانة الإجرام، مع ما يستدعي ذلك من قيود على حركة أفرادها، وكانت السَّرديّة التَّاريخيّة البريطانيّة تعدُّ هذا القانون، الذي عَرفَ تعديلات أخرى في فترات لاحقة، جزءاً من المهمة التمدينيّة للاسـتعمار، المُتمثلة في إعادة تأهيل ودمج المُجتمعات المحليّة الهنديّة في الحضارة[1].

قادت شركـةُ الهند الشرقيّة، من خلال نظامهـا القانونيّ العنصريّ، عمليّة نهـبٍ مُمنهجةٍ لموارد البلاد، ساهمت بشكلٍ مُباشرٍ في الإلحاق الإداري والعسكري والاقتصادي للهند، بمركز الإمبراطورية البريطانيّة، مـمَّا هيّأ الظروفَ لمُقاومات محليـة ومحدودة، كان أبرزها ثـورة 1857م المعروفة بثورة السـيبوي (السيباهي)، والتي بدأت بتمرد الجنود الهنود التابعين إلى الشركة الكولونياليّة، ثمَّ ما لبثت أن تحوَّلت إلى ثورة شاملة، والتي حقَّقت في بداياتها انتصارات عسكرية، لكنها سُحقت في النهاية، وقد ارتكب البريطانيّون في مواجهتهم لعنف الثورة جرائم بلا رحمة، خاصة في أثناء تقدُّمهم إلى مركز تحصُّن الثوار في كانبور، عندما أمرَ المُقدَّم: جيمس سـميث نيل بإحـراق القرى الواقعة في الطريق وشـنقَ كُلَّ سكانها، وبعد سيطرتهم على المدينة، ارتكبوا جرائم قتل وتعذيب بشعة بحقِّ السّكّان، ثم واصلوا العقاب الجماعي في مختلف المناطق التي كان يسـيطر عليها الثوار، رغم فشـل الثورة، إلَّا أنها بتقديمها للأمة الهندية أبطالاً وشـهداء، أسَّست لمسـار النضال من أجل الاستقلال[2]، ولتشكل «الوطنية الهندية الحديثة» التي عادَ الاستعمارُ البريطانيّ إلى قمع نشاطها بوحشية، كما حدث في مدينة أمريسـتار في إقليم البنجاب، في 13 أبريل 1919م، حينما تجمَّع الهنودُ في مظاهرة سلمية في حديقة عمومية، من أجل مطالبة النظام الاسـتعماري بمنح بلدهم الاستقلال، فحاصرتهم القوات البريطانيّة بقيادة الجنرال ريجنالد دير، وأطلقت عليهم النار فأرْدت المئات قتلى ومثلهم من الجرحى[3].

قارب المُؤرِّخان البريطانيّان: كيم فاغنر ومارك كوندوس العنف المُفرط الذي اقترفه الاستعمار البريطـانيّ خـلال ثـورة 1857م أو مجزرة أمريسـتار سـنة 1919م، مقاربةً بنيويـة، وضعت تلك الأحداث ضمن النماذج التي تُعدُّ جوهريةً وأساسيةً بالنسبة إلى الإمبراطورية، ولم يعد يُنظر إليها

1 - Fourcade, M. 1994, p187211-

2 - Pouchepadass, J. 2014, p293 -297

3 - Lloyd, N. 2011, p178

كأحداث غير عادية أو شـاذة[1]، فلحظاتُ الأزمات كانت كفيلةً بإظهـار الطبيعة الحقيقية للإدارة الإمبراطوريـة في الهندز قادَ الاسـتعمارُ البريطانيّ في الهند، إبـادةً جماعيةً غير مباشرة، بمشروع تفقير مُمنهج من خلال نظامه الكولونياليّ الرأسـماليّ العنيف، الذي تسبَّبَ فعليًّا في إبادة ملايين الهنود، قدَّرهم الباحثان الأكاديميان: جيسون هيكيل وديلان سوليفان، في دراسة علمية نُشرت في المجلة الأكاديمية المعروفة World Development ب165 مليون بين سـنة 1880م و1920م[2]، ولم يشـملا في دراستهما عشرات الملايين الذين قضوا في مَجاعات تسـبَّبت بها أيضًا سياسات الحكومة البريطانيّة برئاسـة وينستون تشرشـل، على غرار مجاعة البنغال سنة 1943م، والتي مات فيها ثلاثة ملايين هندي جوعًا، في وقتٍ كانت بريطانيا تُصدِّرُ فيه الطعام، ويُحاجج الأكاديميان بأنَّ النظامَ الكولونياليّ البريطانيّ دمَّر الصناعة الهندية، فقبل الاسـتعمار كانت صناعةُ النسيج الهندية مُزدهرةً، تصدِّر منتوجاتها إلى مختلف أنحاء العالم، ولم يكن باستطاعة منتوجات النسيج البريطانيّة منافسـتها، لكن الأمورَ تغيَّرت فور اقتحام شركة الهند الشرقية لمنطقة البنغال سـنة 1857م.

فحسب المُؤرِّخة: مادهوسري موكيرجي أُلغيت التعاريف الجُمركية الهندية، ممَّا أفسحَ المجالَ للمنتوجات البريطانيّة لاكتسـاح السوق الهندي، ثم أُوجدت منظومة ضرائبية أثقلت كاهل الهنود وجعلتهـم عاجزين عن تسـويق إنتاجهم في الداخل، ناهيك عن تصديره، ممَّا أدَّى فعليًّا لسـحق الصناعيين الهنود وتدمير صناعة النسـيج الهندية. وهذا بالضبـط ما تفاخر به رئيس الهند الشرقية والصين أمام البرلمان البريطانيّ بقولـه:» لقد نجحت هذه الشركة في تحويل بلدٍ صناعيٍّ إلى بلدٍ مُصدِّر للمواد الخام». ففي الوقت الذي راكم الصناعيون البريطانيّون الأرباح، فُقِّرَ الهنود وأصبحوا عرضةً للمجاعة والأوبئة، فحسـب المُؤرِّخ الاقتصادي البريطانيّ روبرت ألين ارتفعت نسبة الفقر من 23 بالمئة سـنة 1810م إلى أكثر من 50 بالمئة في منتصف القرن 20م، وانخفضت الأجورُ إلى أقصى حدٍّ في مُنتصف القرن19م، بينما انتشرت المجاعاتُ التي حصدت الملايين مـن الهنـود.

2 - جرائمُ الاسـتعمار الفرنسيّ في الهند الصينية

الهندُ الصينية، هي شـبه جزيرة تقعُ إلى الجنوب من الصين وإلى الشرق من الهند، وتحمل دولها الـتأثيرَ الحضاريَّ الصيني والهندي معًا، والكيانات التي خضعت للاستعمار الفرنسيّ في المنطقة هي:

1 - Wagner, K. 2017, p233

2 - Sullivan, D. Hickel, J. 2023

فيتنام وكمبوديا ولاوس، واستقرَّ الاستعمارُ الفرنسيّ في جنوب شبه جزيرة الهند الصينية في سنوات 1860م، 1862م، 1867م، وضمَّ إليه الأجزاء الجنوبية من فيتنام، وفرضَ الحمايةَ على كمبوديا، ثمَّ تقدَّمَ شمالاً نحو الصين، حيث اصطدم مع الصينيين سنة 1884م. وقد أعطت الدول الاستعماريّة لنفسها الحق بالتدخُّل في شؤون المنطقة، وكانت الليبرالية الاقتصاديّة وحماية الحرية الدّينيّة للمسيحيين، هي المُحدِّدات الرئيسة لهذا الحقِّ المزعوم التي جاءت ضمن الخطاب الكولونياليّ المعهود، والمستند إلى فلسفة التمركز حول الذات الأوروبية، التي تختزل العالم إلى غربٍ أوروبي مُتفوق ومُتحضر، مقابل آخر دُونيٍّ ومُتوحش[1]، فلسفةٌ تُعطي الشرعيةَ للمشروع الاستعماري المُوكلة إليه وحده مهمة تمدين الشعوب غير الأوروبية. في دراسته القيمة عن الاستعمار الفرنسيّ في الهند الصينية، ينقل لنا المؤرِّخ الفرنسيّ من أصلٍ فيتنامي بيار بروشو كلمة لجول فيري سنة 1883م، أحد مُنظِّري التوسُّع الاستعماري في فرنسا، أمام غرفة النواب في معرض ردِّه على جورج كليمنصو، يرافع فيها عن المهمة التمدينية والتحضيرية للقوى الاستعماريّة الغربية في المنطقة: « هل الحضارة استفزازية عندما تبحث عن فتح أراض تنتمي إلى التوحش؟ هل فرنسا وبريطانيا استفزازيتان عندما فرضتا على الصين سنة 1860م فتح عددٍ من الموانئ من أجل اتصالٍ مُباشرٍ مع الحضارة؟»[2].

فوفق هذا المنطق، يُصبح الاختراق الاقتصادي للمنطقة والسيطرة عليها من قبل الشركات الأوروبية، وتحقيق التراكم الرأسماليّ، بنهب ثرواتها ومصادرة أراضيها، مهمة مقدسة لنقل الحضارة والتمدُّن لأرض الآخر الشرقي المُتخلف، بل تستحق الإشادة، ويضحى من يجرأ على مقاومة هذه المهمة، وفق هذا المنطق نفسه، مُتوحشًا يستدعي الإبادة. لذا فليسَ غريبًا أن يرتكبَ الاستعمارُ الفرنسيّ أبشع الجرائم في المنطقة الشمالية من فيتنام، التي تُعرف بتونكين، من تدميرٍ للقرى عن بكرة أبيها، وإبادة الكثير من سكانها قتلاً، أو تفقيراً، من خلال تدمير بناهم الاقتصاديّة التقليدية، ممَّا جعلهم عرضةً للأمراض والأوبئة الفتَّاكة. فقد شهدت مناطق شمال ووسط فيتنام بين سنوات 1883 و1896م تراجعًا كبيراً في عدد السّكّان، ينقل إلينا المؤرِّخ الفرنسيّ المتُخصِّص في تاريخ فيتنام، في الفترة الاستعماريّة شارل فورنيو، بعض الشهادات الصادمة عن المُمارسات الوحشية لجنود الجيش الفرنسيّ ومُرتزقته قائلا: « عند مرورنا بالقرى، كان لدينا الحقُّ في قتل ونهب السّكّان الرافضين للخضوع،...كنَّا نقتلُ الكُلَّ،

1 - إبراهيم، 2010، ص289-346

2 - Brocheux, P . p352

رجالاً ونســاءً وأطفالاً، بأعقاب البنادق وبالحراب، إنَّها مجزرة حقيقية». وفي وسط فيتنام عندما اقتحمَ الفرنسيّون قلعةَ هوو سنة 1885م، والتي تضمُّ القصورَ الملكيةَ، ارتكبوا مجزرةً مُروِّعةً راح ضحيتها 1500 فيتنامياً، ثمَّ استباحوا المدينةَ وعاثوا فيها نهبًا وحرقًا، وتدميراً للمعالم والآثار التاريخية[1]. لقد أُلحقت لاوس وكامبوديا بالإمبراطورية الفرنســيّة، واتَّبعت الأساليب نفسها لإخضاعها، ثمَّ اعْتُمد على الأنظمة القانونية والسّياسيّة الكولونياليّة نفسها، التي تهدف إلى تفكيك البُنى الاجتماعية التقليدية للمجتمعات المحلية المُســتعْمَرة، وترسيخ خضوع الأغلبية الفقيرة للأقلية الأجنبية المُسيطرة على مصادر الثروة، إذ كان مضمونُ تلك الأنظمة يستند إلى المركزية الأوروبية في أكثر تجلياتها العنصرية بشاعة، التي تقضي بتفوُّق العرق الأوروبي الأبيض، الذي يُعطيه الحقَّ في الســيطرة عــلى العرق الأصفر الوضيع، ليدمجه قسرًا في الحضارة، كما تظهر في كلمةٍ صريحةٍ لجول فيري أمام غرفة النواب في سنة 1885م: « أُكرر إنَّ هناك حقًا للأعراق المُتفوقة، لأنَّ هناكَ واجبًا بالنسبة إليها، يتمثَّلُ في تمدين الأعراق الوضيعة...»[2].

خاتمة

في هذه الورقة البحثية، حاولنا الكشــف عن بعض النَّماذج من الجرائم الاســتعماريّة في القرنين 19م و20م في إفريقيا وآسيا فحسب، لكن المضمونَ الإبادي، كما الظَّاهرة الاستعماريّة نفسها، تنسحبُ زمانيًا على الفترة التي بدأ فيها الاستعمار في القرن 16م، ومكانيًّا على كُلِّ القارّات التي اسْتُعمرت، بما فيها أمريكا وأســتراليا. ولقد وضَّحنا بدايةً، السياق الذي ظهر فيه الاســتعمار، عقب الاكتشافات الجغرافيَّة الكبرى في القرن 16م، ثم تحوُّله إلى اســتعمارٍ اســتيطانيٍّ، ابتداءً من القرن 17م، وصولاً إلى الصعود الرأسماليّ الأوروبي، الذي حفَّز حركةَ الاستعمارِ التي هدفت بالأساس لنهبِ ثروات الشعوب المُستعمَرة، ودمجها في أسواق المراكز الرأسماليّة في أوروبا، وبهذا يكون الاستعمارُ أعلى مرحلة من مراحل تطور الرأسماليّة كما عبرَّ لينين، ولا يختلفُ الأمرُ هنا، سواء تعلَّق الأمرُ باستعمارٍ في إفريقيا أو في آسيا.

لقد تحرَّكَ الاســتعمارُ الغربي ضمن مشروعٍ إيديولوجيٍّ وخطــابٍ كولونيالي، لا تختلفُ مُفرداته ومُحدِّداته، بل وأساطيره المُؤَسِّسَة، فالمركزيةُ الغربيةُ باعتبارها تمركزاً حول الذات الأوروبية المُتفوقة، التي تعدُّ أنَّ ميزاتها العرقية والثّقافيّة والحضارية، هي مركزٌ للكون، وما عداها، سواء كان عربيًا أو أسودًا

1 - Fourniau, Ch. 1989, p354355-

2 - Brocheux, Ch. p357

أو هنديًّا، يستدعي التهميش والإقصاء، أو منطق الإلغاء، وفق ما يُسمِّيه المُؤرِّخ الأسترالي باتريك وولف في دراسته القيِّمة «الكولونياليّة الاستيطانيّة والقضاء على السّكّان الأصليين»[1]، والذي يعدُّهُ جزءًا بنيويًّا من طبيعة الاستعمار الاستيطاني، والإلغاء في هذا السياق لا يعني سوى إبادة الشعوب المُستعمَرة، بالقتل المُباشر أو بخلق الظروف الموضوعية للمجاعات والأوبئة القاتلة، كما أنَّ تدميرَ البُنى الاقتصاديّة والاجتماعية والثّقافيّة لهذه الشعوب، وهو أيضًا شكلٌ من أشكال الإبادة، يأتي ضمن الإطار العنصري الإقصائي نفسه الذي يفترضُ موقعها الهامشي بل والوضيع، الذي يستحقُّ الدمجَ القسري في دورة المدنية، أو ما ينعته الخطاب الكولونياليّ بالمهمة التمدينية للاستعمار، والتي تعدُّ مُحدِّدًا رئيسًا آخر لهذا الخطاب. وقد توصَّلنا من خلال هذه الورقة إلى نتيجتين، أوَّلا: التأكيد على التلازم بين صعود الرأسماليّة والاستعمار، بحيث يمكن الجزم بأنَّ النظامَ الرأسماليّ الحديث تأسَّسَ على التراكم الناتج مُباشرة عن الاستغلال والنهب الذي مارسه الاستعمار، ثانيًا: التلازم بين الاستعمار- بمختلف أشكاله- والإبادة الجماعيّة، هذه العلاقة البنيوية بينهما تجدُّ جذورها في مضمون الخطاب الكولونياليّ بمُحدّديه الرئيسيين: المركزية الأوروبية، والمهمة التمدينية للاستعمار، التي تستبطن جوهرًا عنصريًّا إقصائيًّا لكُلِّ آخر غير غربي، وهويستبطنُ بدوره الاستعداد للإبادة، وهاتان النتيجتان تستدعيان ضرورة البحث المُعمَّق فيهما، في العناصر المُؤسسة للنظام الرأسماليّ وتطوره منذ ظهوره قبل الاستعمار وأثنائه، إلى مرحلة النظام النيوليبرالي اليوم[2].

وفي تفكيك الخطاب الكولونياليّ، بالبحث في الجذور الفلسفية والتاريخية والدّينيّة للنزوع الغربي نحو التمركُز حول الذات، ومنطق الإقصاء والإبادة للآخر، ولا تتأتَّى هذه الضرورة لمُقتضيات البحث التاريخي فحسب، وإنَّما لأنَّ الراهنَ والمستقبلَ أيضًا يتطلبُ هذا، ذلك أنَّ المشروعَ الاستعماري الغربي، بنزعته المركزية العنصرية والإبادية، لا يزالُ يعيُد إنتاجَ نفسه بما تتطلبه كل فترة تاريخية، ويمارس أساليبه الإبادية المعهودة، ويستحضر خطابه الإيديولوجي نفسه، حتى وإن حاولَ تنميقه أحيانًا، وقد شاهدنا في الماضي القريب، ما ارتكبه مثلاً من جرائم في حقِّ الشعب الأفغاني والعراقي، وما يرتكبه حاليًّا في غزة، ولا تزالُ طرقَ التجويع والتفقير من خلال العقوبات والحصار، جزءاً أساسيًّا من استراتيجيته لإخضاع الشعوب، كما في اليمن وسورية ولبنان وكوريا الشمالية.

1 - Wlofe, P. 2006, p387- 409

2 - Lloyd, D. & Wolfe, P. 2015, p1- 10

المراجع والمصادر

باللغة العربية:

- ابراهيم، ع. (2010) المركزية الغربية، منشورات الاختلاف، الجزائر.
- خوجة، ح. (2005) المرآة، تعريب محمد العربي الزبيري، منشورات ANEP، الجزائر.
- دودو، أز (1975) الجزائـر في مؤلفـات الرحالين الألمـان(1830-1855م)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- سعد الله، أ. (1992) الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، الجزء 1، دار الغرب الإسلامي، بيروت.
- كيبري، ب. (1988) تاريخ إفريقيا العام، المجلد الرابع، المشرف على المجلد ج. ت. نياني، اليونسكو، المطبعة الكاثوليكية، بيروت.

باللغة الانكليزية:

- Alexander, N. (2013) Three Essays on Namibian History, The Estate of Neville Edward Alexander, South Afric.
- Benot, Y. (2001) Massacres coloniaux 19441950- :la IVé République et la mise au pas des colonies françaises, La découverte, Paris.
- Bley, H. (1971) South West Africa Under German Rule, Heinemann, London.
- Bottomore, T. (1983) A Dictionary of Marxist Thought, Blackwell Publishers, Oxford.
- Bridgman, J. and Worley, L.J. (1997) « Genocide of the Herero », in S.Totten, W. Parsons and I.Charny, Century of Genocide, Eyewitness Accounts and critical Views, New York and London, Garland Publishing.
- Burrows, C. (1903) Curse of Central Africa, Stanford libraries, London.

■ Calmeyn, M. (1912) Au Congo belge, chasses à L'éléphant, les indigènes, l'administration, Ernest Flammarion et fils Editeurs, Paris.

■ Castelein, A. (1907) l'Etat du Congo, ses origines, ses devoirs, Le réquisitoire de ses accusateurs, Goemaere, Bruxelles.

■ Césaire, A. (1955) Discours sur le colonialisme, Présence africaine, Paris, 1955.

■ Christian, P. (1846) L'Afrique Française l'empire de Maroc et le désert de Sahara, A.Barbier éditeur, Paris.

■ Church, R.J. (2002) Modern colonisation, Hutchinson›s University Library, London.

■ Condos, M. (2017) The Insecurity State: Punjab and the Making of Colonial Power in British India, Cambridge University Press, Cambridge.

■ Courrière, Y. (1968) les Fils de la Toussaint, Fayard, Paris.

■ Dieuzaide, V. A. (1880) Histoire de l'Algérie 18301878-, Tome 1, Imprimerie de l'association ouvrière, Oran.

■ Dirk, A. (2013) Moses, Genocide, Australian Humanities Review , 55.

■ Doyle, A. (1909) The Crime of the Congo, Doubleday, Page and Company New York.

■ Drechsler, H. (1980) Let us die fighting : the struggle of the Herero and the Nama against German Imperialism, Zed Press, London.

■ Ferro, M. (2014) Le livre noir du colonialisme XVIe-XXLe Siécle : de l'extermination à la repentance, Dar Kitab El Arabi, Alger.

■ Fourcade, M. (1994) Les dénommées « tribus criminelles » de l›Inde britannique : violence coloniale, violence traditionnelle, Purusārtha, n16, Centre d'études de l'Inde et de l'Asie du sud, Paris.

■ Fourniau, Ch. (1989) Annam-Tonkin 18851896-, Lettrés et paysans vietnamiens

face à la conquête coloniale, L›Harmattan, Paris.

■ Gallois, W. (2012) Dahra and the Historie of Violence in Early Colonial Algeria, The French Colonial Mind, Vol 2, University of Nebraska Press, Lincoln.

■ Gallois, W. (2013) Genocide in nineteenth-century Algeria, Journal of Genocide Research, Vol 15 n°1, Routledge, London.

■ Gewald, J.B. (1999) Herero Heroes : A Socio-Political History of the Herero of Namibia, 18901923-, James Currey, Oxford.

■ Goldzeiguer, A.R. (2002) Aux origines de la guerre d'Algérie 19401945- de Mers-el-Kébir aux massacres du Nord-Constantinois, Casbah Edition, Alger.

■ Gouvernement Générale, l'Afrique occidentale française, La Côte d'Ivoire, Edition Crêté, Imprimerie Typographique, Cordeil, 1906.

■ Hochschilid, A. (1998) Les Fantômes du roi Léopold, Un holocauste oublié, Paris, Belfond.

■ Kateb, K. (2010) Européens, « indigènes » et juifs en Algérie '18301962-), Edition el MAARIFA, Alge.

■ Kotek, J. (2008) Le génocide des Herero, symptôme d'un Sonderweg allemand, in Revue d'Histoire de la Shoah, N° 189, Éditions Mémorial de la Shoah.

■ Le Cour Gandmaison, O. (2005) Coloniser, Exterminer. Sur la guerre et l'État colonial, Fayard, Paris.

■ Lindqvist, S. (1998) Exterminez toutes ces brutes, Le Serpent à Plumes, Paris.

■ Lloyd, D. & Wolfe, P. (2015) Settler colonial logics and the neoliberal regime, Settler Colonial Studies, Routledg.

■ Lloyd, N. (2011) The Amritsar Massacre : The Untold Story of One Fateful Day, I.B.Tauris, London.

■ Maculay, T.B. (1835) Minute on Indian Education, February 2, 1835.

■ Mekhaled, B. (2000) Chroniques d'un massacre 8 mai 1945 : 8 mai 1945 Sétif, Guelma, Kherrata, Edition Syros, Paris.

■ Pélissier, E. (1854) de Reynaud, Annales Algériennes, Tome1, Imprimerie militaire, Paris.

■ Stenmetz, G. and Hell, J. (2006) The Visual Archive of Colonialism: Germany and Namibia, Public Culture 181-, Decembre 2006, Duke University Press, Durham.

■ Sullivan, D. (2023) Capitalism and extreme poverty: A global analysis of real wages, human height, and mortality since the long 16th century, World Devolopment volume 161,January 2023, Elsevier.

■ Viti, F. (2017) les massacres de Diapé et de Makoundié (Côte-d)Ivoire, juin 1910) Entre répression coloniale et violences interafricaines, Cahiers d)études africaines, Éditions de l'EHESS, n° 225, 2017.

■ Wagner, K. (2016) Calculated to Strike Terror: The Amritsar Massacre and the Spectacle of Colonial Violence, Past & Present, 233, 1, 2016.

■ Wlofe, P. (2006) Settler colonialism and the elimination of the native, Journal of Genocide Research, 8(4), December, Routledge.

حروبُ أوروبا الاستعمارية في أمريكا اللاتينيّة خلال العصر الحديث (1492-1550م)

■ أ. د. حسام جميل النايف[1]

ملخّص

يتنـاولُ هذا البحث، الاسـتعمارَ الأوروبي لقارة أمريكا اللاتينيّة خلال القرن السّـادس عشر، وقد ركَّزَ على تاريخ القارة الأمريكية (وبشـكل خاص أمريكا اللاتينيّة)، في فترة ما قبل الاسـتعمار الأوروبيّ، من خلال التعرف على أهمِّ الشعوب التي استطاعت الوصول إلى القارة قبل معرفة الأوروبيين بها. والحضارات التي نشأت وازدهرت قبل تعرُّض القارّة للغـزو الأوروبي، ومن أهمّها حضارات الأزتك والأنكا والمايا، مع وصف مُختصر لهذه القـارات، والتقدُّم الذي وصلـت إليه. كما يتعرَّض البحث كذلـك، للغزوات الأوروبية الأولى للقارّة، وبشـكلٍ خاصّ رحـلات كولومبوس الأربع، ورحلة أمريكو فيسـبوتشي والرحَّالة الفاريز، وما حدث خلالها من اكتشافات. وقد تمَّ التطرُّق إلى التوسُّع الأوروبي داخـل القارة، والتدمير المنهجيّ للحضارات القديمة التي كانت قائمةً حتى ذلك الوقت في القارة. ونهب خيراتها وقتل سكّانها واستبدالهم بالعنصر الإفريقيّ. كما تطرَّقَ البحثُ إلى أهمّ النَّتائج السـلبيَّة للاسـتعمار الأوروبي للقارة، وما خلَّفه هذا الاستعمار من نهبٍ للثَّروات، وتفريغ للسّكان، وتغيير في طبيعة المجتمعات الأمريكيّة هناك.

الكلمات المفتاحية:
أمريكا اللاتينيّة- الغزو الأوروبي- الاستعمار- الحضارة- الحرب.

1 - أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر، رئيس قسم التاريخ، جامعة دمشق - سورية.

مُقدِّمة

«يُعدّ اكتشافُ القارة الأمريكيّة، وطريق الهند، عبر رأس الرّجاء الصّالح، أعظم وأهمّ حدثين في تاريخ البشريّة الحديث. ولم تكن حكمة البشر، تستطيع أن تتنبأ بأية فوائد أو مصائب للبشريّة ستنتج عن هذين الحدثين العظيمين من الآن فصاعداً. لقد قدَّم اكتشاف أمريكا مساعدة جوهريّة لوضع أوروبا، فاتحًا سوقًا جديدة لا تُستنفذ، أدَّت إلى توسُّعٍ ضخمٍ للقوى المنتجة وللدخل الحقيقي والثروة»[1].

يُؤثِّرُ الامتدادُ الواسعُ لأمريكا اللاتينيّة في المقام الأول على مظاهرها الجغرافية، فيغنيها بالمناطق الطبيعية التي تتوزع بين الشمال والجنوب، والغرب والشرق. ولهذا يمكن اعتبار أمريكا اللاتينيّة ككل، وحدة طبيعية كاملة، لا علاقة لها من حيث التكوين الجيولوجي والتطور المناخي والنباتي والتضاريسي بالأقسام الشمالية من أمريكا، أي أمريكا الأنغلوسكسونية، والمكسيك.

ومن جهة أخرى، ففي أمريكا اللاتينيّة اختلافات طبيعية في التفاصيل، بين المكسيك وبقية أجزاء أمريكا الوسطى، وبين أمريكا الوسطى والجنوبيّة أيضاً، لكن يُمكن القول: إنَّ أمريكا الجنوبيّة أكثر تكتُّلاً من الناحية الطبيعية من الأجزاء الأخرى من القارة .

وبعد مرور أكثر من خمسة قرون، لا تزال رحلةُ كريستوف كولومبوس تثيرُ المزيدَ من الأسئلة. أسئلة عن أهمية الرحلة. وأخرى عن الرجل الذي قام بالرحلة. هل كانت فتحًا جديدًا من فتوح البشرية، أم دمارًا مؤكدًا لحضارة نقية، عاشت وتطورت بعيداً عن آفات العالم القديم؟ وهل كان الرجل بطلاً ومُكتشفاً باهرًا، أم سفَّاحًا لا يقلُّ هولاً عن بقية السفَّاحين الذين عرفتهم البشرية؟ فقد شكّلت الرحلة نهاية زمن وبداية زمن جديد.

وفي العام نفسه (1492م)، سقطت آخر قلاع المُسلمين في غرناطة، وبدأ عصرُ الأُفول

1 - تشومسكي، 1999، ص11

الإسـلامي. واسـتولت على غرناطة الملكة إيزابيلا، وهي نفسـها التي موَّلت رحلة كولومبوس وباركتها. وبدأت مرثية الغروب للحضارة الإسلامية، وأعلنت الحضارة الغربيّة انتصارها المُدوّي، سـواء في العالم القديم، عندما حاصرت كلّ طـرقِ التجارة التقليديّة باكتشـاف الطرق البحريّة الجديدة، وتنامت قوتها العسـكرية ضد كلّ رفاق الحضارة القديمة، أو في العالم الجديد عندما اقتحمت مجاهل الأطلسي حتى اكتشفت قارةً كاملةً. وهكذا أصبحت ذكرى كولومبوس مناسبةً عالميةً أكثر منها مناسبة تُهمُّ أمريكا أو أوروبا وحدها[1].

أولاً: أمريكا اللاتينيّة قبل الغزو الأوروبي

إمبراطورية المايا

امتدّت حضارةُ المايا من مُنتصف القرن الثالث الميلادي إلى القرن العاشر الميلاديّ. وخلال هذه الفترة أَسَّـسَ المايا أكبر مدنهم، وحقَّقوا إنجازاتهم المُتميزة في مجالات الأدب والعلوم. بالإضافة إلى ذلك، بدأ المايا ممارسة تشييد النُصب التذكارية، تخليدًا للأحداث المُهمة في حياة قادتهم.

لقد كان المايا في كلّ العصور جنسًا قلقًا، لا يستقرُّ له قرار؛ إذ لطالما هُجِّروا في بلادهم نفسها، غواتيـمالا ويوكاتان المدينة تلو الأخرى. ورُغم أننا لا نسـتطيعُ بطبيعة الحال أن نعزو ذلك إلى سببٍ وحيدٍ، فإنَّه من المُحتمل – إذا ما استطعنا أن نخترقَ حُجب الظلام التي تُخفي تاريخَ المايا القديم- أن نتوصلَ إلى سـببٍ أصبحَ اليوم واضحاً، وهو أن شـعوباً همجية كانت تضغط عليهم من كلّ الجهات، وتهاجمُ عند كلّ فرصة تسنح لها، وتمتصهم شيئاً فشيئاً[2].

قبـل قرون من وصول المُستكشـفين الأوروبيّـين إلى العالم الجديد، كان المايـا يبنون مدنًا ضخمةً، ويدرسـون النجومَ، ويخلقون لغة مكتوبة مُعقدّة في الأدغال والسّـهول السّـاحلية في أمريكا الوسطى، وهي منطقة ثقافيّة تشمل المكسيك وأجزاء من أمريكا الوسطى.

وبحلول الوقت الذي وصلَ فيه الغزاةُ الإسـبانُ في القرن الخامس عشر، كانت مدنُ المايا قد هُجِّرت لفترةٍ طويلة، وكانت في حالة خراب. ورغم أنَّ حضارةَ المايا الكلاسيكية لم تعد موجودةً، فإنَّ المايا كثقافة كادت أن تختفي.

1 - كولومبوس، 1997، ص144-145

2 - رادين، 1989، ص136

اليوم، يعيشُ أكثر من 7 ملايين شـخص من المايا في ولايات يوكاتان وكامبيتشي وكينتانا رو وتاباسكو وتياباس المكسيكيّة، وكذلك في دول أمريكا الوسطى بليز وغواتيمالا والأجزاء الغربيّة من هندوراس والسّـلفادور. إنَّهم، في الواقع، أكبر كتلـة واحدة من الأمريكيّين الأصليين الذين يعيشون حاليّا في أمريكا الشمالية أو الوسطى[1].

لأزتيك

وقـد كانت تمتدُّ مـن المحيط الأطلسي إلى المحيـط الهادئ، ومن هضبة المكسـيك حتَّى نيكاراجوا. وكان الأزتيك قد جاؤوا من الشـمال في القرن الثالث عشر، وأنشأوا مدينةً في وسط المُسـتنقعات، وفي المكان الذي شـاهدوا فيه نسرًا كبيراً يأكلُ حيةً ضخمةً. فاعتقدوا أنّها إشارةٌ من ربهم «مكسيتلي» لوقف سيرهم، وبناء عاصمتهم، التي ستحمل اسم مكسيكو. وسرعان ما تحدّت القبائل المجاورة أو خضعت ودفعت الجزية.

وقد سادت قوانينُ الأزتيك، وانتشرت آلهتهم في كلّ المنطقة. وتحدَّثَ الفلاسفةُ وعلماء الآثار عـن عادات الأزتيك، وما تركوه من قصور ومعابد وأهرامات، وعلينا ألَّا ننسى وحشـيةَ الأهالي في هـذا الإقليم، وهذا العصر. وذلك أنَّ الأزتيك كانوا يُحبِّون الدماء، وكانوا يتركون للفرد حريةَ اختيار مُستقبله، ولكن على أساس احتفاظ الدولة بحق التضحية به، وكما نرى، وبمجرد أن تطلب الآلهة تقديمَ القرابين والأضحيات لها[2].

الأزتك – بحسـب كلّ الاحتمالات- لم يتركوا موطنهم القديـم قبل عام 800 للميلاد. وكانوا يومـذاك شـعبًا مُتمدنًا بما فيـه الكفاية؛ لأنَّهم كانوا قـد خضعوا لعدة تأثـيرات ثقافية أتتهم من الجنوب، حتَّى وصلت إلى الولايات المتحدة. فإشعاع حضارة المايا الكبيرة، وكذلك إشعاعات الثقافات التي يحتمل أنها وصلت من أمريكا الجنوبيّة، كلّ ذلك وصل إليهم، وجعل من هؤلاء البُداة النهّابين أمة حضرية منظمة.

وكان الأزتيكُ، بعد أن خرجوا من موطنهم نصف الأسطوري، الذي يُسمُّونه الكهوف السبعة، آخر من دخل إلى مسرح الأحداث. وكانت قد سبقتهم إليه ستّ من قبائل الناهواتل الكبرى، التي

1- George, C&L. 2001, p8- 9

2 - يحيى، 1982، ج 4، ص210

كانت من أقربائهم المُقربين، والتي كان عليهم أن يُقارعوها من أجل أن يتوصلوا إلى السيادة على وادي مكسيكو. وكانت أولى القبائل التي اتّجهت نحو الجنوب، تلك التي يُطلقون عليها اسم: "زارعي الأزهار". وتلاهم "شعب الأفواه"، ثم "شعب الجسر"، ثم "شعب الممرات الملتوية"، "فشعب الداخل"، وأخيراً "شعب الذرة الصفراء".

وكان الأزتيـكُ آخـر من تركـوا بلادهم الغامضـة - الكهوف السـبعة - جالبـين معهم إلههم هويتزيلوبوشـتلي. وهذا الإلهُ كما يَدَّعون، هو الذي أمرهم بترك بلادهم، واعدًا إيّاهم بالسّيطرة على كلّ المقاطعات التي كانت قد استقرَّت فيها القبائل السّت التي سبقتهم من الناهواتل. وهي بلادٌ غنيةٌ بالذهب والفضة والمعادن الثمينة وغيرها من المواد القيّمة[1].

حضارةُ الإنكا

كانـت حضارةُ الإنكا، من أعظم الحضارات التي نشـأت في القارة الأمريكية، وتشـهدُ الأوابدُ والآثارُ الباقيةُ منها على مدى التقدم والرقي الذي شـهدته هذه الحضارة العظيمة. ولم تكن هناك بلاد تبدو أكثر أمناً من تلك المملكة الرابضة بين مرتفعات الجبال في نهاية العالم. إنها مملكة الإنكا في جبال الأنديز، بالقُرب من الشَّاطئ الغربي لقارة أمريكا الجنوبيّة، ومكانها الآن دولة البيرو.

كان شـعبُ الإنكا[2] قد عاشَ في منطقته المُنعزلة النّائية هذه، زهاء ألف سـنة على أقلّ تقدير، تمكّن مـن خلالها من صنع حضارةٍ راقيةٍ. فأنشـأ إمبراطورية عزيزة الجانب يحكمها ملك مطلق السـلطات، يُلقّب ب» الإنكا»، ومن هذا اللقب، جاء اسم الشعب الذي ينتمي إلى جنس الهنود الحمرَ، الذين كانوا يعمِّرون الأمريكيتين قبل قدوم الغزو الأوروبي. ولما كانت الأرض كلها جبليّة وعرة، لذلك، فقد نحتها شعب الإنكا على شكل شُرفات مُتصاعدة يزرعون فيها محاصيلهم وأهمها: «الكوكا». ونحتوا بين معارج

1 - رادين، 1989، ص70

2 - الإنكا: لقد طمسَ أصلُ سلالة الإنكا في ضباب أسطوري، إذ يقولون إنه جاء في القرن الحادي عشر ثلاثة رجال وامرأة إلى الجبال، وتسلَّقوا حتى وصولوا إلى غابات الأمازون، وبعد وصولهم إلى تلال «كوزكو» حطَّ الأربعةُ ووضعوا قطعةً ذهبيةً ادعوا أنهم ورثوها عن أبيهم «إله الشمس»، والذي قال لهم، أينما تغوص القطعة الذهبية في الأرض فهو مكانُ سكنكم، وقام اثنان من الأخوة بتحويل أنفسهم إلى صخور مُقدسة وتزوج الباقيان من ذكر وأنثى وبقيت عدةُ أجيال من الأخوة يتزاوجون فيما بينهم. وقد حكمت سلالة الإنكا في سلالةٍ صغيرةٍ في البدء، وبدأت بقيةُ القبائل المجاورة بمهاجمتهم ولكنهم انتصروا عليها وأنشأوا إمبراطورية امتدت عبرَ جبال الأنديز. (كورتيل: قاموس أساطير العالم، ص 181).

الجبال شبكة من الطرق المُمهدة تقفزُ فوق العقبات بوساطة جسور وأنفاق غاية في الدقة الهندسية[1].

لم تكن أوروبا نفسها تعرف مثل هذا التقدم الهندسي في ذلك الحين، أمَّا شعبُ الإنكا، فقد برعَ في الهندسة والعمارة والحساب، وكان له تقويمٌ شمسيٌّ دقيقٌ، بحسب دورة الأفلاك السماوية، إلى أقصى حدٍّ مُستطاعٍ من الدقة، وكانت له مدنٌ زاهرةٌ حصينةٌ بين الغابات وذرا الجبال، لا يُمكن أن يقتحمها عدوٌ، كما برعَ هذا الشعب في فنون النّحت وصناعة التحف والتماثيل وسبك المعادن[2].

لا شكّ أنَّ أحدَ الأسباب الرئيسة في نجاح الإنكيين في بناء إمبراطوريتهم تجسَّدَ بتنظيمهم العسكري. فتفوق جيشهم وقادته، وتجهيزاته، وتكتيكاته، ساعدهم في إيقاع الهزيمة بأعدائهم. وكان جيشهم مُنضبطًا انضباطًا عاليًا، ويتألفُ في غالبيته من أفراد جُنِّدوا من بين شعوب سبق وأن فتحوها[3].

والمفتاح الثاني لنجاح الإنكيين، في تشكيل إمبراطورية مُوحَّدة، تمثَّل بتنظيمهم للشعوب المفتوحة بلادها. ويُنسب إلى باتشاكوتي"Pachacuti"، تاسع ملوكهم، إقامة دعائم الإمبراطورية وجعلها تسير بفعالية، على الرغم من احتمال بدء تلك العملية في وقت سابق عليه. فقد قُسِّمت الإمبراطورية إلى أربعة أقسام، تنطلقُ خطوطُ عزلتها عن بعضها من مدينة كوزكو "Cuzco, "، العاصمة. وكانت هذه الأقسامُ مُتساويةً بعضها مع بعض في الحجم[4].

ثانياً: الكشوف الجغرافية في أمريكا اللاتينيّة وبدايات الغزو

الكشوف الجغرافية الإسبانية

في الوقت الذي بدأت فيه البرتغالُ البحثَ عن مُستعمرات لها في طريق التجارة الهندية، اتّجهت إسبانيا هي الأخرى إلى تدعيم مركزها السياسي الأوروبي بالكشوف والتوسُّع الخارجي، وقد توحَّدَ الإسبانُ والبرتغاليون في هدفٍ واحد، هو الوصول إلى جُزر التوابل، لكنهما تعاكسا في الاتجاه. فبينما اتجه البرتغاليون شرقاً، كان اتجاهُ إسبانيا إلى الغرب[5] وقد خرجت إسبانيا إلى الاكتشاف والاستعمار بعد التوحيد مباشرة، مُغربة في الأطلسي، ومن الطريف ذكره أنَّ الكشوفَ

1 - Somervill, B.A. 2009, p25

2 - موسى، 1992، ص125

3 - Rowe, J.H, 1946 , p.274

4 - مالباس،2012 ، ص78

5 - (نوار، 1999، ص64)، و(رمضان، 1997، ج1، ص234)

الإسبانية التي أدَّت إلى اكتشاف القارة الأمريكية، قامت على أكتاف غير الإسبان في البداية، فقد تزعَّمَ حركةَ الكشف الإسبانية كولومبوس الجنوي، وماجلان البرتغالي[1].

رحلات كريستوفر كولومبوس الأربعة

يُنسبُ البحّار الشهير كريستوفر كولومبوس (1451-1506) إلى جنوب إيطاليا، حيث تزوج في برشلونة من ابنة قائد كان قد أبحر عبر الأطلسي، حتى وصلَ إلى جزر أثورس. ومن قراءة رسائله ويومياته التي دوَّنهـا عن رحلاته، آمنَ كولومبوس بالنظرية التي تقول: بإنَّ الأرضَ كرويةٌ. وكان يريد إيجاد طريق إلى آسيا المشهورة بتوابلها[2].

نشـأت خطةُ كولومبوس من خلال الرغبة العارمة التي كانت تسودُ أوروبا في القرن الخامس عشر، من أجل الوصول إلى الشرق السـاحر، المليء بالذهـب والتوابل[3]، ومن أجل ذلك فإنَّهُ عرضَ فكرته على حكومته، ثم على الحكومة البرتغاليّة والإنكليزية. وبعد الكثير من المحاولات الفاشـلة، وجد أخيراً من يسـمعه ويمدُّ له يد العون، وهي الملكة إيزابيلا، ملكة إسبانيا الطامعة لملء الخزائن الإسـبانية الفارغة، بعد حروب الاضطهاد المريرة ضد المسلمين، وطمعاً بالوعد الذي قطعه كولومبوس للبلاط عن رغبته في الإبحار إلى " مناطق يُستخرج الذهب من أرضها كما يستخرج الحديد دون الحاجة إلى شرائه بالمال"[4] وطبقاً للأسطورة الشهيرة، فقد قامت الملكةُ إيزابيلا برهن مجوهراتها، لكي تُنفقَ على هذه الحملة الجريئة[5].

وبعد الحصول على مُوافقة الملكة الإسـبانية، ومُباركة زوجها الملك فرديناند، اللذان مَنحاهُ لقبَ حاكم على الأراضي المُكتشفة، وزوَّداه أيضًا بثلاث سفن صغيرة، بدأ البحَّار الجنوي حملة استكشافية بحرية إلى المحيط الأطلسي، انطلقت من ميناء بالوس في الثالث من آب عام 1492، حاملاً معه تسعين ملاَّحًا، مُتوجِّهًا نحو الغرب قاصداً الهند، دون أن يعرفَ أنَّ هناك قارةً لابدّ من اجتيازها قبل الوصول إلى آسيا.

سارَ كولومبوس وبعثته وسفنه في المحيط مدة شهرين وتسعة أيام، لاقى الجميعُ فيها الأمّرين،

1 - حمدان، 1983، ص58-59
2 - رودريجث، 1997، ص85
3 - كولومبوس، بداية الحلم أم ذروة المأساة، ص146
4 - المصدر نفسه
5 - رودريجث، 1997، ص85

قبل أن يصلَ إلى الأرض، تلك الأرض التي تُعرف بجزر الباهاما، والتي أُطلق عليها اسم سان سلفادور[1]، مُعتقداً أنه وصل إلى جزر الهند الشرقية (جزر الأرخبيل الياباني على شاطئ آسيا الشرقية[2]، على الرغم من أنه لم يجد أثراً للتوابل. ومن الباهاما توجَّه إلى شاطئ كوبا الشمالية، وجزيرة هاييتي التي أسماها بإسبانيا الصغيرة. ثم عاد في آذار 1493 إلى إسبانيا، يحملُ معه نماذجَ من النباتات غير المعروفة في أوروبا، كالبطاطا والتبغ والذرة والقطن، بالإضافة إلى كميات من الفضة والذهب. كما حمل معه مجموعةً من السكّان الأصليين[3].

وقامَ كولومبوس برحلته الثانية في 25 أيلول 1494، وعندما وصلَ إلى اسبانيولا (جزيرة هاييتي)، قام بتأسيس بلدة إيزابيلا بمساعدة 1310 من الإسبان. وتعدُّ هذه المدينة أولى المدن التي شُيدت في العالم الجديد. وقد دُمرت أثناء الحرب مع السكّان الأصليين بعد ذلك[4].

وبعد غياب دام قرابة ثلاث سنوات، وصل كولومبوس أخيراً إلى إسبانيا، وحط رحاله في ميناء قادش في 11 حزيران من عام 1495 [5].

وبعد ثلاث سنوات قام كولومبوس بتجهيز أسطوله لرحلةٍ جديدة، وفي 30 أيار 1498 غادر كولومبوس ميناءَ قادش مع ستة مراكب، وأكثر من 600 بحار. وفي هذه الرحلة، اتّجهَ إلى الرأس الأخضر بغية متابعة سيره غرباً. وبعد سنتين من الإبحار، وصل إلى جزيرة ترينيداد، وعند مغادرته هذه الجزيرة، وفي طريق عودته على طول ساحل فنزويلا، شاهد كميات هائلة من المياه تندفع من خليج أورنيوكيو، فكتب إلى الملك الإسباني يقول: «بأنه مقتنع بأنَّ هذه الأرض كبيرة جداً تُشبه في اتساعها قارة جديدة.

وفي رحلته الرابعة والأخيرة، انطلقَ كولومبوس يُرافقه 140 بحاراً على متن ثلاث سفن كبيرة ورابعة أصغر حجماً في 11 أيار 1502 من ميناء قادش الإسباني. وقد استمرت رحلته الأخيرة ما يقارب السّنتين والشّهرين، وعادَ أخيراً إلى إسبانيا في 7 تشرين الثاني 1504. دون أن تُسفرَ رحلته عن كشوف عظيمة، سوى التوصُّل إلى معرفة ساحل أمريكا الوسطى[6].

---

1 - أبو علية، 1987، ص12

2 - محلي، 1974، ص29

3 - مخزوم، 1983، ص91

4 - Hugo,D. D. 1936, p22)، و(رودريجث، 1997، ص85

5 - Hugo,D. 1936, p22- 25

6 Hugo, D. 1936, p22- 25

ومن سخريّة الأقدار، فإنَّ كولومبوس الذي كُرِّمَ في حياته ومُنحَ الكثيرَ من التقدير، تُوفيّ فقيراً مُعوزاً في 20 أيار من عام 1506، في بلد الوليد بإسبانيا، ولم يعرف أنَّ الأراضي التي اكتشفها تنسبُ إلى نصف الكرة الغربي، والتي كانت في ذلك الوقت مجهولةً بالنّسبة إلى مُعاصريه الأوروبيّين[1].

رحلات البحارة الفلورنسي أمريكو فيسبوتشي

قـام هـذا البحَّار بعدة رحلات نحو الغـرب، ما بين 1497و 1502 ، حيث سـار فيها بمُحاذاة الشَّاطئ الشرقي لأمريكا الجنوبيّة، دون أن يصلَ إلى نهايته[2].

تـأتي أهميةُ الرحلات التي قام بها هذا البحار، بنشره بعد عودته نبأ رحلاته بالكتابة عنها وعن الأشياء التي وجدها في أثناء هذه الرّحلات، حيث أعلنَ أنَّ البلادَ التي وصل إليها هي بلادٌ جديدةٌ ليسـت الصّين أو اليابان أو الهند، وإنَّما هي أرض جديدة مُختلفة عنها[3] وقد بعثَ إلى إسـبانيا برسالة في 10 آذار 1503 يُبشرُ بوجوده أمام قارة جديدة[4] غير القارة الآسيوية[5] واستندَ في إعلانه إلى ملاحظته أبراج النجوم المجهولة وانقلاب الفصول في القطب الجنوبي، حيث يسودُ الشتاءُ خلال شهور الصيف الأوروبي[6].

نُشرَ في عام 1504 التقريرَ الذي وضعه أمريكو عن البرِّ الجديدِ في سان ديغو في الفوج، فبدأ اهتـمام الأوروبيين بالبلاد الجديـدة، وطلب أمير اللورين ريني الثاني، مُشـجِّع الجغرافيين في ذلـك الزمان، من عالم الجغرافية والرياضيّات الألماني «والدمولار»، بأن يضعَ خريطةً مُناسـبةً عـن العالم الجديد، لتضمَ إلى تقرير أمريكو مُقترحاً تسـمية البرِّ الجديدِ فيها بأمريكا نسـبة إلى أمريكو أول المُتحدثين عنه[7].

---

1 - رودريجث، 1997، ص86

2 - محلي، 1974، ص30

3 - أبو علية، 1987، ص13

4 - لقد تنبَّأَ الفلكيُّ الإيطاليُّ بطرس مارتور في رسالة بعثَ بها إلى الكاردينال أسكانيوس سفورزا في الأول من تشرين الثاني 1493، بأنَّ كولومبس قد اكتشفَ عالماً جديداً، لا عالماً معروفًا، أوشاطئا آسيويا لبرٍّ قديمٍ. انظر: (محلي، أمريكا اللاتينيّة ، ص 30).

5 - محلي، 1974، ص30

6 - سيجورنه، 2003، ص26

7 - محلي، 1974، ص30

وهكذا أطلقَ الجغرافيون وواضعو الخرائط اسـمَ أمريكو فيسـبوتشي على القارة المُكتشفة، وصارت منذ ذلك الوقت تُسمَّى بأمريكا نسبة إليه[1].

الكشوف الجغرافية البرتغاليّة

رحلةُ البحارة كابرال بيدرو أَلْفَاريز (1467 – 1528):

اسـتمرت في حياة كولومبوس وبعدها، الحملات الجدية للتمكّن من كشـف معالم هذا البرِّ الجديدِ على الأوروبيين واحتلال المناطق الغنية منه. وكانت تركبُ السّفن المُبحرة نحو الغرب إذ ذاك، أعداد كبيرة من البحارة وجماعات غير قليلة من رجال الدّين المُتعصبين المُغامرين والمُرتزقة واللصوص من الإسـبان والبرتغاليّين، ممن يبحثُ عن السـلطة والذهـب والمجد في بلادٍ بكرٍ، تدفعهم إليها روح الحروب الصليبية التي عاشـوها في أوروبا والمشرق. وقد اكتشـفت شواطئ جديدة في أمريكا، منها عام 1500 الشَّاطئ البرازيلي، على يد البرتغالي كابرال بيدرو ألفاريز[2].

وفي الثاني والعشرين من نيسـان، رأى البحارةُ ما يُعرَفُ اليـوم بالجنوب الشرقي من البرازيل. وقد أعلـن كابرال المنطقة ممتلكات برتغالية. وتقعُ الأرضُ ضمنَ الأملاك البرتغاليّة، كما حدّدتها معاهدة توردي- سـيلاس عام 1494م. فقد كابرال واحدةً من السفن، وعادت سفينةٌ أخرى إلى البرتغال، لتنقلَ الأنباءَ عن رسو السفن. وبقيت السفنُ الأخرى في البرازيل لمدة ثمانية أيام، ثم تابعت الرحلة إلى الهند.

وقد نظرَ الملك عمانويل الأول في تعيين كابرال قائدًا لرحلة كشـفية أخرى إلى الهند، ولكنه اختار دي جاما بدلاً منه. وقد تقاعد كابرال بعد ذلك من الخدمة في البلاط الملكي[3].

ثالثاً: استعمار أمريكا اللاتينيّة

تدمير حضارة الإنكا

كان أمرًا طبيعيًّا ومنطقيًّا أن يبدأ غزو أمريكا واستعمارها، من المستعمرة الأولى التي أنشأها الغزاة في سـانتو دومينجو، فلم يحل عام 1600م حتى كانت الأراضي الممتدة من المكسيك الجديدة وفلوريدا

1 - (أبو علية، 1987، ص13)، و(رودريجث، 1997، ص86)

2 - محلي، أمريكا اللاتينيّة ، ص31

3 - الموسوعة العربية، 2007، ج17، ص598-599

شمالاً إلى تشيلي ونهر دي لا بلاتا جنوباً، فيما عدا البرازيل، تخضعُ للسيطرة الفعلية لعرش قشتالة[1].

لقد انتهت عملية الغزو كلها في مدة خمسين سنة، قام خلالها الغزاة الأوروبيون بالاستيلاء على إمبراطوريتي الأزتيك والإنكا، وبإخضاع القبائل، وباحتلال ثلثي سواحل القارة[2].

وكانت الدوافعُ التي أوحت إلى ملك قشتالة وملكتها بخلق إمبراطورية مُترامية الأطراف في القارة الأمريكية، هي الرغبة في الاستحواذ على ممتلكات أوسع كثيراً ممَّا كانا يمتلكان، ونشر الدّين المسيحي، والحصول على إيرادات كبيرة. أما الغزاة الإسبان الأولون، فكانت تُحرّكهم دوافع عدة، اختلفت قوة باختلاف الأفراد، والزمن، والمكان. فمنهم من دفعته الرغبة في الظفر بالثروة والمكانة، ومنهم من عمل لرفعة مقام عرش قشتالة ومجده، أو لنشر المسيحيّة، ومنهم من أغواه حُبّ المغامرة.

وقد تمت أهم الهجمات الأولى من دون أن يتحمل التاج أية تكاليف مباشرة، لأن قادة الحملات، كانوا أفراداً فتحوا ما فتحوا من أراضٍ على نفقتهم الخاصة، وبدوافع من أنفسهم، أو باسم الجالس على العرش، أو بمقتضى مراسيم ملكية، برجاء الحصول على إيرادات الأراضي التي وقعت في قبضتهم، أو منحهم حق حكمها وإدارتها. وعلى هذا الهدى فتح كورتيس "Cortés" المكسيك، وألفارادو "Alvarado" جواتيمالا، وبيثارو "Pizarro"، بيرو، ويمينيس دي كيسادا "Yemeenes de Quesada" غرناطة الجديدة[3].

ومنذ أن شاعت أوّل الأخبار عن وجودها عام 1513م، شكّلت البيرو محط اهتمام المغامرين جميعهم، فهي الأرض الموعودة التي حلموا جميعاً بغزوها، ومحركة الحملات التي أخضعت أمريكا الجنوبيّة كلها خلال ثلاثين سنة. وفي عام 1522م، قرّر مستوطنان متواضعان أن يضما ما معهما من أموال ليُموِّلا حملة جديدة، ويقتسما مكاسبهما في حصص متساوية مع حاكم بنما، مقابل إضفائه الشرعية على عمليات السلب، ومنحهما رتبة قائد التي لا بُدَّ منها للفاتح. وهكذا انطلق فرانثيسكو بيثارو[4] وديبغو دي ألماغرو "Diego de Almagro"، الجنديان المَغموران اللذان

1 - لانجر، 1963، ج4، ص1286

2 - لانجر، 1963، ج4، ص1290

3 - يحيى، 1982، ج 4، ص216

4 - فرنشيسكو بيثارو: فاتح إمبراطورية الإنكا، ومؤسس مدينة ليما، عاصمة البيرو. ولد في تورخيلو بإسبانيا في 1478م، تقول مصادر بيروفية، إنه ابن غير شرعي لغونذالوا بيزارو دي رودريغذ – دي أغويلا، قائد قوات المشاة الملكية الإسبانية، وامرأة عادية من عامة الناس تدعى فرانشيسكا غونذاليز ماتيوس. (مالباس، 2012، ص43).

لا يُتقنان القراءة والكتابة، نحو مملكة الذهب النائية التي سيدمرانها[1].

وفي عـام 1531م، بدأ بيثارو في الإبحـار نحو الجنوب فيما وراء بنما، وكان برفقته ثلاث سـفن، وذلك في محاولةٍ أخرى. وكما حدث للأزتيك في مكسـيكو، حدث للإنكا في بيرو. وفي هذه المرة تمتعَ الإسـبانُ بالقدرة والتفوق واستعمال العنف والقسـوة. فكان بيثارو قد تقدم وبرفقته 180 جندياً كان من ضمنهم 27 فارسـاً في داخل البيرو. وبسهولة حقَّقَ بيثارو انتصارات قليلة على الهنود الذين جابهوه في بداية الأمـر، وبعد ذلك اتخذ بيثارو طريقه من خلال جبلٍ مُرتفعٍ، ثم بعد ذلك من خلال جبال الأنديز، حتى وصل إلى مدينة كاجاماركا التي كانت موطن الإمبراطور أتاوالبا، وعَسكرَ بجيشه في الميدان الأوسـط الكبير. وفي الوقت نفسه لم يقم أتاوالبا بأية محاولة لإبعاد الإسبان عن عاصمة ملكه، لأنَّه كان واثقاً من تحقيق النَّصر عليهم. وعندئذ، أرسل بيثارو رسالةً إلى أتاوالبا، يدعوه فيها إلى القدوم إلى المعسـكر، وذلك من أجل التَّفاوض. وقد قبل أتاوالبا الدّعوة، وفي اليوم التالي الموافق 16 مـن شـهر تشرين الثاني عام 1532م، حُمل أتاوالبا على محفل إلى معسـكر بيثـارو، وكان برفقته 4 آلاف رجل، علاوة على حاشـيته، وكهنته الكبار، وقادة جيشـه، وعدد كبير مـن الحرَّاس[2]. وأخذَ الميدانُ الرئيـسُ في المدينة يعجُّ بآلافٍ من الخدم، والموظفين، والكهنة، والجنود غير المُسـلحين الذين جاؤوا اسـتعداداً للاحتفال الرسمي باللقاء بين ملكهم، وهؤلاء القادمين من العالم المجهول. ولكن بالرغم من هذا الخوف قرَّرَ الإسـبان استغلال عنصر المفاجأة لشنِّ هجومهم الغادر، واستغلَ بيثـارو مباني الإنكا في الميدان الكبير «أوزنو» لتنفيذ خطّته الجهنّمية، فوضعَ بعضَ المدافع الصّغيرة في المبنى الحجري المُقام وسـط الميدان للإشراف على الاحتفالات، كما أخفى رجاله في القاعات ذات الأسـقف الثلاثية والفتحات الكثيرة المُسـماة «هالانكا» التي كانت على حدٍّ تعبير أحد الجنود الإسـبان «كأنها صُنعت خصيصاً لتناسب أغراضهم»[3] وما هي إلاَّ ساعات قليلة حتَّى تمكَّن الإسبانُ من هزيمة جموع الإنكيين وأسر ملكهم، بوقوع الملك في الأسر تشتت كلّ جيشه، وذهب هباءً[4].

سرعان ما شـعرَ «أتاوالبا« ملك الإنكا الأسـير أنَّ هؤلاء الغزاة الغرباء لا يُهمهم سـوى شيء

1 - سيجورنه، 2003، ص53

2 - برجر، 1992، ص60

3 - موسى، 1992، ص126-127

4 - موسى، 1992، ص127

واحد هو الحصول على الذهب والفضة، وفكَّرَ أنه يستطيع أن يفدي نفسه بفدية كبيرة من هذه المعادن الثمينة، فعرضَ على آسريه أن يُطلقوا سراحه مقابل أن يملأ الحجرة[1] المسجون فيها، بالذهب مرة والفضة مرتين.

إنّ ثروات إمبراطورية الإنكا، التي جُمعت خلال ألف سنة، قد وصلت إلى هذا المكان كي تملأ الحجرة بالذهب مرة وبالفضة مرتين، ولكنها للأسف لم تكن كافية لإنقاذ حياة الملك، إذ بعد أن حصلَ الإسبانُ على آخر حمل جاء به آخر حيوان من قافلة اللاما، عرضوا على الملك أن يتحول للمسيحية أو يقطعوا رأسه، وعندما رأى الملك قسوة الإسبان وافق على التحول إلى المسيحيّة مقابل عدم قطع رأسه، ورغم ذلك لم يشفع هذا التحول له فقد اقتاده الإسبان إلى الميدان العام في كاجاماركا وأعدموه بزعم أنه كان يُنظِّم سراً هجوماً على الإسبان[2].

وبعد موت ملك الإنكا أتاوالبا، أصبحت الإمبراطورية تحت رحمة الغزاة. واستولى بيثارو في عام 1533م على مدينة كوزكو بمبانيها المُرصَّعة بالذهب[3]، الأمرُ الذي جعله يفرض سيطرته على البلاد عملياً. وبدأَ البحثَ عن مكانٍ بحيث يكون أفضلَ نقطةٍ للاتّصال مع إسبانيا، ويستخدمه كعاصمة للبيرو في الوقت نفسه. ومن أجل ذلك قام بتأسيس مدينة ليما (مدينة الملوك) في 18 كانون الأول 1535م[4].

وهكذا، وفي فترةٍ وجيزةٍ من الزمن، استطاع الغزاة الإسبان القضاءَ على إمبراطوريّة الإنكا وتدمير أوابدها الأثرية، وإبادة جزءٍ كبيرٍ من سكّانها، بحجة أنَّهم يسعون إلى تحويل هؤلاء السكّان إلى المسيحيّة والارتقاء بهم إلى مستوى الإنسان الأوروبي، على الرَّغم من أنّ هذه الإمبراطوريّة شهدت تقدُّماً علميًّا وحضاريًّا وعمرانيًّا منقطع النظير، وقلَّ وجوده في حضارات العالم القديم عامّة وحضارات القرن السادس عشر، بل تفوَّقت على الجنس الأوربي والحضارة الأوربية نفسها.

تدميرُ حضارة الأزتيك

يُعَدُّ فرانسيسكو أرناندیث دي كردبا أولَ إسباني طافَ بساحل شبه جزيرة يوكوتان عام 1517.

1 -كان طول هذه الحجرة سبعة أمتار ونصف، وعرضها خمسة أمتار ونصف.(مراد، 1915، ص86).

2 - Somervill, B.A. 2009, p. 62

3 - سيجورنه، 2003، ص62

4 - رودريجث، 1997، ص94

كما اكتشـفت في العام التالي حملة خوان دي جريخالبا سـاحل الجزيرة نفسها، وأدركوا وجود إمبراطورية كبيرة للهنود هناك. ولقد تحمَّس لهذه الأنباء السعيدة (دييجوا بلاثكيث) حاكم كوبا، الذي ما لبث أن قام بتعيين الشـاب هرنان كورتيس قائداً على رأس حملة عسـكرية عام 1519، والتي أسند إليها مُهمة غزو ذلك البلد الهندي الغني[1].

غادرَ كورتيس ميناءَ هافانا في شـباط عام 1519 على رأس حملة قوامها إحدى عشرة سـفينة، تحمـل أكثر من خمسـمائة جندي وعددٍ من المدافـع و16 حصاناً، ويُرافقه عـددٌ من أصدقائه المُقرَّبين وعلى رأسـهم برنال دياز دي كاستيلو وبارتولومي دي ولمبدو. وقد رحل كورتيس عن كوبا مُسرعاً بعد أن وصلته أنباء عن نية الحاكم بلاثكيث تغيير قيادة الحملة[2].

هاجمَ كورتيس جزيرة جوثوميل بالقرب من يوكاتان، وهناك اسـتطاع تحريرَ عددٍ من الإسبان وعلى رأسهم خيروينمو دي أجيلار الذي كان قد وقع في أسر المايا منذ أكثر من ثمانٍ سنوات. ثم تابع كورتيس حملته وصولاً إلى أراضي التاباسكوس، وبعد معارك عنيفة مع السكّان المحليين، حقَّـقَ كورتيس النصر، وعقد اتفاقاً مع التاباسـكوس، حصل بموجبـه على عشرين امرأة وعلى رأسهم السـيدة مارينا (مالنتشي)، وتعود شـهرة هذه المرأة لمعرفتها لعدة لغات محلية، والدور الكبير الذي لعبته في حملات كورتيس بعد أن أصبحت مُترجمته الرسمية[3].

وقد تلقَّى الإسـبانُ في بيراكورث هدايا قيِّمة من إمبراطور الأزتيك (موكتيثوما)، وأرسل إليهم سـفراءه يرجوهم مغادرة أراضيهم مقابل الذهب الذي يتمنـوه. وعلم كورتيس في ذلك الوقت بمسـاعدة عشيقته ومترجمته السّيدة مارينا بالأسطورة التي تنسبُ إلى الإله (كيتزاكواتل)، والتي تقولُ بأنَّ لون بشرته كان أبيضاً، وأنه وعد بالانسحاب، وبدأ كورتيس بالفعل في نشر هذه الأسطورة التي أفادت الغزاة كثيراً. ولكي يتركَ الإسبانُ انطباعاً لدى السّفراء، بدأوا بتحريك الجنود وعمل تدريبات عسـكريّة، كـما أنَّهم بدأوا يُطلقون بعض الطلقات من قطـع المدفعيّة. ثم بدأ الجيشُ الإسباني في الزحف نحو تينوتشتيلان حينما طلبت بعض القبائل الهندية من كورتيس مساعدتها من أجل الحصول على استقلالها من الأزتيك. وتغلَّبَ الإسبانُ على المقاومة، وذلك بمساعدة

1 - رودريجث، 1997، ص88

2 - D., Histoire De L›Amérique Espagnole, p 85

3 - (Hugo, D. p85)، و(رودريجث، 1997، ص89)

الهنود واستولوا على غنائم عديدة. ودخل كورتيس مُنتصراً تينوتشتيلان في الثامن من تشرين الثاني 1509. واستقبله بكبرياء الحاكم الضعيف موكتيثوما. وقام كورتيس بإلقاء القبض على إمبراطور الأزتيك، لأنَّه كان يخافُ من هجومٍ مُباغتٍ من قبل الأزتيك. وفي أثناء ذلك، وصلت أخبار تُنبئ عن وصول حملة بانفيلو دي ناربايث إلى بيرلكورث، والذي أرسله بلاثكيث يأمره بالقبض على كورتيس والاستمرار في الغزو باسم حاكم كوبا. وحينما علم كورتيس بذلك، خرج مُسرعاً من تينوتشتيلان كي يُواجهَ الحملةَ.

وبعد أن هزمهم بسهولةٍ قام بضمّهم إلى صفوفه، وعادَ مباشرةً إلى تينوتشتيلان، لأنَّ الأوضاع كانت قد تفاقمت هناك بسبب مذبحة النبلاء الهنود التي قام بها نائبه بدرو البارادو. وبدلاً من أن يُعاقب كورتيس نائبه أجبر الإمبراطور على أن يُلقي خطبةً على جموع شعبه الذين ما فتئوا أن رجموه بالحجارة حتَّى جُرحَ ولاقى منيته إثر هذا الحادث بأيامٍ قليلة، وخلفه كويتا لاهواك.

وقد قرَّرَ الغزاةُ تركَ المدينة، وحينما بدأوا أو شرعوا بالانسحاب، تعرَّضوا لهزيمةٍ كبيرةٍ ولخسائر فادحة، وأطلق على هذه الهزيمة اسم الَّليلة الحزينة، وذلك لأنَّ هذه المعركة التي كلَّفت الإسبان غالياً نشبت ليلاً. وبعد فترةٍ وجيزةٍ بدأ الجيشُ الإسباني بمحاصرة تينوتشتيلان، وكان يحكم في ذلك الوقت كوا هتيموك خليفة كوتا لاهواك، الذي كان قد تُوفي مُتأثراً بمرض الجدري.

وبالرغم من الحصار الذي ضربه حول الأزتيك، إلاَّ أنَّهم لم يستسلموا، حيث استمروا في المقاومة من مكان إلى مكان، ومن منزل إلى آخر، حتَّى هُزموا وسقط إمبراطورهم في الأسر، وبدأ الإسبانُ في تعذيبه لكي يعترفَ بالمكان الذي يُخبئ فيه الكنوز.

وتقول الأسطورة بأنَّ الإسبانَ قاموا بمدِّ الإمبراطور وأحد وزرائه فوق مضجعٍ من الفحم المُستعر، وحينما رأى الوزيرُ الإمبراطورَ يتألم، توسَّل إليه أن يسمحَ له بالكلام، إلاَّ أنَّهُ أجابه بصبر، ربما تعتقد أنني في فراش مصنوع من الورد. وهكذا استشهدَ أبطال الأزتيك دون أن ينبسوا بشكوى ودون أن يكشفوا عن السرِّ الذي كان يبحث عنه الإسبان. وباحتلال تينوتشتيلان والموت البطولي لملك الأزتيك الأخير سقطت إمبراطورية الأزتيك.

وأعاد كورتيس تشييدَ الإمبراطورية، التي أُطلقَ عليها اسم المكسيك، ثم شرع بعد ذلك في تشييد مُدنٍ أُخرى. وقام الملك الإسباني كارلوس الخامس في عام 1522م، بتعيين كورتيس حاكماً وقائداً عاماً، كما أعطاه منصباً يختصُّ بالقضاء في إسبانيا الجديدة، وكانوا قد بدأوا في

تلك الفترة يُطلقون هذا الإسم على الأراضي الجديدة. ومع وصول أوّل نائب للملك (أنتونيو دي ميندوثا 1535)، بدأ تاريخ نيابة الملك في إسبانيا الجديدة[1].

البرتغال والتوسُّع في البرازيل[2]

لم يول ملوكُ البرتغال المُبهورون بفتوحهم الحديثة في آسيا وإفريقيا، اهتماماً كبيراً بالكشف الذي حقَّقه باسمهم كابرال، ولم يذهب أحدٌ لاحتلال الشواطئ التي وصفها فيسبوتشي، ممَّا حوَّلها إلى حقلٍ نموذجيٍّ للقراصنة الدُّوليِّين، وإلى وكر مُغامرات لا نهاية لها. فمنذ الحملة الأولى، كشفت ضفافُ ذلك الأقيانوس النّباتي الكتيم، عن وجود البرازيل، وهو جنس أشجار تُشكِّلُ أخشابه الحمراء مادّة صبغية ممتازة، كانت تُجلب من الهند منذ زمن قصير.

كانت هذه الأراضي نموذجًا من الفوضى، حين قرَّرت البرتغالُ استيطانها. إذ أنها أُخضعت خلال ما يقرب من ثلاثين عاماً للاستغلال، كما كان على السكّان الأصليين الرضوخ له، تحت وطأة أشدّ القوى همجية. فبيوتٌ أجنبيةٌ كثيرةٌ، وخاصة فرنسية، اعتبرتهم أملاكاً خاصَّة، كما اضطهدهم إلى حدِّ الهوس، قادة أوروبيون مُتسلطون[3].

لقد شجَّع إهمالُ البرتغاليّين الفرنسيِّين على إقامة مصانعهم الخاصّة بهم على السّاحل الشّمالي للبرازيل، وذلك من أجل استغلال هذه النوعية من الأخشاب، وفي الوقت نفسه كان الإسبانُ يتجوَّلون على شواطئ هذه الأراضي بحثاً عن ممَّر إلى الباسفيك، بمعنى أنَّهم كانوا يبحثون عن مضيق يربط بين المُحيطين.

وقام التّاجُ البرتغاليُّ -باعتماده على الأموال التي تأتي من الاستثمارات في الشَّرق- بإرسال أوّل حملة استعماريّة إلى البرازيل، بقيادة (مارتن الفونسو دي سوسا)، وذلك في عام 1530، وقام دي سوسا بعد ذلك بعامين بتأسيس أول منشأة برتغالية دائمة في أمريكا، وهي مدينة (سان بيثنيتي)،

---

1 - رودريجث، 1997، ص89-91

2 - البرازيل: اشتق اسم البرازيل من رحلة برتغالية مُهمة اشتركَ فيها أمريكو فيسبوتشي؛ ذلك لأنَّ السفنَ حملت في عودتها شحنةً من خشب الصباغ أحمر اللون مثل «البراساس» أي «الفحم المُتوهج»، وكان لونه برَّاقاً حتى لو أن قطعة منه وضعت على كومة من الخشب، لبدت الكومة كلها وكأنها تشتعل. فكان هذا أول كنز وجده البرتغاليون في ممتلكاتهم الجديدة، وهكذا صار المكان الذي جاء منه هذا الخشب «البراسا» يُعرف باسم «براسيل» أو البرازيل. انظر: (براون، البرازيل شعبها وأرضها، ص 44-45).

3 - سيجورنه، 2003، ص64

التي تقعُ بالقرب من مدينة سان باولو الحالية.

ثم قُسّمت أمريكا البرتغاليّة بعد ذلك بعامين أيضاً، إلى خمسة عشر داراً للقيادة الحربيّة، وكانت تُحكم بالوراثة. وكان لكلّ دار اتصال مباشر بلشبونة، وقد أطلق اسم المُتبرعين على النبلاء البرتغال المشهورين الذين كانوا يلقون الحظوة عند الملك، والذين أنعم عليهم بهذه الدور، ولسوء الحظ، فإنَّ العديدَ منهم لم يسافر أبداً إلى العالم الجديد، نظراً للمساعدة الضئيلة التي تلقُّوها من قبل التاج. أمَّا الذين سافروا منهم، فأنَّهم سرعان ما تأثروا بالمناخ وقلة المعادن والثروات السهلة التي كانوا يحلمون بالعثور عليها في وقتٍ قصيرٍ. كما أنَّ الكثيرَ من المُستعمرين تحوَّلوا إلى مُجتمعات غير مُنتجة، وسرعان ما تعرَّضت جميعُ الأقاليم التي تمتلكها الدّور الحربية لمشكلات إدارية خطيرة، باستثناء بعض الأقاليم مثل: (باهيا) وسان بيثنتي وبرنامبوكو، الأمرُ الذي أجبرَ العديدَ من النبلاء أو المُتبرعين على إعلان إفلاسهم[1].

وبشكلٍ عام كان الاستيطانُ البرتغالي في البرازيل شاقاً وبطيئاً، والمدينة البرتغاليّة برنامبوكو التي تمَّ إنشاؤها دُمرت عام 1530 على يد قرصان فرنسي، أباد ساكنيها وأحرق معامل تكرير السكّر فيها، ولعلاج نقص اليد العاملة الذي سببته المذابح والهرب إلى المناطق الداخلية، طُلب من برشلونة إرسال تعزيزات من الأفارقة، حيث وصلت أول دفعة عام 1552 من أنغولا وغينيا[2].

رابعاً: الميراث الاستعماري الأوروبي في القارة

استمرَ الوجودُ الإسباني في أمريكا اللاتينيّة أكثرَ من ثلاثة قرون (م1825-م1492)، إذ شهدت القارةُ الأمريكية خلالها مجموعةً من التغيُّرات السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، نتيجة الاستعمار الإسبانيّ. وكان لهذاالاحتكاكُ الكثيرُ من الجوانب السَّلبيَّة والقليل من الإيجابيّة.

فقد قامَ الأوروبيُّون منذ دخولهم أمريكا بجميع الجهود الَّتي تهدف إلى تسخير سائر الموارد الاقتصاديَّة فيها لصالحهم فقط، دون أن يُؤخذ بالحساب مصلحة السكّان الأصليين. فبدأوا باتباع سائر السّبل الَّتي تكفل تأمين الغذاء الكافي للأعداد المُتزايدة من المهاجرين الأوروبيين، واهتمُّوا بالحصول على الثّروات المعدنيَّة الَّتي يمكن استعمالها لتجارةٍ خارجيَّةٍ رائجةٍ. هذا بالإضافة إلى

1 - رودريجث، 1997، ص136

2 - سيجورنه، 2003، ص64

عملهم على الحصول على سلعٍ أوروبيَّةٍ أو محليَّةٍ، يستطيعون بوساطتها تغطية حاجة السّوق المحليَّة، وتحقيق أرباح كافية.

أمَّا السكّان الأصليون، فقد تُرِكَ قسمٌ منهم لأعمال السّخرة الزراعيَّةِ في المناطق الَّتي تمَّ احتلالها بالقوَّة، وطُرِدَ قسمٌ آخر إلى مناطق الغابات أو المناطق الجبليّة النائية ليمارسوا الزّراعة البدائيّة، أو تربية المواشي، أو صيد الأسماك النّهرية[1].

وهكذا تكالب المستعمرون الأوائل لأمريكا اللاتينيّة من الإسبان، على تحقيق المنافع الخاصَّة بهم، دون الاهتمام بالسكّان الأصليين، أو المجموعات البشريَّة غير الإسبانيَّة. فتركوا آثاراً سيّئةً جدّاً في كلّ النَّواحي البشريَّة، والسياسيّة، والاجتماعيَّة، والاقتصاديَّة، وذلك، بسبب اندفاعهم بنهمٍ شديدٍ، نحو استثمار خيرات البلاد الزراعيَّةِ والمعدنيَّةِ على الشواطئ البرازيليَّة وجبال الأنديز، على حساب الشَّعب الهنديِّ الأصيل، وفقاً لنظامٍ إقطاعيٍّ ظالمٍ، يُسامُ فيه العمالُ الزراعيون سوء العذاب، سواءٌ أكانوا من أهل البلاد، أم من الجماعات الإفريقيَّةِ السَّوداء، الَّتي أتى بها الأسياد للقيام بالعمل الصَّعب في المناطق الاستوائيَّةِ الساحليَّةِ المنخفضة، تحت شروطٍ مناخيَّةٍ طبيعيَّةٍ مُضنيَّة[2].

والحقُّ، فقد كانت تسيطر على الإسبان - الَّذين ذهبوا إلى أمريكا اللاتينيّة - الرّوح العنصريَّة التي كانت سائدة في بلادهم أثناء حروب الاسترداد ومحاكم التَّفتيش، الَّتي شنُّوها ضدَّ عرب الأندلس، وسياسة الاضطهاد القاسية التي اتبعتها مَحاكم التَّفتيش ضد العناصر غير الإسبانيّة، سيّما المسلمين[3].

وبشكلٍ عام، فقد حملت موجاتُ الهجرةِ الَّتي أتت من إسبانيا، عناصرَ مُتباينةً من المجتمع الإسبانيّ. فكان من بين هذه العناصر النبلاء الفقراء، الَّذين كانوا يصبون بشكل ميؤوس منه إلى الثراء، كي يعيشوا في التَّرف والنعيم الَّذي كان مقصوراً على أعلى الطبقات الأرستقراطية. كما كانت هناك أيضاً أعدادٌ كبيرةٌ من الجنود، والمحامين، والهاربين من العدالة. أضف إلى ذلك الغزاة الَّذين عاشوا كالشَّخصيَّات العظيمة، وجعلوا معاملتهم مع الناس على هذا النَّحو، وأحاطوا

1 - محلي، 1974، ص139
2 - محلي، 1974، ص81
3 - محلي، 1974، ص82

أنفسهم بالأبَّهة، وأورثوا هذه الأبَّهة للمُنحدرين منهم.

أمّا الإسبّانُ غير المُخلّطين فهم قلّةٌ، وقد تولىَّ أصحابُ هذه الطبقة بشكلٍ عام، أعلى المناصب السياسيّة، والدينيّة، والاقتصاديّة، والقضائيّة في المُستعمرات. ولم يكن يُسمح لغيرهم من باقي الطَّبقات الوصول إلى هذه المناصب.

هذا، وقد كان الإسبانُ الغزاةُ، وأبناؤهم، وأحفادهم، وجميع القادمين اللاّحقين، متطلِّعين إلى أن يكونوا في مرتبتهم فوق السكّان الأصليين، ولذلك تحكّم هؤلاء المستعمرون بالسكّان الأصليين، وسخّروهم للعمل في مناجم الذهب والفضة، ومارسوا ضدهم كلّ أنواع القسوة والاضطهاد، وقد نجمَ عن ذلك حصول موجات موتٍ جماعيٍّ في صفوف السكّان الأصليين، فانخفضَ عددهم بشكلٍ كبير. ومهما يكن الرّقم الأساسي، فقد تمخَّضَ عن ذلك التَّدهور هلاك السكّان. وبعد أن أدركَ الإسبانُ حجمَ الكارثة التي تسبَّبوا بها لهؤلاء السكّان، اتَّجهوا نحو سياسةٍ استعماريَّةٍ جديدة، تقوم على أساس صياغة جماعات هؤلاء السكّان في قوالب حُكمٍ غير مباشرٍ، وبقيت استقلاليتها الذاتية مُحددة باستمرار، عبر آليات عمل الاستعمار الإسباني، الَّذي كان الهنودُ الحمرُ يقومون بتزويده بالعمالة الرخيصة والسلع، ويشترون منه البضائع بالإكراه في الغالب.

ولم يكتف الإسبانُ بذلك، بل عملوا على إدخال حضارتهم، ولغتهم، وثقافتهم، وديانتهم الكاثوليكية إلى القارَّة الجديدة. بيدَ أنَّ السكّان الأصليّين لم يتقبَّلوا في أوَّل الأمر هذه السياسة الإسبانية قبولاً حسناً، لأنَّهم كانوا مُتأثّرين بموجات الغزو الأولى، وما صاحبها من اعتداء، وسلب، وتسخير، ممَّا جعلهم ينظرون إلى الغُزاة الإسبان نظرةً عدائيَّةً. ولكنَّ البعثات الدّينيّة التبشيرية التي أرسلتها إسبانيا، سارت جنباً إلى جنب، مع حركات الغزو والاستعمار، وأخذت تنشرُ الكاثوليكيّة بين السكّان، حتَّى أصبحت كلّ أمريكا الوسطى والجنوبيّة - التي تُسمَّى أمريكا اللاتينيّة-مسيحيَّة.

الخاتمة

إنَّ أيَّ غزوٍ، لابُدَّ وأن يترك آثاره السلبيَّةَ على الشعوب الَّتي خضعت له، ولم يكن الغزو الإسبانيُّ خارجًا عن هذه القاعدة، فقد تغيرَّ العالم الجديد إثر اصطدامه مع المؤسسات الإسبانيَّة القديمة، سواءٌ بعيوبها أم بميزاتها. هذا، وقد انتشرت المساوئ الإسبانية في أمريكا اللاتينيّة، وراحت تزداد وتتعدَّد حتَّى نجمَ عنها مساوئ أخرى، إذ أتى إلى العالم الجديد، مع قوارب عصر النهضة، مؤسساتٌ تعود إلى القرون الوسطى.

ومهما يكن، فإنَّ الفكرةَ الأفلاطونيةَ القديمةَ، التي كانت تقول: «إنَّ بعضَ النّاس قد وُلد ليحكُم، وبعضهم الآخر قد وُلد ليكون محكومًا»، قد تعرَّضت للهزيمة في أمريكا اللاتينيّة حينما انحطّت السلطات، وتحوَّلت إلى إداريين غير مؤهَّلين، إثر الفساد الناجم عن مُحاباة الأقارب، وذوي النفوذ وعن المفاهيم السطحية لدور الكنيسة ورجال الدين.

وبما أنَّ السَّيفَ قد عاونه الصَّليب[1]، فإنَّ الغزوَ الذي تحقَّقَ خلال النِّصف الأوَّل من القرن الأوَّل للاستعمار، كان عن طريق الحملات الّتي اعتمدت بشكلٍ رئيسٍ على الجنود والرهبان، لذلك حمل تاريخ أمريكا اللاحق هذين الشعارين: العسكري، والدّيني.

وعلى الرغم من الخلاف الّذي كان ينشبُ بين الحين والآخر بين العسكريين ورجال الكنيسة، فإنَّ الفريقين كانا يتحدّان ضد القوى السياسيّة الجديدة، وكذلك كانا يتّحدان لمساندة الملك، لاسيّما حينما يحصل من الفاتيكان على حقِّ الدعاية للسلطة الملكية: بمعنى السّيطرة على تعيين السّلطات الكنائسيّة في إسبانيا ومستعمراتها. (رودريجث، 1997، ص119-120)

1 - إشارة إلى أن الغزو الإسباني للقارة قام على أكتاف الغزاة والمبشرين.

المصادر والمراجع

أولاً: العربية والمُعربة:

- أبو علية، ع. (1987) تاريخ الأمريكيتين والتكوين السياسي للولايات المتحدة الأمريكية، دار المريخ، ط1، الرياض.
- براون، ر. (1969) البرازيل شعبها وأرضها، ترجمة محمد عيد الفتاح إبراهيم، مراجعة عز الدّين فريد، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ط1، القاهرة-نيويورك.
- برجر، ج. (1991) مكتشفو العالم الجديد، ترجمة السيد يوسف نصر، مؤسسة شباب الجامعة، ط1، الاسكندرية.
- تشومسكي، ن. (1999) 501 سنة الغزو مستمر، دار المدى، طبعة ثانية، دمشق.
- حمدان، جمال: استراتيجية الاستعمار والتحرير، دار الشروق، ط1، بيروت.
- رادين، ب. (1989): الحضارات الهندية في أمريكا (الأزتك. المايا. الإنكا)، دار المنارة، ط1، اللاذقية.
- رمضان، ع. (1997) تاريخ أوروبا والعالم في العصر الحديث (من ظهور البورجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة)، ترجمة: يوسف شلب الشام، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، مصر.
- رودريجث، أ. (1997): ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينيّة، ترجمة: عبد الحميد الغلاب وأحمد حشاد، المجلس الأعلى للثقافة ، ط1، القاهرة.
- سيجورنه، ل. (2003) أمريكا اللاتينيّة الثقافات القديمة ما قبل الكولومبية، ترجمة صالح علماني، المجلس الأعلى للثقافة، ط1، القاهرة.
- عمر، ع. (1992) دراسات في التاريخ الأوروبي والأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، ط1، الإسكندرية.
- كورتيل، آ. (2010) قاموس أساطير العالم، ترجمة سهى الطريحي، دار نينوى للنشر، ط1، دمشق.
- لانجر، و. (1963) موسوعة تاريخ العالم، ترجمة محمد مصطفى زيادة، أربعة أجزاء، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، ط1، القاهرة-نيويورك.
- مالباس، م.أ. (2012) عصر الإنكا، ترجمة فالح حسن فزع، هيئة أبو ظبي للسياحة والثقافة، مشروع كلمة، ط1، أبو ظبي.

■ مجلة العربي (1992) كولومبوس: بداية الحلم أم ذروة المأساة، دراسة مركز أبحاث مجلة العربي (مجلة العربي، العدد 400، آذار 1992.

■ مجموعة من المؤلفين (2007) الموسوعة العربية، ط1، دمشق.

■ محلي، س. (1974) أمريكا اللاتينيّة، مطبعة خالد بن الوليد، ط1، دمشق.

■ مخزوم، م. (1983) مدخل لدراسة التاريخ الأوروبي(عصر النهضة)، دار الكتاب اللبناني، ط1، بيروت.

■ مراد، م. (1915) الاستكشافات الجغرافية في 4000 سنة "من القرن العشرين قبل الميلاد إلى القرن العشرين بعد الميلاد"، مطبعة النهضة ، ط1، القاهرة.

■ مورينو، س. (1987) أدب أمريكا اللاتينيّة قضايا ومشكلات، ترجمة أحمد حسان عبد الواحد، سلسلة عالم المعرفة، قسمين، القسم الأول، العدد 166، الكويت.

■ موسى، م. (1992) حضارات مفقودة، الدار المصرية اللبنانية، ط2، مصر-لبنان.

■ نوار، ع. (1999) التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، ط1، القاهرة.

■ يحيى، ج. (1982) التاريخ الأوروبي الحديث والمعاصر، سيطرة أوروبا على العالم، المكتب الجامعي الحديث، ط1، الإسكندرية.

ثانياً: المراجع الأجنبية

■ George, C.L (2001) Maya Civilization, Lucent Books, United States of America.

■ Hugo, H. (1936) Avec 2 cartes dans le texte, Librairie Armand Colin 103, Boulevard Saint-Michel, Paris.

■ Le Vicomte, H. (1866) Onffroy de thoron, L'Amérique Equatoriale. Son Histoire pittoresque et politique, Paris.

■ Rowe, J.H. (1946), Inca culture at the time of the Spanish conquest. In Handbook if South American Indians. Vol 2, The Andean Civilizations, Washington, DC: Bureau of American Ethnology, 1946.

■ Somervill, A. (2009) Empire of the Incas, Chelsea House. New York.

الوحشيّة الأوروبيّةُ في الحَربين العالميّتين: الأوَّلى والثَّانية

■ د. مثقال العاصي[1]

ملخّص

رصدَ هذا البحثُ، المظاهرَ التي برزت في أفعال الأوربيين الوحشيّة خلال الحربين العالميّتين الأوَّلى والثَّانية، وكُلُّ سلوكٍ عسكري ارتكبه الأوروبيُّون في الحربين العالميّتين، حيث هدف البحث إلى إظهار النّموذجِ الأوروبي الوحشيّ على حقيقته عاريًّا، من خلال الممارسات المرتكبة على المدنيين والعسكريين، وتبيان مدى الحقد والكراهيّة عند الأوروبيِّين، والتي أدَّت إلى تدمير البُنى التحتية بكُلِّ أنواعها.

هذا، واعتمد البحث في معالجة القضايا والأفكار التي تمَّ طرحها، على المنهج الوصفيّ التّحليلي، حيث توصَّلَ إلى نتائج أظهرت صور الوحشيّة الأوروبية بكل أنواعها وأساليبها في الحربين العالميّتين، ولربمّا كان أبرزها، سقوط عدد كبير من الأبرياء، بسبب الغازات المُحرمة دوليًّا، والإبادات الجماعية، وما رافق ذلك من نهب وسلب ومجاعات، زادت في أعداد المشردين في الدُّول الأوربية، وقد ذُيل البحث بتوصيات كان أبرزها: إقامة مؤتمرات وندوات تعريفية بالحربين العالميّتين الأوَّلى والثَّانية، توضح مدى خطورة الوحشيّة الأوروبية التي مُورست بحقّ الإنسانيّة في القرن العشرين، وتظهر كذب الأوروبيين في ادّعاء الديموقراطية ونشر الحرية والإنسانيّة كما صوروها لنا.

الكلمات المفتاحية: وحشيّة-أوروبا- الأسرى- الحربان العالميَّتان- الإبادة الجماعيّة.

1 - مدرّس في قسم التّاريخ، جامعة حلب، سورية.

مقدّمة

يرصدُ هذا البحث، المظاهر الوحشيّة التي برزت في أفعال الأوروبيين خلال الحربين العالميّتين، الأوَّلى والثَّانية (1914-1918م/1939-1945م). وقد ظهرت على مستويين: الأوَّل: عسكري، وفيه تمَّت الإشارة إلى كُل سلوك أو فعل عسكري ارتكبه الأوروبيُّون خلال الحربين الأوَّلى والثَّانية، من استخدام للأسلحة المُحرَّمة دوليًّا، وإبادة جماعيّة للبشر، وتعذيب الأسرى، بأقصى صور البشاعة والفظاظة، واعتقالات بطريقة وحشيّة وفوضويّة، لا تمتُّ بأيِّ صلة إلى الإنسانيّة.

أمَّا في المستوى الثَّاني، فهو الاجتماعي، ويظهر لنا الانحطاط الأخلاقي بأبشع صوره، متمثلاً في قتل الأطفال والنساء بلا رحمة ولا شفقة، وتدمير البنى التحتيَّة والمرافق العامّة، تدميراً شاملاً، يُظهر مدى الكره والبُغض الأوروبي للآخر. كما يُبرز الانحطاط والانحدار الأخلاقيَّين في تدمير البُنى الثقافيَّة والعلميَّة، وزرع الخوف والرُّعب في قلوب النَّاس عامَّة، ونهب الأموال والثروات بدون أيِّ حقٍّ، ومن دون أيّ رادعٍ إنسانيٍّ أو دينيّ، كلّ ذلك، سيكشفه هذا البحث ويظهره على أكمل وجهٍ وأتمِّ صورةٍ.

المبحث الأوَّل: بواعث الحربين العالميّتين الأوَّلى والثَّانية

يحسن بنا بداية، أن نُحدِّدَ الدُّول التي شاركت في الحربين العالميّتين، إذ كان من أبرز الدُّول الأوروبية الرَّئيسة المشاركة في الحرب العالميّة الأوَّلى (1914 - 1918م)، بريطانيا وفرنسا وإيرلندا وروسيا، وقد أطلق عليها تسمية الحلفاء، أو دول الوفاق، التي واجهت دول المِحور، وهي: ألمانيا والنَّمسا والمجر وبلغاريا.

أما الدُّول الأوروبية الرَّئيسة المشاركة في الحرب العالميّة الثَّانية (1939 - 1945م)، فكانت: فرنسا وبريطانيا، بالإضافة إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وقد أطلق عليها دول الحلفاء، أما دول المحور، فهي ألمانيا وإيطاليا، بالإضافة إلى اليابان. أمَّا فيما يتعلَّق بالبواعث التي دفعت هذه الدُّول إلى الاقتتال فيما بينها، فيمكن إجمالها بما يأتي:

المطلب الأوَّل: الدوافع الاقتصادية

ممَّا لا شـكَّ فيه، أنَّ جميعَ الحروب التي خاضتها البشريّة، كان أبرز دوافعها الدَّافع الاقتصادي، فلا يمكن أن تقومَ قائمةٌ لحرب، مـع تجاهل الجانب الاقتصادي لها، فالثَّورة الصّناعية وتقدمها في أوروبا - على سـبيل المثال- أدَّت إلى توسيع النزعة الاستعمارية عند الدُّول الأوروبية، التي أخذت تُفكِّر في تأمين أسـواق تجارية لبيع منتجاتها، وفي الوقت عينه، أخذت تبحث عن مصادر أسـاس للمواد الأوَّلية، واسـتثمار رؤوس الأموال، من خلال امتلاك المسـتعمرات خارج أوروبا لتصريف منتجاتها، الأمرُ الذي تسـبَّبَ في نزاع بين القوى المسـتعمرة، أدَّى إلى قيام الحربين[1].

المطلب الثَّاني: السَّيطرة وتوسيع النفوذ

إنَّ القارئَ للتاريخ والمُتمعن في حوادثه، يلاحظ أنَّ معظمَ الدُّول الاستعمارية، تبحث عن مناطق لتوسـيع نفوذها على حسـاب بعضها البعـض، وهذا ما أدَّى فيـما بعد إلى تنافس بـين هذه الدُّول الاسـتعمارية. ففي الحـرب العالميّة الأوَّلى لوحظ على ألمانيا أنَّها دخلت الحرب لتوسـيع نفوذها بالدرجة الأوَّلى، فتقرَّبت من السلطنة العثمانية في المشرق العربي، وأخذت تُنافس فرنسا وبريطانيا هناك، حيث حصلت على امتياز مد سكة حديد برلين- بغداد وصولاً إلى الخليج الفارسي[2]، خاصة بعد أن أصبحت ألمانيا -بداية القرن العشرين- تتمتع باقتصاد قوي على المستوى الأوروبي، وأخذت تبحث عن أسواق لتصريف إنتاجها، فتنافست مع الدُّول الأوروبية خارج أوروبا ولاسيما مع بريطانيا، التي تعدُّ الدُّولة الأقوى اقتصاديًا في العالم آنذاك[3].

وفي الحرب العالميّة الثَّانية، لوحظ على ألمانيا أنَّها كانت تتطلع إلى السَّيطرة على أوروبا، لردِّ خسارتها في الحـرب العالميّة الأوَّلى أمام فرنسـا وبريطانيا. وهو ما اتّضح في إقدام ألمانيا على احتلال النَّمسـا وتشكوسـلوفاكيا وفرنسا، ومحاولة احتلال بريطانيا في الحرب العالميّة الثَّانية، هذا، بالإضافة إلى قيام الفاشية في إيطاليا، والنَّازية في ألمانيا وسياستهما التي تهدف إلى السَّيطرة والتوسع لاستعادة قوتهما، إذ حاولت ألمانيا على وجه الخصوص، تغيير شكل العالم بما يصبُّ في مصلحتها الاستعماريّة[4]، حيث

1 - الحسيني، 2011، ص6

2 - آل طويرش، 2017، ص22

3 - نوار وآخرون، 1999، ص452 - 454

4 - آل طويرش، 2017، ص115

لجأت إلى القوَّة العسـكريَّة لتحقيق جميع مطالبها، مستخدمة في الوقت عينه، جميع وسائل الوحشيّة ضد المدنيين والعسكريين والأطفال الأبرياء، في جميع المناطق التي سيطرت عليها في أوروبا.

المبحث الثَّاني: وحشيّة الأوروبيين على المستوى العسكري

لعلنـا، لا نُجانب الصواب إذا قلنـا: إنَّ الحربَ العالميّة الأوَّلى، كانت أول حرب اسـتعملت فيها الأسلحة الكيماوية، وتمّ فيها قصف المدنيين بالطائرات الحربية لأول مرة في التاريخ، ووقوع ضحايا بشرية لم يشهدها التاريخ من قبل. ومن جهة أخرى، غيَّرت الخارطة السياسية لأوروبا، حيث اختلفت معالم الحدود بين الدُّول على حسـاب دول أخرى[1].

ويُشـار في هذا الصـدد، إلى أنَّ الحربَ العالميّة الأوَّلى، شـكَّلت النواة الرَّئيسـة للحرب العالميّة الثَّانية. كما أخذت الحربان شـكلاً جديدًا في أسـاليبهما الحربية، ولا سيّما ما حصل من تطور هائل في التكنولوجيـا الحربيّة، فكان لذلك وقعه المُفجع، حيث حصد ملايين الأرواح من الأبرياء، نسـاءً وأطفالاً. ومن اللّافت في هذه الحرب أنَّ سـاحاتها كانت المدن، على العكس من الحروب السَّـابقة التي كانت تجري أحداثها خارج المدن، وهذا ما جعل الفاجعة أشـدّ وأقوى.

فيما تُعدُّ الحرب العالميّة الثَّانية، من أكثر الحروب دموية وتخريبًا للبنى التحتية في تاريخ البشرية، لاتساع بقعة الحرب، وتعداد مسارح المعارك والجبهات، حيث شارك في هذه الحرب أكثر من (100) مليون جندي، فكانت الخسائر في الأرواح كبيرة وبالغة، وحصدت بمناجلها الفتاكة حوالي (70) مليون نفس بشرية بين عسكري ومدني[2].

ولابدّ هنا من وقفة متأنية، نُزيح فيها الستار عن جرائم الأوروبيين التي ظهرت باستخدام أنواع متعددة ومتطورة وخطيرة من الأسلحة، من خلال التفصيل التالي:

المطلب الأوَّل: اسـتخدام الأسـلحة المُحرَّمة دوليًّا

استخدمت في الحربين العالميّتين الأوَّلى والثَّانية، أقوى الأسلحة وأخطرها فتكًا بالبشرية، من دون أيِّ رحمة أو شـفقة، ولم يؤخذ بالحسبان النتائج المترتبة على استعمال تلك الأسلحة، وجدير بنا أن

1 - Kesternich, I. 2012, p2

2 - معدّي، 2011، ص5-6 و23

نشيرَ إلى أنَّ أخطرَ تلك الأسلحة على البشرية كان استخدام غاز الخردل المعروف، والذي استخدمته القـوات الألمانيّة في مواجهة القـوات البريطانية، إذ لم تنفع الأقنعة الغازيـة في حماية البريطانيين، فأصيب الجنود بالغثيان وتوفي كثير منهم.

ومن الغازات السـامة القاتلة التي استُعملت في الحرب، غاز الباسيلي، وهو غاز يسبب جرثومة عضويـة تـؤدي في النهاية إلى الغرغرينـا الغازية، ثم بتر وتشـويه وإغماء. كما اسـتخدم الألمان والفرنسـيون ضد بعضهم البعض في الحرب العالميّة الأوَّلى في نيسـان عـام 1915م، ولأول مرة، غازالكلور، وهذا الغاز يُؤدي إلى توقف القدرة على التنفس، الأمرُ الذي تسبَّب آنذاك بقتل المئات من الجنود[1].

أضـف إلى ذلك، أنّ غـاز الكلور يسـبَّب – أيضًا- الذعـر في صفوف الجيش، وقـد أفقد الجنود الإحسـاس بالمكان والزمـان، بالإضافة إلى العمى الذي رافق هذه الإصابـات، وغيَّر في لون الجلد، بين الأسـود والأخضر والأزرق. حيث كانت ألسـنة الجنود في الحرب متدلية إلى الخارج، وعيونهم محدقة، وكان بعض الجنود يسـعل فيخرج زبدًا أخضر اللون من رئته. وغيرُ خافٍ على أحدٍ الوحشيّة التي ارتدى ثوبها كل من اسـتعمل تلك الغازات السـامة القاتلة، ففتك بالجنود والمدنيين أيمَّا فتكٍ، وخرج من دائرة البشرية إلى دائرة أخرى بعيدة كلَّ البُعد عن الإنسانيّة[2].

علاوة على هذا كله، فقد تمَّ في الحرب العالميّة الثَّانية، إسقاط الآلاف من القنابل الحارقة المتفجرة على المدن البريطانيّة والألمانيّة، حيث صُمِّمت تلك القنابل على أن تُعبّأ بمواد كيمياويّة قابلة للاحتراق، كالمنغنيزيوم أو الفوسـفور لإضرام النَّار في المنازل، وذلك عن طريق زيادة درجة الحرارة الشديدة[3]، وهذا كله، يدلُّ أيمّا دلالة على بعض مظاهر الوحشيّة التي تجلَّت في استخدام أنواع كثيرة من الغازات السامة، التي أبادت البشر والحجر معًا.

ومن صور اسـتخدام الأسـلحة الغازية لقتل الأسرى، اسـتخدام إبر الغاز، في المعسـكرات لقتل أسراهم، فكان المريض (الأسـير) يُحقن بإبرة واحدة وهي تكفي لقتله[4].

---

1 - هايمان، 2011، ص-152 159

2 - هايمان، 2011، ص60

3 - آدامز، 2011، ص22

4 - شيرر، 1963،ج4، ص70-71

المطلب الثَّاني: صور من الإبادة الجماعيَّة خلال الحربين العالميّتين

لا ريب في أنَّ الإبادة الجماعيّة، تعتبر واحدة من الجرائم الأكثر وحشيّة وأقساها على الإطلاق على المستوى الدُّولي، فهي تُؤثِّر في حياة البشر ونسلهم وثقافتهم، كما أنَّ أفعال الإبادة الجماعيَّة التي تصيب جماعة من المدنيين أو العسكريين، تربط بينهم روابط معينة (عرقية- قومية) تمثل أقصى درجات الوحشيّة. كما تُشكِّل الإبادة نوعًا من الأمراض النفسيّة، تُبرز أخطر ما في النفس البشريَّة من همجيَّة.

ولا يخفى على أحدٍ أنَّ إبادة الجنس البشري هي إنكار لحقّ وجود الجماعات البشرية كلّها، فالقتل يعكس بصورة واضحةٍ وجليّة، إنكار حق الوجود لتلك الجماعات، وهذا الإنكار يتنافى مع الضمير العام، ويصيب الإنسانيّة بأضرار جسيمة لا يمكن لذي بصيرة أن يتحمَّلها[1].

لقد كان هناك سلسلة من جرائم الإبادة الجماعيَّة ارتكبت بحقّ الجنس البشري في الحربين العالميّتين الأوَّلى والثَّانية، التي لا بدَّ من الحديث عن صورها، والتي شعر جميع البشر بلهيبهما، وقد استمرت سنوات طويلة، لقي فيهما مئات الآلاف من الناس مصرعهم، بارتكاب أفظع جرائم الحرب، فمن صورها في الحرب العالميّة الأوَّلى، نذكر منها ما قامت به ألمانيا في آب 1914م، من إبادة جماعيّة بحقّ خمسة آلاف بلجيكيٍّ في مقاطعة لوكسمبورج، ونامور. كما أعدمت ألمانيا في قرية ليف مئتي بلجيكي، وكان معظم من أبادتهم ألمانيا هم من الأسرى الفرنسيين، وهذا يُعدُّ جريمةً ومخالفةً لكلِّ الأنظمةِ والقوانين والتَّشريعات الدُّولية[2].

ونضرب مثالًا آخر يُوضّح الوحشيّة والهمجية الأوروبية، والإبادة الجماعية، تمثّل في قصف مدينة درسدن الألمانيّة من قبل الحلفاء في شباط عام 1945م، والتي تُعد من أخطر معارك الحرب العالميّة الثَّانية، حيث تسببت القنابل المتفجرة، في اندلاع عاصفة نارية قضت على المباني كلها، وتسببت في مقتل (بين 30 و60) ألف مدني، وقد أدان الكثير تلك الغارة على المدنيين، وعدوها من جرائم الحرب البشعة، علمًا أنه لا توجد أهداف عسكرية في المدينة[3].

ويُشار في هذا الصدد، إلى استخدام المدنيين في الحرب العالميّة الثَّانية، دروعًا بشرية في ساحات الحرب غير مرة، وهذا لا شك يؤدي إلى إبادة جماعية للبشر بصورة مختلفة عمَّا سبق، كما تشير

1 - كلثوم، 2013، ص9

2 - هايمان، 2011، ص265

3 - آدامز، 2011، ص23

التقارير أنّ ثُلثي الذين قتلوا كانوا من المدنيين، حيث استخدمت أكثر الأسلحة حداثة في ذلك، فتمَّ إبادة شعوب مختلفة على الأراضي الأوروبية[1].

وهكذا يظهر لنا أنَّ الإبادةَ الجماعيَّة للبشر اتخذت صورًا متنوعة، تدلُّ دلالة واضحة على تجذُّر الوحشيّة في نفوس الأوروبيين التي لا تعرف شفقة أو رحمة، على العكس تمامًا، ممَّا تدَّعيه تلك الدُّول من أنها الأكثر حضارة وإنسانية على مستوى العالم. فما الدَّافع أو المُبرر لتلك الممارسات، هل هي ردود أفعال، أو محاولات لقلب الهزيمة إلى نصر؟

المطلب الثالث: تعذيب أسرى الحرب

إنَّ المتأملَ في الغرب الأوروبي خلال الحربين العالميّتين الأوَّلى والثَّانية، يلاحظ أنّ الغرب فقد السلام، واختفى منه الهدوء والأمان، وسادت الفوضى والاضطرابات أرجاء البلاد، وكثرت الاعتقالات، وأصبح الغرب عالمًا لا يمتُّ إلى الإنسانيّة بشيء، فألمانيا وحدها في الحرب العالميّة الأوَّلى أسرت حوالي (535) ألف فرنسي، و(170) ألف بريطاني، و(4) آلاف أمريكي، وحوالي (3) آلاف روسي، بينما أسرت فرنسا حوالي(350) ألف ألماني، فيما أسرت القوات البريطانية حوالي (328) ألف ألماني هي الأخرى، وهنا بدأت المعاناة في المعسكرات كافة، فكان الأسرى يُركلون بالأرجل بقسوة ووحشيّة، ويضربون بأعقاب البنادق، ويعملون في حفر الخنادق ودفن الجثث، على شكل مقابر جماعية. أضف إلى ذلك، جعل الأسرى مطية لحمل الذخائر وما يحتاجه الجيش من مؤن[2].

لقد عانى الأسرى كثيراً في المعسكرات، فكان يصعب تأمين الأكل والشرب لهم، أما المأوى فعبارة عن خيم لا أكثر، أما أماكن الاستحمام فحدث ولا حرج. فقد كانت بدائية، تفتقر إلى أدنى مقومات الإنسانيّة، إذ تفرض على الأسرى البقاء شهورًا دون الحصول على فرصة واحدة للنظافة، فكثر القمل والجوع والموت في تلك المعسكرات، وكان مصير معظم الأسرى، الموت أو الترحيل إلى مناجم الفحم، التي تُعدُّ مرحلة انتقالية إلى الموت هي الأخرى. فكثيرٌ من الأسرى كانوا يُعلَّقون بالحبال من أرجلهم لساعات طويلة، وكان الجوع دائمًا حاضرًا، فكانوا يتألمون من شدة الجوع حتى وصل بهم الأمر إلى إجبار أنفسهم على التقيؤ، لتخفيف الألم، لكن دون جدوى[3].

1 - معدي، 2011، ص28

2 - هايمان، 2011، ص208

3 - هايمان، 2011، ص219

ومن صور التعذيب التي رافقت الأسرى، ما كان يعانونه في أثناء ترحيلهم ونقلهم بين المعسكرات، فقد كانوا يُنقلون من مراكز مؤقتة إلى دائمة بالقطارات، وكانت مدة التنقل تستغرق يومين على الأقل، وخلال هذين اليومين تظهر صور التعذيب والمعاناة، فلا يحصلون على أي طعام أو الشراب، وكانت الحمامات لقضاء الحاجة على شكل حوض في منتصف عربة القطار، وأحيانًا هناك عربات خالية تمامًا منها، فكان معظم الأسرى يستخدم زوايا العربات لقضاء حوائجهم[1]. وهذا بحدِّ ذاته يُشكِّلُ صورةً بينةً لمعاناة الأسـير في حرب أكلت الأخضر واليابس، وغيَّرت مفاهيم الحضارة الإنسـانيّة.

المبحث الثالث: وحشيّة الأوروبيين على المستوى الاجتماعي

المطلب الأوَّل: الانحطاط والانحدار الأخلاقيان

لم تقتصر الحربان العالميتان الأوَّلى والثَّانية على إظهار أنواع الوحشيّة على الجنود الأسرى فحسب، بـل تعدَّت ذلك لتصلَ إلى النسـاء والأطفـال، الذين لا ناقة لهم في الحـرب ولا جمل، فمن صورها المؤلمـة في الحرب العالميّة الأوَّلى، تعرُّض الفتيات الفرنسـيات للتحـرش الجنسي من قبل الجنود الألمان، هذا بالإضافة إلى قيام الألمان في مناطق الاحتلال الفرنسي بعلاقات جنسية عنيفة مع النساء الفرنسـيات، ممّن فقدن أزواجهن في المعارك، فكثرت المواليد غير الشرعية نتيجة لذلك[2].

ومن صور الوحشيّة الأوروبية أيضًا، ما قامت به دولة التشيك في 30 أيار من عام 1945م، بحق النساء والأطفال الألمان، إذ أعلنت دولة التشيك طرد الألمان من مدينة (برون)، فطلبوا من المواطنين الألمان وخلال ساعة أن يغادروا المدينة، على أن يحمل كل واحد منهم حقيبة واحدة فقط، وأجبرت النساء على تسليم مقتنياتهن كافة من الجواهر والذهب والفراء، وقد سيقوا بعد ذلك إلى حدود النَّمسا التي رفضت اسـتقبالهم، فوضعوا في حقل تحول إلى مركز اعتقال فيما بعد، حيث مكثوا هناك عدة أشهر، فانتشرت بينهم الأمراض ولاسـيما حمى التيفوئيد (الحمى النمشـية) التي أودت بحيـاة معظمهم. وهي عملية قتل متعمدة وممنهجة ومخطط لها من قبل التشـيك للقضاء على الألمان الموجودين على أراضيها[3].

1 - هايمان، 2011، ص211
2 - هايمان، 2011، ص269
3 - شو، 2017، ص127

ويلاحظ في هذه الصورة، الفكر الهمجي الذي خطط ونفذ أبشع الجرائم الوحشيّة بحق الألمان، ولربما كان هذا نوعٌ من ردِّ الدين، الذي مارسته ألمانيا بحق الشّعوب الأوربية.

وفي مدينة (أوستي) التشيكية أيضًا، وفي شهر تموز من العام 1945م، أُلقي بالنساء والأطفال من فوق جسر المدينة إلى النهر من قبل القوات التشيكية، وقُتل الألمان رميًا بالرصاص في شوارع تلك المدينة، وقُدِّرَ عددُهم بـ(2000 إلى 3000) شخص آنذاك. ومن بقي حيًّا من الأطفال والنساء في المعتقلات، تمّ نقله بالقطارات من قبل القوات التشـيكية، وكانت الرحلة شاقة حيث استغرقت أيامًا، تعرَّضت النساء خلالها لمضايقات الجنود والسرقة والاغتصـاب، أمَّا الأطفال الذين ماتوا جوعًا فكانت تُلقى جثثهم من نوافذ القطارات بلا رحمة ولا إنسانية[1].

ومن صور معاناة الأطفال خلال الحرب العالميّة الثَّانية، إحراق منازل المواطنين أمام أعينهم (تذكرنا بقيام الاحتلال الاسرائيلي بتدمير منازل الفلسـطينيين أمام أعينهم)، في وقت كان قد استدعي آباؤهم للقتـال، وذهبت أمهاتهم إلى المصانع قـسرًا، فعاش كثير من الأطفال تحت تهديد الغزو وغطرسـته المتعجرفـة، وجلبت الحرب خوفًا ورعبًا للأطفال على وجه الخصوص، فقد كانت الحرب سـببًا في تعاستهم، فأبعدتهم عن أبسط حقوقهم في التعليم والعيش الكريم[2].

ونشـير إشـارةً أخيرةً - في هذا الصدد- إلى أنَّ كثيراً من الأطفال كانوا بعيديـن عن عائلاتهم نتيجة القصـف والدّمار، أضف إلى ذلك، إنّ الغارات الخاطفة التي قامت بها الطائرات، قد هجَّرت الآلاف من الأطفال وأجبرتهم على العيش مع أسر بديلة في الريف أو حتى خارج البلاد[3].

ويتضح لنا ممَّا سبق، أنَّ الحربين العالميّتين الأوَّلى والثَّانية، دمرتا النواة الأساسية في بناء المجتمع وتكوينه، ألا وهي النسـاء والأطفال، حيث ارتكب الأوروبيُّون بحقهما وبحق أنفسهم، أفظع الجرائم البشرية في القرن العشرين، التي لم ولن يُسجلها التاريخ عبر العصور.

المطلب الثَّاني: تدمير البُنى التعليمية والثقافية

لقد ذاقت أوروبا كلها ويلات الحربين وسـمومهما، وتجرَّعت كؤوس القتل والتدمير بكل أنواعه،

1 - شو، 2017، ص127
2 - شيرر، 1963، ج4، ص28
3 - آدامز، 2011، ص36

وقد تأثرت الحياة المدنية بهما، وتوقف شريان الحياة في مفاصل الدُّول التي شاركت بشكل رئيس في الحرب، إذ القت الحرب بظلالها السوداء على البُنى الثقافية والمؤسسات التعليمية والمدارس آنذاك[1].

لم تسلم المدارس والمؤسسات التعليمية بكل أنواعها من لظى الحرب العالميّة الأوَّلى وحرها، إذ كانت قنابل الطائرات تتساقطُ على المدارس والكنائس والمشافي بمن فيها، والحقيقة أنه ليس بمقدور بضع كلمات أن تُصور شـقاء الأمم الأوربية ومآسـيها خلال تلك الحرب الدامية، التي دمرت المكان والإنسـان معًا، وتدمير المكان - لا ريب- منوط بتدمير الإنسان ثقافة وعلمًا، وهذا ما جسّدته الحرب العالميّة الأوَّلى، فقد خيّم الجهل عـلى عقول كثير من البشر، نتيجة لتدمير آلة الحرب لمصادر العلم والثقافة كلها، من مدارس ودور العلم وكنائس وغير ذلك[2].

لقد أوقفت هذه الحرب الدامية تدفُّق الماء في مجرى الحياة، ومنعت نور العلم والثقافة من السطوع والإشراق، وأثبتـت أنَّ أوروبـا لم تُقدر العلـم حق قدره، فكانت عواقب ذلـك وخيمة على المجتمع الأوروبي كله، حيث عمَّ الجهل والتخلف لفترة غير قصيرة، وسـادت الاضطرابات في مفاصل الدُّول المُشـاركة في هذه الحرب الهوجاء.

المطلب الثالث: النَّهب والسّلب الأوروبيان

لم تكن الحرب العالميّة الأوَّلى حربًا تقتصر في قتلها على الجيوش فحسب، بل حصدت الكثير من الناس الأبرياء وبطرق متنوعة، فمنهم من مات جوعًا ومنهم من مات خوفًا ومنهم من مات خنقًا، حيث هلك في ساحات المعارك ثمانية ملايين من البشر، بسبب النَّهب والسّلب اللذين أدَّيا إلى الجوع، حيث انتشرت أمراض الكوليرا القاتلة، ففي بولندا مثلاً، اضطر الفلاحون إلى أكل الحشائش، وفي ألمانيا كان عدد المواليد عام 1918م، أقل من عدد الوفيات بسبب الجوع ونقص التغذية، أما في النَّمسا، فقد كانت المجاعة واضحة بين العمال وأسر الفقراء، بسـبب تعطـل المصانع لعدم وجود الفحم والمواد الخام، فمن الصعب هنا - والحال كذلك- رسم صور التعاسة والقنوط اللذين أنجبتهما هذه الأحوال الفظيعة[3].

كـما حاولـت ألمانيا طمسَ معالم حضارة الـدُّول المتحاربة معها، وتجلَّى ذلك في سـلب القوات

1 - هايمان، 2011، ص233

2 - فيشر، 1972، ص542

3 - فيشر، 1972، ص548

الألمانيّة المتحف الوطني في بولندا ونهب جميع قطع الآثار المعروضة فيه. كما نهبت القوات الألمانيّة جميع القطع الفنية من فرنسا التي كانت تحظى بالقسم الأكبر من كنوز أوروبا آنذاك، ولاسيما من متحف اللوفـر، وكان ذلـك بأوامر من هتلر. وهناك تقريـرٌ سريٌّ ألماني يوضح طبيعة وكميـة النَّهب الألماني للتحف الفنية الفرنسيَّة، حيث إن (137) حافلة شحن تحمل (4174) صندوقًا يضمُّ حوالي (21903) من التحف نُقلت إلى ألمانيا عام 1943م، وقُدرت قيمة هذه التحف المسروقة بحوالي بليون مارك فرنسي.

وكان هـدف ألمانيا من هذا السّـلب والنَّهب المُمنهج، إفقار فرنسـا حضاريًّا، والعمل على إلحاق المجاعة بهم نتيجة سـلب الأموال ونهبها، والحقيقة أنَّ هتلر لم يكن في حاجة إلى القطع الفنية لإدارة الحرب، لكن هذا التصرف منه يؤكد الشراهة والطمع التي تميز بها الألمان، ويدلُّ على وحشيّة مختلفة عن وحشـيّة القتل والدمار، وهي أشـدُّ فتكًا بحضارة الشّـعوب وطمس معالمها[1].

وممَّا هو جدير بالذكر، أنه وبعد الانتهاء من حرق الجثث في معسكرات الإبادة، كان الجنود يقومون بتفتيـش أكوام الجثث بحث عن المواد الثمينة، فبعد جمعها وفرزها، كانوا يصهرون الذهب، ويبعثون به مع باقي المجوهـرات الأخرى التي عُثر عليها مع الضحايا إلى مصرف الرايخ في ألمانيا، وكان من بين المواد المسـلوبة الأسنان الذهبية والأقراط والأسـاور، والخواتم والقلادات وإطارات النَّظارات، وعدد كبير من المجوهرات، لاسـيما الألماس والفضة، إضافة إلى الأوراق النقدية، كلّ ذلك كان بين عامي 1941 - 1942م، كما وضحت رسـالة وجهت للبنك المركزي في المانيا مؤرخة بـ 15 أيلول عام 1944م، ضمت قائمة بسلسلة طويلة من المواد بينها (154) ساعة ذهبية و(1601) من الأقراط الذهبية، و(132) من الخواتم الألماسـية، و(784) من ساعات الجيب الفضية، و (160) حشوة أسنان ذهبية[2]. وواضحٌ ممَّا سـبق، أنَّ الدُّول الأوروبية طغى عليها سـمتا: النَّهب والسّلب، وهذا ليس بجديد عليها، فسـمة السرقة كانت ومازالت ترافقها حتى تاريخنا هذا.

المطلب الرابع: تدمير البنى الإنتاجية

عملت القوات الألمانيّة على تدمير البنى الإنتاجية التي أصبحت تحت سيطرتها، ظهر ذلك عندما ألقت بقذائفها المتفجرة على المدن الساحلية البريطانية عام 1940م، كما ركَّزت تلك القوات هجومها

1 - شيرر، 1963، ج4، ص24-26
2 شيرر، 1963، ج4، ص76

على القوافل التجارية والمطارات ومصانع الطائرات في بريطانيا، حيث وصل عدد القتلى إلى ما يقارب عشرة آلاف شخص. ثم وجَّهت القوات الألمانيّة ضربات موجعة للسفن البريطانية المحملة بالأغذية والمواد الخام اللازمة للحياة، هذا، وكانت الطائرات الألمانيّة تقوم بضرب وإلقاء القنابل الممغنطة على الموانئ البريطانية[1]، بهدف شـلِّ كل البنى التحتيـة والإنتاجية، وهذا ما دمَّر الأرزاق المادية والموارد البشرية على مستوى لم يسبق له مثيل.

لقد كانت نفقات الحرب باهظة، والخسـائر المادية كبيرة، فقد أصاب الدمار المسـاكن والمصانع ووسـائل النقل والمزارع، وانقلبت معظم الدُّول الأوروبية، من دول مُصدِّرة، إلى مستهلكة ومستوردة بسبب الحرب[2].

ومن صور الوحشـيّة الأوروبية اتّجاه البنى التحتية وتدميرهـا، في الحرب العالميّة الثَّانية، أنّ دول المحور والحلفاء، تراءى لهم بأنَّ تدميرَ المنشآت ومعامل تكرير النفط والمصانع والسكك الحديدية لكل طرف منهما، سيشلُّ الجهودَ الحربية للطرف الآخر، ويُحطِّم الروح المعنوية له بهدف إجباره على الاستسـلام، حيث تعرَّضت بريطانيـا لغارات جوية خاطفة بين عـام 1940 - 1941م، بينما تمَّ قصف ألمانيا بشـكل متكرر منذ عام 1942م، ممَّا أدَّى إلى مقتل الآلاف، وتدمير المباني القديمة والمنشآت الصناعية[3].

كما لوحـظ من مجريات الأحـداث، في الحربين العالميّتـين، أنَّ الدُّول الأوربية كرَّسـت عتادها العسكري لتدمير البنى التحتية والتعليمية وشلِّ حركة الحياة فيها.

1 - شوقي، 2000، ص271
2 - معدي، 2011، ص53
3 - آدامز، 2011، ص22

خاتمة

في الختام، يمكن إجمال ما ورد في البحث من نتائج، وفق الآتي:

لوحظ أنَّ الحربين العالميّتين الأوَّلى والثَّانية، قد أظهرتا صور الوحشيّة المفزعة بكل أنواعها وأساليبها المختلفة، ولربما كان أبرزها، قتل عدد كبير من المدنيين والعسكريين في المعتقلات، وإبادتهم شرّ إبادة، ويأتي في مقدمات تلك الجرائم النكراء، ما يتعلَّق باستخدام أنواع من الغازات السّامة، من مثل: غاز الخردل القاتل، وغاز الباسيلي الذي يحتوي على جرثومة قاتلة، وغاز الكلور الذي يُسبِّبُ الاختناق، وعدم القدرة على التنفُّس، وغاز السَّارين الذي يسبِّبُ تشوُّهات مستديمة في الجسد البشري، قبل أن يُودي بحياة الشخص، فضلاً عن استخدام غرف الغاز القاتلة بحقّ الأسرى الأبرياء، وهذه الغازات كلُّها تُنبئ عن شيءٍ واحد، وهو تجذُّر الوحشيّة في نفوس الأوروبيين.

ومن الصّور المخيفة التي أظهرتها الحربان العالميتان تجاه البشر، المجازر التي ارتكبها الأوروبيُّون بحق الأبرياء داخل الكنائس والسجون، بلا تردد أو تباطؤ، وكان هدفها – ولا شك- القضاء على الجنس البشري في تلك المناطق التي مرُّوا فيها، فما أبقوا على حجر ولا بشر.

وتجدر الإشارة إلى ما تميز به الأوروبيُّون في الحربين الأوَّلى والثَّانية، من انحطاط وانحدار أخلاقي غير مسبوق، فقد انعدمت الأخلاق، وفُقدت الإنسانيّة، وتجلى ذلك واضحًا - في هذا البحث -، من خلال قتل الجنود للأطفال والنساء في الكنائس والمشافي، بالإضافة إلى رميهم بعد وفاتهم من نوافذ القطارات التي كانت تُقلّهم، بلا رحمة ولا شفقة، وهذا يُشكِّلُ أعلى درجات الوحشيّة التي لا يقوم بها إلَّا هُم.

كما تسبَّبت الحربان العالميتان بمشاكل نفسية لكثير من النساء والأطفال والشيوخ، نتيجة الممارسات الوحشيّة بحقهم في معسكرات الاعتقال، تجلّت بحرق الأطفال، والتمثيل بجثث النساء والرجال.

لقد كانت الحربان ساحةً لا يُرى فيها إلّا الموت والدمار والنزوح، إذ اضطر كثير من الأفراد إلى التخلي عن ممتلكاتهم أو التنازل عنها دون تعويض، والانتقال إلى أماكن أخرى لم تكن بأفضل حال مما كانت عليه منازلهم، وهذا أسهم في تشتّت العائلات وتشرذمها وتمزقها شر ممزق، وفقدَ العديد من الأطفال آباءهم، هذا فضلاً عمَّا أصاب الأطفال الصغار، من هول وخوف ورُعب، ناتج عن تلك المعارك والاشتباكات في المناطق نفسها التي يقطنون فيها.

قائمة المصادر والمراجع

■ إبراهيم، ن. (2021) الآثار الاجتماعية والاقتصادية للحرب العالميّة الأوَّلى، مجلة ديالى، العدد9.

■ آدامز، و. (2011)، ت: مروة رشاد عبد الستار، مكتبة النهضة المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، مصر.

■ آل طويرش، م. (2017) العالم المعاصر بين الحربين من الحرب العالميّة الأوَّلى إلى الحرب الباردة 1914-1991م، دار المعتز للنشر والتوزيع، ط2، مصر.

■ الجمل، ش. و عبد الرزاق، ع. (2000) تاريخ أوربا من النهضة حتى الحرب الباردة، المكتب المصري للتوزيع والمطبوعات، ط1، القاهرة.

■ شو، م. (2017) الإبادة الجماعية، مفهومه، وجذورها، وتطورها، وأين حدثت..؟، ت: محيي الدين حميدي، مؤسسة العبيكان، ط1، الرياض.

■ شيرر، م. (1962) نشأة وسقوط الرايخ الثالث، تعريب: خيري حماد، منشورات مكتبة المثنى، ط1، بغداد.

■ فيشر، م. (1972) تاريخ أوربا في العصر الحديث 1789- 1950م، ت: أحمد نجيب هاشم، دار المعارف،ط1، مصر.

■ كارتيه، ر. (1983) الحرب العالميّة الثَّانية 1942-1945م، ت: سهيل سماحة، وانطوان مسعود، جزآن، مؤسسة نوفل للتوزيع والنشر، ط2، بيروت.

■ كلثوم، م. (2018) جريمة الإبادة الجماعيَّة ضد مسلمي البوسنة والهرسك ودور المحكمة الدُّولية الجنائية في محاكمة مجرمي الصرب، رسالة ماجستير، جامعة العربي التبسي، كلية الحقوق والعلوم السياسية، الجزائر.

■ معدي، س. (2011) دار الحرم للتراث، ط1، القاهرة.

■ نوار، ع. وجمال الدين، م. (1999) التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالميّة الأوَّلى، دار الفكر العربي للنشر، ط1، مصر.

■ هايمان، ن. (2012) سلسلة الحياة اليومية عبر التاريخ" الحرب العالميّة الأوَّلى، ت: حسين عويضة، مشروع كلمة، ط1، السعودية.

باللغة الانجليزية

■ Breitman, R. and Goda, N. (2010) Hitler's Shadow, Nazi War Criminals, U.S. Intelligence, And The Cold War, Published by the National Archives.

■ Harrison, L. and Beyer, C. (1946) Nazi Conspiracy and Aggression, (Vol. 1), United States Government Printing Office Washington.

■ Kesternich, I. (2012) The Effects of World War II on Economic and Health Outcomes across Europe IZA DP No. 6296.

■ https://www.ushmm.org/m/pdfs/20010322historyofholocaust.pdf

مُعسكراتُ الاعتقال والتّعذيب في التاريخ الأوروبّي

■ أ.م.د مُحمَّد المحمَّد الحسين[1]

ملخّص

يتناولُ هذا البحث، معسكرات الاعتقال والتعذيب في التاريخ الأوروبي، وما اقترفته أيادي السياسات الأوروبية، الأكثر وحشيةً في تعاملها مع المعتقلين داخل المعتقلات والسجون التي أنشأتها، خلال مسيرتها التوسعية، من التاريخ القديم (اليونان والرومان)، مروراً بالعصور الوسطى، داخل وخارج القارة الأوروبية، ومن ثم وصولا إلى التاريخ الحديث والمعاصر.

وتكمنُ أهميته، في كونه يتناول موضوعاً مُفرطًا في الإنسانيَّة، لأنه يُسلِّطُ الضوء على مدى القسوة التي عانى منها السجناء في العصور اليونانية والرومانية وفي أوروبا اللاتينية، كما يُركِّزُ على الكشف عن أنواع وأدوات التعذيب التي استُخدمت آنذاك، بالإضافة إلى أنواع السجون، ومن ثمَّ، معرفة الآثار النفسية المترتبة على حجم القهر البشري، ومشكلة الوجدان والضمير، وكذلك، معاناة الإنسان في معسكرات الاعتقال والتعذيب في التاريخ الأوروبي في العصور الوسطى، وما جرى فيها أثناء الحملات الصليبية ومحاكم التفتيش الإسبانية، من جرائم ضد الإنسانية، بالإضافة إلى الاستعمار الحديث والمعاصر في إفريقيا وشمالها وآسيا، حيث تخطَّت أفعال المستعمرين، الخطوط الحمراء في اللاإنسانية.

الكلمات المفتاحية:

أوروبا- الاستعمار- معسكرات التعذيب- سجون - أدوات التعذيب- الوحشية- اليونان- روما.

1 - أستاذ مساعد في قسمي التاريخ والآثار، كلّية الآداب والعلوم الإنسانيّة- جامعة حلب.

مقدّمة

رافقت سياسة التعذيب جُملة، كل المعسكرات والمعتقلات في العالم، خصوصًا لدى القوى الاستعمارية، لاسيما الدولَ الأوروبية، فقد كانت من أكثر الدول وحشية في تعاملها مع السكان المحليين بشكل عام، والمعتقلين بشكل خاص، بدايةً من اليونان والرومان، مروراً بالعصور الوسطى الأوروبية، وصولاً إلى الحملات الصليبية وطُرق التعذيب البشعة، وما آل إليه وضع السجناء.

وأخيراً، معسكرات الاعتقال والتعذيب في التاريخ الحديث والمعاصر، وما فعله المستعمرون الأوروبيون، وعبر مراحلهم المختلفة، من تفنُّن في إيجاد معسكرات الاعتقال، وطرق وأساليب وأدوات التعذيب التي ابتكروها، حيث لا عينٌ رأت، ولا أُذُن سمعت، ولا خطر على قلبِ بشر.

أولاً- السجون والمستعمرات عند اليونان والرومان

1 - اليونان

نشأت في مصر عدد من المدن اليونانية، كانت فيها السلطة الملكية اليونانية، تعمل على مراقبة الإدارة، وللإيحاء أن تلك الإدارة مشتركة ما بين اليونانيين والمصريين، لكن الحقيقة، أن السلطة الفعلية كانت لليونانيين، وخير مثال على تلك المدن، الإسكندرية، والمستعمرة القديمة على الدلتا، وهي «نوكراتيس»، و«بطوليماييس»، التي أنشأها بطليموس الأول في مصر العليا، ولم يُكثر اليونانيون من مستعمراتهم في مصر، كي يُبقوا سيطرتهم وثيقه على رعاياهم وعلى المصريين، وشتى الجماعات غير اليونانية، وسكان محلّيين حصرهم الإسكندر في مستعمرة «راكوتيس»، التي شكَّلت سجناً كبيراً لهم، مع تحريم الزواج المختلط بين الإغريق والمحلّيين، وتقسيم السكان إلى فئات معينة، خضعت كل واحدة إلى الأعلى شأنًا ونفوذًا منها، ولم تخلُ

كلُّ تلك المستعمرات من السـجون، بما فيها الإسكندرية، التي غدت إحدى أكبر مدن العالم، وقد شـهدت هيجانًا عامًّا، بسـبب وجود القصر الملكي فيها، ولوجود يـد عاملةٍ كان الإغريق بحاجة إلى تسـخّيرها للعمل في خدمتهم. ولكثرة مسـتعمرات الاعتقال والسجون التي أنشأها الإغريـق، ليس داخل مدنهم فقط، وإنَّما في الأريـاف أيضًا، فإن الكثير ممَّن عاش في الأرياف المصرية التابعة للمسـتعمرات اليونانيـة، كانوا مُرغمين على تلك الإقامـة، تحت إدارة صارمة لنظام استعماري عسكري أشرف عليه الجنود الإغريق. كما أنّ السجون لم تقتصر على المغلقة والمظلمة تحت وفوق الأرض، لا بل هناك المفتوحة، والتي كانت معتقلات لا تقلُّ قهرًا وظلما لأولئك المواطنين المصريين، الذين أُرغموا على العمل بالزراعة وإصلاح الأراضي، ممّا عمق الحقد في صدور المزارعين تجاه هؤلاء الدخلاء الأجانب من الإغريق. هذا، ومن شـدة قسوة عيش الفلاحين المصريين في المستعمرات اليونانية، فقد لجأوا إلى المعابد هرباً من الظلم، وبما أنّ الإغريق لم يعملوا على تحسين معاملتهم مع المزارعين، بل تمادوا في القسوة، ظهرت بعض الثورات الحقيقية أواخر القرن الثالث وأوائل الثاني في مصر العليا والدلتا[1].

وفي المرحلة السـلوقية، زاد الإغريق من عدد المدن التي بنوها، فـ"سـلُوقس" وَحْده، أسّسَ (59) مدينـةً، كلَّفت كثيراً من الأرواح والأموال، وكان بناء السـجون والمعتقلات فيها جزءاً من تصميم عمرانها، بحيث لم تخلُ منها مدينة يونانية، مثلها مثل الأسـوار، والحصون، والساحات العامة، والشوارع والمعابد، والأبنية العامة الأخرى، وكلما اتّسعت المدن والمستعمرات، كانت تتوسـع معها السـجون والمعتقلات، ومعسـكرات المنفيين والأسرى والمحكومين، ليس في أراضي مصر فقط، لا بل خارجها أيضًا[2].

وأكثرَ ما احْتَضنَته السـجونُ والمعتقلات ومعسـكرات التعذيب اليونانية، كان المجموعات الجبليـة وبعض البدو، وكل من رفض الخضـوع للإدارة اليونانية. وهناك الكثيرون من سـكان المدن الأصليين، وسكان الأرياف والضواحي، ممّن لم يقبلوا البتَّة الانصياع إلى الأنظمة الإدارية والسياسـية الإغريقية، سواء تمثّل ذلك في أسلوب التعامل، أو فرض صيغ معينة للعمل، تحت القوانـين اليونانيـة، ما خلق حالـة من عدم تجاوبهم مع معاملة قاسـية لهـم تجلَّت في إقامة

1 - إيمار و جانين: الشرق واليونان القديمة، ص464

2 - إيمار وجانين: الشرق واليونان القديمة، ص474

معتقـلات مؤقته سُـمّوا فيها عصاةً، بعد ذلك تـمَّ نقلهم إلى حصون وسـجون خاصَّة، تنوَّعت حسب الأحجام وأساليب التعذيب، لذلك رأوا أنَّ أهمَّ وسيلة لضبط هؤلاء العصاة هي المدن، لحصر غير المتجاوبين بسجونها المتنوعة بوصفهم متمردين. بينما كانوا يرون في أنفسهم منارات مُشعةً لبثِّ إشعاعات حضاريةٍ من المدن، التي ركَّزوا على إعمارها، والاهتمام بها، والإكثار من أعدادهـا، رغم أنّ المَقيمين فيها كانوا من غيرهم، ممّن لم يحصلوا على أحقية المواطنة الكاملة مثل الريف[1].

2 - الرومان

لقد لاقى السـجناء من الأسرى والعبيد وسواهم، معاناةً مُفرطة القسوة عند الرومان، أكثر ممَّا لاقوه عند اليونان، وعلى المنوال نفسـه، انتشرت السـجون داخل المدن وفي الأرياف، وعُومل العبيد معاملة بالغة السـوء فلم يكونوا «... يُباعوا مع العربات والحدائد العتيقة فحسب، بل مع الثيران الطاعنة في السـن أيضاً، فكُلُّ شيء يؤول بالنسبة إليه «النخاس» إلى مسألة إنتاج مماثلة لمسألة إنتاج المواشي التي يغذيها صاحبها، ويحرص على ألاَّ يُنهكها ولا يُسيئ معاملتها...إذا ما أخذنا بعين الاعتبار أعمال العنف التي يأتيها في غياب السَّـيِّد المتكرر، لا يجب أن نبالغَ في تصور «السجون المظلمة»، والتقييد بالسلاسل، وعقوبات الشنق، وهكذا، فقد انحطَّ العبدُ إلى مرتبة الحيوان، وفقدَ كلَّ أملٍ بالعطف وبمسـتقبل أفضل، فتألَّم في نفسه إن لم يكن في جسده، كلما وعى طبيعته البشرية ولو وعياً غامضاً... »[2].

لم يكتـفِ الرومان بوضع المعتقلين في السـجون المتنوعة ومعسـكرات المدن والأرياف، بل كانوا يُدربون قسـماً منهم بالإكـراه في حلبة المصارعـة(palaestra)، ليُنفذوا تلك الرياضة العنيفة في حلباتٍ أمام الجماهير، بُغية تسليتها والترويح عن نفوسها، وبعض تلك الألعاب كان يحضرها الإمبراطور شخصيًّا، لا سيما أيام الاحتفالات والمهرجانات، «... فقد أحيا الإمبراطور "ترايانـوس"، بعد أن تكاثـرَ عددُ الأسرى والعبيد، إثر حروبه في مقاطعة داسـيا(رومانيا اليوم)، وتدويخه لهـا، نحو 120 يوماً على التـوالي من الأعياد الصاخبة وحفلات المصارعة، اشـترك

1 - إيمار وجانين: الشرق واليونان القديمة، ص478

2 - إيمار وجانين: روما وإمبراطورتيها، ص180

فيها(18000) مصارعاً في هذه الأعياد الشعبية الضخمة التي أحياها عام 109م[1].

بهذه القسوة والفظاعة، كانت تسيرُ حياةُ الإمبراطورية الرومانية، وقد شكّل العبيد والسجناء والأسرى والمحكومين البنية السفلى التي تُقدم شتَّى أنواع الخدمات إلى المجتمع الروماني، مأمورةً من قبل المتنفذين بآرائهم، والذين يوجهونهم حسب الحاجة والرغبة، سواء أكان للإشراف على القطعان وترويض غير المروض من الأحصنة وسواها، أو التدريب على مصارعة الوحوش الكاسرة، والسهر على رصد الحدود، وإن كانوا لا يُمنحون الثقة في هذه المهمة، إلَّا أنهم كانوا يُرصدون لكشف محاولات هربهم أو خيانتهم، حتَّى يخلقوا المُبرر الذي يجعلهم يتعرضون لأشد أنواع العقوبات من غير قصد.

وقد ازدادت حاجة الرومان إلى السجناء والأسرى، بعد سيطرتهم على بلاد الشام عام 64 ق. م، فأنشأوا على أرضها معسكرات مُتنقلة في مستعمراتهم، واستخدموا الغفير من سجنائها في بناء التحصينات التي احتاجوا إليها، وحفروا الآبار وبنوا الصهاريج الواسعة، مع إقامتهم لبعض السدود لحصر مياه الأمطار، ونُقر الكثير من القنوات ومجاري الجداول[2].

لقد خشي الأوربيون عمومًا، سواء قبل الميلاد أم بعده، من ازدياد عدد السجناء والأسرى والعبيد في المعسكرات الخارجية والسجون المتنقلة، حذراً من أن يقوموا بتمرد أو عمليات عصيان، وكان الرومان يُوزِّعون السجناء للعمل بالسخرة، ليس في المناجم فقط، وإنَّما بالمحاجر والمصائد، والغابات، وأماكن استخراج الملح، وبما أنَّ روما لم تكن غنية بالمعادن، فقد كانت تُرسِل المعتقلين والعبيد إلى مستعمراتها في بعض بلاد اليونان، وآسيا الصغرى، ومصر وليبيا، وإلى المناجم الغنية في إسبانيا، ومقدونيا، ومناجم "دالماتيا"، و"نوريكوم"، وبلاد الغال، و"سردينيا[3].

ثانياً- أنواع التعذيب وأدواته وأنواع السجون

1 - أنواع التعذيب

تطورت أنواع التعذيب عبر العصور، فقد كان هناك سجناء أُجبروا على القيام بأعمال رياضية

1 - إيمار وجانين: الشرق واليونان القديمة، ص368

2 - أحمد وصفي زكريا: عشائر الشام، ص57

3 - رستوفتزف: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، جـ1، ص404

عنيفة، كجعل الأسـير أو السجين يصطاد وحشاً في الحلبة، أو يصارع فيلاً لاصطياده، أو يشدُّوا وتراً شـديد القسوة لقوس نشّاب، ومنهم من كان يُجبر على ترويض الخيول الجفولة، بينما كان النـاس يتفاكهون ويتبادلون الأقـوال والتعليقات على الأسرى والسـجناء الذين على مدرجات الحلبات والمسـارح. وغير خافٍ، أنه كان يتمُّ التعامل مع العبيـد بوصفهم مواد تجارية تُقرضُ وتُباعُ وتُؤجر.

هذا ومن أنواع العذابات التي كان يلقاها السـجناء في سجون أوروبا قبل الميلاد، السجن في بئر بعمق قرابة خمسة أمتار وقطر مترين، يُدلّى فيه "السجينُ" بحبلٍ أو يُلقى إلقاءً، وأيضاً كان السـجين يُرمى لتنهشـهُ الكلاب الجائعة المسـعورة، أو القذف تحت أقدام الفيلة وربط السـيوف في خراطيمها وإيقاف السجناء أمامها، وأحياناً إدخال القضبان المسنونة في أجساد المعتقلين وبتر الأطراف، وجدع الأنوف، وفقء العيون، وإحراق السجين بالنار، مع عذابات أخرى منها: إجبار السجناء على السـير فوق الجمر والأشواك الحديدية، والوقوف بلا ثياب مدة طويلة في الجوِّ البارد، والسلق بالماء المغلي، والكي، وكان يتمُّ تنفيذُ أحكام الإعدام من قِبلِ جلادين مختصين داخل السجون، وبعض عمليات التنفيذ تمَّت في الساحات والميادين العامـة أمام الجماهير للاتعاظ والاعتبار، ولعدم الخروج عن طاعة الملك، والإدارة المركزية للدولة. وبعض السـجناء كان يتمُّ اقتيادهم لوضعهم في أجران خاصة مملوءة بالماء ليموتوا غرقًا، وبعضهم كان يتمُّ فيه تنفيذ حكم الإعدام حرقاً، أو الإلقاء في آبار عميقة، وإلقاء أحجار ثقيلة فوقهم[1].

وبشـكل عام، لا يمكن إحصاء أنواع عمليات التعذيب بدقـة، لأنها كانت مفتوحةً ومتنوعة، حسـب رغبة المتنفذ، وحسب طبيعة الأباطرة والملوك والحكام المحليين، الذين كانوا ينفذون أوامر الجهات العليا عبر القادة والفرسـان والضباط، وصف الضبـاط، وكانت الصلاحيةُ كافيةً لمديري السـجون والمعتقلات بابتكار شـتَّى أنواع التعذيب ضد السـجناء، والعمل على تنفيذ الأوامـر بصرامة، مع عمليات التجسـس والمراقبـة عليهم[2]. ولاحقاً ظهرت أسـاليب تعذيب وحشـية، تجلَّت في محاكم التفتيش(Inquisitian) ظاهرها ديني وباطنها سياسي، لم تتردد في

1 - مرقس: حضارات غارقة، ص21

2 - مرقس: حضارات غارقة، ص23

وضع المتُهمين داخل خزائن حديدية تحتوي أبوابها من الداخل على مسامير حديدية طويله وإغلاقها عليهم حتى الموت. وسابقاً عدَّت القوانين اليونانية أنَّ من لا يعبد الآلهة يُعد مارقاً عن الدين وعقوبته الإعدام، وكذلك في التشريعات الرومانية الأمر نفسه، وقد عمدت الحكومة البيزنطية إلى تطبيق ذلك ضد المانويين وسواهم.

لقد «اعتمدت البابوية في محاكم التفتيش، على الدومنيكان الذين شبهوا أنفسهم بكلاب الله في اصطياد الهراطقة، والمحافظة على الرعية ضد الذئاب الضارية، والمفروض في توزيع الأموال المصادرة من الهراطقة أن تكون مناصفةً بين الدولة والكنيسة...أمَّا في إيطاليا، فيُعطى ثلث الأموال للواشي، وقد أدّى التدبير الأخير إلى ملاحقة الأبرياء من قِبل الفئات الانتهازية... وتميزت محاكم التفتيش الإسبانية بالانحراف عن الأهداف الأصلية، إذ وُجهت ضد المسلمين وخصوم السلطات المركزية من أجل مآرب دنيوية، وبمعزل عن البابوية»[1].

ولم ينجُ الأقنان، على الرغم من ارتباطهم بالأرض، من دخول السجون والوسمِ بالحديد المحمّي المتوهج على جباههم وصدورهم وأيديهم، خصوصاً من تمَّ إلقاء القبض عليهم بعد الفرار، وصدرت قوانين فيها أنَّ الأب الذي لديه ابنة في الثامنة عشر من عمرها، عليه إلحاقها لخدمة سيد إقطاعي، وإن رفضت تدخل السجن، مع عدم السماح للأقنان بإرسال أولادهم إلى المدارس، فالتعليم والاشتغال بالكنائس اقتصر على أبناء الأحرار فحسب[2]. كما ظهر سجناء، غير الذين أقاموا في السجون العائمة على متن سفن ثابتة، حيث أقاموا في سفن مسافرة، ذاقوا خلالها ألوان العذاب، وهم يقومون بعمليات التجديف المتواصل من مكان إلى آخر، تحت أوامر ومعاملة قاسية ممن حُكم عليهم بذلك «... ونُزود الثلاثية بمجاديف طول الواحد منها(12م)، يعالج المجذاف الواحد خمسة مجذَّفين، كلهم من الأرقاء أو من المحكوم عليهم بحبس... عند انطلاقه يلهب السوط أجسامهم عند أقل تمهُّل أو تأخُّر في الحركة»[3].

وبمرور الزمن تغيّرت أساليب التعذيب لدى الأوروبيين، ولكن زبانية محاكم التفتيش الإسبانية، فاقوا في وسائلهم من سبقهم، وأضافوا إليها ابتكارات مهولة، ما كان بالمقدور الصمود

1 - اليوسف: العصور الوسطى الأوروبية 476-1500، ص251-253
2 - رينكور: القياصرة القادمون، ص358، هامش(1)، ص71
3 - موسنييه: تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، ص84

أمامها، ومن وسـائل التعذيب التي شاعت في بداية تشكيل جهاز المحكمة، ملء البطن بالماء، الـذي يؤدي إلى قتلـه اختناقاً في معظم الحـالات، وفي كثير من الأحيـان كان يوخز المُعذب بالدبابيس، أثناء سـكب الماء في أعصابه وشراينه لزيادة آلامه[1]. وهناك أنواع أخرى للتعذيب، كسل اللسان، وتمزيق أثداء النساء، وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب حديدية حادة، ومجالد من الحديد الشائك، لجلد المعذبين وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظم[2]. أمَّا التعذيب بدفن المتهم وهو على قيد الحياة، فقد كان وسيلة مروعة من وسائل التعذيب المبتكرة، فقد كان رجال التفتيش يتخيرون جداراً، في طريق كبير أو ميدان عام، ويحفرون في ذلك الجدار قبراً يوضع فيه المتهم، ثمَّ يعاد البناء بعد ترك فتحة صغيرة لكي يراه الناس وهو يموت ببطء[3].

وحتى الموتى لم يسلموا من تعسُّف المحكمة، فلو حدث وأُكتشف أن المتوفي كان يمارس هرطقـة من أي نوعٍ، فإن المحكمة كانت تأمر بنبش القبر، وإخراج الجثة وبعد وضعها في كيس تُحرق في الاحتفالات الدينية مع الضحايا الآخرين، ولم ينج الفارون من قبضة محاكم التفتيش، وإن لم يتمكنوا من القبض على الهارب، كانوا ينحتون له تمثالاً يحرق في الاحتفالات الدينية[4]. أمَّا سجون ومعتقلات النسـاء، فقد خُصصت الطبقة الوسطى من تلك السجون للنساء اللواتي كان رجال ديوان التفتيش يترددون عليهن من حين لآخر، وكثيراً ما كان يتم ذلك، للعبث بعفافهن في تلك الدار الموحشة[5].

2 - أدوات التعذيب

لقد اُستخدمت أدوات كثيرة ومتنوعة في التعذيب منها: الفؤوس، والأقفال، وأدوات الحراثة، والمقالي، ومغـالي الماء، والسـيوف المثلمة، والمُدى غـير الحادة، والسـواطير، والمخارز، ومواعين صهر الرصاص وسواها، والعصي بأنواعها، والمطارق الخشبية، وكور النار، والمسامير والمنشار النحاسي والحديدي والخشـبي، والقضبان المسنونة، والفيلة، والكلاب المتوحشة،

1 - موسنييه: تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، ص84
2 - قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، ص117
3 الزوبعي: محاكم التفتيش الإسبانية، ص98
4 - الزوبعي: محاكم التفتيش الإسبانية، ص99
5 - محمد علي قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس ص80

والصقور الجائعة، والخفافيش، والجرذان، والفئران، والأفاعي السامة، والعقارب، والملاقط، والمقابض، والمقصات، والمقاعد ذات النتوءات الحديدية، والأشواك القاسية، وأخشاب الصلب، والمبارد، والعجلات، والمغاطس، وبرك الماء، والحلقات السقفية، والحبال والجنازير، والحجارة، والسموم، وعربات السحل التي تجرُّها الخيول، والأباريق التي تحتوي الماء المغلي والمياه الآسنة، والطحالب، والسياط، والنطوع، والمناطق (الزنانير)، والخوازيق، والخرز للبلع، والدخان، وعصبات العيون، والتجويع، والتعطيش والتخويف، والأصوات العالية، والأرق، والأحمال الثقيلة، والرطوبة العالية، ومشاعل النار، والقضبان الحديدية الساخنة والباردة، والفضلات، ونوى الثمار لفرك نهايات الآذان، والأطمار البالية، والجواليق الثقيلة لإرغام المعتقلين على ارتدائها أحيانًا، بُغية عرقلة تحركاتهم، والجمور، والزيوت المغلية، والصناديق الخشبية أشباه التوابيت، والكراسي المقلوبة، والمراحيض، والمزبات ذات الأشواك الحديدية، والمقارض، والمقارص، والسندانات والمطارق، والأدوات المُحمَّاة للطبع على الجلد، والشناكل..إلخ.

هذه الأدوات اقتصرت في معظمها على السجون المغلقة للسياسيين وقادة الثورات، والتي لا يغادرها السجناء إلَّا بالموت أو بالإفراج عنهم، بعد تعهُّد التعامل مع السلطات[1].

3 - أنواع السجون

أول ذكر للسجن، كان سجن «يوسف» الذي ورد ذكره في التوراة والقرآن، مع ورود ذكر للسجون في بعض مؤلفات اليونان والرومان، وقد كانت بعض السجون على شكل دهاليز، ومنها ما كان مُظلمًا، عُرف لاحقاً على متن السفن التي رسى بعضها على الموانئ البحرية للسواحل الجنوبية في إنكلترا، ونهر التايمز، ومن أشهر السجناء في التاريخ «سقراط»(470-399 ق. م) الذي اتُّهم بإفساد عقول الشبان وإنكار الآلهة، فسُجن وحكم عليه بشرب السم، بينما كان يُجبر آخرون على الغوص في البحار بوسائل بدائية لانتشال الكنوز من السفن الغارقة[2].

لقد كانت سجون المتمردين والعصاة وسواهم من الأعداد الغفيرة، تُقام في معسكرات خاصَّة

1 - المنياوي: إمبراطور الحرب والحب، ص116

2 - مرقس: حضارات غارقة، ص24

على أطراف المدن، وبالأرياف، وتخضع لحراسة مُشدَّدة، مع متابعة لشؤون المحتجزين على مدار الساعة، وهؤلاء كانت تحرسهم قوات كثيرة من الجيش، وعندما كان يحاول بعضهم الفرار تتعقبه قوة من الفرسان الخيّالة الحبَّالة، ويتم الإمساك به بالحبال، وبهذه الحالة يُنقل إلى نوع آخر من السجون داخل المدن وعلى أطرافها فوق الأرض، ليَلقى فيها صنوف العذاب تحت رقابة مُحكمة، وسجنهُ يختلف عن سجون قادة التمردات والعصيانات والثورات، فهؤلاء كانت سجونهم تحت الأرض (ديماس) شديدة الظلمة والرطوبة، يبيتُون في أقبية ويتعرضون فيها لنوع خاص من التعذيب الذي يرافقه التحقيق..»[1].

أمَّا السجون العادية التي فوق الأرض، والتي تخضع لحراسة شبه مُحكمة، ويسمح للسجناء فيها بالتحرُّك في ساحة السجن واستقبال بعض الأقارب في أوقات مُحدَّدة، فتكون عقوبتهم الأساسية هي حجز حرياتهم عقب تعرُّضهم الأولي للتعذيب والتحقيق. ويختلف مكان السجناء هؤلاء عن مكان المجرمين ممن ارتكبوا جرائم قتل، واغتصاب واختطاف، فيختلفَ نوعُ العقاب حسب نوع الجريمة، وبالتالي، تتنوعُ العقوبات ما بين التعذيب أو الإعدام أو النفي أو التعويض المادي، وذلك كله بعد خضوعهم للتعذيب. وكل مُجرم حسب جريمته يُحدّدُ له السجن الذي ينبغي أن يُفرز إليه، والمكان الواجب عليه الجلوس داخله، والمحاكم غير السياسية كان يترأسها القضاة، أمَّا محاكم السياسيين والقادة، فكان يترأسها الملك شخصياً خلال العصور الوسطى في أوروبا[2]، وذلك لأنه كان يتمُّ اعتقال ثائرين أو سواهم ووضعهم في المعسكرات المتنقلة خارج المدن، فتذهب المحكمة إليهم لتقوم بعملية الحكم عليهم، وعندما يستحوذ الجيش على عدد كبير من الأسرى لا يتمُّ إدخالهم إلى المدن، وإنَّما تُقام لهم معسكرات خاصَّة بوصفها سجوناً في الأطراف أو في الأرياف، ويمكن نقلها من مكان إلى آخر حسبما تفرض الظروف، مع الحرص على إبعادها عن الأهالي والسُكَّان المدنيين قدر الإمكان، لئلا تحصل تسربات، وكيلا يطَّلعوا على ما يجري داخلها من تعذيب وسوى ذلك، ولم يكن لدى السجين سوى قطعة خشب، طولها متران وعرضها متر ونصف المتر، وهي سريره على الأرض، ويُعطى له غطاءان من الخيش، يفترش واحداً ويتغطى بالآخر، وتُعطى له قرميدة أو قطعة من البلاط تكون وسادة

1 - بروى: تاريخ الحضارات العام (القرون الوسطى)، المجلد الثالث، ص81
2 - بروى: تاريخ الحضارات العام، المجلد الثالث، ص82

له، ويترك له إناءان يحوي أحدهما ماء للشرب، ويُحفظ في الثاني بوله وبرازه، ويُترك له إناء آخر للزيت، يضع منه في المصباح الذي يلزم بإضاءته ليل نهار[1].

ثالثاً- الأبعاد النفسيَّة لتأثيرات التعذيب وتناقضاتها مع المفاهيم الإنسانية

لقد أدركنا مدى فداحة الأهوال النفسية التي تلحق بالسجناء، والمعتقلين، والمعذبين وذويهم في المعسكرات والسجون المتنوعة اليونانية، والرومانية، والأوروبية عموماً من خلال معرفتنا لأنواع ووسائل التعذيب، « ولكن هذا الوضع بالذات، لم يكن يخلو من محاذير تلحق بالجندي، فتترك أثرها في قدرته الحربية وكفاءته العسكرية، وكان لابدَّ من أن يترك أثره بارزاً في نفس الجندي مهما بلغ من حرص(الإمبراطور) للحدِّ من فعل هذا التطور.. وبعد، فامتداد الخدمة العسكرية واستمرارها مدة طويلة أمر لم يكن ليخلو من المحاذير... فالنظام العسكري الذي كان ساري المفعول إذْ ذاك، كان يحظر على الجندي عقد زواج شرعي، كما أنَّ إقامة هذا الجندي مدة طويلة في المعسكر أو المخيم، كان مُشجِّعًا على التسري الخفي»[2].

وإذا كان هذا حال الجندي، فكيف بالإنسان المعتقل والعبد، وما يعانيه من ارتدادات نفسية وانتكاسات تشعره بانسلاخه عن طبيعته البشرية، جراء عملية عزله في المعتقلات وتعذيبه، فقد كانت تنتاب السجين مشاعر الوحشة، والوحدة، وعدم الانتماء إلى الجنس الآدمي، فهو كان بمثابة كائن حي مُسخَّر لخدمة الأباطرة والملوك والأمراء والقادة وجيوشهم ودولتهم ومدنهم، فلا تعتريه أية أنواع من مشاعر الطموح والعطاء والإبداع، فليس أمامه سوى التفكير بالحرب وويلاتها ومخاطرها، أو الانتحار نتيجة الاكتئاب وفرط القهر، لأنه يحيا مْيتاً، ولا أدنى أمل لديه في العيش بحرية، ولا بالعمل لأجل ذويه أو نفسه، لانسلاخه عن أسرته، وهو معزول عن الزمن، ولا يدري أيَّ موئل يؤولُ إليه، لعلمه بفقدان الأمل وخضوعه عنوةً لمشيئة سيده الذي يأمر بتعذيبه، وليبقى يتحمَّل شتَّى أنواع العذابات النفسية والبدنية التي يخضع إليها، فيتجرد شيئًا فشيئاً من أدنى شعور بالأنس، ويغدو أداةً تعمل وفق أوامر برمجَ نفسه وجهازه العصبي قسراً عنه على التجاوب معها وتقبُّلها على مدار الوقت، وإن لم تسنح له فرصة هرب أو انتحار، يظلُّ خاضعاً لأوامر وبرامج

1 - قطب: ص82

2 - إيمار وجانين: روما وإمبراطورتيها، ص287

المباشرين عليه، الذين كلّفوا بحراسته وتعذيبه، بوصفه خادماً مأسوراً لديهم، لا يرون فيه سوى ذلك، دون أية رحمة أو مشاعر تأنيب ضمير، فلا وجود هناك للوجدان[1].

كما مُورس نوع آخر من التعذيب الجسدي والنفسي، عبر قهر الغفير من العمال الأحرار، لمَّا ألغى مجلس الشيوخ في روما الضرائب عن كبار المُلَّاك، الذين استولوا على كثير من الأراضي العامة، وفرض بالوقت نفسه ضرائب ثقيلة على الفلاحين الصغار، وبالتالي، بانت الحاجة إلى استجلاب السجناء وكثير من الأسرى والعبيد للعمل في الأراضي بدل الذين غادروها مقهورين، وهلك كثير منهم، ممَّا أدَّى إلى اتساع البون ما بين القرى والمزارع الواسعة[2].

رابعًا- دور الكنائس الأوروبية ورجال الدين(الإكليروس) في عملية التعذيب

لم يكن معنى الكنيسة (Church) يُقصد به دار العبادة فحسب، وإنما المدرسة المُديرة لشتَّى العلاقات المادية والمعنوية لدى المجتمع المسيحي، وكان دور الكنائس في تسيير شؤون معسكرات الاعتقالات والسجون، يشبه دور المعابد قبلها، فعلاوة على الدور البالغ الخطورة الذي شغلته الكنائس في عمليات التكفير وإلحاق تُهم الخروج عن الطاعة الإلهية، وطاعة الأباطرة والملوك والأمراء، وتسويغ ذلك أحياناً بفتاوي دينية تحكم من خلالها، وبالتنسيق مع القيادات السياسية بالإعدام أو بالسجن أو بأحكام أخرى على الكثيرين، كان لها دور إداري تنظيمي، تقدم من خلاله القوانين والتنظيمات الإقطاعية فيما يخصُّ الأراضي الزراعية وأحكامها ومتسلميها وإنتاجها، وفرض الأعياد والاحتفالات في المناسبات الدينية وتنظيمها اجتماعيًّا، وتوزيع المهام والمسؤوليات على العسكريين والمدنيين لإدارتها، وكان في حوزة الكنائس قوائم وسجلات بأسماء العبيد، والفلاحين، واللاجئين. والكنائس هي التي كانت تُقدِّم أحياناً نوعاً من الحريات، ترفع بموجبها بعض المواطنين من مرتبة العبودية إلى مرتبة المواطنة العادية، وهي التي كثيراً ما تحكم على الكثيرين بالأشغال الشاقة، لاسيما من كانوا يحتجون على تقديم الحصص الأكبر من المحاصيل الزراعية إليها، وإلى الإكليروس رجال الدين. كما كانت تقع في إرباك عندما يخفُّ عدد الأسرى جراء الحروب، فيتمُّ التشديد من قبلها على العمال والفقراء

1 - إيمار وجانين: روما وإمبراطورتيها، ص288

2 - رينكور، ص71

والمزارعين لتعويض عدد من يعملون بالسخرة، ومن يقومون بخدمة الأملاك التابعة للكنائس، وكان من النادر أن يُحوّل معبدٌ إلى كنيسة لحاجتها إلى مكان أوسع من سَعةَ المعبد، فقد احتاجت إلى موارد كثيرة جعلتها تُحدث أبنية عديدةً كانت تابعة لها منذ أوائل القرن الرابع[1].

هذا وقد ظهرت أنواعٌ من المستعمرات الأوروبية، عُرفت بالمستعمرات الريفية، كانت تابعة بشكل شبه مباشر لسيطرة وسلطة الكنيسة التي فرضت عليها جباية الرسوم وتحصيل الضرائب، لا سيما بعد اتساع الملكية الكنسية، وطبعًا، مثلما كان للمعابد فقد حازت الكنائس على أرض مستقلة لها استقلالاً ذاتياً، فالمعابد التي تبعت السلطات سيطرت على عدد كبير من السجناء والمحكومين للعمل بالسخرة في أرضها مثل: معبد "بيتوكيكي"، الذي امتلك قريةً بأسرها في مدينة "أفاميا"، ومعبد "جوبيتر" الكائن في قرية دُلوك في شمال سورية، ومعبد بعلبك[2].

إنَّ كثيراً من الإرهاصات، التي كانت حصيلة الجدل الديني فيما يخصُّ طبيعة السيد المسيح، ما بين الإلهية والنصف إلهية، وشؤون الإلحاد والإيمان، وتدخُّل الكنيسة في ذلك، دفع كثيراً من ثمنه أولئك الفقراء والبؤساء والأجناد، من دون فرسان الهيكل (Les Templiers)، وبعض من غُرّر بهم للخروج من السجون بغية الدفاع بالقوة عن بعض الأفكار مقابل الإفراج عنهم، ولم تؤثر غالباً بعض الأفكار الصائبة قبل عصر التنوير، وقبل فصل سلطة الكنيسة عن الدولة في تهدئة الأُمور، فيما يخصُّ كون العلاقةَ مباشرة ما بين الله والإنسان، ولا حاجة لأية وساطة بخصوص ذلك[3].

خامساً- معسكرات الاعتقال والتعذيب الأوروبية في العصور الوسطى والحديثة والمعاصرة

1 - معسكرات الاعتقال والتعذيب داخل أوروبا

ظهر الإجلاء والنفي إلى المستعمرات الأوروبية، مثلما أرسلت انكلترا لاحقاً مئة سجين إلى «فرجينا» سنة 1619م، ومن السجناء ما تمَّ بيعهُ بيعاً، وقد أُنشئتْ مستعمرة خاصة للسجناء في «أستراليا» قرب «سدني» من قِبل «بريطانيا»، وكذلك «فرنسا»، أقامت مستعمرة للسجناء في جزيرة

1 - اليوسف: العصور الوسطى الأوروبية 476-1500، ص239

2 - رستوفتزف: تاريخ الإمبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي، ص349

3 - Robert Iaffant, Histoire De L'Humanite, Iv-13001775- UNESCO, P.113

صغيرة قرب «أستراليا»، وأيضاً «إسبانيا»، أرسلت سجناء إلى «أفريقيا» و«جزر كناريا»، والأمر عينه فعلته البرتغال وإيطاليا وروسيا، بإيفاد سجناء إلى «سيبريا» وما وراء القوقاز، ممن حُكموا بالأشغال الشاقة المؤبدة[1].

ربما كانت المعسكرات النازية هي الأبرز داخل القارة العجوز، ولم تقتصر المعسكرات النازية على اليهود فحسب، بل امتدت إلى كُلِّ الأرجاء التي طالها التوسع النازي، وتفاقم الأمر بنقل المسألة اليهودية إلى الشرق الأوسط، ويُقال إنَّ "الهولوكوست" النازي، كان يطمح إلى خلق الصراع بين اليهود والعالم، ولم يكن مجرد حدث مروع وحسب، وإنَّما حدثاً ليس من السهل فهمه على الإطلاق، فهو دوَّن بشيفرته الخاصة، والتي كان لابد من أن تُفك حتى يصبح الفهم ممكناً للفلسفة النازية المتبعة[2].

2 - معسكرات الاعتقال والتعذيب خارج أوروبا

أ - الحملات الصليبية

كانت الحملات الصليبية، خير مثال على العنجهية الاستعمارية الأوروبية خارج حدودها، وقد رافقت كلمة تعذيب وقتل، هذه الحرب، وعلى الرغم من أنَّ الدينَ المسيحي حرَّم العنف، إلَّا أنَّ همجيةَ الصليبين لم تفِ بعهدها حتى للدين الذي تُقاتل باسمه. حيث يُذكر أنَّ الصليبيين«عندما اقتحموا «معرّة النعمان» استدرجوا قادة المسلمين إلى قصر يقع في المنطقة نفسها، وما إن التجأوا إلى هذا القصر حتى أُعمل فيهم القتل رجالاً ونساءً وأطفالاً ومن نجا منهم من القتل والتعذيب باعوهم كعبيد في أسواق النخاسة، ويُذكر أنه عندما دخل الصليبيون إلى بيت المقدس قتلوا حوالي عشرة آلاف، بعدما تمَّ تعذيبهم ثمَّ قُطعت رؤوسهم حتى وصلت دماؤهم إلى ركاب الخيول»[3].

ومن فظائع الصليبين، ما قامت به جماعة صليبية عُرفت باسم "الطفور"، الذين ساهموا في إبادة سكان بيت المقدس فيما بعد، وكان من هؤلاء الذين قاتلوا في "أنطاكيا"، حتَّى أنَّ غذاءهم

1 - شقرة: رحيل عند الهجير مذكرات مدير سجن، ص13-14
2 - باومان: الحداثة والهولوكوست، ص29-30
3 - حماد: الأسرى والصليبيون، ص53-57

اعتمد على جثث الأسرى، فما حلُّوا في مكان إلا إلى وقاموا بهدمه وارتكاب أبشع الجرائم فيه[1].

ويصف "وليم الصوري" فظائع الصليبيين قائلاً: «إنَّ الصليبيين جيل شرير، آثمون مزيفون للدين المسيحي، كما أنَّ المرءَ سيتولىَّ بقلم حذر فظائعهم ورذائلهم الوحشية»(الصوري: الحروب الصليبية، ص979). ويصف أيضاً "دي فتري" أحوال الصليبيين في هذه الآونة فيقول: «الممتلكات الصليبية أصبحت وكراً للمجرمين والأشرار وقتلة الأنفس وقتلة الآباء والخونة»[2]. وبذلك أوضح المؤرخون حال الحروب الصليبية التي اتصفت بنهج وحشي ضد الأسرى والمعتقلين.

ب - أفريقيا وشمالي أفريقيا

لقد ارتكبت فرنسا مجازر راح ضحيتها المئات وأحيانًا الآلاف، وتبقى الحروب الصليبية هي الأيديولوجية المُحرِّكة للاستعمار الفرنسي، فقد أصدرت فرنسا (القانون الأسود) الذي ينظم الإبادة الجماعية، كما استخدمت العديد من أساليب التعذيب، كقطع الأيادي أو فرمهم بالساطور، ومنحت فرنسا امتيازات عديدة لتُجار العبيد، وفي عام 1743م أصدرت قانون (هروب العبيد)، وقرَّرت «إعدام كل عبد يتجرأ على الهرب، فإن قدَّم سيده شكوى على هروبه، قُطعت أذناه ووسم كتفه الأيمن بزهرة الزنبق، وفي حال تكرر هروبه يعاقب بالإعدام شنقاً أو يُقتل بالرصاص»[3].

لقد أنشأت الإدارة الفرنسية الاستعمارية عدداً كبيراً من مراكز التعذيب، ويُعدُّ معتقل "لودي" الشاهد الأكبر على الجرائم الاستعمارية الفرنسية في شمالي إفريقيا، حيث أقيم بين عامي 1954م، و1962م، وهو معسكر اعتقال خلال الثورة الجزائرية الكبرى، وشكَّلت الأقدام السوداء أكثر من 80 % من الموجودين به والبقية من الأوروبيين[4].

وأمَّا معتقل "سان لو" فقد كان يضمُّ(1300) سجين من المسلمين، يُعاملون أسوأ المعاملة،

1 - زكار: حروب الفرنجة، ص210-216

2 - زكار: الموسوعة الشامية، جـ34، ص186

3 - موريل: روزنامة جرائم فرنسا في عالم ما وراء البحار، ص20-70

4 - Funès, Le camp de Lodi: Algérie, 1954- 1962, 2012

ويمـوت بعضهم مـن الجوع والتعذيـب، وكان يضمُّ ضمـن المعتقلين عناصر من الفرنسـيين المتشبعين بالفكر الشيوعي، الذين تعاطفوا مع القضية الجزائرية[5].

طبعا، لا يُمكن الإحاطة بجميع المعسكرات والمعتقلات الفرنسية لكثرتها، فهناك معسكرات رسمية مُصرَّح بها، وأخرى غير مُصرح بها، ويُعتقد أنَّ المعتقلات التي أوجدتها فرنسا في الجزائر تتشابه فيما بينها ومنها: المعتقلات السياسة[6]، والمعتقلات العسكرية، وأهم معتقل من هذا النوع هو معتقل "قصر الطير"[7].

كما اتبعت إيطاليا سياسة النفي ضد المعتقلين والمسجونين في ليبيا، وقد استخدمت وسائل عنف مختلفة، ففي عام 1911م تمَّت أول عملية نفي ضمَّت(950) سـجينًا إلى الجزر الإيطالية، وقد تميَّزت سياسـة إيطاليا بالقتـل الجماعي، «وقد كانت المنافي الإيطاليـة دون رقيب، فأدَّى ذلك إلى انتشـار الأمراض بين المعتقلين، ولم يتوفر بهذه المعسـكرات ولا حتى أبسط وسائل الإقامة، وخاصَّةً في سجن "أوستيكا"، الذي ارتفعت فيه نسبة الوفيات من الشعب الليبي، حتى تكدَّست الجثث على الشواطئ، ودُفنت الجثث في قبور غير عميقة ممَّا جعلها عرضةً للكلاب، وداهمت الكوليرا سـجن "أوستيكا"، ثم تفشَّـت الحُمّى وأمراض الرئة بين المعتقلين وارتفعت نسبة الوفيات... »[8].

جـ- آسيا

احتلَّت بريطانيا الهند لفترات طويلة، وعدَّتها «لؤلؤة المستعمرات»، ولم تسلم من التجاوزات البريطانيـة[9]. وفي أثنـاء إنجاز هذا البحـث، لاحظت إغفال الكثير من الكتـب والمرجع ذكر معسكرات الاعتقال والتعذيب البريطانية في الهند، إذ اقتصرت على ذكر بعض أسماء السجون، وهذا ما يثير الشكوك حول المعتقلات والسجون البريطانية.

لقد ارتكبت بريطانيا مذبحة فضيعة، وهي مذبحة «أمريتسار» ، وكانت أكبر خطأ فضح أخطاء

5 - الغزالي: الاستعمار أحقاد وأطمـاع، ص22-23
6 - عزوي: "المعتقلات في الجزائر أثناء الثورة التحررية"، ص77
7 - طاهر: عهد لا مثيل له، ص196
8 - اللموشي: المنفيون إلى الجزر الإيطالية، ص29، 60، 94، 244
9 - لال نهرو: لمحات من تاريخ العالم، ص118

الإدارة والسـلطة العسـكرية البريطانية، عندما تجمَّع الآلاف من الهنود احتجاجاً على السياسة المتُبعة، فما كان منهم إلَّا إطلاق مدافعهم الرشاشة لمدة عشر دقائق متواصلة، حتى قُتل ما يُقارب أربعمئة هندي وجُرح الآلاف[1].

أما أشـهر المعتقلات البريطانية في الهند، فكان معتقل «سيلار»: وتمَّ استخدامه للمعارضين والنشـطاء السياسـيين، ومعتقل «كالابانغا»، وتمَّ استخدامه كسـجن للذين عارضوا الاستعمار البريطاني، كما اسـتخدمت بريطانيا سياسـة الانتقام الجماعي، وتضمَّنت هذه السياسة تعذيباً وقتلاً جماعياً[2].

الخاتمة

وهكذا، ومن خلال ما تقدَّم في هذا البحث، يتبيَّن لنا أنَّ المستعمرات والسجون والمخيمات الثابتة والمتُنقلة، وحياة الناس، لاسـيما الفلاحين والعمال والأسرى والعبيد والأقنان في أوروبا القديمـة، منذ قـرون طويلة قبل الميلاد، وحتى نهاية العصر الوسـيط كانـت بمثابة أزمة طويلة وعريضة وفي الاتجاهات كافة، وهذه الأزمة المزمنة تخللتها أزمات عنيفة خانقة، لا تليقُ بالمسيرة الإنسانية، تجلَّتْ في تلك السجون المظلمة وأنواع التعذيب والأدوات التي استخدمت فيه، فما ظهر من تاريخ عام «لأوكروبوليس أثينا»، و«لمسـارح روما» المدرجة، وسـوى ذلك، ليس إلَّا مظهراً من مظاهر بدت حضارية للوهلة الأولى، لكنها في الحقيقة شكَّلتْ جحيماً من اللاإنسانية، أخفته في أعماق أعماقها، مثلما أخفت «حدائق بابل المعلقة» أولئك الذين كانوا يعملون تحتها، وتحت أرضها لرفع المياه إليها[3]، والمشكلة الكبرى، أنَّ تلك الأزمات، لم تكن هناك محاولات جـادة للخروج منها أو من بعضها، لعدم توافر الدوافـع والكفاءات وضعف (الميديا) آنذاك في كشف هذه الفضائع، الأمر الذي لم يحرج السلطات الأوروبية القديمة، كما أن مثل هكذا رُؤى، لم تكن تتبلور الإمكانات لها في أوروبا القديمة، لعدم شعور سلطتها بتأنيب الضمير، ولضعف

1 - العقاد: روح عظيم المهاتما غاندي، ص55-60
2 - المحمد الحسين: دراسات في تاريخ آسيا الحديث والمعاصر، ص140-141
3 - انظر: ساغز: عظمة بابل، 2002م

"الميديا" كما ذكرنا وأنواع الإعلام، وعدم المطالبة العالمية بحقوق الإنسان، بينما تضطر أوروبا في العصر الحديث إلى محاولة الاستفادة من أخطاء التاريخ كيلا تكررها وتقع فيها، والعمل على الظهور بالمظاهر الحضارية والإنسانية، وإن لم تتوافر الدوافع الوجدانية الحقيقة لذلك.

ويُستنتج - أيضًا- أنَّ الحروبَ الصليبية، كانت البداية المُعلنة للطبيعة الهمجية في القرون الوسطى، فقد كان تعطش الأوروبيين للدماء وتلذذهم بتعذيب الأسرى من المسلمين، بمثابة حقٍّ من الحقوق، التي منحتهم إياها الكنيسة، إضافةً إلى أنَّ الجانبَ الإسلامي كان ضعيفا، تفتكُ به الاضطرابات السياسية وضياع الوحدة الإسلامية. لم تقم في الشرق محاكم مثل محاكم التفتيش التي قامت في بلاد عديدة من أوروبا مثل: إسبانيا وإيطاليا وفرنسا والبرتغال وألمانيا، لمحاصرة حرية العقيدة والفكر ومطاردة الضمائر والعقول، كما أنَّ الإنسانَ في الشرق، لم يعرف هذا الحجم من الانحطاط واللاإنسانية، كما انحطَّ في الغرب في أزمنة مختلفة، وفي دورات متعددة من التاريخ. وفي التاريخ الحديث والمعاصر، نجد الغرب يرفع راية حقوق الإنسان! بينما دوله كانت أكثر الدول التي تلطخ تاريخها بدماء الأبرياء، ورُسمت فيه أبشع اللوحات الدموية، من طرف الدول الاستعمارية، التي ارتكبت أفظع الجرائم ضد الإنسانية، داخل المعتقلات والسجون، حيث قُدِّرت الضحايا بالملايين.

المصادر والمراجع

أوّلاً- المصادر والمراجع العربية:

- الحسين، م. (2021) دراسات في تاريخ آسيا الحديث والمعاصر، منشورات جامعة حلب، ط1، حلب.
- حماد، م. (1988) "الأسرى والصليبيون"، جامعة قابوس، مجلة الآداب، عدد2.
- زكار، س. (1999) الموسوعة الشامية، جـ34.
- زكار، س. (2011) حروب الفرنجة، جامعة دمشق.
- زكريا، أ. (1983) عشائر الشام، ط1، دمشق.
- الزوبعي، ب. (1983) محاكم التفتيش الإسبانية، الجامعة المستنصرية، بغداد.
- شقرة، ع. (2005) رحيل عند الهجير مذكرات مدير سجن، ط1، دمشق.
- طاهر، ص. (2004) عهد لا مثيل له، ديوان المطبوعات، ط1، الجزائر.
- عزوي، م. (1988) " المعتقلات في الجزائر أثناء الثورة التحررية"، مجلة التراث، عدد3.
- العقاد، ع. (1999) روح عظيم المهاتما غاندي، ط2، الإسكندرية.
- الغزالي، م. (2005) الاستعمار أحقاد وأطماع، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، القاهرة.
- قطب، م. (1985) مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس.
- لال نهرو، ج. (1981) لمحات من تاريخ العالم، دار الأفاق، ط1، بيروت.
- اللموشي، ح. (1991) المنفيون إلى الجزر الإيطالية، مركز جهاد للدراسات، ط1، طرابلس.
- مرقس، س. (1965) حضارات غارقة، دار المعارف، ط1، القاهرة.
- المنياوي، أ. (2010) إمبراطور الحرب والحب، دار الكتاب العربي، ط1، دمشق-القاهرة.
- موريل، ج. (2017) روزنامة جرائم فرنسا في عالم ما وراء البحار، المركز للدراسات.
- اليوسف، ع. (1967) العصور الوسطى الأوروبية 476-1500، المؤسسة اللبنانية للكتاب الأكاديمي، ط1، بيروت.

ثانيًا- المصادر والمراجع المُعربة:

- إيمـار، أ. و أوبوايـه، ج (1964) روما وإمبراطورتيها، ترجمة: يوسـف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، ط1، بيروت.
- إيمـار، إ. و أوبوايـه، ج. (1961) الـشرق واليونان القديمة، ترجمة: فريـد داغر وفؤاد أبو ريحان، منشورات عويدات، ط1، بيروت.
- بروى، إ. (1965) القرون الوسـطى، ترجمة: يوسف داغر وفريد داغر، دار عويدات، ط1، بيروت.
- بـروى، إ. (1986) تاريـخ الحضارات العام (القرون الوسـطى)، المجلد الثالث، ترجمة: يوسف أسعد داغر وفريد داغر، دار منشورات عويدات، ط1، بيروت- باريس.
- رسـتوفتزف، م. (1965) تاريخ الإمبراطورية الرومانيـة الاجتماعي والاقتصادي، ترجمة: زكي علي، مكتبة النهضة المصرية، ط1، القاهرة.
- رينكـور، أ. (1970) القيـاصرة القادمون، ترجمـة: أحمد نجيب هاشـم، الهيئة المصرية للتأليف والنشر، ط1، القاهرة.
- زيجمونـت، ب. (2012) الحداثـة والهولوكوسـت، ترجمـة: حجاج أبو جـبر، مدارات الأبحاث، ط1، القاهرة.
- ساغز، ه. (2002) عظمة بابل، ترجمة: خالد عيسى وأحمد سبانو، الدار السورية الجديدة، ط1، دمشق.
- الصوري، و. (1988) الحروب الصليبية، ترجمة: حسـين حبـشي، الهيئة العامة للكتب، القاهرة.
- موسنييه، ر. (1966) تاريخ الحضارات العام، ترجمة: يوسف داغر وفريد داغر، منشورات عويدات، ط1، بيروت.

ثالثاً- المصادر والمراجع الأجنبية:

- Funès,N. (2012) Le camp de Lodi: Algérie, 19541962-, Paris, éditions Stock.
- Laffant, R. (2005) Histoire De L'Humanite, Iv-13001775- UNESCO.

جرائمُ الحروب الأوروبيّة: دراسة إحصائية

■ إعداد: زينب علي فرحات[1]

ملخّص

يتناول هذا البحث أبرز الحروب التي خاضتها الدُّول الأوروبيّة على المستويين الدّاخلي والخارجي، بدءًا مِن حروب اليونان والرُّومان، وصولًا إلى جرائم الاستعمار الأوروبيّ في قارّتي آسيا وأفريقيا. والهدف مِن ذلك توثيق نتائج أبرز الحروب الأوروبيّة التي اندلعت بدوافع عديدة، بما في ذلك توسيع النّفوذ والهيمنة على الثَّروات والأسواق، لا سيّما أعداد القتلى العسكريّين والمدنيين، والاعتقالات التعسفيّة، والتهجير القسري، والمجاعة، وتجارة الرَّقيق، ونشر الأمراض، كسياسة ممنهجة لإبادة الشعوب، وغيرها مِن جرائم الحروب، التي انْطوت في صفحات التَّاريخ الأوروبيّ الحديث والمعاصر.

الكلمات المفتاحية:
أوروبا- الحروب الأوروبيّة- غزو- الاستعمار البريطاني- الاستعمار الفرنسي.

1 - ماجستير إعلام، الجامعة اللبنانيّة، لبنان.

مقدّمة

شــارك الأوروبيّون في العديد مِن الصّراعات عبر التَّاريخ، ســواءً داخل أوروبا نفسها أو في قارّات أخرى)آسيا وأفريقيا وأميركا(. وقد اختلفت دوافع وأهداف هذه الحروب، مع اختلاف العصور والحقبات الزمنيّة التي نشــأت فيها، والأرضيّة السياســيّة والاقتصاديّة التي وجدت. فعلى سبيل المثال، الحروب الصليبيّة التي وقعت خلال العصور الوسطى، كانت نتيجة انتشار الفقر والمجاعة في أوروبا، وبهدف السّيطرة على ثروات الشرق، بينما الحروب النابليونيّة التي اندلعت في الحقبة الحديثة المبكّرة، كانت تهدف لتوسيع النّفوذ ومحاولة السّيطرة على أوروبا، وفيما بعد ظهرت الحروب الأوروبيّة الاستعمارية خارج أوروبا توازيًا مع صعود الرأسماليّة.

تُعدّ الهند والجزائر ودول غرب آسيا مِن المناطق التي تعرّضت للغزو والاستعمار الأوروبيّ، والتي احتلّها الأوروبيّون بذريعة تأهيلها وإرشاد أهلها إلى الحضارة، والواقع أنَّ الاستعمار قاد تلك الدُّول إلى عصور الظَّلام. ولذلك، لا بدّ مِن إعادة النظر في التَّاريخ الأوروبيّ ومطالعة أبرز مفاصله، لا سيّما الحروب الأوروبيّة الداخليّة والخارجيّة للوقوف عند أبرز الحقائق التَّاريخيّة المنافية للرّوايات الغربيّة الرسميّة.

أوّلًا: حروب اليونان والرُّومان

1 - معركة بنارتولوس

في عام 429 ق. م، جهّزت أثينا قوّة عســكريّة وصلت نحو 2000 مِن المشــاة و200 فارس، لمهاجمة منطقة لكيدونيا التــي ثارت ضدّها في حروب البيلوبونيز. وقد نجحت لكيدونيا في صدّ القوّة الأثينيّة، حيث قُتل نحو 3 جنرالات و430 جندي[1].

1 - Grant, 1993

2 - معركة مانتينيا

في أحـد الحروب البيلوبونيزيّة بين إسـبارطة وأثينا، حدثت معركـة مانتينيا عام 418 ق. م، بقيادة الملك الإسـبارطي أجيس الثالث، وقد خسر فيهـا نحو 300 جندي نتيجة هجومه على شمال البلوبونيز[1].

3 - معركة لوكترا

اندلعت هـذه المعركة عام 371 ق. م، بين مدينة طيبة بقيـادة إبامينونداس Eaminandas، وإسـبارطة بقيادة الملك كليو مبروتوس. وقد سَـحقت القوّات الطيبيّة الجيش الإسـبارطي، وقتلت منه نحو 1000 مِن الإكيديمون (من عموم أسبارطة)، و400 إسبارطي (مِن الطبقة الأولى مِن إسبارطة)، فيكون مجموع القتلى الإسبارطيين نحو 1400 إسبارطي[2].

4 - معركة تيرليس

وفي سـنة 368 ق. م، جمع الملك الإسبارطي أرخيداسـوس قوّة عسكريّة كبيرة، واستعان بطاغية سـيراكوزة ديونيسـيويوس، وهاجم مدينة أركاديا في شـمال البلوبونيز، وقتل حسـب المؤرّخ ديودور الصِّقلي 10000 أركادي[3].

5 - الحرب البونيّة الأولى (146-264 ق. م)

أ - معركة ميلس البحريّة

جـرت هـذه المعركة في عـام 261 ق. م بين رومـا وقرطاجة، بعـد زوال الملكيّة في روما، وقيام النّظام الجمهوري الأرسـتقراطي، فقد تغيّرت السّياسـة وأصبحت تتطلّع نحو التوسّع، فاصطدمت مع قرطاج التي كانت تسيطر على الجزر الغربيَّة للمتوسّط، وأوّلها الجزيرة الكبرى: صقليّة، التي لا يفصلها عن إيطاليا إلّا مضيق مسينا، فبدأت الحرب البونيّة الأولى، وقد خسرت قرطاجـة7000جنـدي،فيـماأُسر3000.

ب - حملة ريغولوس على قرطاج (256 ق. م)

بعـد انتصار رومـا على البحريّة القرطاجيّـة في ميلس، غزت قرطاج بجيشـها المتكوّن مِن

1 - Thucydides & Mynott, J., 2011

2 - Durant W. , 1996

3 - Waterfield R. , 2004

40000 جندي، و330 سفينة بقيادة القنصلين ريغولوس ومانليوس. كما اكْتسح الغزاة الرُّومان الأرياف المجاورة وجمعوا مِن الغنائم ما لا يُعدّ ولا يحصى، ونهبوا قصور الطبقة الارستقراطيّة القرطاجيّة، وأسروا 20000 مِن العزّل، الذين كانوا يُباشرون أعمالهم الفلاحيّة ولا شأن لهم بالحرب. وقد دارت المعركة في مكان لم يحدّد بدقّة، ثمّ انتهت بهزيمة الجيش الرُّوماني، وأُلقي القبض على ريغولوس ونخبة مِن الفرسان التي معه، والمتكوّنة مِن 500 جندي، ولم ينج مِن الرُّومان سوى عدد قليل لا يتجاوز الألفين[1].

6 - الحرب البونيّة الثانية (201-218 ق.م)

استمرّت الحرب البونيّة الثانية، والمعروفة أيضًا باسم حرب حنيبعل مِن سنة 218 ق. م حتّى 201 ق. م في غرب وشرق البحر المتوسّط. وهي الثانية بين قرطاج والجمهوريّة الرُّومانية، مع مشاركة مِن البربر في الجانب القرطاجي. كانت المواجهة النِهائيّة في معركة زاما في أفريقيا بين سكيبيو الأفريقي وحنيبعل، والتي هزم فيها الأخير، وفرضت شروطًا قاسية للسلام على قرطاج، التي لم تعد بعد ذلك قوّة عظمى في البحر المتوسّط، وتحوّلت إلى نظام عميل للرّومان.وفيمايلي أبرزالمعارك التي جرت خلال هذه الحرب:

أ - معركة كاناي (216 ق.م)

حيث حاصر حنيبعل الجيش الرُّوماني، وتمّ إبادته بالكامل تقريبًا، فمن بين أكثر مِن 50 ألف جندي كانوا في وسط هذه المعركة، قُتل 44 ألف جندي، وأُبيد 10 آلاف أثناء عمليّة الهروب، بينما خسر حنيبعل 6 آلاف جندي. ويذكر المؤرّخ ليفيوس أنَّ عدد قتلى الجيش القرطاجي بلغ نحو 56000 جندي، بينما يرد المؤرّخ بوليبيوس أنَّ العدد هو 10000 جندي[2]

ب - معركة زاما (202 ق. م)

وهذه المعركة دارت بين روما وقرطاج، حيث اتّجه الجيش الرُّوماني بقيادة سيبيكو الأفريقي إلى الأراضي القرطاجيّة بعد أن كانت روما على مشارف السقوط. وقد نجح الجيش الرُّوماني في تكبيد القرطاجيين خسارة كبيرة في معركة زاما، التي اتّخذت اسمها مِن الموقع الذي جرت

1 - العربي، 2009، الصفحات 106 - 122

2 - Walbank, Polybius ،Rome and the Hellenistic World ،Essays and Reflections, 2002

فيه، فكانت تلك الهزيمة بمثابة النهاية الفعليّة للحرب البونيّة الثانية[1]. قُتل في المعركة حوالي 20ألف قرطاجي، وأُسر 20ألفًا، بينما خسر الرُّومان حوالي 1500 قتيل[2].

7 - معركة أكتيوم البحريّة

دارت هذه المعركة بين جيوش أوكتافيوس وجيوش كلّ مِن أنطونيوس وكليوباترا ملكة مصر. وقد تميّزت هذه المعركة بمشاركة أسطول ضخم لكلا الطرفين. حيث خسرت قوّات أنطونيوس في هذه المعركة أكثر مِن 5000 قتيل، وغرق العديد مِن السفن عدا التي تمّ الاستيلاء عليها مِن قبل جيوش أوكتافيوس، وحقّقت قوّات أوكتافيوس انتصارًا كبيرًا على قوّات أنطونيوس وكليوباترا[3].

8 - معركة كارهاي (53 ق. م)

وقعت هذه المعركة بين الإمبراطوريّة الرُّومانية والإمبراطوريّة الفرثيّة، وهي واحدة مِن أقدم المعارك بين الإمبراطوريّتين، وإحدى أكثر المعارك التي هزم فيها الرُّومان. كان عدد القوّات المحاربة مِن الجيش الرُّوماني حوالي 36000 جندي، بينما كان عدد قوّات الإمبراطوريّة الفرثيّة 20000 جندي. تمّ ترحيل 10000 أسير روماني إلى الإسكندريّة، وقدّرت خسائر الجيش الرُّوماني بـ 20000 قتيل روماني[4].

9 - معركة تابسوس (46 ق. م)

دارت هذه المعركة بين قوّات قيصر والبوميي، فما إنْ بدأت المعركة حتّى اكتسحت قوّات قيصر قوّات سيكيبيو، ورغم استسلام الكثير مِن الجنود إلاّ أنَّ جنود قيصر أجهزوا عليهم جميعًا. وكان عدد قوّات قيصر 55000 جندي، بينما خسائر المعركة قدّرت بـ1000 قتيل مِن قوّات قيصر، بينما خسرت قوّات الطرف الآخر 10000 قتيل[5].

10 - معركة أليسيا (58-51 ق. م)

جرت هذه المعركة أثناء حروب قيصر على بلاد الغال. فعند وصوله بلاد الغال عام 58 ق.

1 - سرحان، 2013، الصفحات 108 - 111

2 - Battle of Zama, 2024

3 - الشيخ ح.، 2007، صفحة 41

4 - رمضان، 2019، صفحة 47

5 - حسّاني، 2017، ص 24-40-55

م، بدأ يوليوس سلسلة مِن الحملات لجعل المنطقة تحت سيطرته، فكانت معركة أليسيا التي بسببها أخضعت بلاد الغال، ودخلت تحت سيطرة قيصر في 51 ق. م. وقد بلغت خسائر الرُّومان حوالي 12800 بين قتيل وجريح، بينما وصل عدد القتلى في بلاد الغال إلى 250000، بالإضافة إلى 4000 أسير[1].

11 - كمائن الجرمان (سنة 9م)

عند دخول القائد فاريان سنة 9م إلى الغابات بحوالي 20000 جندي روماني للسيطرة على قبائل الجرمان، نصبت هذه القبائل كمينًا لهم، ثمّ بدأ الهجوم العنيف بالسهام والرماح. ومع تقدّم الجنود خسرت روما نحو 16000 جندي روماني قتيل، وعثر على 1500 جندي جريح، وأسر نحو 1500 جندي[2].

12 - الثورة البريطانيّة ضدّ الرُّومان (سنة 61م)

اندلعت ثورة في بريطانيا، ضدّ الوجود الرُّوماني واستعماره لأرضها. وقد استطاع الوالي الرُّوماني بيتيليوس تدمير الأراضي والمدن الإنكليزيّة. ووصلت القوات الرُّومانية إلى وسط بريطانيا. وقد ذكر المؤرّخ تاكيتوس في كتابه السجلّات، أنَّ روما ذبحت نحو 80000 [3].

13 - الحرب التراجانيّة الداقية (120 - 106م)

كانت هذه الحرب عبارة عن حملتين عسكريّتين بين الإمبراطوريّة الرُّومانية بقيادة تراجان، ضد داقية بقيادة ديسيبالوس، وقد انتهت بانتصار الرُّومان واحتلالهم لجزء مِن داقية[4].

أ. معركة سامراء (363م)

اندلعت هذه المعركة بين الجيش الرُّوماني بقيادة جوليان، وبين الإمبراطوريّة الساسانيّة، فمن المعروف أنَّ العداء كان قائمًا منذ قديم الزمن بين الدُّولتين الفارسيّة والرُّومانية، بسبب التنازع على الحدود، وأهميّة أرمينيا لكلتا الدُّولتين. فقد خرج جوليان يقود جيشًا ضخمًا، فعبر نهر الفرات ثمّ اتّجه شرقًا نحو دجلة، وهزم الدُّولة الفارسيّة، ثمّ اتّجه إلى العاصمة الفارسيّة، غير

1 - زيتوني، 2007، صفحة 223

2 - Drogula & Fred, 2015

3 - Waterfield, 2009

4 - الحافظ، 2007، صفحة 178

أنَّه تعرّض لمقاومة شديدة مِن قبل الفرس[1].

ب. معركة أدرنة (378م)

هــي معركة دارت بين القوط والإمبراطوريّة الرُّومانية. حيث كان عدد القوط حوالي 20000 مقاتــل، أمّا عدد قوّات الإمبراطورية الرُّومانية فـكان 30000 مقاتل. تمّ إلحاق الهزيمة بقوّات الإمبراطــور فالنز، وقُتل خلالها ثلثا جيشــه، كما قتل الإمبراطور شــخصيًّا[2]. فيما أباد القائد القرطاجي حنيبعل باركا 50 ألفًا مِن الفيلق[3].

14 - معركة فيرونا (402م)

وقعت هذه المعركة بين الإمبراطوريّة الرُّومانية الغربيّة بقيادة ستيلكو قائد الجيش الجرماني، وبــين القوط الغربيين بقيــادة ألاريك. وقد هُــزم ألاريك وفــرّ هاربًا مِن المعركــة، ثمّ انتهت المناوشات بينهما بعد مفاوضات انسحب على أثرها ألاريك مِن إيطاليا عائدًا إلى إقليم إيليريا، بعد أن حصل على مبلغ مِن المال[4].

15 - حرب الوندال (533-534م)

دارت هذه الحرب بين الإمبراطوريّة الرُّومانية الشرقيّة ومملكة قرطاج الوندالية. وقد أرســل جستنيان أسطولاً ضخمًا إلى أفريقيا قوامه 500 حاملة للجنود ونحو 100 سفينة حراسة تحمل نحــو 15000 جندي، يقودهــم بلزاريوس أكفأ قادة جســتنيان. نزل بلزاريوس على الســاحل الأفريقي وزحف إلى قرطاجة واستطاع دخولها وحطّم قوّة الوندال. وقد راح ضحيّة هذه الحرب قرابة 17 ألف جندي روماني، فيما خسرت الوندال قرابة 65 ألف جندي[5].

ثانيًا: الحروب الأوروبيّة الداخليّة

1 - حرب الثّلاثين عامًا

تُعدّ هــذه الحرب أطول فــترة، وقد نجم عنها خســائر كبيرة للألمــان، حيث أدّت إلى

1 - الشيخ م.، 1994، صفحة 28

2 - عوض، 2007، صفحة 148

3 - Bileta, 2023

4 - سليمان، 2020، الصفحات 14 - 50 - 57

5 - Durant & Durant, 1935– 1975

مقتـل ما بين 8000000 إلى 11500000 شـخص. لقد كانت حـرب الثلاثين عامًا، والتي اندلعـت بين عامـي 1618 و1648، وهي أطول صراع دار في العصور الوسـطى بأوروبا. وقد بدأت بسـبب الخلافات بين الدُّولتين البروتسـتانتيّة والكاثوليكيّـة في الإمبراطوريّة الرُّومانية، ثمّ تسـارعت بسـبب انتخاب فرديناند الثاني إمبراطورًا في عام 1619، وجهوده لفرض الكاثوليكيّة الرُّومانية على جميع شعوب منطقته، وقد جذبت هذه الحرب مشاركة القوى الأوروبيّة الأولى.

لقد دمّر هذا الصراع جزءًا كبيراً مِن أوروبا الوسـطى، ممّا أدّى إلى حدوث مجاعات، وذبح الكثير مِن السّـكّان خلال القتال، وأفلس العديد مِن المشاركين فيه، وعلى العكس مِن ذلك، خرجت فرنسا وهي قويّة إلى حدّ كبير، كما فعلت السّويد، في حين دخلت الجمهوريّة الهولنديّة، بعد حصولها على استقلالها، العصر الذهبي باعتبارها القوّة الاقتصاديّة والاستعماريّة الأولى في أوروبا. وتجدر الإشارة إلى أنَّه بسبب معاناة جزء كبير مِن أوروبا خلال الصراع، عانى العديد مِن السّـكّان مِن الخوف الهستيري مِن السّحر. وفي ذروة ظاهرة مطاردة السّاحرات، تمّ إعدام مـا يقدر بنحو 25000 امـرأة خلال هذه العقود، في محاولةٍ مذعـورةٍ لإنهاء الظروف المروّعة للحياة اليوميّة[1].

2 - حروب الخلافة النمساويّة

نشـبت حرب الخلافة النمسـاويّة بـين عامـي 1740 و1748 في أوروبا الوسـطى وهولندا النمسـاويّة وإيطاليا والمحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسّـط. فيما يلي نستعرض أشهر المعارك التي وقعت خلال حروب الخلافة النمساويّة (War of the Austrian Succession):

أ- حـرب أذن جنكـين: 1739-1748

بدأت حرب أذن جنكين كنزاع بين إسـبانيا وبريطانيا بشـأن السّـيطرة على التّجارة في أميركا اللاتينيّـة. ودارت المعـارك الأولى في جـزر الهند الغربيّة، وعلى السـاحل الشـمالي لأميركا الجنوبيّة. وهذه أبرزها:

- معركة قرطاجنة: وقد فُقد فيها قرابة 3000 جندي بريطاني خلال العمليّات العسكرية.
- معركة هافانا: خسر الإسبان حوالي 298جنديًّا، والبريطانيّون 179 بين قتيل وجريح.

1 - Trista, 2018

ب - النمسا ضدّ بروسيا: 1740-1745

دارت معظم المعارك بين النّمسا وبروسيا خلال عامي 1742 أو 1745 على منطقة سيليزيا الألمانيّة. وفي عام 1740، سعى فريدريك الكبير لاحتلال المنطقة، وبعد فشله، عقدت ماريا تيريزا معاهدة السَّلام، حتّى تتمكّن مِن محاربة أعدائها الآخرين: فرنسا وإسبانيا.

- معركة مولويتز: 5000 قتيل وجريح وأسير للنمسا، فيما خسر البروسيّون 2500.
- معركة تشاسلاو: مقتل 4000 جندي بروسي.
- معركة شوتوسيتس: بلغ عدد القتلى والجرحى حوالي 7000 مِن كلّ جانب، وأسر النمساويّون 1000 أسير.
- معركة هوهنفريدبيرج: خسر النمساويّون والساكسونيّون 4000 قتيل وجريح، و7000 سجين، فيما خسر البروسيّون 2000.
- معركة صحر: سقط فيها 6000 بين قتيل وجريح وسجين، وخسر البروسيّون ما بين ثلاثة وأربعة آلاف رجل.

ج - النمسا وبريطانيا وهولندا ضدّ فرنسا وإسبانيا: (1743-1748م)

دخلت فرنسا في الحرب إلى جانب بروسيا، فيما دخلت بريطانيا إلى جانب النمسا والهولنديين، الذين تنازعوا أيضًا على الأراضي مع فرنسا. بعد عدّة انتصارات فرنسيّة في هولندا، سئمت جميع الأطراف الحرب، وتمّ التوقيع على السلام في إيكس لا شابيل، بعدها تمّ الاعتراف بماريا تيريزا كملكة للمجر.

- معركة ديتينجن: سقط فيها حوالي 6000 بين قتيل وجريح في الميدان.
- معركة طولون: خسر البريطانيّو فيها حوالي 274 بين قتيل وجريح، وخسر الحلفاء حوالي 1000 قتيل.
- معركة سان لازارو: سقط فيها حوالي 10000 بين قتيل وجريح.
- معركة كيب فينيستر: هُزم فيها الفرنسيّون تمامًا، وخسروا 10 سفن وما يقرب مِن 3000 سجين.
- معركة لوفيلدت: خسر الحلفاء النمساويّون والبريطانيّون حوالي 5620 بين قتيل وجريح، والفرنسيّون حوالي 10000.

- حصـار بيرغـن أوب زوم: خسر الفرنسـيّون 22 ألـف رجل أثناء الحصـار، وخسر لواء اسـكتلندي في الخدمة الهولنديّة 1120 مِن أصل 1450.
- معركة كيب فينيسـتر: هُزم الفرنسيّون بشكل واضح، وخسر البريطانيّون حوالي 598 بين قتيل وجريح.

3 - حرب السّنوات السبع

تُعدّ هذه الحرب اسـتمرارًا لحرب الخلافة النَّمساويّة، والتي استولى فيها الملك فريدريك الثاني - ملك بروسـيا- على مقاطعة سيليزيا الغنيّة. وقد شاركت في هذه الحرب جميع القوى الأوروبيّة الكبرى في تلك الفترة، وتسـبّبت في مقتل ما بين 900000 إلى 1400000 شـخص. وقد أنهت هذه الحرب مكانة فرنسـا كقوّة اسـتعماريّة كبرى في الأميركيّتين. وفي هذه الأثناء برزت بريطانيا العظمى باعتبارها القوّة الاستعماريّة المهيمنة في العالم.

4 - الحروب النابليونيّة

شـملت فترة الثورة الفرنسـيّة والحـروب النابليونيّة الأعـوام مِـن 1792 إلى 1815. حيث بدأت الثورة الفرنسـيّة (1789-1799)، - الناجمة عن استياء السّكّان وأعمال الشَّغب وضعف المحاصيل-، باقتحام سـجن الباسـتيل الملكيّ. وفي حروب الثورة الفرنسيّة (1792-1802)، حاربت فرنسا ضدّ بريطانيا العظمى والنَّمسا وبروسيا وروسيا والعديد مِن الممالك الأخرى[1]. حيـث قاتل نحو 2,8 مليـون فرنسي على الأرض ونحـو 150 ألفًا في البحـر، ليصل إجمالي المقاتلين في فرنسـا إلى ما يقرب مِن 3 ملايين مقاتـل خلال 23 عامًا مِن الحرب. وكان العدد الإجمالي المقدَّر للضَّحايا مِن الثورة الفرنسـيّة والحروب النابليونيّة هو 2.5 مليون ضحيّة مِن المقاتلين، بالإضافة إلى مليون ضحيّة أخرى مِن المدنيِّين، وقد أنهى مؤتمر فيينا (1814-1815) هـذاالـصراع[2].

5 - الحرب العالميّة الأولى

كانـت الحرب العالميّة الأولى صراعًا أوروبيًّا عسـكريًّا في الفترة مِن 28 تمّوز/ يوليو 1914 حتّى 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 1918، وشارك فيها أكثر مِن 70 مليون جندي مِن 32 دولة. حيث

1 - Hagemann & Dudink

2 - Hagemann & Dudink

قُتل أكثر مِن 8,5 مليون جندي خلال هذه الحرب العالميّة الأولى، فيما أصيب ما يقدَّر بنحو 21 مليون رجل في القتال. ويقدّر الخبراء أنَّ عدد الوفيات غير القتاليّة، المباشرة أو غير المباشرة الناجمة عن هذه الحرب وصل إلى 13 مليونًا، وانتهت الحرب بـ «الأنفلونزا الإسبانيّة»، والتي أدّت إلى ذروة الوفيات بين العسكريّين والمدنيّين[1].

6 - الحرب العالميّة الثَّانية

تُعـدّ الحرب العالميّة الثَّانية أكبر وأخطر حرب في تاريخ البشريّة، فقد كانت حربًا شـاملة، اندلعت بين عامي 1939 و1945، وشاركت فيها أكثر مِن 30 دولة و100 مليون مشارك. وتُشير التّقديـرات الإحصائية إلى أنَّ الحرب العالميّة الثانية تسـبّبت في مقتل ما بين 50000000 إلى 85000000 شخص.

وعـلى الرّغم مِن التوصّل إلى الاستسـلام غير المشروط لمحور الحلفـاء، إلّا أنَّ التوتّرات لم تهدأ. وبدلاً مِن ذلك، كان ظهور الولايات المتّحدة والاتحاد السـوفييتي كقوّتين عظميين متنافستين، بمثابة الأساس لنصف قرن مِن الحرب الباردة التي تلت ذلك.

ثالثًا: الحروب الأوروبيّة الخارجيّة

1 - إبادة السّكّان الأصليين في الأميركيّتين:

قتـل الأوروبيّون أعـدادًا كبيرةً مِـن الناس في القـارّة الأميركيّة، مبـاشرة أو عن طريق نشر الأمراض، ممّا أدّى إلى انخفاض عدد السّـكّان الأصليين بنسـبة 90 ٪. وقد وجد باحثو كليّة لندن الجامعيّة، أنَّ الاسـتعمار الأوروبيّ للأمريكيّتين، ساهم بشكل غير مباشر في هذه الفترة بقتل حوالي 56 مليون شـخص بحلول عام 1600. وتعزو الدراسة الوفيات إلى عوامل تشمل الأمراض الوافدة، مثل الجدري والحصبـة، فضلاً عن قتلى الحروب والانهيار المجتمعي[2]. لقد قتل الأوروبيّون أعدادًا هائلة مِن قبائل السّـكّان الأصليين في الأميركيّتين. وفي هذا السرد التَّاريخي سـنقف عند اثنتين مِن القبائل التي تعرّضت للغزو مِن قبل الإسـبان، وهما الأزتك والإنـكا.

1 - VICTIMS OF THE NAZI ERA: NAZI RACIAL IDEOLOGY

2 - Koch, Chris, Maslin, & Lewis, 2019

أ - غزو إسبانيا للأزتك

كانت الحرب الإسـبانيّة الأزتيكيّة (1519-1521) أوّل غزو مِن قبل الإمبراطوريّة الإسـبانيّة لحضارة أميركيّة كبرى قبل كولومبوس، ممّا أدّى إلى بدء الاستعمار الأوروبيّ للأميركيّتين. فعند وصولها إلى المكسـيك عام 1517، انطلقت بعد ذلك بعامين رحلة استكشـافيّة بقيادة هيرنان كورتيس، بهدف إخضاع السّكّان الأصليين. وأثناء السير في مدينة تشولولا، ثاني أكبر مدينة في أميركا الوسطى ومركز ديانة الأزتك، تمّ الترحيب بكورتيس كضيف. لكن الإسبان أمروا بضربة استباقيّة ضدّ مضيفيهم، وذبحوا سكّان الأزتك في المدينة المقدّسة، وتتراوح تقديرات القتلى على يد الإسبان بين 3000 إلى 30000. وكان نتيجة الغزو الإسباني لإمبراطوريّة الأزتك، مقتل ما يقدّر بـ: 24000000 شخص[1].

ب - غزو إسبانيا للإنكا

شهد الغزو الإسباني للإنكا خسارة ما يقدَّر بنحو 8400000 مِن السّكّان الأصليين، بالإضافة إلى الأضرار التي لحقت بثقافة السّـكّان الأصليين. كان الغزو الإسـباني لإمبراطوريّة الإنكا، والذي بدأ عام 1532 وانتهى عام 1572، إحدى الحملات الأساسـيّة وراء الاستعمار الإسباني للأميركيّتين[2].

2 - تجارة الرقيق في أفريقيا

أدّى غزو أوروبا واستعمارها لأميركا الشماليّة والجنوبيّة وجزر الكاريبي منذ القرن الخامس عشر فصاعدًا، إلى خلق طلب هائل على العمّال الأفارقة، الذين اعتُبروا أكثر ملاءمة للعمل في الظروف الاستوائيّة للعالم الجديد. وتزايدت أعداد الأفارقة المستوردين عبر المحيط الأطلسي بشـكل مطّرد، مِن حوالي 5000 أفريقي سـنويًا في القرن السادس عشر، إلى أكثر مِن 100000 سـنويًا بحلول نهاية القرن الثامن عشر[3].

أ - الاستعباد

أصبحت بريطانيا الدُّولة الرائدة في العالم في تجارة الرقيق. فقد كانت العبوديّة عبر المحيط

1 - Trista, 2018

2 - Trista, 2018

3 - Bortolot, 2003

الأطلسي مربحة بشكل خاصّ، لأنَّ السفن كانت تُبحر بكامل طاقتها في كلّ رحلة، ممّا أدّى إلى تحقيق أرباح كبيرة للتجّار في لندن وبريستول وليفربول. وعليه، تمّ استعباد واختطاف حوالي 12 مليون أفريقي في سياق تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي. وبين عامي 1640 و1807، نقلت السفن البريطانيّة حوالي 3,4 مليون أفريقي عبر المحيط الأطلسي[1].

ب - الممرّ الأوسط

كان «الممرّ الأوسط»، رحلة شاقّة عاشها ملايين الأسرى والمخطوفين الأفارقة، الذين تمّ نقلهم عبر المحيط الأطلسي في السفن الأوروبيّة للعمل كعبيد في الأميركيّتين، ذلك أنَّ ظروف النقل على متن سفن العبيد كانت مروّعة، فقد تمّ حشر أعداد كبيرة مِن الناس في مساحات صغيرة جدًا، وفصل الرجال والنساء والأطفال، ما أدّى إلى تفكّك العائلات. وبالتالي، قاد الاكتظاظ وسوء التغذية والجفاف والمرض إلى ارتفاع معدّلات الوفيات، فقد قتل 450000 مِن أصل 3,4 مليون أفريقي تمّ نقلهم على متن السفن البريطانيّة عبر معبر المحيط الأطلسي، فيما تعرّض أولئك الذين قاوموا برفض الطعام والماء للضرب والإطعام القسري، كما تمّت معاقبة محاولات التمرّد بشكل وحشي، ولذلك فضّل بعض الناس الموت على العبوديّة، وانتحروا أثناء الرحلة أو بعدها.

3 - الاستعمار الفرنسي للجزائر

يُعدّ الاحتلال الفرنسي للجزائر واحدًا مِن أطول الاحتلالات في التّاريخ الحديث، وخلال أكثر مِن 132 عاماً (أي منذ العام 1830 حتّى العام 1962) قدّم أبناء الجزائر ملايين الضحايا في سبيل التحرير.

أ - الضحايا

يقول صلاح الدين العقّاد في كتابه المغرب العربي(الجزائر - المغرب الأقصى – تونس)، الصادر عام 1962: اكتست الحرب التي شنّها الجنرال بيجو ضدّ الشعب الجزائري بالطابع الإجرامي والعنف، إلى حدّ أنَّ سكّان الجزائر تناقص حسب تقرير الضبّاط الفرنسيين مِن 4 إلى 3 ملايين في مدى 7 سنوات. وبحسب حمدان خوجة صاحب كتاب "المرأة"، يقول في تقريره: إنَّ السّكّان الجزائريين تناقصوا مِن 10 إلى 3 ملايين، ولم يكن الجنرال بيجو وحده يمضي في

1 - Atlantic Worlds: Enslavement and Resistance

سياسة استئصال الشعب الجزائري، فها هو أحد معاونيه الجنرال سانت أرنو يقول في مذكّراته: "لقد حملتنا في الجزائر حملة تدميريّة أكثر منها عملاً عسكريًّا، ونحن اليوم وسط جبال مليئة، لا تطلق إلاّ قليلاً من الرصاص، وإنمَّا نمضي وقتًا في حرق جميع القرى والأكواخ، وإنَّ العدو يفرّ أمامنا سائقًا أمامنا قطعان غنمه"[1].

ب - التعذيب

تبنّى الاستعمار الفرنسي سياسة الأرض الشاملة في الجزائر، فقد أحرق مداشير بأكملها، وبأهلها وحيواناتها، وصلب الرجال، وقطع الرؤوس، ومثّل بالجثث، وبقر بطون الأمهات الحوامل، وأُبيدت أعراش بأكملها، كما شرّدت عائلات، ونُفيت وهجّرت قسرًا إلى مختلف باقي المعمورة، في غايان وكاليدونيا الجديدة ومستعمرات فرنسا في الباسيفيك، وهذه بعض شهادات الفرنسيين أنفسهم[2].

ج. أحداث سطيف (الجزائر)

بمناسبة الاحتفال بسقوط ألمانيا النازيّة، نظّم القوميّون الجزائريّون في حركة أصدقاء البيان والحريّة وفي حزب الشعب الجزائري(الذي تمّ حلّه) عرضًا في مدينة سطيف، حاملين أعلام الحلفاء في المقدّمة. فجأةً ظهرت الأعلام الجزائريّة واللافتات التي تحمل شعار «أطلقوا سراح مصالي» و«عاشت الجزائر حرّة مستقلّة»، «ليسقط الاستعمار». رفض سعال بوزيد (Bouzid Saal) إنزال علم الجزائر الذي كان يحمله، فقتل على يد أحد رجال الشرطة، فأحدث ذلك هياجًا شعبيًّا تبعه حملة قمع فظيعة.

في اليوم نفسه، أوقف نائب محافظ الشّرطة «أشياري» (Achiary) التَّظاهرة التي ينظّمها مناضلون قوميّون في قالمة الواقعة شرق قسنطينة، والتي رفعت في مقدّمتها العلم الجزائري وأعلام الحلفاء. وقد أطلقت الشرطة النار على الموكب، فقُتل أربعة جزائريين ولم يصب أيّ أوروبي. وأعلن أشياري منع التجوّل وقام بتسليح المستعمرين، وفي المساء بدأت التوقيفات والإعدامات.

اتّسعت رقعة التمرّد بعد ورود الأخبار عن حملة القمع في منطقة سطيف وقالمة

1 - بزيان، 2005

2 - بزيان، 2005

وخراطة وجيجل، والتي راح ضحيّتها 40000 شخص. وإذا كانت التظاهرات التي جرت في الأوّل والثامن مِن أيّار قد وقع الإعداد لها، فإنَّ الثورة التي أثارها القمع في 8 أيّار، كان لها طابع تلقائي[1].

4 - جرائم فرنسا في أفريقيا

أ - مذبحة بيرني - نكوني (Birni-N Konni) (السودان ومالي حاليًّا)

في 2 أيّـار 1899 وصل فولي – شـانوان إلى بلدة بيرني نكوني التـي أبى زعيمها إعطاءهما ستّة ثيران. فردًّا على ذلك، فتحا سور البلدة بنيران المدفع وقتلا كلّ الذين التقوهم. قتل جميع السّكّان البالغ عددهم 1500 شخص، وواصل فولي وشانوان ارتكاب أعمال السلب والنهب[2].

ب - مذبحة مورامانغا

في 30 آذار/ نيسـان 1947، اندلعت في مدغشقر ثورةً مُسلّحةً لم تحظَ بموافقة قادة الحركة الديمقراطيّة للإصلاح المدغشقري (MDRM). فقام رئيس مقاطعة أمباتوندرازاكا لو شوفانتون بحملة توقيفات ضدّ مناضلين مِن الحركة في 5 أيّار/ مايو، ونُقل 166 رهينة إلى محطّة القطارات، وحبسـوا داخل ثلاث عربـات محكمة الإغلاق مُخَصّصة عادة لنقل المـواشي ثمّ أطلق النار عليهم جميعهم، ونجا واحد منهم فقط[3].

5 - الاستعمار البريطاني للهند

حكمـت بريطانيا الهند لمدّة 200 عامًا تقريبًا، ويقال إنَّ البريطانيين نهبوا خلال تلك الفترة ثـروة الهند بقيمة حـوالي 45 تريليون دولار، فيما بلغ عدد ضحايا الاسـتعمار البريطاني 165 مليونًا.

أ - الضحايا

نُشرت دراسـة علميّة حديثاً، أكدت أنّ الاستعمار البريطاني تسبّب في مقتل ما يقرب مِن 165 مليون شخص في الهند، مِن عام 1880 إلى عام 1920. ووفقاً للدراسة التي نشرها عالم الأنثروبولوجيا الاقتصاديّة جيسـون هيكيل في المجلّة الأكاديميّة World Developmen،

1 - Benot, 1994

2 - Simoën, 1996

3 - Tronchon, pp. 72 -73, 292 - 295

فإنّ "هذا الرقم أكبر مِن إجمالي عدد القتلى في الحربين العالميّتين. وبحسب الدراسة، فإنّ هذا الرقم لا يشـمل عشرات الملايين مِن الهنود الذين ماتوا في مجاعات مفتعلة، تسـبّبت فيها الإمبراطوريّة البريطانيّة[1].

ب - فقر مُدقع

وفقاً لبحث أجراه المؤرّخ الاقتصادي روبرت سي. ألين، ارتفع معدّل الفقر المدقع في الهند، تحت الحكم البريطاني مِن 23 % في عام 1810 إلى أكثر مِن 50 % في منتصف القرن العشرين. وانخفضت الأجور بشـكل كبير خلال فترة الاسـتعمار البريطاني. وعلى الرغم مِن المجاعة، فقد وصلت إلى أدنى مسـتوى لها في التَّاريخ في القرن التاسع عشر. وبدل أنْ يفيد الاستعمار الشعب الهندي، فإنَّه كان مأساة إنسانيّة[2].

ج. المجاعة

تسبّبت بريطانيا مرارًا وتكرارًا، في حدوث مجاعة في الهند، أدّت إلى مقتل ما بين 15 مليونًا و29 مليون شخص. وأشهر مجاعة كانت تلك التي حدثت في البنغال عام 1943، عندما مات أربعة ملايين هندي.

6 - الحملات الصليبيّة

كانت البداية الفعليّة للحروب الصليبيّة في 27 تشرين الثاني/نوفمبر 1095، إثر خطبةِ ألقاها البابا أوربان الثاني في مؤتمر ديني في حقول مدينة كليرمونت الفرنسيّة، وقد وصل عددها نحو 8 حملات عسكريّة، بين تاريخ أوّل حملة عام 1096 و1291م.

ليس هناك توثيق دقيق لأعداد ضحايا الحروب الصليبيّة في الشرق، وتتراوح التقديرات مِن مليون إلى تسـعة ملايين، بسبب عدم وجود حسابات دقيقة لأعداد الضحايا. فبحسب كلّ مِن جون شـيرتزر هيتل وفريدريك ويرثام، يقدّر إجمالي القتلى في الحروب الصليبيّة إلى الشرق بـ 1000000 شـخص، بينما يرد في كتاب "تاريخ قصير للمسيحيّة" لجون روبرتسون، أنَّه منذ الحملة الصليبيّة الأولى «حتّى سـقوط عكّا (1291)، قُتـل 9 ملايين مِن البشر، في محاولات اسـتعادة الأرض المقدّسـة والاحتفاظ بها، نصفهم على الأقل مِن المسـيحيين، وكان البؤس

1 - Norton, 2022

2 - Mishra, 2022

والأوبئة المزمنة، هم الذين قتلوا أكثر مِن غيرهم"[1].

أ - نهب الصليبيين للقدس

عــلى إثر اجتياح الســلاجقة الأتراك لآســيا الصغرى على حســاب الإمبراطوريّــة البيزنطيّة واحتلال القــدس (1077)، دعا البابا أوربان الثاني (Urban 2) إلى شــنِّ الحرب الصليبيّة في مجمع كليرمون ســنة 1095. وقد حيث وعَدت هذه الحرب مَــنْ يذهب للقتال هناك بالتكفير عن خطايــاه، وبالتالي بالخلاص الأبدي. وقد تعاقبت عدّة حملات صليبيّة على الشرق، ففي عــام 1097 انطلقت حملة «الفرســان» الصليبيّــة، التي تألّفت مِن "الفرســان الأحرار"، الذين جاؤوا بشكل أساسي مِن فرنسا الحاليّة، وفي توصيف الجرائم التي ارتكبتها هذه الحملة، كتب راوول دو كان Raoul de Can: « في المعرّة، سَلَقَ جنودنا الوثنيين البالغين في القُدور، وعلّقوا الأطفال على القضبان، والتهموهم مشويين».

وعن جرائم الصليبيين في القدس، جاء في كتاب «ملاحم الفرنجة» (/ Gesta Francorum Gestes des frances أنَّ «البعض مِن رجالنا، وهذا ممّا يُثير الشّفقة، كان يقطع رؤوس أعدائه، فيــما البعض الآخر يُطلق ســهامه عليهم فيوقعهم مِن على الأبــراج، وبعضهم أيضًا كان يطيل عمليّات التعذيب، إذ كان يقوم بحرقهم. كنا نستطيع رؤية أكوام مِن الرؤوس والأيدي والأرجل في شــوارع المدينة. كان على المرء أنْ يشــقّ طريقه بين جثث البشر والخيول. لكنَّ هذا قليلٌ مُقارنةً بما حصل بالقرب مِن هيكل سليمان، إذا قلتُ الحقيقة حول ما جرى هناك، فإنّها سوف تتجاوز مــا يمكنكم تصديقه، لأكتفي بالقول إنَّ الخيّالة (الصليبيين) كانت أحصنتهم تخوض بهم في بركة مِن دماء يرتفع مستواها إلى حدود الرُّكب واللجام». وهكذا، فإن 40 ألف شخص، أي مجموع السّــكّان تقريبًا، مِن ضمنهم نساء وأطفال، أُبيدوا خلال يومي 15 و 16 تمّوز. لقد أوقع الصليبيّــون ضحايا مِن يهود القدس، كما أوقعوا مِن المســلمين، وكان اليهود قبل ذلك هدفًا للحماسة المقدّسة للحجّاج في وادي الزين[2].

7 - احتلال فلسطين

بحلول الوقت الذي احتلّت فيه بريطانيا فلسطين في نهاية عام 1917، كانت قد عقدت عدّة

1 - John, 1902, p. 278

2 - maalouf, 1983

اتفاقيّات متضاربة للحصول على الدعم مِن مجموعات مختلفة في الشرق الأوسط، وشملت: مراسلات الحسين مكماهون (1915-1916)، وهي سلسلة مِن الرسائل المتبادلة خلال الحرب العالميّة الأولى، وافقت فيها الحكومة البريطانيّة على الاعتراف باستقلال العرب بعد الحرب، مُقابل أن يُصبح الحسين بن علي، ملكا للحجاز، بالإضافة إلى إطلاق الثورة العربيّة ضدّ الدُّولة العثمانيّة، واتفاقيّة سايكس بيكّو (1916)التي قسّمت الشرق الأوسط إلى مناطق نفوذ الدُّولتين البريطانيّة والفرنسيّة، ووعد بلفور (1917)الذي ألزمت فيه الحكومة البريطانيّة نفسها بإقامة «وطن قومي» للشعب اليهودي[1].

قبل الاحتلال البريطاني، كانت فلسطين جزءًا مِن سوريا العثمانيّة. وقد حكم الجيش البريطاني فلسطين حتّى إنشاء إدارة مدنيّة في 1 تمّوز/ يوليو 1920. حيث مُنحت بريطانيا انتدابًا على فلسطين في 25 نيسان/ أبريل 1920 في مؤتمر سان ريمو، وفي 24 تمّوز/ يوليو 1922 تمّت الموافقة على هذا الانتداب مِن قبل عصبة الأمم[2].

أ - الاستيلاء

عملت الحركة الصهيونيّة على محورين رئيسيين: الاستيلاء على الأرض، والتهجير القسري. وقام رأس المال الخاصّ والمؤسّسات الصهيونيّة بشراء مساحات واسعة مِن الأراضي، مِن مُلّاك الأراضي العرب. كما أدّت الهجرة اليهوديّة، والنمو الطبيعي للسّكان العرب في فلسطين، إلى إحداث تغيير جذري في التركيبة السّكّانيّة لفلسطين الانتدابيّة، إذ ارتفع عدد سكّانها مِن حوالي 700000 نسمة في عام 1922 إلى حوالي 1800000 نسمة في عام 1945، وقد تضاعف عدد السّكّان العرب، في حين زاد عدد السّكّان اليهود عشرة أضعاف[3].

ب-المجازر

وفقًا لإحصاءات الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني، سيطر الاحتلال الإسرائيلي خلال مرحلة النكبة على 774 قرية ومدينة فلسطينيّة، وجرى تدمير 531 منها بالكامل، وما تبقّى تمّ إخضاعه إلى كيان الاحتلال وقوانينه. وقد رافق عمليّة التطهير هذه، اقتراف العصابات الصهيونيّة

1 - Ginat, 2018
2 - Ginat, 2018
3 - Ginat, 2018

أكثر مِن 70 مجزرة بحقّ الفلسطينيين، أدّت إلى استشهاد ما يزيد عن 15 ألف فلسطيني[1].

ج. التهجير القسري

شكّلت أحداث نكبة فلسطين وما تلاها مِن تهجير، مأساةً كبرى للشّعب الفلسطيني، لما مثّلته وما زالت هذه النكبة، مِن عمليّة تطهير عرقي، إذ تمّ تدمير وطرد شعب بكامله، وإحلال جماعات وأفراد مِن شتّى بقاع العالم مكانه، وتشريد ما يربو عن 800 ألف فلسطيني مِن قراهم ومدنهم، مِن أصل1,4

مليون فلسطيني كانوا يقيمون في فلسطين التَّاريخيّة عام 1948 في 1300 قرية ومدينة فلسطينيّة، ثمّ انتهى التهجير بغالبيّتهم إلى عدد مِن الدُّول العربيّة المجاورة، إضافة إلى الضفّة الغربيّة وقطاع غزة، فضلاً عن التهجير الداخلي للآلاف منهم، داخل الأراضي التي أخضعت لسيطرة الاحتلال الإسرائيلي عام النكبة، وما تلاها بعد طردهم مِن منازلهم والاستيلاء على أراضيهم[2].

8 - حملة نيجر على جبل عامل

عملت السلطات الفرنسيّة على زرع الفتنة الطائفيّة بين المسلمين في جبل عامل، وتحديدًا بين أهالي عين إبل المسيحيين والقرى المحيطة، فقد أوهمت المسيحيين أنَّهم سيتعرّضون لهجوم مِن المسلمين، بينما أوهمت المسلمين أنَّ المسيحيين يعتدون على دينهم ويهينون رموزهم الدينيّة. وقد حصل أن اعتدى مجموعة من الرجال، على امرأة مسلمة مِن قرية حانين كانت تبيع اللبن في عين إبل، وهو ما جعل مئات الشبّان المسلمين يتوافدون مِن بنت جبيل ومارون الراس وعيترون وكونين وحانين وبيت ياحون وياورن، وشنّوا هجومًا على عين إبل، فتدخّلت فرنسا التي قدّمت نفسها حامية للوجود المسيحي في الجنوب، وغزت قرى المسلمين في جبل عامل.

جرت الأحداث الفتنويّة في بلدة عين إبل بتاريخ 5 أيّار/ مايو 1920 بين المسلمين والمسيحيين، لتطبّق فرنسا مخطّطها المرسوم مسبقاً في سايكس بيكّو بإخضاع جبل عامل بالقوّة العسكريّة، وجعله يدفع ثمن مواقفه المعارضة للاحتلال الفرنسي، تحت ذريعة ردّ

1 - العوض، 2022

2 - العوض، 2022

الاعتبار على حادثة عين إبل، فحشـدت حوالي 4000 مقاتل فرنسي بكامل العتاد العسكري، معـزّزة بالمدرّعـات، والمدفعيّـة، والطائرات، تحت قيـادة الكولونيل "نيجر" وقسّـمتها إلى مفرزتين، تمركـزت إحداهما في صور، والأخرى في النبطيّة، وبدأتا التوغّل أكثر في بلاد جبل عامل في وقت واحد، فجر 20 أيّار 1920 (02 رمضان 1338هـ)، وكان السيّد عبد الحسين شرف الدين، وقادة المقاومة المسلّحة، منهم صادق حمزة، وأدهم خنجر، ومحمود أحمد البزي..، على رأس أهداف تلك الحملة.

أ - جرائم الحملة

قصدت الحملة «تأديب» القرى التي اعتبرتها مسـؤولة عن اجتيـاح عين إبل، فبلغت بنت جبيـل، وهي مِن حواضر جبل عامل، وقد أخلاها أهلهـا إلى قرى مجاورة، ولم يبق فيها نافخ نـار بعد أنْ تركوا ما ثقل حمله عليهم مِن الأموال والأثاث، ولمّا دخلها العسـكر ومِن ورائهم المتطوّعون في الحملة، أحرقوا فيها بيوتًا خاصّة، ولكنَّ المتطوّعين لم يعفوا عن بقيّة البيوت، فهدموهـا، حتّى بعض المسـاجد، ونهبوا جميع ما تركه أهلها فيهـا، ويقدّره بعضهم بعشرات الألـوف مِن الذهب. وكانـت الحملة تغتال في الطريـق مَنْ تعثر عليه، وبلـغ من قتلوه على هـذه الصور بضعة غلمان ورجـال. ثمّ توزّعت الحملة على قرى عيناثـا ومارون وما حولهما مِـن القرى، وقد هجرها أهلها بتاتًا، فحلّ فيهـا متطوّعة عين إبل ورميش، وأعملوا فيها النهب والتخريب بصورة فظيعة[1].

ب - أعداد الضحايا

في نهايـة الحملة ألقى الجنرال نيجر خطابًا أعلن فيه أنَّ الحكومة الفرنسـيّة أعدمت جميع الثوّار الذين حاولوا متابعـة تحرّكاتهم أثناء وجود الحملة، وعددهم يقدّر بـ30 (جابر، 1920، صفحة 177).

9 - ثورة العشرين في العراق

وفقاً للأرشـيف الوطني البريطاني، الذي رفعت عنه السريّة في عام 2014، فقد استخدمت السـلطات البريطانيّة الأسـلحة الكيميائيّة على نطاق واسـع، لإخماد ثـورة العشرين في بلاد مـا بين النهريـن (العراق الحالي) في ربيع عام 1920. وقد أيّد ونسـتون تشرشـل بصفته وزير

1 - كوراني، 2005، صفحة 179

الدُّولة البريطاني لشؤون الحرب، «استخدام الغاز ضدّ القبائل غير المُتحضّرة». وبحسب الأرشيف، أمر تشرشل باستخدام آلاف قذائف غاز الخردل ضدّ المتمرّدين. وقد أدّى قمع الثورة المناهضة لبريطانيا في العراق إلى استشهاد 6000 شخص[1].

10 - الثورة السوريّة الكبرى

انطلقت هذه الثورة في سوريا ضدّ الاستعمار الفرنسي في 21 تمّوز/ يوليو عام 1925م، بقيادة ثوّار جبل العرب في جنوب سوريا، وانضمّ تحت لوائهم عدد مِن المجاهدين مِن مختلف مناطق سوريا ولبنان والأردن، تحت قيادة سلطان باشا الأطرش، قائد الثورة العام. وقد جاءت هذه الثورة كردّ فعل على السياسات الدكتاتوريّة العسكريّة التي اتّبعتها السلطات الفرنسيّة، والمتمثّلة في تمزيق سوريا وتقسيمها إلى عدّة دويلات، وإلغاء الحريّات وملاحقة الوطنيين وإثارة النزعات الطائف،ومحاربة الثقافة والطابع العربي للبلاد، ومحاولة فرض اللغة والثقافة الفرنسيّة، بالإضافة إلى رفض سلطات الانتداب عقد اتفاق مع القوى الوطنيّة السوريّة لوضع برنامج زمني لاستقلال سوريا.

أ - النتائج العسكريّة

بحسب موقع وزارة الدفاع السوريّة، حشد الفرنسيّون في المشرق (سوريا ولبنان) قوّات عسكريّة، وصل عددها في وقت ما إلى 70000 جندي، منها 20000 جندي فرنسي (مِن المتروبول)، والبقيّة الباقية مِن جنود المستعمرات (سينيغال، ملاغاش، شمال أفريقيا، هنود صينيّين)، وقد خسر الجيش الفرنسي مِن جرّاء الثورات السوريّة 15000 جندي، وقُدّرت هذه الخسائر في السنوات الخمس الأولى (مِن 1919 وحتّى 1924) 9000 جندي و250 ضابطًا، كما ورد في خطاب الجنرال ويغان في حفل إزاحة الستار عن النصب التذكاري لقتلى جيش الشرق الفرنسي، الذي جرى في مدينة بيروت في شهر تمّوز 1924. كما أنَّ الجنرال ساراي اعترف بأنّه قامت خلال 1922 فقط، وفي سوريا وحدها، «خمس وثلاثون ثورة دفن فيها 5 آلاف جندي فرنسي»، وأمّا خسائر الفرنسيين أثناء الثورة السوريّة الكبرى (1925 - 1927)، فبلغت 2000 جندي وضابط، في منطقة جبل العرب، و1000 جندي وضابط في منطقة

1 Zakharova, 2018

دمشــق والغوطتين، و1500 جندي وضابط في المناطق الأخرى (المنطقة الوسطى، القلمون، الجولان، وادي التيم، حوران).

فيما بلغت خســائر المجاهديــن، حوالي 10000 شــهيد، منهم 6000 أثنــاء أحداث الثورة السوريّة الكبرى، تحت قصف المدفعيّة والطائرات، وكذلك مَنْ جرى إعدامهم بعد محاكمات صوريّة أو بدون محاكمة. ويذكر أمين ســعيد أنّه "يقدر عدد الذين ماتوا أو قُتلوا بسبب الثورة، أو بســبب أعمال الحرق والتدمير، مِن النساء والأطفال والشّيوخ والرجال، بخمسة عشر ألفاً، يُضــاف إليهم مثلهم، استشــهدوا في الحروب والمعارك التي دارت مع الجيش الفرنســاوي" (النتائج التي أدت إليها الثورات السورية).

الجداول

الحرب/ المعركة	أعداد القتلى
معركة بنارتولوس	430
معركة مانتينيا	300
معركة لوكترا	1000
معركة تيرليس	10.000
معركة ميلس البحريّة	7000
حملة ريغولوس على قرطاج	38.000
معركة كاناي	56.000
معركة زاما	21.500

جدول 1: حروب اليونان والرومان

معركة أكتيوم البحريّة	5000
معركة تابسوس	11.000
معركة أليسيا	250.000
كمائن الجرمان	17.500
معركة أدرنة	50.000
حرب الوندال	17.000
المجموع	484.730

جدول 2: الحروب الأوروبيّة الداخليّة

الحرب	أعداد القتلى
حرب الثلاثين عامًا	11.500.000
حروب الخلافة النمساويّة	10.043.969
حرب السنوات السبع	1.400.000
الحروب النابليونيّة	25.000.000
الحرب العالميّة الأولى	21.500.000
الحرب العالميّة الثانية	85.000.000
المجموع	154.443.969

جدول 3: الحروب الأوروبيّة الخارجيّة

الاستعمار	أعداد القتلى
غزو أميركا	56.000.000
قتل الأفارقة	450.000

الاستعمار الفرنسي للجزائر	3.000.000
مذبحة بيرني - نكوني	1500
مذبحة مورامانغا	165
الاستعمار البريطاني للهند	165.000.000
الحملات الصليبيّة الثالثة	9.000.000
احتلال فلسطين	15.000
الثورة السوريّة الكبرى	15.000
حملة نيجر على جبل عامل	30
ثورة العشرين في العراق	6.000
المجموع	233.487.695

جدول 4: معدلات الحروب الأوروبيّة

حروب اليونان والرومان	484.730
الحروب الأوروبيّة الداخليّة	154.443.969
الحروب الأوروبيّة الخارجيّة	233.487.695
المجموع	388.416.394

المصادر

المصادر العربيّة

■ (2013). نكبة فلسطين في أرقام. الجزيرة.

■ (بـلا تاريخ). النتائج التي أدّت إليها الثورات السـوريّة. وزارة الدفاع في الجمهورية العربيّة السوريّة.

■ أبـو بكر سرحـان. (2013). الحروب البونيّة بين روما وقرطاجة، 264 ــ 146 ق.م، أسـبابها أحداثها نتائجها وموقف الممالك الأهليّة منها . مجلّة الدراسات الأفريقيّة، العدد 35.

■ أحمد غانم الحافظ. (2007). الإمبراطوريّة الرومانيّة. الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة.

■ بيتي راديس، ترجمة علي زيتوني. (2007). فتح بلاد الغال يوليوس قيصر. دمشق: منشورات علاء الدين.

■ جـودي زكريا. (2020). النوميديّـون والحروب البونيّة 246 - 146 ق.م. مجلّة الدراسـات التاريخيّة العسكريّة .

■ جورجي زيدان. (49). خلاصة مِن تاريخ اليونان والرومان. القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة.

■ حسين أحمد الشيخ. (2007). الإمبراطوريّة مِن النشأة إلى الانهيار . الإسكندريّة: دار المعرفة للنشر.

■ سعدي بزيان. (2005). جرائم فرنسـا في الجزائر مِن الجنرال بوجو إلى الجنرال أوساريس (صفحات مظلمة مِن تاريخ الاسـتعمار الفرنسي في الجزائر مِن الاحتلال 1830 إلى الاستقلال 1962). دار هومة.

■ عقـون محمّد العربي. (2009). فصول مِـن الحرب البونيّة الأولى 264 ــ 241 ق. م. معركة البحر وحملة ريغولوس على قرطاج. مجلّة الآداب والعلوم الإنسانيّة، جامعة منتوري قسنطينة، العدد 3.

■ علا العوض. (2022). د. عـوض، رئيسـة الإحصاء الفلسـطيني تسـتعرض أوضاع الشعب الفلسطيني مِن خلال الأرقام والحقائق الإحصائيّة في الذكرى الرابعة والسبعين لنكبة فلسطين.

الجهاز المركزي للإحصاء الفلسطيني.

■ كريمة رمضان رفاعي رمضان. (2019). قتل الجنود الرومان لأنفسهم في بعض حروب العصر الجمهوري. مجلّة المؤرّخ المصري، جامعة كفر الشيخ العدد 54.

■ محمّـد أمين كـوراني. (2005). الجذور التاريخيّة للمقاومة الإسـلاميّة في جبل عامل. دار الهدى.

■ محمّد حسـاني. (2017). الحـروب الأهليّة في روما خلال العهـد الجمهوري. الأغواط : جامعة كليّة العلوم الإنسانيّة والإسلاميّة والحضارة.

■ محمّد عدلي سـليمان. (2020). ريكمير ودوره السياسي في الإمبراطوريّة الرومانيّة الغربيّة. مجلّة كليّة الآداب.

■ محمّد محمّد مرسي الشيخ. (1994). تاريخ الإمبراطوريّة البيزنطيّة. الإسكندريّة: دار المعرفة الجامعيّة .

■ محمّد مؤنس عـوض. (2007). الإمبراطوريّة البيزنطيّة: دراسـة في تاريخ الأسر الحاكمة . الشارقة : عين للدراسات والبحوث الإنسانيّة والاجتماعيّة.

■ منذر محمود جابر. (1920). مؤتمر وادي الحجير وآثاره .

■ نادبه محمود فرحان. (بلا تاريخ). حروب الإمبراطور جستنيان الأوّل في المصادر والمراجع العربيّة البيزنطيّة. مجلّة كليّة الدراسات الإسلاميّة والعربيّة للبنات .

المصادر الأجنبيّة

■ (2017). 100-летие русской революции: “смертельная рана” и 100 млн погибших (48). Delfi.

■ (n.d.). Atlantic Worlds: Enslavement and Resistance. Royal Museums Greenwich.

■ Battle of Zama. (2024, Feb 9). Retrieved from britannica.

■ Benot, Y. (1994). Massacres coloniaux. La Découverte.

■ Bileta, V. (2023, Janvier 16). What Happened at the Battle of Adrianople

(378 AD)? Retrieved from thecollector: https://www.thecollector.com/what-happened-at-the-battle-of-adrianople-378-ad/

- Bortolot, A. I. (2003). The Transatlantic Slave Trade.
- (2023). Civilian Deaths In Ukraine War Top 10,000, UN Says. United Nations Ukraine.
- (2022). Conflict in Ukraine's Donbas: A Visual Explainer. Crisis group.
- Cooper, H., Gibbons-Neff, T., Schmitt, E., & Barnes, J. (2023). Troop Deaths and Injuries in Ukraine War Near 500,000, U.S. Officials Say. The New York Times.
- Drogula, & Fred. (2015). Commanders and Command in the Roman Republic and Early Empire. UNC Press Books.
- Durant, W. (1996). The Life of Greece. Simon & Schuster.
- Durant, W., & Durant, A. (1935– 1975). The Story of Civilization.
- Frank William Walbank. (2002). Polybius ،Rome and the Hellenistic World ،Essays and Reflections. Cambridge University Press.
- Ginat, A. (2018). British Mandate for Palestine. encyclopedia-1914 - 1918.
- Grant. (1993). M. Readings in the Classical Historians. Scribner.
- Hagemann, K., & Dudink, S. (n.d.). French Revolutionary and Napoleonic Wars. gwonline.
- Heather, P. (2006). The Fall of the Roman Empire: A New History of Rome and the Barbarians. Oxford University Press.
- John, R. (1902). A Short History of Christianity. Kessinger Publishing; Volume 3 ed. edition.
- Koch, A., Chris, B., Maslin, M., & Lewis, S. (2019, March 1). Earth system impacts of the European arrival and Great Dying in the Americas after 1492. Elsevier, pp. 1336-.

■ maalouf, A. (1983). les croisades vues par les arabes . J.C Lattes.

■ Mishra, P. (2022). British Colonialism In India: अंगरेजों ने सिफर् 40 साल में 10 करोड़ से ज़्यादा भारतीयों को मारा, नए शोध में विशेषज्ञों का बड़ा खुलासा. navbharattimes.

■ Molins, L. S. (1998). Le Code Noir ou le calvaire de Canaan. france: PUF.

■ newworldencyclopedia. (n.d.). Seven Years War.

■ Norton, B. (2022). British empire killed 165 million Indians in 40 years: How colonialism inspired fascism. geopoliticaleconomy.

■ Simoën, J. -C. (1996). Les fils de rois le crépuscule sanglant de l'aventure africaine. J. -C. Lattès.

■ Stora, B. (14 février 1999). Le Monde, 8.

■ Thucydides, & Mynott, J. (2011). & Thucydides Histories. Cambridge University Press.

■ Trista. (2018). These Details About Krampus, the Christmas Demon, would Make all Children Fear the Holidays. historycollection .

■ Tronchon, J. (s.d.). L'insurrection malgache de 1947. Karthala .

■ (n.d.). VICTIMS OF THE NAZI ERA: NAZI RACIAL IDEOLOGY. Holocaust Encyclopedia.

■ Walbank, F. W. (1972). Polybius ،Berkeley and Los Angeles . University of California Press.

■ (n.d.). War of the Austrian Succession. heritage history.

■ Waterfield. (2009). R. Herodotus: The Histories. Oxford University Press.

■ Waterfield, R. (2004). Athens: A History from Ancient Ideal to Modern City. Basic Books.

■ Worthington, I. (2004). Alexander the Great - Man & God. Routledge.

■ Zakharova, M. (2018). Political crimes committed by the UK. the Minstry for Foreing Affairs of the Russian Federation.

تأصيل

الحربُ العادلة وأخلاقيَّات الحرب في الإسلام

■ الشيخ الدكتور مُحمَّد نمر[1]

ملخّص

يُعـدُّ مفهـومُ أخلاقيَّات الحرب، من المفاهيم الحديثة نسـبيًّا، حيـثُ يتناولُ هذا المفهومُ أُسـسَ ومبادئ الحروب أخلاقيًّا، وكيف يمُكن تحقيق العدالة قبل الحرب وأثناءها وبعدها. ومع انتشـار مفهوم الحرب العادلة، كنظريةٍ تُؤكِّدُ مُراعاة الأخلاق في الحـرب، كان لا بُدَّ من الإطلالة على هـذا المفهوم، وأهمِ مُرتكزاته ومبادئه التي ينطلقُ منهـا، والمُقارنة بين هذه المبادئ وبين التّعاليم والأخلاق الإسـلاميّة، وبيان الفروقات والمُشتركات بينهما.

خاصَّـة من ناحيـة تبرير مشروعية الحـرب، مع مُراعـاة أصل الكرامة الإنسـانيّة والمُحافظـة عليه، ومن ثم بيان أهمِّ الأخلاقيَّات الإسـلاميّة في الحرب. لذلك، بيَّنَ هذا البحـث مفهومَ الحـرب العادلة ومبادئهـا، ونظرة الإسـلام إلى الحرب وكيفية تبريرها، وأهم الأخلاقيَّات الإسـلاميّة للحرب، ومقارنة لمبادئ وأخلاقيَّات الحرب بين الإسلام ونظرية الحرب العادلة.

الكلمات المفتاحية:

الحرب العادلة- أخلاقيَّات الحرب- مبادئ الحرب- الدفع والتدافع- آداب الحرب في الإسلام.

1 - باحث في مركز الأبحاث والدراسات التربوية، محاضر في جامعة المعارف وجامعة المصطفى العالمية- لبنان.

مُقدِّمة

يُعدُّ مفهومُ أخلاقيَّات الحرب من المفاهيم الحديثة نسبيًّا، وتشمل أخلاقيَّات الحرب مجموعةً من المبادئ والقيم الأخلاقية، التي تُنظِّمُ سلوكَ الأفراد والأطراف المشاركة في الصراعات المُسلَّحة. وتهدفُ هذه الأخلاقيَّات إلى تقييد استخدام القوة والعنف في الحروب، من أجل الحفاظ على الإنسانيّة، والحدِّ من المُعاناة البشرية في أثناء القتال[1].

تعتمد أخلاقيَّات الحرب، على مجموعةٍ من الاتفاقيات والقوانين الدولية، لحماية أكبر للمدنيين والتفريق بينهم وبين العسكريين، والحدّ من الاستعمال المُفرط للسلاح، خاصة أسلحة الدَّمار الشَّامل، واحترام حقوق الأسرى والجرحى وغيرها من المبادئ والقيم والأخلاق.

لم يُذكر في النصوص الإسلاميّة عنوان: أخلاقيَّات الحرب، إنّما ذكر تحت عنوان: آداب الجهاد والقتال[2]، أمَّا في العصر الحديث، فيمكنُ حسبان نظرية الحرب العادلة من أهمِّ هذه النظريات التي تتناول موضوع الأخلاق والحرب، حيث تعتمدُ هذه النَّظريّة على أنَّ الحربَ في حدِّ ذاتها ليست سيئةً وغير أخلاقية دائماً، بل إنَّ الحربَ في حالات خاصة، وفي ظلِّ ظروفٍ مُناسبةٍ، هي حربٌ جيّدة وعادلة تمامًا ومُبررة أخلاقياً. وبالاعتماد على العدالة كهدفٍ أخلاقي، تحاولُ هذه النَّظريّة تبريرَ أخلاقية الحرب إذا تحقَّقت فيها العدالة. في هذه النَّظريّة تقترحُ عدالة المعركة في ثلاثة مستويات: العدالة في بداية المعركة، والعدالة في أثناء المعركة، والعدالة في نهاية الحرب وعقد السلام[3].

يتضمَّنُ المُستوى الأول، موضوعات مثل وجود هدفٍ عادلٍ في الحرب، والنّية الصّحيحة

1 - فيشر، د. 2015، ص16

2 الحرّ العامليّ، 2007، ج15، ص93

3 الشريف، ح. 2016، ص5

للحرب، والقاعـدة القانونيّة للحكومة، والإعلان العلنيّ للحـرب، واللجوء إلى الحرب كملاذٍ أخيرٍ، وإمكانية النجاح في الحرب. وفي المسـتوى الثاني، يتمُّ بحـثُ قضايا مثل اتّباع القوانين الدّوليّة، وعدم الاعتداء على المدنيين، وعدم استخدام الأسلحة غير التَّقليدية والقتل الجماعي والأسـاليب المُتطرفة، وحسـن التصرُّف مع أسرى الحرب وتجنُّب الانتقام وقتل الأسرى. وفي المستوى الثَّالث، موضوعات مثل كيفية إعلان السَّلام، والدِّفاع عن حقوق من أُصيبوا في الحرب، والتمييز في العقاب، ومعاقبة المُعتدي، والتّعويض عن الأضرار والإصلاحات وإعادة الاعمار.

ومع وجودِ اتفاقيَّات ومُعاهدات دولية، حول أخلاقيَّات الحرب والسّـلم، يُطرح سؤال حول نظرة الإسـلام لموضوع أخلاقيَّات الحرب، باعتبار الأخلاق جزءًا لا تتجزَّأ من تعاليم الإسـلام، فهل تطرَّقت التعاليمُ الإسلاميّة والمصادر الإسلاميّة لأخلاقيَّات الحرب؟ وهل هناك نقاطُ اشتراكٍ بين أخلاقيَّات الحرب في الإسلام ونظرية الحرب العادلة؟

المبحث الأول: احترام الإنسان وكرامته

يتميَّزُ الإنسانُ من بين الموجودات بشرفٍ وكرامةٍ ورسالةٍ خاصّة، وهو مسؤول عن تربية نفسه وتكميلها وإصلاح مجتمعه، وهذا يفيدُ أنَّ الإنسانَ ذاتاً هو ذو قيمة أهَّلتهُ ليكونَ ذا رسالة. وتتبلورُ هـذه القيميّة في خلافته لله على الأرض، وفي فطريته، وأصالة روحه، وغائيّة خلقته واصطفائه، وحرّيّته الشَّـخصيّة واسـتقلالها، وكرامته الذاتية وتفضيله، وأصالة ضمـيره الأخلاقي، وارتباط اسـتقراره وطمأنينته بذكر الله، وخلق الأشياء من أجله، وخلقه لأجل العبادة، ووضوح الحقائق بعد رحيله عن هذا العالم، وفي نزوعه إلى الحقيقة، وأصالة المعنويّات لديه وتساميها.

يقولُ اللهُ سـبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلا**﴾[1]. وهذه الآية الكريمة، تُؤكِّدُ على أنَّ هذه الكرامةَ في الأصل، تشملُ جميعَ البشر، من الأصناف والملل والأعراق والألوان كافة. وإن كان بعضهم له خصوصية أكثر من حيـث كرامة مُضافة من جهة الإيمان أو الفضيلة. وهذا التكريم، ناشئٌ من خصوصيةٍ تفرده بالعقل. فالعقلُ هو موضوع الكرامة الإنسانيّة، لأنَّهُ القادرُ على تمييز الحـقِّ والباطل، والخير والشّر، ومن دون هذا الاعتبار فإنَّ موازين الثَّواب والعقاب لا يمكن أن

1 - الإسراء:70

تستقيمَ. يقول السيّد الطباطبائي: «يظهر أنَّ المُرادَ بالآية، بيان حالٍ لعامة البشر مع الغضِّ عمَّا يختصبه بعضهم من الكرامة الخاصة الإلهية، والقرب والفضيلة الرّوحية المحضة، فالكلام يعمُّ المُشركين والكفار والفساق..»، ثم يُكمل «بالجملة، بنو آدم مكرمون بما خصَّهم الله به من بين سائر الموجودات الكونية، وهو الذي يمتازون به عن غيرهم، وهو العقل الذي يعرفون به الحقَّ من الباطل، والخير من الشرّ، والنّافع من الضارّ»[1].

تنطلقُ الرؤيةُ الأخلاقيةُ الإسلاميّة من التّأسيس على أنَّ للإنسان كرامةً ذاتيةً مُقرَّرةً من قبل الله تعالى، كأصلٍ معرفيٍّ حاكمٍ وأساسٍ على خريطة التربية الأخلاقيّة للفرد والمجتمع الإنساني. إنَّ التعاليمَ الإلهيةَ كافة، تهدفُ إلى صون الإنسان من الوقوع في شرك العبودية لغير الله تعالى، بل إنَّ حركةَ الوحي الإلهي، تهدف إلى ربط الإنسان بمبادئ خلقه الأولى، التي فطره الله عليها، وهي توحيده وعبادته لا شريك له.

لذلك، فإنَّ التربيةَ الحقيقيةَ للإنسان هي التي تحفظُ كرامته الوجودية من بوابة حفظ نور فطرته، وإزالة الحجب عنها، وهذا هو معنى الصون الحقيقي له، إضافة إلى أنواع الصون المادي والمعنوي، وحرمة مصادرة أو سلب أيِّ حقٍّ من حقوقه المشروعة، وعدم جواز الاعتداء والعدوان من قبل أيّة جهةٍ، أتى هذا الانتهاك للحقوق الإنسانيّة المُحترمة، لأنَّه يُؤدِّي إلى سلب أو انتقاص الكرامة الإنسانيّة.

ولم يكتفِ الإسلامُ بالوصايا والتَّعاليم الدينية التي تحثُّ على وجوب احترام الإنسان، وحفظ حقوقه، بل سنَّ مجموعةً كبيرةً من التَّشريعات لحماية حقوق الإنسان، ووجوب إعطائه كلّ الحقوق المشروعة، وحرمة التعدِّي أو التجاوز على أيِّ حقٍّ من تلك الحقوق.

يقول الإمامُ علي(ع) في عهده لمالك الأشتر: "الناسُ صنفان، إمَّا أخٌ لك في الدين، أو نظير لك في الخلق"[2]. وبالتالي، فإنَّ للإنسان حرمته بما هو إنسان، وبما أنَّ الإسلامَ أسَّسَ لموضوع الكرامة الإنسانيّة واحترامها، لذلك يحتاج موضوع الحرب والجهاد وقتل الآخرين إلى مُسوِّغات شرعية لها علاقة بالأهداف العليا للإسلام، كالحفاظ على بيضة الإسلام، وردع المُعتدين ومنع الذين يقفون في وجه هداية البشر، وتحقيق الأهداف التي أرادها الله من خلق الإنسان.

1 - الطباطبائي، م. 1997، ج 13، ص156-157

2 - نهج البلاغة، 1412 هـ، ج3، ص84

المبحث الثاني: الدفع والتدافع

يقولُ اللهُ تعالى : ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَـكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[1] ويقول في آية أخرى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللِه النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَـاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْـمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[2].

يقولُ العلاَّمةُ الطباطبائي: « من المعلوم أنَّ المُرادَ بفسـاد الأرض فسـاد من على الأرض، أي فسـاد الاجتماع الإنساني، ولو استتبع فساد الاجتماع فساداً في أديم الأرض، فإنَّما هو داخلٌ في الغرض بالتّبع لا بالذات، وهذه حقيقةٌ من الحقائق العلمية يُنبِّهُ لها القرآن»[3].

فاللهُ سـبحانه وتعالى رحيمٌ بالعباد، ولذلك، يمنع انتشارَ الفساد وسريانه بين أفراد المجتمع البشري قاطبة.

وصحيح أنَّ سـنّةَ الله تعالى في هذه الدنيا، تقوم على أصل الحريـة والإرادة والاختيار، وأنَّ الإنسـانَ حرٌّ في اختيار طريق الخير أو الشّر، ولكن عندما يتعرَّضُ العالمُ إلى الفسـاد والاندثار بسـبب طغيـان الطواغيت، فإنَّ اللـهَ تعالى يبعث من عباده المخلصين مـن يقف في وجه هذا الطغيان ويكسر شوكتهم، وهذا من ألطاف الله تعالى على عباده.

وقد بيَّنت الآيتان جانبًا من جوانب فلسفة تشريع الجهاد، حيثُ إنَّ اللهَ إن لو لم يدافع عن المؤمنين، ويدفع بعض الناس ببعضهم، عن طريق الإذن بالجهاد، لهدمت أديرة وصوامع ومعابد اليهود والنصارى والمسـاجد التي يُذكر فيها اسـم الله كثيراً. وكلّ دعوة لعبـادة الله وتوحيده مضـادة للجبابرة الذين يريدون أن يعبدهم الناس تشـبهًا منهـم بالله تعالى، لهذا يهدمون أماكن توحيـد الله وعبادته، وهذا من أهداف تشريع الجهاد والإذن بمقاتلة الأعداء[4].

إذاً، فمعنى الدَّفع والغلبة عام سـارٍ في جميع شؤون الاجتماع الإنساني، وحقيقته حمل الغير بأيِّ وجهٍ أمكن على ما يريده الإنسان، ودفعه عمّا يزاحمه ويمانعه عليه، وهذا معنى عام موجود في الحرب والسّـلم معًا، وفي الشـدَّة والرَّخاء، والرَّاحة والعناء جميعـاً، وبين جميع الافراد في

1 - البقرة: 251
2 - الحج:40
3 - الطباطبائي، م. 1997، ج2، ص255
4 - الشيرازي، 2005، ج10، ص258

جميع شعوب الاجتماع، فيشرع الإنسانُ في دفع الإنسان المزُاحم المُمانع عن حقِّه أو عن مُشتهاه ومعلوم أن هذا على مراتب ضعيفة وشديدة، والقتال والحرب إحدى مراتبه[1].

إذًا، يتضح أنَّ الكرامةَ الإنسانيّة والحرية من الأصول الإسلاميّة، إلَّا أنّها وبسبب منافاتها في بعض الأحيان للأهداف الإسلاميّة والإنسانيّة ولنشر تعاليم الإسلام والتَّوحيد، ولأنَّ الأطماعَ البشريــة قد تكون في مقابل هــذه الأهداف، منَّ اللهُ على المؤمنين بنعمــة الجهاد والقتال لكي يستمرَ تحقيقُ الهدف.

لذلك، لا يمكن تحديدُ الأصل في العلاقات الاجتماعية والدولية، هل هو السلم أم الحرب من وجهة نظر الإسلام، بل كلا المفهومين نابعان من مفهوم العدالة وتحقيق العدل ورفض الظّلم[2]، لذلك يكون الســلمُ والحربُ في خدمة العدالة وإقامة العدل بين الناس ورفع الظّلم عنهم. وإن كان الإســلامُ يُشــجِّعُ على الســلم وعدم الحرب، باعتبار أنَّ بناءَ المشروع الحضاري الإنساني يحتاجُ إلى فترة ســلم، لكي يتمَّ إنجازه وبناؤه، ولكنّ الإســلامَ يعدُّ أنَّ هذا المشروع الإنساني إذا تعرَّضَ للخطر، لا بدَّ للمسلمين من الجهاد لحماية مشروعهم وأصل وجودهم ونشر دعوتهم.

ومع هذا، اختلفت آراءُ الفقهاء وعلماء الإســلام في تحديد الأصل في علاقة المُســلمين مع الآخرين، هل هي الحرب أم السلم؟ أم بحسب المصالح والمفاسد؟ وهذا الاختلاف ناشئ من تبدُّل الظروف وتنوُّع الاجتهادات، وفهم تعاليم الإســلام، وفهم ما المقصود من الجهاد وأنواعه وشروطــه وأهدافه، لذلك، لا نجدهم يتَّفقون على رأي واحــدٍ، وإن كان الاتجاهُ المُعاصرُ يميلُ نحو أصالة السلم[3].

المبحث الثَّالث: مفهوم أخلاقيَّات الحرب

تُعرَّفُ أخلاقيَّات الحرب، بأنَّها مجموعةٌ من المبادئ والقيم الأخلاقية التي تُنظِّمُ سلوكَ الأفراد

1 - الطباطبائي، م. 1997، ج2، ص256

2 - يقول الإمامُ الخامنائي:" السّلم أمرٌ جيّدٌ، شرط أن يصبَّ في اتجاه العدالة. وأنا قد وجدتُ معادلة، متى ما تحدّثوا عن السّلم كنتُ أقول لهم العدل، وكانوا يسكتون ولا يبقى لديهم أيّ جواب. لذلك كنّا نقول: «أيّهما أفضل، السّلم أم العدل؟» يمكن التخلّي عن أنواع السّلم لأجل العدل. لكن العدلَ لا يُوازيه أيّ شيء آخر." https:// arabic.khamenei.ir/news/1852

3 - أبو زهرة، س. 2019، ص2503

والأطراف المشاركة في الصراعات المُسلحة، وتُحدد الوسائل والغايات والمُبررات لاستخدام العنف والحرب؛ والتي تُشتقُّ عادةً من المعايير القانونية والإنسانيّة ومن بعض الشرائع الدينية وفلسفة الأخلاق والمُعاهدات الدولية. لذلك ستختلف أخلاقيَّات الحرب بحسب منطلقاتها الفلسفيّة والاجتماعيّة، وتهدفُ هذه الأخلاقيَّات إلى تقييد استخدام القوة والعنف في الحروب من أجل الحفاظ على الإنسانيّة والحدِّ من المُعاناة البشريّة[1].

تعتمدُ أخلاقيَّات الحرب على مجموعةٍ من الاتفاقيّات والقوانين الدولية، ومن أهمها:

- التمييز بين المدنيين والعسكريين: يجب تجنُّب استهداف المدنيين والأهداف المدنية بشكل مباشر.
- منع التعذيب والمعاملة السيئة: يجب معاملة الأشخاصالأسرى والمُحتجزين بإنسانية واحترام، ويمُنع استخدام التعذيب أو المعاملة القاسية أو اللاإنسانية.
- حماية المدنيين في النزاعات: يجب حماية المدنيين والأشخاص غير القتاليين من الأذى والضرر.
- منع استخدام الأسلحة الكيميائية والبيولوجية والذخائر غير المنفجرة: يمنع استخدام الأسلحة الكيميائية والبيولوجية بموجب اتفاقيات دولية، ويجب تجنب ترك ذخائر غير منفجرة لتشكل تهديدًا للمدنيين بعد انتهاء النزاع.
- احترامُ حقوق الأسرى والمُحتجزين: يجب معاملة الأسرى والمُحتجزين وفقًا للقوانين الدولية ومعايير حقوق الإنسان، ويجب السماح للجهات الدولية المعنية بزيارة الأسرى والتحقُّق من ظروف احتجازهم.
- احترامُ الحُرمة الثقافية والدينية: يجب احترام الممتلكات الثقافية والدينية وعدم استهدافها عمدًا[2].

ومن المفترض أن تلتزمَ الدولُ باتباع هذه المبادئ من خلال القوانين الدوليّة والاتفاقيّات، مثل القوانين الإنسانيّة الدوليّة واتفاقيات جنيف[3] وبروتوكولاتها الإضافيّة. ويهدف ذلك إلى الحفاظ

1 - أبو زهرة، س. 2019، ص2505

2 - أبو زهرة، س. 2019، ص2507

3 - اتفاقية جنيف بشأن حماية الأشخاص المدنيين في وقت الحرب، واتفاقية تحسين حال الجرحى والمُصابين في الميدان العسكري البري والبحري، واتفاقية معاملة أسرى الحرب وظروفهم.

على الإنسانيّة في أثناء النّزاعات المُسلّحة والتّقليل من مُعاناة الأفراد المُتأثّرين.

وهذه الأخلاقيَّات، يمكن أن نجدَ كثيراً منها في المنظومة الإسلاميّة، حيث تتضمنُ توجيهات وأخلاقيَّات تُنظِّمُ السلوكَ الإنسانيَّ في مختلف جوانب الحياة، بما في ذلك الحروب والنزاعات. وذُكرت في النّصــوص القرآنيّة الكريمة والرّوايات الشّريفة وكلــمات الفقهاء مجموعة من هذه الأخلاقيَّات تفوق ما طرحه المُنظِّرون المُعاصرون والاتفاقات الدولية المُعاصرة حول أخلاقيَّات الحرب، إذ أنَّ الإســلامَ كان سبَّاقًا في تنظيم القتال وفقه الجهاد وتحديد الموقف الشّرعي حتى من التّفاصيل الدّقيقة التي تواجه المكلف والمجاهد.

المبحث الرابع: مبادئ الحرب من الناحية الأخلاقية (الحرب العادلة أنموذجًا)

يتكونُ مفهومُ الحرب العادلة من عنصرين أساسين هما: الحرب والعدالة، فالحربُ عبارةٌ عن فعل عدواني تمارســه دولة ضد دولة أخرى، ســواء كان الدافع وراء ذلك شرعيًا أم غير شرعي، والعدالة بمعنــى التقيّد بمجمل الأخلاق والقوانين والشرائع التــي تُنظّم الحروب، إذاً فالحرب العادلة تعني البحث عن مجموعةٍ من الأســباب العادلة والمشروعة لإعلان حربٍ ما، لمواجهة الخصوم دفاعًا عن قضية عادلة، ومن أجل هدفٍ مشروعٍ يتمثل في صد عدوان أو مواجهة الظّلم والإرهاب والتطرُّف... وبشكل عام يتحدد مفهوم الحربِ العادلة انطلاقًا من الأسباب والموضوع والوسائل والأهداف والأطراف وطبيعة الحرب[1].

وتطرحُ نظريةُ الحرب العادلة مجموعــةً من المبادئ التي يجب أن تتوافر لكي تكونَ الحربُ مُبررةً أخلاقيًا[2]:

أ - مبادئ قبل بدء الحرب:

1 - السببُ العادلُ: وهو بحسب هذه النَّظريّة مقاومة العدوان، وكل انتهاك لسيادة الدولة ووحدة أراضيها، لذلك يعدُّ وولزر (Walzer) أنَّ العدوانَ سببٌ أخلاقيٌّ كافٍ لتبرير المقاومة والحرب.

كما يعدُّ وولزر أنَّهُ في بعض الحالات قد يكون الهجوم مُبرراً أخلاقياً، وذلك في حالة الهجوم

1 الحمداوي، ج. 2016، ص88

2 الشريف، ح. 2016، ص6

الاستباقي، لدفع العدوان المُحتمل أو الحصار السياسي والاقتصادي. وهذا المبدأ نجدهُ في كلمات الفقهاء تحت عنوان: الجهادُ الدفاعي الذي هدفه صدّ العدوان ومنع العدو من احتلال الأرض، وفكّ الحصار الاقتصاديّ والاجتماعيّ عن الدولة الإسلاميّة.

أمَّا موضوع الجهاد الهجوميّ وإن اختلفَ الفقهاءُ في تحديد الجواز من عدمه، فهو مَبنيٌّ على مُنطلقات لها علاقة بإزالة العقبات من وجه المُسلمين في هداية المُستضعفين، الذين يمنعهم المستكبرون من الهداية وحرية الاختيار.

2 - النيةُ الحسنة: تتضحُ أهميةُ النية الحسنة في أنَّ الحربَ ستكون من أجل تحقيق السّلام العادل، وبذلك يمكن ضمان عدالة إدارة الحرب، وعدالة ما بعد الحرب في الوقت ذاته. ولذلك، فإنَّ هذا المبدأ يحول دون استخدام أساليب الغدر والاغتيال والتَّعذيب والأعمال التخريبيَّة التي تمنعُ من تحقيق سلامٍ عادلٍ بعد انتهاء الحرب. وهذا المبدأ نجد أصولَهُ في الإسلام في رفض الظّلم والعدوان، والإسراف في القتل وغيرها من العناوين التي ذُكرت في النصوص القرآنية والروايات وكلمات الفقهاء.

3 - احتمالُ النجاح: مع أنّه لا يمكن التنبؤ بنجاح الحرب وتحقيق الأهداف من خلالها، إلَّا أنَّهُ وضِعَ كمبدأ لتبرير الحرب. أمَّا في التعاليم الإسلاميّة فقد يكون هذا الشرط مفقودًا في كثيرٍ من الأحيان، حيث يرتبطُ المُكلف بأداء التكليف بغض الطرف عن النتائج خاصة في الحرب الدفاعية وتحريم الفرار من الزحف والقتال، ويمكن أن نجدَ هذا المبدأَ في الجهاد الهجومي الذي يبتني على فرضية أنَّ إزالةَ خطر المُستكبرين يمكن أن يسمحَ للمُستضعفين من دخول الإسلام، وهذا ما عبرَّ عنه القرآن الكريم بالفتح، حيثُ إنَّهُ بعد فتح مكة وانكسار المشركين، أسلمت أغلبُ القبائل العربية وبايعت النبي الكريم، وهذا الأمرُ لم يكن ليَحصُلَ لولا هزيمة الكفار والمشركين وانكسار شوكتهم.

4 - مبدأ التناسب: ويرتبطُ مبدأ التَّناسب بمبدأ احتمالات النَّجاح، فإذا كانت احتماليةُ النَّجاح من كسب الحرب، عندما تبدأ الدولة في إشعالها، كبيرة أو على الأقل معقولة، فإنَّ هذه الاحتماليَّة ينبغي أن تخضعَ لمبدأ التَّناسب. ومبدأ التَّناسب ينصّ على أنَّ الدولةَ التي تشنُّ حربًا عادلةً ينبغي أن تُوازنَ المنافع الكلية المُتوقعة من خلال هذه الحرب، مقابل الخسائر التي ستجنيها بسببها.

5 - مبدأ الملاذ الأخير: وهو أنَّ على الدول ألّا تتسرعَ في شنِّ الحروب، وأن تستنفذ كل السّبل المعقولة والممكنة، وأن تلجأ إلى المفاوضات الدبلوماسيَّة قبل اللجوء إلى الحرب. وهو ما

يتوافق مـع البند الرَّابع من المادَّة الثَّانية من ميثاق الأمم المتَّحـدة الذي ينصُّ على عدم اللجوء إلى العنف والقوّة واتّباع الحوار والمفاوضات والطّرق السّلمية.

يعتقد وولزر أنّه يجبُ الالتزامُ بهـذه المبادئ لتحقيق الحرب العادلة، إلاَّ إذا اضطرت الدولة لتنفيـذ حربٍ وقائيةٍ بسـبب النية العدوانيـة للدول المُعاديـة، أو قد تضطر الدولةُ لشـنِّ حربٍ لدواعٍ إنسـانيةٍ كحماية المدنيين في دولة ما من التطهير العرقي أو القتل المُتعمد من قبل الدولة المُعتدية[1].

ب - مبادئ عدالة إدارة الحرب:

1 - مبدأُ التمييز وحصانة غير المقاتلين:

يجبُ هنـا التّمييزُ بين الأهـداف المشروعة وغـير المشروعة أثناء الحـرب، وبين المدنيين والعسـكريين، فالهدفُ المشروعُ في الحرب، هو أيُّ فردٍ أو آلة تُسبِّبُ الأذى والقتل، كما يجب مُراعاة مُستوى القوة في الحرب وحجم التَّهديد والضَّرر وعدم تجاوز الحدِّ.

2 - مبدأُ التناسب وعدم استخدام الوسائل الشريرة:

وينص هذا المبدأ، على اسـتخدام قوةٍ تناسبيةٍ مع العدو لردعه أو لقتله وعدم تجاوز الحدود واسـتخدام الأسلحة المُحرَّمة دوليًا، كالأسـلحة النووية والكيماوية، ويجب احترام الاتفاقيات الدولية الناصَّة على تحريم استخدام هكذا أسلحة كاتفاقيات لاهاي وجنيف.

ج- مبادئ العدالة بعد انتهاء الحرب:

يُؤكِّـدُ الكثيرُ مـن المُفكِّرين، ومنهم وولزر، على أنَّ هذا المبحثَ لم يسـتوفِ حقه في نظرية الحرب العادلة، ولكن بسـبب تطـورات الحروب بين الدول وخاصة بعـد الحرب على العراق وأفغانسـتان، وفي بداية هذا القرن تمّ التطرُّق إليه بشكل تفصيلي، وتعتمدُ مرحلةُ ما بعد الحرب على مبادئ أهمها:

1 - التعويضُ وحقُّ تقرير المصير: بسـبب الآثار التدميرية للحرب على الأفراد والمُمتلكات، لذلـك يجب على المُعتدي أن يدفعَ بعضَ التعويضات لضحايـا العدوان، كما ينبغي اتباع مبدأ التمييز بين قادة العدوان والمُخربـين وبين المدنيين والمظلومين والأبرياء. كما يجب أن يكونَ

1 - الشريف، ح. 2016، ص8-9

الهـدفُ الأولُ بعد وقف الحرب، هو إعادة النظام والاسـتقرار إلى البلد المهزوم وترك الشـعب لتقرير مصيره وفق مبادئ الديموقراطية.

2 - نزعُ السّـلاح وإعادة الإصلاح: يجب نزع سلاح المُعتدي، والذي يمكن أن يُشكِّلَ عدوانًا جديدًا في المسـتقبل ويمكنـه أن يُهددَ السـلمَ في المجتمع الدولي. ومن بعـد ذلك يتم إعادة الإصلاح السياسي والاقتصادي والاجتماعي عبر تكريس استعادة الحقوق للشعب المهزوم.

3 - محاكمُ جرائم الحرب وتحديد المسـؤوليات: حيث يجب مُحاكمة المسـؤولين عن شنِّ الحروب والاعتداءات، وتحديد ما عليهم من مسؤوليات، وتنحية المُعتدين عن الحكم لتحقيق السلام[1].

بالرغـم من طـرح نظرية الحرب العادلـة من قبل كثيرٍ مـن الباحثين الغربيـين، إلاَّ أنَّهُ وعند التطبيق لهذه النَّظريّة، نجدُ منطلقاتهم الفلسفيّة العلمانية والنفعية ونسبية الأخلاق هي الحاكمة في تصنيـف الحروب العادلـة، فوولزر مثلاً كانت أفكاره مُبررة للعنـف، رغم رفضه له ظاهريًا، نجـدُهُ يُبرِّرُ الحروبَ الأمريكيـة والإسرائيلية بأنَّها حروبٌ عادلةٌ، كما بـرّر الانتقام من الأبرياء، من أجل هدف أسمى، حتى لو أدّت إلى كسر قواعد الحرب العادلة وأخلاقيَّات الحرب، لذلك لا نجـدُ هناك قواعدَ ثابتةً عند أغلـب المنظرين للحرب العادلة في التطبيـق والانحياز لدولهم وانتماءاتهم[2].

المبحث الخامس: الدين الإسلامي والحرب العادلة

الإسلام يدعو إلى الحرب العادلة[3]، بالاصطلاح الحديث للكلمة، ولكن وفق أسس الشريعة الإسـلاميّة، والفضيلة الربانيّة، ورؤية كونيّة مختلفة عمَّا أسَّسـه العلمانيـون والماديون لرؤيتهم للحرب العادلة. فالإسـلام يُشرِّع الحرب العادلة ضرورةً واستثناءً وفق مُقاربة أخلاقيّة وأخرويّة، على الرغم من كونه دين السـلم والسلام، ويُفضِّل الخيارات غير الحربية، فعن النبي (ص): "لا تتمنّوا لقاء العدو، واسـألوا الله العافية، فإنكم لا تدرون ما تبتلون منهم، فإذا لقيتموهم فقولوا:

1 - الشريف، ح. 2016، ص10
2 - الشريف،ح. 2016، ص26
3 - كلسي،ج. 2009، ص35

اللهم ربّنا وربهم، ونواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تفشلهم أنت، ثم الزموا الأرض جلوسًا، فإذا غشوكم فانهضوا وكبِّروا"[1]. ومن هنا، تستند الحرب العادلة في الإسلام إلى مجموعة من القواعد والضوابط الأخلاقيّة التي يمكن تبيينها فيما سيأتي:

- **الحرب في سبيل الله:** تكون الحرب في الإسلام وفق عناية ربانية، ومشيئة إلهية، وتكون في سبيل الله، وليس من أجل تحقيق أغراض دنيوية زائلة. وفي هذا، يقول الله جَلَّ شأنه: ﴿**وَقَاتِلُوا سَبِيلِ اللهِ الّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ**﴾[2]. ويعني هذا أنّ القتال يكون في سبيل الله، لإعلاء كلمة التَّوحيد، وردّ الظّلم، وصدّ العدوان.

ويُعدُّ المُجاهد المقتول في الحرب الإسلاميّة العادلة شهيدًا مباركًا، ينال عند الله جزاءً أخرويًّا كبيراً.

- **القضية الشّرعيّة العادلة:** تكون الحرب في الإسلام دفاعًا عن النَّفس، أو درءاً لعدوان، أو إصلاحًا لفساد، أو مواجهة لظلم فظيع وفي هذا، يقول الله تعالى: ﴿**أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ**﴾[3].

وقد ربط الله القتال - هنا- برد الظّلم ودفعه، عندما أخرج الكفار المسلمين من ديارهم بغير وجه حقٍّ، سوى أن قالوا كلمة التَّوحيد التي آمنوا بها، واقتنعوا بفحواها يقينًا وصدقًا وحقيقة. وبسبب ذلك، يعدهم الله بالنصر القريب، لذلك، كان الهدف الأسمى من الحرب، هو إعلاء كلمة الله العليا، والقضاء على جبابرة الأرض الذين يستعبدون شعوبهم الضعيفة والآمنة، والدفاع عن النَّفس، ورد الظّلم، وصد العدوان. فالهدف يتمثل في نشر كلمة التَّوحيد بين الناس كافة، بالسُّبل الأخلاقية الرفيعة من أجل الدّخول في الإسلام لدرء الفتن، وهدايتهم إلى سبيل الرشاد. وهذا كله من أجل حكمة ربّانية تتمثَّل في إخراجهم من الضَّلالة إلى النور والهداية[4].

- **الالتزامُ التَّامُّ بأخلاقيَّات الحرب:** يرفض الإسلامُ، بشكل مُطلق، في حربه العادلة، قتل المدنيين والنساء والأطفال والشيوخ والعجزة، وحرق الزرع، و قلع الأشجار، و تسميم المياه،

1 - الريشهري، م. 1996، ج 3، ص2023
2 - البقرة:190
3 - الحج: -39 40
4 - الحمداوي،ج. 2016، ص95

وقتل المتعبِّدين من اليهود والنَّصارى، وقتل العاملين من الفلَّاحين والصنَّاع، ولا يكون القتال جائزاً إلَّا في حالة الدِّفاع عن النَّفس.

■ رفضُ الخيانة والغدر والوفاء بالعهد: كما يرفض الإسلام الخيانة، والخداعَ والمكر ونقض العهود والمواثيق في الحروب. ففي سياق تعداده لخصال المؤمنين، أشار القرآن المجيد إلى صفة الوفاء بالعهد والميثاق، حيث قال تعالى: ﴿**بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُواْ..**﴾[1].

وقال: ﴿**وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ اللّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلاَ تَنقُضُواْ الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ**﴾[2]، صحيحٌ أنَّ الوفاءَ بالعهد من الممكن أن يجرَّ على المسلمين ضرراً مرحلياً، ولكنّ رعايةَ العهد والميثاق أكثرُ أهمّيّةً من النَّفع أو الضَّرر المرحليَّين. وطبعاً، لو علم المسلمون على ضوء القرائن الموجودة أنّ العدوَ ينوي أنْ ينقضَ عهده ويشنَّ هجومه عليهم، فيمكنهم أن ينقضوا العهد من جهتهم، غير أنّه من اللازم قبل ذلك أن يُعلِمُوا العدوَّ عن عزمهم، ولا يحقُّ لهم أن يبادروا إلى الهجوم عليه قبل إعلامه، لأنَّ مثلَ هذا الهجوم يُعدُّ خيانةً، والله لا يحب الخائنين[3].

■ **عدمُ الإفراط في استخدام العنف:** كما ينهى عن المُغالاة في استخدام العنف، أو التشديد في مبادئ الإسلام. ويدعو كذلك إلى حماية المدنيين الأبرياء العُزَّل، والحفاظ على البيئة، والحث على التسامح الديني، والجنوح نحو السلم والعفو والصفح، وعدم إكراه اليهود والنصارى على الدخول في الإسلام بقوة السيف. وعلى هذا قامت فتاوى الفقهاء بشتّى مذاهبهم[4].

- السلمُ قبل الحرب: يُعطي الإسلامُ الأولوية دائمًا للتفاوض والحوار والإقناع والاقتناع والسلم والسلام، قبل خوض الحرب وإعلانها في حالة الضرورة القصوى. وفي هذا، يقول الله عز وجل:﴿**وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾[5].

ويعني هذا أنَّ الأولوية تُعطى دائمًا للسلام قبل بدء الحرب التي يخوضها المسلمون ضرورة وإكراهًا واستثناءً، من أجل الدفاع عن النَّفس، أو ردِّ الظّلم، أو صدّ العدوان، أو الدعوة إلى توحيد

1 - البقرة:177
2 - النحل:91
3 - الطباطبائي، م. 1997 ج9، ص113
4 - الحمداوي،ج. 2016، ص98
5 - الأنفال:61

الله درءًا لكل فتنة هوجاء مُميتة ومُهلكة، فالإسلام دين المعاملة الحسنة كما في قوله تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[1]، كما أنّه دين العفو والتصافح والتسامح والتفاهم، كما في الآية: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ﴾[2].

المبحث السادس: أخلاقيّات الحرب في الاسلام

ترتبطُ مشروعيةُ الحرب وشنّها في الإسلام بالكرامة الإنسانيّة، لذلك أرسى الشّرع الإسلاميُّ مجموعةً من الضوابط التي يُعدُّ السباقُ فيها حول كيفية الحدِّ من بأس الحرب وشدتها، وما تحدثه من أضرار ودمار وذلك من أجل تهذيب السلوك الإنساني في أثناء الحرب، وتفادي أكبر قدرٍ من الخسائر خاصة في الأرواح، وكذلك المادية وآثار الحرب النّفسية على المستوى البعيد. فقد شَرَّعَ الإسلامُ مجموعةً من الضوابط والأحكام من أجل حربٍ نظيفةٍ تعكس روح الإسلام السمحة، فلقد نهت الشريعة الإسلاميّة عن قتل الرسل أو ما يُسمَّى اليوم بالوسطاء والسفراء وأصحاب المساعي الحميدة، وقتل الأسرى والجرحى، ونهت أيضاً عن التعذيب بمختلف أشكاله ومنعت التمثيل بجثث الأعداء أو الافتخار بهم[3]. لذلك، من أساسيات الجهاد في الإسلام مُراعاة الضوابط الشّرعيّة وعدم تجاوز الحدود، قال تعالى ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾[4].

كما أنَّ هناك مجموعةً من الأخلاقيّات سنَّتها الشريعةُ الإسلاميّة، موجودة في المجاميع الحديثية مروية عن الرسول الكريم وأهل بيته، نذكرُ روايةً منها:

عن أبي عبد الله (ع) قال: إنَّ النبيَّ (ص) كان إذا أراد أن يبعثَ أميراً على سرية أمره بتقوى الله عز وجل في خاصة نفسه، ثمَّ في أصحابه عامة، ثم يقول: اغزوا بسم الله وفي سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله ولا تغدروا، ولا تغلوا ولا تمُثلوا ولا تقتلوا وليدًا، ولا مُتبتِّلاً في شاهقٍ، ولا تحرقوا النخلَ، ولا تُغرقوه بالماء، ولا تقطعوا شجرةً مُثمرةً، ولا تحرقوا زرعًا، لأنكم لا تدرون لعلكم تحتاجون

1 - فصلت:34
2 - المائدة:13
3 - العبار، س. 2018، ص26
4 - البقرة:190

إليه، ولا تعقروا من البهائم ما يُؤكل لحمه، إلَّا ما لا بدّ لكم من أكله، وإذا لقيتم عدوًا من المُشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث، فإن هم أجابوكم إليها فاقبل منهم وكفَّ عنهم، ادعوهم إلى الإسلام وكفَّ عنهم، وادعوهم إلى الهجرة بعد الإسلام، فإن فعلوا فاقبل منهم وكفَّ عنهم، وإن أبوا أن يهاجروا واختاروا ديارهم وأبوا أن يدخلوا في دار الهجرة، كانوا بمنزلة أعراب المؤمنين يُجري عليهم ما يجري على أعراب المؤمنين، ولا تجري لهم في الفيئ من القسمة شيئًا، إلَّا أن يجاهدوا في سبيل الله، فإن أبوا هاتين فادعوهم إلى إعطاء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون، فإن أعطوا الجزية، فاقبل منهم وكُفَّ عنهم، وإن أبوا فاستعن بالله عليهم وجاهدهم في الله حق جهاده، فإذا حاصرت أهلَ حصنٍ فأرادوك أن ينزلوا على حكم الله فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على حُكمي ثم اقضِ فيهم بعد بما شئتم، فإنكم إن أنزلتموه لم تدروا هل تصيبون حكم الله فيهم أم لا، فإذا حاصرتم أهلَ حصن فأرادوك على أن تنزلهم على ذمة الله وذمة رسوله فلا تنزلهم، ولكن أنزلهم على ذممكم وذمم آبائكم وإخوانكم، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم آبائكم وإخوانكم، كان أيسرَ عليكم يوم القيامة، من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسول الله (ص)[1].

وهناك عشراتُ الأحاديث غيرها تروي خطبَ النبي الكريم بأصحابه ووصاياه لجيشه وسراياه، والتي تضمَّنت وصايا نستخلصمنها:

1 - اطلاعُ العدو بالحرب وعدم الغدر والخيانة: وجب على المُسلمين إعلام الخصم بالحرب قبل شنها وإنذارهم، فلا يُؤخذُ الناسُ بحرب لا يعلمون غرض المسلمين منها، فقد روي عنه ص: «من كان بينه وبين قوم عهد فلا يحلن عهداً، ولا يشدّنهم حتّى يمضي أمده أو ينبذ إليهم على سواء»[2]. ومن الغدر إلقاء السُّمِّ في بلاد المشركين في الماء والغذاء، لذلك نهى الإسلامُ عن هذه الأفعال، فعن أبي عبد الله ع قال: "قال أميرُ المؤمنين ع: نهى رسول الله ص أن يُلقى السمّ في بلاد المشركين»[3].

2 - النهيُّ عن هتك الأعراض: يُعدُّ هتكُ الأعراض جريمةً شنعاء حرَّمها الشّرع الإسلامي، فإذا دخل المسلمون حرباً ضد الأعداء أيّاً منهم كانوا، فلا يجوزُ لهم القيام بهتك أعراض الآخرين

1 - الطوسي، 2005، ج6، ص136
2 - الترمذي، م. 1995، ح1580
3 - الريشهري، م. 1996، ج1، ص566

خاصة النساء، وعلى الجندي ألّا يأتي بهذا الفعل مهما كان.

3 - منـعُ التخريب: حيث لا يوجد تخريبٌ عشـوائيٌّ للممتلـكات والمزروعات والطرقات والبيوت، فليس المقاتلُ في الإسلام مقاتلاً همجياً فوضوياً، بل من المفترض أن يلتزم بالضوابط الشّرعيّة لأنَّ الأهدافَ التي قامت من أجلها الشريعة أعلى وأهم من الأهداف البسيطة والدنيوية، أو النابعة من الأهواء الشَّخصيّة.

4 - المعاملةُ بالمثل مع التقوى: إنَّ الباعثَ في الإسـلام على القتال هو ردعُ الاعتداء المُسلح بمثلـه ولحماية الحريـات الدينية، لذلك، فإنَّ تحركات المُقاتلين في الإسـلام أو الجند مرهونة ومُقيدة بما يسلكه العدو في مُحاربته، فهو يعامله بالمثل، فإن استرق الأسرى وسجنهم، استرق مثلهم وسـجنهم، وإذا اسـتعمل سلاحاً في الميدان اسـتعمل مثله، وهكذا كل ما يسلكه العدو من وسـائل الاعتداء يسلكه المسلمون، وإذا كان الأعداءُ مثلاً يقتلون الكبارَ والصغارَ ويهتكون أعـراضَ النسـاء، ويُعذِّبـون الأسرى بالجوع والعطش وغـير ذلك، فإنَّهُ لا يُباحُ للمسـلمين أن يقوموا بمثله[1]. يقول تعالى: ﴿**وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ**﴾[2].

ومع أنّه قد عُدَّت المُقابلة بالمثل جائزة في هذه الآية، إلَّا أنَّ المُسلمين قد دُعوا من جديدٍ في آخر الآية إلى التحمُّل والإغضاء.

وفي آيةٍ أخرى يُفهمنا القرآن الكريم أنَّ المُقابلةَ بالمثل هي أمرٌ جائزٌ في نفسه، وأنَّ عدم رعاية حدوده لا يتلاءمُ مع أصل التقوى: ﴿**الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصفَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ**﴾[3].

5 - حمايةُ رعايا الأعداء وأموالهم: إنَّ الحروبَ الإسـلاميّة ليست حروباً ضد الشعوب، وإنما هي حروب ضد فئة مُعينة مسيطرة اتّخذت من القوى المسلحة أداة للاعتداء على الحق، ولذلك فـإنَّ الحربَ هي حربُ ميدان محدودة لا تشـمل الرعايا، فلا تقوم الدولـة أو الجيش بما تفعل بعض الجيوش الأخرى من اعتقال وتعسُّف في حقِّ الرعايا ومنعهم من أرضهم وممارسة حياتهم

1 - العبار، س. 2018، ص28

2 - النحل:126

3 - البقرة: 194

العادية ومصادرة أموالهم وممتلكاتهم، فالإسلامُ لا يرضى بذلك وبمن يصنعها، بل يقرر ضوابط لتنظيم العلاقة من أجل زرع الطمأنينة والأمن لديهم[1].

6 - احـترام العقد في حالة نهاية الحرب مع العدو: عادة ما تنتهي الحرب وفق معاهدة أو عقد بين الطرفين المسلم والعدو، حيث يتفقان فيها على ضرورة إنهاء القتال بينهما، وذلك لأنَّ القصدَ أو الهدف من القتال قد تمَّ تحقيقه، وهنا يجب على المسـلمين وقـف الاقتتال واحترام العهد، لقوله تعالى: ﴿**ووأوفوا بالعهد إنَّ العهدَ كان مسئولاً**﴾، ويشترط في العهد أو المعاهدة توافر شرط العدالة، لكي لا تكون هناك سلطة للغالب على المغلوب من خلال فرض غرامات حربية تُرهق الشعوب، وتضيق في القوت وفق شروط مُذلة[2].

7 - التذكيرُ بتقوى اللَّه سبحانه: من السُّنَّة الشريفة أن يقومَ وليُّ الأمر أو مَنْ يقوم مقامه بتذكير المجاهدين بتقوى اللَّه سبحانه في سائر حلِّهم وترحالهم، وأهدافِ الجهاد أيضاً.

فالجهادُ فيه خطرٌ وجرحٌ وقتلٌ وتعرُّضٌ لأموال النَّاس وأعراضهم وحرماتهم وأرواحهم وأَمْنهم وخصوصياتهم، فلا بُدَّ من التنبيه إلى التصرُّفات الطائشـة لا سـمح اللَّه الناتجة عن الانفعال أو التسرُّع... لذلك كان النَّبيُّ (ص) إذا بعثَ أميراً له على سريَّة أمره بتقوى اللَّه عزَّ وجلَّ في خاصة نفسه، ثم في أصحابه عامة[3].

من هنا، لا بدّ من اختيار صفات المسؤولين العسكريين بدقةٍ وعنايةٍ لتحقيق الأهداف الجهادية والأخلاقية، بأن تُلحظ فيهم صفاتُ أخلاقية وجهادية منها:

الإخلاص، والطاعة، والتديُّن، والذين لا يغضبون لأنفسهم، ويتواضعون في سائر حالاتهم، لكيلا يسـتغلُّوا مواقعهم العسـكرية لمآرب شـخصية، وأن يكونوا مرهفي الحـس تجاه الفقراء والمسـتضعفين. قال أميرُ المؤمنين(ع) في كتابه لمالك الأشتر: « فولِّ من جنودك، أنصحهم في نفسك للَّه ولرسوله ولإمامك، وأنقاهم جيباً، وأفضلَهم حلماً، مِمَّنْ يُبْطىء عن الغضب، ويستريح إلى العذر، ويرأف بالضعفاء، وينبو على الأقوياء، ومِمَّنْ لا يُثيره العنف، ولا يقعد به الضَّعف»[4].

---

1 - الحمداوي، ج. 2016، ص98
2 - العبار، س. 2018، ص30
3 - الطوسي،م. 2005، ج6، ص136
4 - نهج البلاغة، 1412 هـ، ج 3، ص85

8 - عدمُ المُثْلَة بالقتلى أو هَتْكِ أستارهم: فليس من أخلاقنا، ما يفعله الأعداء من المُثْلة بالجثث وتشـويهها وتقطيعها، يقول أمير المؤمنين (ع): «ولا تُمثِّلـوا بقتيل، وإذا وصلتم إلى رحال قوم، فلا تهتكوا ستراً، ولا تدخلوا داراً، ولا تأخذوا شيئاً من أموالهم، إلَّا ما وجدتم في عسكرهم»[1].

٩ - عدم التعرُّض للشيوخ والأطفال والنساء: فقد ورد أنه كان رسول الله (ص)، إذا أراد أن يبعثَ بسريّة دعاهم فأجلسهم بين يديه ثم يقول سيروا باسم الله وبالله وفي سبيل الله وعلى ملّة رسول الله (ص): لا تغلوا، ولا تمثّلوا، ولا تغدروا، ولا تقتلوا شيخاً فانياً ولا صبيّاً ولا امرأة، ولا تقطعوا شجراً إلَّا أن تضطرّوا إليها»[٢].

وعلى المجاهدين تحمُّل الأذية من قبل المدنيين ما أمكن خاصة النسـاء فقد رُوي عن مولانا أمير المؤمنين (ع): «ولا تُهيِّجوا امرأةً بأذى، وإنْ شَتَمْنَ أعراضكم، وسبَبْنَ أمراءكم وصلحاءكم، فإنَّهنَّ ناقصاتُ القوى والأنفس والعقـول، وقد كُنَّا نُؤمر بالكف عنهنَّ وهُنَّ مُشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة، فيُعيرَّ بها وعقبُه من بعده»[3].

10 - تجنُّـبُ الحربِ وعدم البدء بالقتال: تأتي هذه السياسـة تأكيداً على جنوح الإسـلام إلى السلم ومُناهضة النزعة الحربيّة. ففي جميع الحروب الَّتي اندلعت على عهد الإمام أمير المؤمنين مثلاً، كان ع ينهى جيشـه عن مبادأة القوم بالقتال، ويوصيه بعدم مباشرة القتال، حَتّى يبدأ العدوّ بذلـك. فعن جندب الأزدي أنّه قال: إنَّ عليًّا كان يأمرنا في كُلِّ موطن لقينا فيه معه عدوّاً، فيقول : "لا تُقاتلُـوا القَـومَ حَتّى يَبدَؤوكُم، فَأَنتُم بِحَمـدِ اللّهِ عَزَّوجَلَّ عَلى حُجَّـةٍ، وتَركُكُم إيّاهُم حَتّى يَبدَؤوكُم حُجَّةٌ أُخرى لَكُم"[4]. وهذا أيضًا من وصايا الرسول للإمام علي(ع) منها ما رواه الكليني عن السكوني عن أبي عبد الله (ع) قال: قال أميرُ المؤمنين (ع): بعثني رسول الله (ص) إلى اليمن فقـال: يا علي لا تقاتلنّ أحداً حتى تدعوه إلى الإسـلام، وأيم اللـه لإن يهدي الله عزَّ وجل على يديك رجلاً خيرٌ لك ممَّا طلعت عليه الشمس وغربت، ولك ولاؤه يا علي[5].

لقد بلغَ من عناية الإسـلام بالتوعية وإنارة البصائر، والحرص على عدم سـفك الدماء، أنَّهُ لم

1 - المجلسي، م. 2000، ج 32، ص563
2 - الطوسي، م. 2005، ج6، ص136
3 - الحر العاملي، 2007، ج 15، ص95
4 - الريشهري، م. 1996، ج1، ص765
5 - الكليني، م. 1407 هـ، ج5، ص36

يكــن يُضيع أيّة فرصة تســنح لهداية العدوّ، بل كان يمارس الهداية حَتّى في ســاحة القتال وبين الجيشين وهما على وشك الالتحام، ويُقيم الحجّة مكرّراً على العدوّ.

11 - الدعاءُ في أثناء القتال: عندما يكون الجيشُ الإسلاميُّ مُستعدّاً للالتحام مع العدوّ، وبعد إقامة الحجّة وقبل الشروع بالقتال، يلجأ الإمام إلى الدعاء وذكر اللّه، لكي يستمدَّ العونَ منه، وحَتّى يكون الجهادُ مقدّمةً لحبِّ اللّه والاقتراب إليه أكثر، ووسيلة لتحقّق الأهداف والقيم الإنسانيّة.

12 - عــدم منع الماء عن العــدوّ: فلقد كان من أخلاق الحرب التي مارســها أمير المؤمنين ع مع معاوية وجيشه، الذين عندما غلبوا على ماء الفرات، منعوا جيش أمير المؤمنين ع عن الماء، فلمّا ســمع عليٌّ ع ذلك قال: «قاتلوهم على الماء» فقاتلوهم حتّى خلّوا بينهم وبين الماء وصار في أيدي أصحاب عليّ، فلم يمنعه ع عن أعدائه قائلاً لجيشه: « خذوا من الماء حاجتكم وخلّوا عنهم، فإنَّ اللهَ نصركم ببغيهم وظلمهم"[1].

13 - الإحســانُ إلى فلول العدوّ: فالإسلام يأمرُ الجيشَ الإسلامي بحسنِّ السيرة مع الجيش المهزوم ويحثّهــم على الرفق بالأسرى ومن بقي منه وبالأخص النســاء. فقد كان مــن وصاياه لمقاتليه ألّا يتبعوا مُدبــراً، ولا يُجهزوا على جريــحٍ، ولا يدخلوا داراً، ولا يأخذوا من أموال النّاس شــيئاً إلّا ما وجدوه في عسكر القوم، ولا يعرضوا إلى النساء ولا يهيجوهن بأذىً وإن شتمن الأعراض وسبين الأُمراء والصلحاء.

14 -الرفقُ بالأسرى: ينبغي التعامل مع الأسرى بإنســانية، والابتعاد عن أذيّتهم والإضرار بهم، وإعطاؤهم الماء والطعام. ولقد كان مسلمو صدر الإسلام من خلال التربية التي تلقّوها على يد هذا الدين الخاتم ورسوله الأكرم (ص)، يؤثرون الأسرى بطعامهم، ويقدّمونهم على أنفسهم[2].

فــضرورةُ التعامل بعطفٍ مع الأسرى والحرصعلى هدايتهم بالشــكل الــذي يُؤدِّي إلى حدوث تحــوُّلٍ روحيٍّ وباطني لديهــم، وإلى انجذابهم نحو الحقِّ، وفيما أرشــد به القــرآن المجيد النبي الأكــرم(ص) على هذا الصعيد، مرفقاً ببشــارة الرحمة والعفــو إلى الأسرى، نموذج جميل ودليل ساطع على عظمة الإسلام، حيث قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّمَن فِي أَيْدِيكُم مِّنَ الأَسْرَى إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾[3].

1 - المجلسي، م. 2000، ج 42، ص35
2 - ابن الأثير، 1966، ج2، ص131
3 - الأنفال:70

وقد أفتى الفقهاءُ بكثيرٍ من الفتاوى لها علاقة بالتعامل الأخلاقي مع الأسرى، فإذا وقع أحدُ الأعداء في الأسر، فتجب معاملته طبقاً للأحكام الشّرعيّة والأخلاق الإسلاميّة المُقرَّرة في هذا الصدد، ومنها:

أ - لا يجوز إهانته وهتك حرمته.

ب - لا يجوز ضربه وتعذيبه.

ت - لا يجوز قتل أحدٍ من الأسرى، إلاَّ بعد ثبوت أنَّهُ ارتكبَ ما يكون جزاؤه في الشرع المُقدَّس عقوبة القتل، وذلك بعد مُحاكمته في المحكمة الشّرعيّة العادلة.

بلا فرق في ذلك بين الأسير الذي سلَّم نفسه، وبين من أسره المجاهدون وهو يقاتل في أرض المعركة أو غيرها.

- لا بُدَّ من مُراجعة المسؤولين المعنيّين في تشخيص جواز ضرب الأسير خلال التحقيق للحصول على المُعلومات منه، إذا كان لتلك المعلومات تأثيرٌ كبيرٌ على سير المعركة لصالح المُجاهدين الأعزاء وحقن دمائهم، فإنَّ الحُكمَ يختلف باختلاف الموارد.
- كما لا يجوزُ تركُ مُعالجة الأسير الجريح، فيما إذا كان قد تُركت مُعالجته، وهذا سوف يُؤدِّي إلى موته أو الضرر بالمُعتنى به[1].

خاتمة

إنَّ البحثَ عن أخلاقيَّات الحرب، يتطلبُ تحليلَ الأُسس المعرفية والرؤى الكونية والمنطلقات الفلسفيّة لكل نظرية، لكي يمكن فهم مقولاتها، وما القيم والمبادئ التي تنطلق منها؟ فنظريةُ الحرب العادلة التي حسبناها كنموذجٍ ينظّر إلى أخلاقيَّات الحرب، تستخدم معايير دنيوية لتحقيقها كوجود نتائج مقبولة، وتحقيق مُكتسبات تُرجِّحُ أسبابَ الحرب، كما تعتمدُ على مبدأ الغاية و تُبررُ الوسيلةَ لكسر القواعد العادلة للحرب خاصة في تبرير الانتقام من الأبرياء والمدنيين.

أمَّا في الإسلام، الذي ينطلقُ من فلسفة دينية مُرتبطة بالله تعالى وقيم التَّوحيد وأخلاق ثابتة،

1 - الخامنئي، 2000

ولا بُدَّ من تبرير الأفعال في الحرب وِفق هذه المنظومة الثابتة التي لا تتغير على المستوى النظري والمفاهيمـي، لتحقيق الخير والفضيلة في الدنيـا والارتباط برضا الله والقـرب منه والنظر إلى النتائج الأخروية.

لذلك، وإن تشـابهت النظرتان في بعـض المُصطلحات والمقـولات، إلَّا أنَّ الرؤى الكونية المُختلفة تُؤدِّي إلى نتائج مُختلفة على المسـتوى النظـري والتطبيقي، ومن هنا يجب التنبُّه إلى المُصطلحـات ومدلولاتها في فهمنا لأخلاقيَّات الحرب والعدالـة، وضرورة المُقارنة بينها، من أجل استخدام هذه المُصطلحات في أدبياتنا بمعناها الصحيح.

لائحة المصادر والمراجع

- ابن الأثير 1966م، الكامل في التاريخ، دار صادر للطباعة والنشر، ط1، بيروت.
- أبو زهرة، س. 2019، فلسفة الحرب العادلة في الإسلام، مجلة بحوث كلية الآداب الأزهر، مصر.
- الترمذي، م. 1995، الجامع الكبير (سنن الترمذي)، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت.
- الحر العاملي، 2007، وسائل الشيعة، شركة الأعلمي للمطبوعات، ط1، بيروت.
- الحمداوي، ج. 2016، هل هناك حرب عادلة؟، الكتاب الرابع عشر، جويلية.
- دروس في الفقه، 2000، طبقا لفتاوى السيد علي الخامنائي، جمعية المعارف الإسلاميّة، ط1، بيروت.
- الريشهري، م. 1996، ميزان الحكمة، دار الحديث، ط1، قم.
- الشريف، ح. 2016، نظرية الحرب العادلة بين اليوتوبيا والأيديولوجيا، مؤمنون بلا حدود، ط1،بيروت.
- الشيرازي، م. 2005، الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل، دار إحياء التراث العربي، ط1، بيروت.
- صحيفة النور، 2009، مؤسسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني، ط1، طهران.
- الطباطبائي، م. 1997 الميزان في تفسير القرآن، ط1، منشورات مؤسسة الأعلمي، بيروت.

الطوسي، م. 2005، تهذيب الأحكام ، شركة الأعلمي للمطبوعات، ط1، بيروت.

- العبار، س. 2018، أخلاقيَّات الحرب في الإسلام، دار الكتب الوطنية الليبية، ط1، ليبيا.
- فيشر، د. 2015، الأخلاقيَّات والحرب، سلسلة كتاب عالم المعرفة، ط1، الكويت.
- القرآن الكريم
- كلسي، ج. 2009، مسألة الحرب العادلة في الإسلام، ت: رلى ذبيان، الشبكة العربية للأبحاث والنشريات،ط1،بيروت.
- الكليني، م. (1407 هـ) الكافي، المصحح: غفاري علي أكبر، دار الكتب الإسلاميّة، ط1، تهران.

المجلسي، م. 2000، بحار الأنوار، دار الأميرة للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، بيروت.

نهج البلاغة، 1412هـ، شرح محمد عبده، ط1، بيروت، لبنان، دار البلاغة.

أخْلاقيّاتُ اللذَّة في العَصْر اليُونَاني القديم

■ د. رامز أحمد[1]

ملخّص

آمنَ العقـل اليوناني بالطبيعة، وكوّن عنهـا مقولات ومفاهيم وانطباعـات معرفية، انْدرجت ضمن رؤيته لنفســه ومحيطه وعلاقاته.. فالإنســان – لدى اليونانيين- كائن ذاتي فردي، له الأولوية في ذاته، فســاروا صوبها وأوصوا بضرورة الانشــغال بها. كما أكّدوا أنه لا يُمكن أن يكون هو ذاته، من دون أن يعيــش طبيعته العارية كما هي، حتى في موضوع لذاته وشــهواته وغرائزه. وقد انعكس فهم الفلســفة اليونانية للطبيعة(عموماً) حتى على وعيها للأخلاق، التي أعطتها بُعدها الحسّي الطبيعي، بعيداً عن أيّة إلزامات وقيود فوق بشرية. ولهذا، لاحظنا كيف أنّ اللذات الحسّية في العصر اليوناني (الأفروديزيات= لذّات البدن دون لذّات الروح)، كانت ممتدة ومتّسعة النطاق فكرًا وعملاً، ليتمّ إعطاء تفسيرات عديدة لها ولمجمل النزعات الحسية الغرائزية، مغطاة بأخلاقيّات ورؤى أخلاقية من سنخها.

ومع مجيء المسيحية، انعكست الآيةُ كليًّا، حيثُ انصبّ التفكير الأخلاقي كله، على دعوة المؤمن للهيمنة على شهواته ورغابته، كدلالة على إيمانه وانتصاره الروحي، مع التركيز على الطهارة باعتبارها ســبيلاً للخلاص الكلّي. لتنتهي الأخلاق في العقل الفلســفي الغربي الحديث، نهاية وضعية حسِّــية، جعلت من تناول الإنســان – وكل ما يتعلق به- موضوعاً للمعرفة العلمية الممكنة، بعيدًا عن أيّة علاقة لــه مع المعيار الأخلاقي الإنســاني ذاتــه، بعيدًا عن أيّة معاني روحية ومفارقة. وهــذا ما أثّر على الفكر السياسي الغربي، الذي شهد وما زال يشهد، تغييبًا كاملاً للأخلاق، كمعيار وشرط لممارسة السياسة.

الكلمات المفتاحية: أخلاقيات اللذة- الإغريق- الجنس-المرأة- المسيحية- الغرب.

1 - باحث سوري في جامعة السوربون في فرنسا.

مقدّمة

لِنفترض أنّنا نقبلُ للحظة واحدة، مقولات هي على جانب كبير من العمومية، مثل مقولة الرغبة واللذة والجنس والأخلاق بعامة، وأخلاق اللذَّات الجنسية بخاصة، ونتساءل: ما الطرح العام الذي تمحورت حوله وتشكّلت انطلاقًا منه، أخلاق اللذَّات الجنسية في اليونان القديمة؟!

بالتأكيد إنّ الجواب المباشر الذي سوف يُعطى، هو أنّ الأخلاق الجنسية "للوثنية القديمة"، قد تمحورت حول ثلاث مسائل كبرى: منع ارتكاب المحارم، والهيمنة الذكورية، وخضوع المرأة.

غير أن ما يميّز تلك الأخلاق - في الواقع -، ليس تلك النقاط المشار إليها سابقاً. ففي حين قرنت المسيحية الرغبة بالشر والخطيئة والسقوط والموت، ونادت بضرورة التطهّر منها، فقد خَصّتها اليونان بمعان «إيجابية»، إذ لم يسعَ الإغريق، لا في فكرهم النظري ولا العملي، إلا وضع قانون يحدد الأشكال الشرعية للاتصالات الجنسية، ويرسم حدود المحظورات، ولم يسعوا كذلك إلى إعداد قوائم بالأفعال المسموحة والممنوعة، أو السوية والشاذّة، أو إلى فك رمز الرغبة، كما حصل في الجنسانيّة المعاصرة، بقدر ما سعوا إلى إعداد طرائق وشروط استعمال لذّات، غالباً ما وُصِفَتْ بالزُّهْدية[1].

في الواقع، تم إدراج ضرورة الزهد، الخاص بالرغبات واللذَّات الجنسية، في الأفق الواسع للتصورات المتعلقة بالحياة والموت والزمن والصيرورة والخلود، إذ غالباً ما علّل الفلاسفة والأطباء ضرورة التفكير الأخلاقي في النشاط الجنسي في كون الإنسان صائراً إلى الموت، ولكي ينجو من الموت عليه أن يُنجِبَ أولاداً ليستمرَّ بهم. وانطلاقاً من هذا الفهم، لم يتخذ التأمل في الخلود شكل تفكُّرٍ في بقاء النفس بعد الموت - كما تُظهر الكثير من النصوص -، بقدر ما اتّخذ

1 - Foucault, L'éthique du souci de soi comme pratique de la liberté, N° 356, p. 1528

صيغة تفكـرٍ في بقاء الفرد في النوع، عبر الخَلف الشرعـيّ. أنْ تُنجب يعني أن تبقى في الآخر، بمعنى أنَّ مادة من صلبك تستمر في البقاء في جسد الآخر (الولد). فإذا أُحيطَ الفعل الجنسي بهذا القدر من العناية، فذلكَ، لأنه يسمحُ للإنسان بتخليد نفسه، ولأنّ النشاط الجنسي هو أعنف من كل اللذَّات، ولأنه أكثر خطورة على صحة الفرد من معظم النشـاطات الجسدية الأخرى، ولأنه يترابط مع قضايا الحياة والموت والخلود، فقد شكّل ميدانًا واسعًا للتفكير الأخلاقي القديم.

إنّ الموقـف الذي يتّخذه الفرد تجـاه طاقته الحيويّة يعكس، بصـورة أو بأخرى، نوع تكوينه الـذاتي، ومدى صلابة الإعـداد والتدريب الأخلاقي الذي تلقّاه. فعندما نسـأل عن الغرض من السـيطرة على الرغبات واللذَّات يكون الجواب: ليصير المرء حـرًّا، ويتمكن من البقاء كذلك، ذلك أن خطورة الرغبة تنبع من كونها قوة قابِلة دائما للإفراط ولإسـقاط الفرد في العبودية لها، ما لم تخضع لسياسات الاعتدال. على أن الاعتدال، الواجب في ممارسة اللذَّات، لا يستمد مُسوِّغَه الوحيد من سعي الفرد أن يكون حرًّا وحسب، بل من ضرورة ممارسة النشاط السياسي في الحياة العامة أيضاً، إذ ليسَ بوسـع من كان عبدًا لرغباته وملذّاته أن يصيرَ سيدًا على الآخرين في الحياة العامة؛ لأنَّ السيادة على الآخرين تقتضي السيادة على الذات أولاً.

ثمة ترابـط وتماثل، من هذه الزاوية، بين الأخلاق والسياسـة، أو بعبارة، أخرى بين فنّ حُكم الذّات، وفنّ حُكم الآخرين.

انطلاقـاً من هذا الفهـم، فإن ضبط النفـس وعدم الإفـراط في اللذَّات، يمثل قيمة سياسـية واجتماعية، علاوة على كونه يمثل قيمة أخلاقية فردية.

أولاً: إرهاصاتٌ وتحولات

غالبـاً مـا يُرجعُ بعـض الباحثين بدايات تشـكّل أخلاق تُعنـى باللّذَّات والرغبـات إلى فترة القرن السـابع قبل الميلاد، وما تلاه، وهي المرحلة التي شـهدت تفـكك نظام التضامن العائلي القديم، الذي كانت تهيمن عليه العائلات النبيلة المجتمعة على شـكل قبائل وأخويات، وبداية الانتقال نحو سلطة ملكية تفككت لاحقاً وتدريجيًّا مع نشوء المُدن، كحيّز يُنظِّم مختلف أنماط المشـاركات الاجتماعية والطقسية؛ حيث إنه مع نشـأة المدينة، تشكّلت صيغ معينة للاجتماع، تخضع لفكرة القانون العام، الذي بدأ باحتواء جميع المكونات القبلية والعائلية السابقة، والحد

من امتيازاتها السياسية والاجتماعية، لكن دون أن يحرمها من حقّها بالاحتفاظ بعباداتها التقليدية الخاصة بها، على أن تتقيد وتحترم، في النهاية، العبادة المشـتركة للمجتمع برمته، ولاسيما تلك الخاصة بالإله بولياد حامي المدينة (منه اشتقت كلمة بوليس).

لقـد أفضتْ التغيرات التي حصلت، في مجال الحياة الدينية والعباديّة، وتشـكّل فضاء معين للمقـدّس داخل المدن، إلى تكـوّن واقع جديد اقتضى ترتيبات جديدة، حيث نشـأت في قلب المقدس معالم السياسة، للمرة الأولى، في المجتمع الإغريقي القديم..

وقد هيأ هذا الواقع الجديد، الظروف المناسـبة لنشـوء فكرة المواطنة والديمقراطية الأثينية، كما مهّدت لظهور العديد من المفكرين والوسطاء والمشرعين الذين أسهموا، جميعاً، في وضع الأسـاس الأول للقوانين التي سمحت بتجاوز العالم القديم والتصورات القديمة للصراع، على أنه عقاب إلهي أو على أنه نتيجة خطأٍ فردي أو جماعي.

لقـد بدأ التغييرُ الحقيقي لدى الإغريق، حوالي القرن الثامن والسـابع قبل الميلاد، مع نشـأة السياسـة والانتقال من السـلطة الملكية إلى سـلطة الجماعة القائمة على الحوار، ولاحقاً على الانتخاب الذي كان ينحصر- بطبيعة الحال- ، في نخبة من نبلاء الطائفة. ولاحقاً سوف يتأسس نظام حكم يعتمد على الإقناع والمشاركة، سواء للطبقة الارستقراطية أو الأوليغارشية، والاستثناء الوحيد الذي يشكل خرقاً لهذا التقلي، هو الطاغية الذي سيظهر بوصفه نفياً للسياسة.

وسيعرف نظام الحكم الديمقراطي هذا أعلى أشكال تطوره، من خلال توسع دائرة المشاركين لتشملَ كلَّ من وُلد أثينياً، الأمر الذي كان له الدور الأكبر في تعميق فكرة المواطنة، ونمو الإحساس بالهوية الفردية والجماعية. مع الإشـارة إلى أن المشاركة في الحياة السياسية، والتداول، وقضية المواطنة، هي قضية ذكورية، بمعنى أنّ النسـاء لا يحق لهن المشـاركة مهما كانت مكانتهن، إلا في حالات استثنائية كحالات الحرب. فالنشاط السياسي كان حكرًا على الرجال[1].

أمّا الصياغة الأخلاقية الأولى لمسألة اللذَّات والرغبات، فتزامنت مع مرحلة الاستقرار ونشوء المدينة، وجهود النخبة الحاكمة الهادفة إلى تكوين أخلاق خاصة بها، وهي أخلاق عبرّت عنها بصورة واضحة كتابات القرن الرابع والخامس قبل الميلاد، فأخلاق اللذَّات، هي أخلاق نخبوية لمن يجهّزون أنفسهم ليصبحوا سـادة في المدينة، وأن يمارسوا النشاط السياسي، أي فنّ حُكم

1 - trabulsi, Participation directe et la démocratie grecque, p.25

الآخرين. فهؤلاء عليهــم أن يتحلّوا بالفضائل الضرورية التي تؤهلهــم أن يكونوا قادة ونموذجاً يُحتذى به؛ حيث كانت الحرية، في تصورهم، هي الحرية تجاه اللذَّات والرغبات.

لا يمكن تصور الأخلاق القديمة دون هذا البُعد الاجتماعي والســياسي؛ إذ لا يكمُن البرهان الأخلاقي، على أخلاقية الفرد، في امتلاكه لجملة من الفضائل الشــخصية الخاصة به وحسب، إنما أيضاً فيما يقدمه للجماعة، فالفضيلة لها وجهة اجتماعية دائماً، وهذه الغائية الاجتماعية هي ما يصنع قيمة الفضيلة. والطريقة لتحقيق فضيلة شخصية (مجد، انتصار..إلخ)، هي تحقيق أشياء تفيد الآخرين، فالشــجاعة، تمثيلاً لا حصراً، وبصورة خاصة في ساحة المعركة، تتطلب صفات شــخصية، مثل القدرة على التغلب على الخوف، وهذه القيمة عندما تمارس في خدمة الآخرين (الوالدين أو الأسرة أو المدينة)، تُعَدُّ مفيدة اجتماعيًّا.

عــلى أن تعلّم الفضيلة، لا يعنــي تعلّم مدونة من القواعد المعدّة مســبقاً، بقدر ما يعني تعلم طرائق التصرف أو امتلاك الذات، وطريقة وجودها في العالم، وتعبيرها عن نفسها أمام الآخرين وفي المواقــف المختلِفة. انطلاقاً من هذا الفهم، قرن الإغريق بين الأخلاق والحرية، فالأخلاق هي ممارســة دائمة للحرية، لجهة أن الموقف الأخلاقي للفرد لا يقوم على الخضوع لجملة من القواعد المفروضة من الخارج، إنما على اختياره الحر لمجموعة من المبادئ الذي يُلزم نفســه بتطبيقها وعيشها. وهذا ما أسماها الإغريق (éthique- éthos) تمييزاً لها عن morale، بوصفها خضوعاً لجملة من القواعد والقوانين التــي تفرضها الجماعة. الأخلاق (بمعنى éthos) تملك بُعدًا ذاتيًّا يسمح بهامش كبير من الحرية، والقدرة على الاختيار في العلاقة مع القاعدة المفروضة، فهي طريقة في التفكير والفعــل والتصرف، فيما تملك morale بُعداً خارجيًّا اجتماعيًّا، يجعلها أقرب إلى السلطة والقانون.

وإذا ما ألقينا نظرة على الكتابات القديمة، الســابقة عــلى القرن الرابع والخامس قبل الميلاد، فإننا لن نقع على أية إشارة لقانون أو مدونات أخلاقية يقتضي الالتزام بها، إنما على تثمين واضح لقيم عامة جرى تناقلها وتلقيها عبر التعاليم الموروثة شفاهاً، كالبطولة، والشجاعة وضبط النفس، والاعتدال ...إلخ، لا يتمّ التعبير عن الفضيلة بمفردات الطاعة لقواعد معينة يقتضي اتّباعها، ولا يتم تثمينها من منظور نفعي، يتمثل في السعي إلى تحقيق غايات مرجوة من وراء امتلاكها، إنما يجري التعبير عنها بمفردات الهوية الشخصية المميزة لصاحبها.

ومن السـهل أن نلاحظ أن شخصيات الأسـطورة القديمة، لا تملك سمات متشابهة في سلوكها، وما يصنع الفرق بين الأفراد هو طريقة التعبير المختلفة والخاصة بصاحبها عن قيمه، إذ لا يمكن فهم أفعال وخيارات معظم أبطال الأساطير القديمة إلا بالرجوع إلى سماتهم الشخصية المتوقعة. فالتجربة الأخلاقية لأبناء القرن الثامن والسـابع، أقله كما تُظهر النصوص، لا تتّسم بالسعي إلى تكوين ذوات متشـابهة في سـلوكها وطاعتها للقاعدة المفروضة، كما هو الحال في التجربة الدينية، بقدر ما تتّسم بنزوع كل فرد أن يَكُونَ ذاته، بفرادتها، دون السـعي إلى التطابق مع نموذج جاهِز.. وفي هذا الجانب تكمن حريته وفضيلته، وتكون حياته وسلوكه تجسيدًا حيًّا لما اختاره من مبادئ (نظرية الفضيلة).

كيف عُبِّرَ عن فضيلة الاعتدال وضبط النفس بالعلاقة مع اللذّات والرغبات في الفكر الإغريقي القديم؟! كيف حدث، أن توصل الفكر الإغريقي القديم، إلى إثارة قضيّة الرغبة واللذّة كمشكلة معرفية وأخلاقية وسياسـية في آن؟! وكيف تمّ الربط بين التفكير في الرغبات واللذّات من جهة، وقضايا الصحة والحياة والموت، ومسألة الحرية والحقيقة والاجتماع والسياسة من جهة ثانية؟! ما المحاور الكبرى التي تشكّل هذا الفكر بخصوصها وانطلاقًا منها؟.

- **في البنية العامة لأخلاق اللذّات**

لا تقـدم لنا النصـوصُ الإغريقية القديمة، مفهومًا عامًا شـاملا لما نسـميه في لغتنا الحالية، الرغبة الجنسية أو شهوات الجسد أو الجنسانيّة بصورة عامة. صحيح أن الإغريق كانوا يملكون كثـيراً من المفردات للتدليل على مختلف الحركات الجنسـية، لكنهم في الواقع كانوا يشـيرون إليها بمقولة آو بمفهوم عام يحتويهـا جميعًا، هو مفهوم الأفروديزيات aphrodisie أو ما يمكن ترجمتـه، بالكثير من التحفـظ، بـــ» لذّات الحب». على أن المفـردة تغطي، في الواقع، حقلا ًمفهوميًّا أوسع من ذلك بكثير، فهي تعني، وفق تعريف هزيود الذي يسوقه فوكو في الجزء الثاني من تاريخ الجنسانية، أفعال وأعمال أفروديت (إلهة الحب والجمال عندهم)، أو بعبارة أخرى هي أفعال، وحركات، وملامسات تسـبب نوعاً معيناً من اللذة[1]. فالأفروديزيات، من هذا المنظور، تخص لذّات البدن وحده دون لذّات الروح. وهذا ما ذهب إليه أرسطو أيضاً، في الباب الحادي عـشر من الأخلاق إلى نيقوماخـوس، عندما عرّف الاعتدال بالقول: «هو الوسـط القيم في كل

1 - ميشيل فوكو، استعمال اللذّات، ج2 من تاريخ الجنسانية، ص31

ما يتعلق باللذَّات» الجسـمانية[1]، دون أن يشـملها جميعًا، فلا نقول عـن الذين يتذوقون لذّات البصر ويستمتعون باللذَّات التي تثيرها الألوان والصور والرسوم أنهم معتدلين ولا غير معتدلين. فالاعتـدال وعدم الاعتدال ينطبقان على تلك اللذَّات المشـتركة بين الإنسـان والحيوان، وهي لذّات الطعام والشراب والجنس. وعليه، فإنّ من يكثرُ في طلب هذه اللذَّات يستحق وحده صفة المفرط. والاعتدال، بناء على ما تقدم، مسألة يغلِب طابعُها الكميّ طابعَها الكيفي.

على أن ما يشكل جوهر تجربة الأفروديزيات، هو هذا الترابط الشديد بين جملة من العناصر التـي يحيل كل منها إلى الآخر: اللذّة التي تُثير الرغبـة، والرغبة التي تحث على الفعل، والفعل المرتبـط بالمُتعة. هذه العلاقة الديناميكية بين هذه العناصر الثلاثـة، ومدى تواترها وقدرة الفرد عـلى التحكم بها، هي التي تُشـكل، في الواقـع، جوهر الفكر الأخلاقي الـذي دار حول اللذة وبخصوصها[2].

هذه المقاربة تختلف، بطبيعة الحال، عن المقاربة الحديثة لمسألة الجنسانية، وبصورة خاصة في نسختها الفرويدية، القائمة على الفصل بين الرغبة واللذة، كما تختلف، كذلك، عن التصور المسيحي القائل بضرورة التطهر من الرغبة كمقدمة الخلاص وشرطه[3].

ومع مجيء المسـيحية، لم يعد التفكير الأخلاقي ينصبُّ على كيفية سيطرة المرء على رغباته كعلامـة على الانتصار الروحي، بقدر ما أصبح يتركز على الطهارة بوصفها طريقًا إلى الخلاص، وهو خـلاص يتمّ خارج العالم وليس داخله، كما كان الحـال في الفكر الإغريقي. والحال، أن واجـب الزهد والتحكم الذي يفرضه المرء على نفسـه، في الأخـلاق اليونانية القديمة، لا يظهر بمظهر قانون عام، يتعين على كل فرد أن يخضع له، بل بوصفه طريقة في تنظيم السلوك، وبصورة خاصة بالنسبة لأولئك الذين يودون أن يضفوا على حياتهم أحلى وأكمل صورة ممكنة.

لقد وضعت المسيحية، وبعدها علم النفس المعاصر، نهاية لأخلاق اللذَّات ولهذا النوع من الزهد المرتبط بجماليات الوجود، أولاً، حينما فصلت الرغبة عن اللذة، وثانيًا، حين فُكَّ الترابط بين السيطرة الواجبة على الرغبة وبين مسألة التكوين الأخلاقي للفرد؛ إذ أصبح الهدف من تقنيات

1 - راجع: أرسطوطاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، ص318-319

2 - Bernard, Les cultes du corps, éthique et sciences,, p. 225

3 - DREYFUS et RABINOW, Michel Foucault, un parcours philosophique, 349

عمـل الذات على الـذات، هو تركيز الانتباه على الأنا، بهدف فـك رموزها ومعرفة أي من ميول النفس هو الذي ينبع من الليبيدو.

ثانيًّا: مدارات اللذّة

1 - العلاقة بالجسد

لقد تَشـكلت في فكـر العصور القديمـة الأخلاقي، أربعة محاور أساسـية بخصـوص اللذّات واستعمالها، وضرورة الزّهد في السلوك الجنسي: الأول، خاص بالجسد، إذ نقع على نوع من الاعتدال المُحدد بالاسـتخدام المتّزن للملذات، مع مراعاة لمسـألة الوقت وترابط حالات الجسـد المتغيرة وخصائص الفصول المتبدّلة، إذ أوصى الأطباء باتباع نظامٍ حمية، وبالتقليل من الأغذية والمشروبات والعلاقات الجنسية. والثاني، حول مؤسسة الزواج، إذ أوصى الفلاسفة بضرورة الاعتدال والاقتصاد الجنسي فيما يخص العلاقات خارج الزواج، مع تفضيل للعلاقة مع الزوجة الشرعية. والثالث، حول العلاقة مع الغلمان فيما يخص الشـبقيات، حيث أُدينَت كُلُّ علاقة مـع الغلمان[1]. والرابع، يخص موضوع الحكمة، إذ أشـار الفلاسفة إلى واجب الاعتدال وضبط النفس وممارسة سيطرة كاملة على اللـذّات كشرط للحرية والحقيقة. وقد احتفظت هذه المحـاور بحضورها على مدى التاريخ، لكن وفقاً لترسيمات وغايات مختلفة[2].

فالغاية من الزهد في الثقافة الإغريقية القديمة ليسـت هي ذاتها في المسيحية، فعندما يوصي الإغريـق بضرورة الحِمية والاعتدال - فيما يخص لذّات الجسـد- فإنهم لا يفعلون ذلك بداعي الطهارة والخلاص، أو لدواعي تتصل بصحة الجسد وجماله وحسب - مثلما هو الحال في الثقافة المعاصرة التي غالباً ما تسـتعمل الجسـد وجمالياته لأغراض تسـويقية أو دعائية أو لضرورات المكانة والوضع الاجتماعي أو لدواعي أخرى لا علاقة لها بمسألة التكوين الأخلاقي للفرد- إنما لغايات تتعلق بصحة النفس وجمالها وكياستها وحضورها.

---

1 - يدينُ كتاب الأخلاقيات، هذا النمط من العلاقة الرغبوية، مع تركيز واضح على المسؤلية الأخلاقية للمعلم تجاه مريديه، وعدم جواز استعمالهم كموضوعات لمتعه الخاصة. وقد أظهرت المأدبة هذا الأمر، في صورة سقراط الحكيم الذي قاوم جمال «ألسبياد»، ولم يسقط في عبودية الرغبة، وهكذا، لعب دور المعلم المالك لنفسه وللحقيقة، والمدرك لمسؤليته المعرفية والأخلاقية تُجاه المريد ألسبياد.

2 - انظر: استعمال اللذات، م. س، ص130

لقد أدركَ الإغريق أن النفاذ إلى ما هو غير ماديٍّ لا يتم إلا عبر المرور بالماديّ، أي عبر الجسد، الذي يلعب، في هذا السياق، دور الوسيط في الوصول إلى ما هو أسمى من العالم الحسي. فالتفكير في الحِمية الغذائية وفي الاقتصاد في الملذات الجنسية، كان مناسبة لاختبار الذات وقدرتها على التحكم، انطلاقًا من هذه الميادين، بغرض إعدادها لتلقي الحقيقة ولتهيئتها لممارسة السلطة على الآخرين في الشأن العام، وهي سلطة شبيهة بتلك التي تمارس على الجسد في فالشأن الخاص.

2 - العلاقة مع المرأة، وضرورة الاقتصاد في اللذّات ضِمن الإطار البيتي

قلّما يجري الحديثُ عن جنسانية المرأة في أخلاق اللذّات القديمة، إلا في سياق الحديث عن الأمومة، وضرورة حصر النشاط الجنسي داخل الزواج، إذْ غالباً ما يتمّ التذكير بأن عالم المرأة هو عالم البيت والحياة المنزلية، وما يتصل بها من وظائف أخرى، تتعلق بالإنجاب وتأمين استمرار المؤسسة العائلية، وبالتّالي، بقاء المدينة وقوتها ودوامها من خلال إمدادها بالخلف الصالح. إن فضيلة المرأة القصوى تتجلى في الأمومة التي يقتضي أن تُدرَّب عليها لتصبح ربة منزل صالحة، كما يرى إيزكوماك.

وعندما نسأل عن ماهية هذا التدرب، نراه يتجلى في صورة ضبط النفس والسيطرة اللازمة التي ينبغي على الرجل إظهارها، من خلال عدم سعيه وراء اللّذَّات خارج الزواج، إذ غالباً ما يكون لهذا الموقف الدور الحاسم في تربية المرأة ودفعها أن تمارس فضائلها الأمومية هذه. لكن لا ينبغي أن نفهم من ذلك، أنّ اليونان قد نادوا بضرورة الوفاء الزوجي المتبادل، الذي سيتحول لاحقاً، وبصورة خاصة في المسيحية، إلى نوع من القانون الجنسي، بقدر ما سعوا إلى تهذيب وتنميط سلوك الرجل الجنسي ومنحه شكلاً لائقًا.

في كتاب السياسة، لم يتردّد أرسطو في عَدِّه علاقة الزوج مع امرأة أخرى غير زوجته أمرًا شائنًا. وكان يُعلل ذلك بضرورة أن يثبت الرجل سيطرته على نفسه في إطار السلطة التي يمارسها على زوجته في الحياة البيتية. إن اقتصار علاقة الرجل على زوجته الشرعية، هو طريقة مثلى لممارسة سلطته عليها، إذ غالباً ما يدفعها ذلك إلى الخضوع الطوعي، قبولاً واحتراماً لموقف الزوج الذي يعي مكانتها ودورها لكونها الوحيدة القادرة على منحه خلفًا شرعيًّا، وبالتّالي، دوام النّسب[1].

1 - راجع: استعمال اللذات، ص109

3 - في التماثل بين إدارة البيت وإدارة الدولة

في الخطاب الذي يوجهه الملك نيكوكليس إلى شعبه، يَعرض مُسوِّغات اعتداله الجنسيّ وامتناعه عن إقامة أية علاقة خارج الزواج، عبر إقامة نوع من التوازن بين فنّ حكم الدولة وفن حكم البيت وإدارته، فهو لا يريد، بداية، أن يكون مثل أولئك الآخرين الذين يرتكبون الأخطاء في حقّ الزوجة، التي أقاموا معها شراكة حياة، فكما أن الرجل يرى أنه لا ينبغي أن يتألم من زوجته، فيجب ألا يُسبب لها ألماً من خلال اللذَّات التي ينالها.

ويضع نيكوكليس موقفه الأخلاقي هذا، في إطار تصور أعم حول العدل، فالملك الذي يريد العَدْلَ، عليه أن يكون كذلك مع زوجته، فالعدالة لا تتجزأ، وثمة تناغم وتماثل بين الانتظام الذي يجب أن يسود في بيت الملك وبين ذلك الذي يوجه سلطته العامة: يتوجب على الملك الصالح أن يجهد لأن يخيم الوئام ليس على الدولة التي يحكمها وحسب، بل على منزله الخاص أيضاً، وهذا العمل يتطلب العدل وضبط النفس.. إنّ الصّلة بين الاعتدال والسلطة التي يرجع إليها نيكوكليس يتمّ التفكير فيها كعلاقة جوهرية بين السيطرة على الآخرين والسيطرة على النفس. فمن يود ممارسة السلطة على الآخرين عليه أن يمارسها على نفسه أولاً.

إنّ المبدأ الأخلاقي العام الذي يوجه سلوك الملك، هو التّالي: "مارس سلطتك على نفسك، مثلما تمُارسها على الآخرين"، وعَدَّ أنّ السلوك الأجدر بملك هو ألا يكون أسيرَ أيةِ لذّة، وأن يتحكم في رغباته أكثر مما يتحكم في مواطنيه.. وقد برهن نيكوكليس على تمتعه بضبط النفس، من خلال امتناعه عن إقامة أيّة علاقة جنسية مع مرأة غير زوجته.. فهو - كما يُفسر وخلافًا لما يفعله بقية الملوك الطغاة- لا يودّ استغلال سلطته للاستيلاء عنوةً على نساء الآخرين أو أولادهم، لأنه يعي مدى تعلق الرجال بزوجاتهم وأولادهم، ولأنه لا يودّ، كذلك، تعريض كرامات الرجال للإهانة، لأن في طلب اللذة من امرأة رجل آخر، يعني إهانة لكرامة رجل موازٍ لنا في الكرامة أو في المكانة. ففي تلك الأخلاق الذكوريّة يتم التفكير في شرف الرجل قبل التفكير في شرف النساء، فالشرفُ مسألة وقيمة ذكورية قبل أي شيء آخر. وسوف يمضي وقتاً طويلاً قبل أنْ يُصبح الشرف -المُعبر عنه بالعذرية والبتولة- مسألة أنثويّة، إذ يتوجبُ على النساء - في المسيحية كما في الإسلام واليهودية، وإن لدواعٍ مختلفة في كل منهما- أن تمارس السيطرة على رغبتها أكثر مما يتوجبُ على الرجال. الوازع الأخلاقي الذي كان يحرّك سلوك الملك هو ضرورة أن يكون قدوة

لشعبه، دون السعي إلى تحويل سلوكه وإخلاصه إلى قاعدة عامة أو قانون يفرض على مواطنيه، فهو لا يريدُ أن يجعل من الشعب نظيراً له، بقدر ما يريدُ إثباتَ تميزه عن الآخرين، ليس عن النخبة وحسب، بل عن نخبة النخبة كذلك. ولهذا يقول: لقد لاحظتُ أنّ معظم الرجال أسياد مجمل أفعالهم، لكن أفضلهم ينهزمون أمام الرغبات التي تثيرها فيهم النساء والغلمان، لذلكَ أردتُ أن أظهرَ قدرتي على رباطة الجأش، فكان أنْ تفوقتُ ليسَ فقط على عامة الناس، إنما أيضاً على الذين يفخرون بفضيلتهم[1].

لقد أدرك الإغريق أهمية وأولويّة الذات، فساروا صوبها وأوصوا بضرورة الانشغال بها، تحدوهم الرغبة في المعرفة، معرفة الإنسان والإله والكون برمته. وهكذا قادهم عقلهم، قبل مجيء أفلاطون وأرسطو بزمن بعيد، إلى إدراك أن "الكلّ هو الواحد"، وهي عبارة تَردّد صداها في الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، حين كتب نيتشه قائلاً: "لم يكن الإغريق يؤمنون إلا بحقيقة الإنسان والآلهة، ولم تكن الطبيعة بنظرهم سوى لباس تنكر، تهريج وتحوّل لهذا الإنسان - الإله.

لقد كان الإنسان يشكل بالنسبة لهم حقيقة وجوهر الأشياء، ولم تكن بقية الأشياء سوى مظهرًا خارجيًّا ولعبة مخادعة. لذلك، كان من الصعب عليهم أن يتناولوا المفاهيم كمفاهيم، وعلى عكس ما يجري لدى الناس الحديثين، الذين يحولون حتى المسائل الشخصية إلى تجريدات، فعند الإغريق كانت الحقيقة الأكثر تجريدًا تتجسّد باستمرار في شخص معين"[2].

4 - العلاقة مع الحقيقة وضرورة العناية بالذات

تطرحُ أخلاقيات اللذَّات، مسألة العلاقة مع الحقيقة في صورة المعرفة (أفلاطون وسقراط)، إذ تبرز ضرورة أن يعرف المرء نفسه ليمارس الفضيلة ويكبح اللذَّات والرغبات، فليس بوسع الجاهل أن يكون فاضلاً، أو أن يكون قادراً حكم الآخرين في الحياة العامة، فالحكم يقتضي المعرفة، والمعرفة تتطلب اعتناء المرء بنفسه قبل أي شي آخر.

في الحوار الذي يعرضه أفلاطون في المأدبة، يطرح سقراط السؤال على ألسيبياد، الذي كان

1 - راجع: استعمال اللذات، ص121-122

2 - راجع: فريدريك نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، ص48

يتهيـأ ليُصبح حاكماً في المدينة: ماذا يعني حكـم المدينة كما يجب، وعلى ماذا ينهض الحكم الجيد للمدينة؟ يُجيب الفتى: يكون حكم المدينة جيداً عندما يسود الوئام بين جميع مواطنيها. ويردف سقراط بسـؤال آخر: وماذا يعني الوئام وعلى ماذا يقوم؟ يعجز الشاب عن الإجابة ويُقر بجهله، ويُـبرر بأنه لم يحصل أن واجه موقفاً محرجاً كهذا في حياته. لا تقلق، يجيب سـقراط: إن إقرارك بأنك لا تعرف، وأنك لا تعلم ما تقول هو أمر مفهوم في عمرك، لكن لو كنت في عمر الخمسين لبدا هذا أمراً مخجلاً.

ويلحُّ سـقراط على ضرورة العناية بالذّات ومعرفتها، قبل التفكير في الاهتمام بالشـأن العام، إذ يظهر الانشـغال بالذات، على طول الحوار، ليسَ بوصفه شرطَ الحرية والحقيقة وحسب، بل بوصفه شرطاً ضرورياً كذلكَ للحصول على مكانة اجتماعية ولممارسـة النشـاط السياسي في المدينة، كما لحكمها بطريقة صالحة.

ليس بوسـع المـرء أن يهتم بالآخرين في الحيـاة العامة، وهو غير قادر على الاهتمام بنفسـه في الحيـاة الخاصة. ومن هنا أهمية اللجوء إلى معلم عارف يقود المُريد هذا المسـار الصعب. والحال، إنّ المعلم يلعب دور المرشد والوسيط في علاقة المريد بالحقيقة، بأن يدفعه إلى كشفها بنفسـه، ثم تحويل هذا الكشـف إلى إلزام أخلاقي. فعبر العلاقـة الحوارية بين المُريد ومعلمه، وعبر نوع الأسئلة التي يطرحها هذا الأخير، تبدأ الذات بالتكون كذات أخلاقية تنزع إلى المعرفة، انطلاقًا من إقرارهـا ووعيها بجهلها. وهنا يقتضي الإشـارة إلى أن علاقة المُريد بمعلمه لا تقوم عـلى نوع من الخضوع والطاعة غير المشروطة، كما في بعـض التجارب الدينية، إنّما على نوع من الخضوع إلى جملة من المبادئ الأخلاقية، وبعض القواعد والشروط الضرورية للتعلم، من قبيل: الصمت، والإصغاء، وتسجيل الملاحظات والأقوال والحكم، وحفظها وتمثلها...إلخ.

فالعلاقة، من هذه الزاوية، هي علاقة بنائية للذات المُريدة، فمن خلال الأسئلة التي تخلقها الذات الناطقة، الحاملة خطابَ الحقيقة، في نفس المتلقي، تُظهر له حدود معرفته وتكشـف له ما لم يكن يعرفه سابقاً[1].

ومُراد المُعلم من هذا النهج، هو تمكين المريد من الوصول إلى وضع يسمح له بالانفصال عنه وتحقيق حريته واستقلاله الذاتي في العلاقة مع الحقيقة وفي كيفية عيشها. وهذا منهج أبعد ما يكون

1 - أنظر: Foucault, Le courage de la vérité, Le gouvernement de soi et des autres, 2009, p. 363

عــن التلقين (تلقين حقائق جاهزة ومُعدَّة على نحو مســبق)، لأنه قائم على الكشــف الذي يُحدثه السؤال الذي يطرحه المعلم على مُريده (وهذا ما اصطلح البعض على تسميته المنهج التوليدي).

هذه العلاقة البنائية الكشفية، تعرضها المأدبة بوضوح في صورة سقراط الحكيم، الذي أظهر مقدارًا عاليًّا من التحكم وضبط النفس في مقاومة جمال ألسيبياد الفتان، ما دفع هذا الأخير لطب الحقيقة أو لمعرفة حقيقة الحقيقة التي تراءت له في موقف المُعلم العارف وفي سلوكه.

إنّ علاقــة النفس مع الحقيقة، هي ما يُســوِّغ غريــزة الحب ذاتها في حركتهــا وقوتها، عندما تــدرك أن معنى الحــب الحقيقي يكمن في التخلــص من كل لذة جســدية، لتتمكن النفس من الانعتاق والوصول إلى اللذّة الأسمى التي يعرضها أرسطو، في أكثر من موضع، في صورة لذَّات المعرفة[1].... وهذه المســألة تتردد في المأدبة، على نحو واضح، عندما تُظهر سقراط في صورة المُعلّم العارف المحاط بالمغرمين الســاعين إلى امتــلاك حكمته. وعندما نتأمل في جوهر هذه الحكمــة المرغوبة نراها تتجــلّى وتتحقق في صورة المُعلم الحكيم القادر على التحكم بنفســه ورغباته، وبالتّالي، قلب موضع الرغبة وتحويله من رغبة حسيّة إلى رغبة معاكسة، يتمّ التعبير عنها بميل المريد لتلقي الحقيقة من المعلم، فســقراط لم يسعَ إلى لمس جمال ألسيبياد المثير، لكن عفّته دفعت الأخير للرغبة في الحقيقة السقراطية، أو في جوهر الحقيقة التي مثلها المُعلم المالك لنفسه، والتي دفعت المُريد للتساؤل عن جوهر الحقيقة التي تراءت له في سلوك المعلم العارف.. فعبر ضبط النفس الذي أظهره سقراط، اســتطاع أن يقلب الدور ويُحَوِل الشاب المحبوب، إلى مُحب وعاشق لمُعلم الحقيقة، وحقيقة الحقيقة بالذات.

إنّ جوهر العمل الأخلاقي هنا، قائم على اكتشاف حقيقة الحب الذي استولى عليه، ليكتشف أن ما يبحث عنه المرء في الآخر ليس لذّة الحس، إنّما الحقيقة التي تمتُّ إلى روحه بصلة وثيقة. فاللذّة الحسية ليست إلا مناسبة لتذكّرِ اللذَّةَ الأسمى التي يحققها الانفتاح على الحقيقة، بعد أن تتحرر من روابط العالم الحسي، وكل ما يتّصل بلذات الحواس، من جنسٍ ومأكلٍ ومشرب. فعبر الســلوك الزاهد، استطاع سقراط أن يقلب موضع الحب من الحب الجسدي إلى حبّ الحقيقة. وتُظهر المحاورة مقدار الارتباط المتين بين الزهد الجنسي والوصول إلى الحقيقة.

1 - أنظر: استعمال اللذات، م. س، ص100

ثالثاً: في الغاية السياسية لضبط النفس أو في الأخلاق كشرط للسياسة

إنّ الاعتدال الواجب في ممارسة اللذّات، لا يجد غرضه النهائي في السعي إلى تكوين ذوات أخلاقية حرّة وحسب، بقدر ما يجد غايته النهائية في التفكير في الحرية العامة للمدينة (الدولة)، ذلك أن حرية المدينة، وفق التصور الإغريقي القديم، لا تتحقق، دون تحقيق حرية كل مواطن فيها. فثمة ترابط وثيق بين الحرية في بعدها الذاتي (الفردي) والحرية في بعدها السياسي العام، إذ لا يمكن للدولة أن تكون حرّة إذا كان أفرادها عبيدًا لملذاتهم وشهواتهم وأهوائهم، لجهة أن الشراهة تنم عن بنية تقربها من العبودية والأنوثة، بمعنى أنها تبقي المرءَ ضعيفاً وخاضعاً تجاه اللذّات، كما أنها تجعله في حالة انفعال دائم. وهما أمران يتناقضان مع الأخلاق بوصفها صيغة من صيغ ممارسة الفرد لحريته، لجهة أنها تحرره من الخضوع للأهواء والعبودية للرغبات واللذّات، وتدفعه للانعتاق من كل إكراه داخليٍّ وخارجي، وتمكنه، بالتالي، من الإسهام في الحرية العامة للدولة.

ومن هذه الزاوية، تم النظر إلى العناية بالذات على أنها صيغة من صيغ الاهتمام بالدولة، فالفرد ليس سوى مكون صغير في كيان أعم هو الدولة. ذلك أن موقف الفرد تجاه نفسه ونوع العلاقة التي يقيمها معها، والطريقة التي يضمن بها حريته الخاصة تجاه الرغبات ونوع السيادة التي يمارسها على نفسه، هي عناصر مكونة لسعادة المدينة ولحريتها.

ومن هنا، كان العبور إلى الحرية السياسية، حرية الدولة، يتم من خلال التفكير في حرية كل فرد فيها؛ فالحرية الفردية هي ما يضمن الحرية العامة ويصونها. وهو تصور يختلف، في عمومه، مع التصور الحديث لمفهوم الحرية، وبصورة خاصة التصور الهيغلي، الذي يهدر الحرية الفردية لفائدة الحرية العامة للدولة[1]. ومن السهل أن نلاحظ، إذا ما أردنا أن نقيم نوعاً من التقابل بين التصورين، أن الذات الحديثة منشغلة بمعرفة حقوقها وكيفية ضمانها وحمايتها دستورياً وقانونياً، أكثر من انشغالها الأخلاقي بضرورة العناية بالذات. بل وأكثر من ذلك، هي ذات لا تجد سعادتها وحريتها ومعنى وجودها في السيطرة على الرغبات واللذّات وتهذيبها، بل في السعي الدائم لتلبيتها، وتعد ذلك علامة على حريتها وسعادتها.

يكمن جوهر التعارض، في الواقع، في أنّ الذات القديمة تتحرك وتفكر داخل الأمر الأخلاقي

1 - Maesschalck « L'anti-science de Foucault face à la critique d'Habermas », 1990, pp. 567 à 590

بضرورة الانشغال بالذات ومعرفتها «اعْرف نفسك»، إذ لم يرث اليونانيون، كما أشار دوفر Dover، "الاعتقاد بأن قدرة إلهيّة أوحت للإنسانية بمجموعة قوانين في تنظيم السلوك الجنسي، ولم يغذُّوا في أنفسهم مثل هذا الاعتقاد. كما لم تكن لديهم مؤسسات قادرة على فرض احترام المحظورات الجنسية. وإذ واجه اليونانيون ثقافات أقدم وأغنى وأكثر تحضراً من ثقافتهم، فقد شعروا بأنهم أحرار في الاختيار وتكييف وتطوير وتجديد ما يناسبهم منها"[1]. لم يقودهم اهتمامهم الأخلاقي بالقضايا التي تثيرها الرغبات واللذات الجنسية إلى إنتاج نظام من الممنوعات وفرضه على الجميع، بقدر ما دفعهم إلى التفكير في أفضل طريقة لإعداد الأفراد ليكونوا أحرارًا وأسيادَ أنفسهم، وأن يجعلوا من حياتهم أمثولة وأثراً جميلاً يثير الإعجاب ويَخلدَ من بعد زوالهم.

وعلى خلاف ما يحصل لدى الإنسان الحديث، الذي يحيا ويفكر أخلاقيًّا داخل تصور عام لمفهوم الحق، يبحث الإغريقي عن حريته في داخله، لأنه يعي أن الحرية هي، في المقام الأول، انعتاق المرء من كل إكراهٍ داخليّ قبل أن تكون تحرراً ن سلطة خارجية. وقد دفعهم هذا الكشف إلى ابتكار ما يمكن تسميته ثقافة العناية بالذات، إذ أدركوا باكرًا أن عدو المرء يقبع في داخله وليس خارجه.. فغاية حكم المرء لنفسه واهتمامه بها أنْ يصير حراً ذاتاً وموضوعاً، إذ إن أخلاق الفرد لا تنفصل عن أخلاق المدينة، ولهذا أكد أرسطو على أنّ المدينة تكون فاضلة، عندما يكون كل المواطنين المشاركين في حكمها فاضلين.. وليس بوسع الفرد أن يكون حرًّا في دولة فاقدة للحرية، ولا يمكن للدولة أن تكون حرّة إلا بتحقيق حرية رعاياها.. والمسؤولية هنا مزدوجة بين الفرد والحاكم.

رابعًا: خلاصات مفتوحة

مما لا شك فيه، أن أخلاقيات اللذة قد انتهت إلى غير رجعة، وأننا نعيش، منذ زمن بعيد، في أفق تلك النهاية، فقد رسم الفكر الحديث خطًّا فاصلاً بين أخلاق كانت تُشارف على الانتهاء مع المسيحية، وبين أخرى بدأت تتقدم في صورة المعرفة الوضعية التي أحدثها مجيء «الأنوار»، وولادة الإنسان كموضوع لمعرفة «علميّة»، سعت إلى فهم حقيقة الكائن بما هو ذات تتكلم (اللغويات)، وترغب (التحليل النفسي)، وتعمل (ماركس في الاقتصاد السياسي)، و..و..إلخ. وقد

1 - راجع: Dover, Homosexualité Grecque,1980, p. 247

عَبرت إرادة المعرفة هذه جميع العلوم الإنسانية التي نشأت في قلب حداثة أعلنت انفصالها عن كل تعالٍ كما عن كل مرجعية أخلاقية قديمة (سواء في شكلها اللاهوتي الديني أو في شكلها الرواقي أو الأبيقوري)؛ إذ فقد القانون الأخلاقي طابعه المقدس وروابطه مع مصادره الدينية «المنزلة».

غالبـاً ما تُعزى هذه القطيعة الكبرى، التي حصلت في نظام الفكر الغربي، إلى ديكارت الذي أعاد تركيز السؤال الفلسفي والمعرفي برمته حول «الأنا» (الذات)، التي لم تعد تجد يقينها إلا في ذاتها، ولم تعد تقبل أية معتقدات أو آراء أو مسلمات قبل أن تخضعها لمبدأ الشك والنقد بعد أن تصطفي منها ما يحقق شرط البداهة، وهو شرط تمنحه الذات في نهاية المطاف.

ومنذ ذلك الحين، سـيصبح السـؤال الأساسي، الذي سـيعرف صياغته الكبرى مع كانط، ما الإنسـان؟ أو بعبارة أخرى: ما الذات؟ ما الذي يمكن أن تعرفه؟ ما شروط المعرفة؟ وهل يمكن للذات العارفة أن تكون أداة معرفة وموضوع معرفة في آن؟ أيمكن استنباط نموذج أخلاقي انطلاقًا من هذه المعارف المزعومة عن الذات؟ وما هي ضمانات تلك الأخلاق؟

وأيًّا كان الجواب الذي يُعطى، فمن الثابت أن تلك الأسئلة قد طبعت بطابعها ولادة الأخلاق الحديثـة القائمة على أسـبقية ومركزية الإنسـان داخل العالم، فمنذ أن ألغـى ديكارت الشروط الروحية والأخلاقية للحقيقة، حين قال بتساوي الذوات، لم تعد الحرية والحقيقة ثمرة الانشغال بالـذات أو نتيجـة لعمل الذات على الذات، أو نوع العلاقة التي يقيمها المرء مع نفسـه، بهدف التحكـم بها وقيادتها، بقدر ما صارت ثمرة الاسـتعمال الصحيح للعقل الذي يقتضي أن يراعي قواعد المنهج التي وضعها ديكارت.

كان ثمة حقيقة أخلاقيّة Vérité éthique عند الإغريق، إذ يقتضي الوصول إلى الحقائق موقفًا أخلاقيًّـا خاصًّـا تجاه النفس، بهدف تهيئتهـا لتلقي ما هو أعمق من المعطـى المادي المباشر. وفي هـذا الإطار برز الزهد بوصفـه أحد التقنيـات الأخلاقية الكبرى، التي لجـأ إليها الإغريق بهدف إعداد الإفراد لسلوك هذا المسار الطويل نحو الحقيقة. فعبر السيطرة اللازمة على النفس والضبـط المدروس لطاقة الجنس، تخلق الذات الـشروط الضرورية للمعرفة ولتلقي الحقائق، وهي حقائق ذات طابع أنطولوجي، أكثر منها ذات طابع استبطاني أو تفكريّ، كما هو الحال في المسيحية وعلم النفس المعاصر (وبصورة خاصة مع فرويد)، حيث تترابط الحقيقة والجنس في بنية اللاوعي، فإذا ما استطعنا جعل اللاوعي يتكلم من خلال الوعي، فإنّ حقيقة الكائن، سوف

تنكشف في عريها. وقد مثل اكتشاف اللاوعي ثورة فكرية أطاحت بجميع الخطابات الأخلاقية عن الإنسان وسموه الأخلاقي (بصورة خاصة عندما أظهرته محكوماً برغباته ونزواته أكثر منه بعقله وفكره)، كما قضت على معظم التصورات السابقة عن الحقيقة، وذلك عبر إرجاعها إلى مجرد ظواهر نفسية لاشعورية.

على أن هذا الاهتمام بمعرفة الإنسان علميًّا، والذي نشأ في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، لم يكن نابعاً من انشغال أخلاقي به، بقدر ما نتج عن انشغال بتكوين صورة الإنسان كموضوع معرفيّ.

والشيء الأساس، الذي لا ينبغي إغفاله، هو استحالة اكتشاف غير المدروس أو غير المُفكر فيه « l'impensé» انطلاقا من الفكر، وبالتّالي، استحالة قيام أخلاق انطلاقًا من هذا الاكتشاف المزعوم لحقيقة الأنا الخاص بالحداثة الغربية. ذلك أن سؤال الأخلاق يُعنى، في المقام الأول، بكيفية العيش، أو بعبارة أخرى، طريقة وجود الفرد في العالم، ونوع العلاقة التي يقيمها مع نفسه ومع الآخرين والعالم من حوله. وهذه العلاقة المُركبة، لا تستند بحال من الأحوال إلى نوع المعرفة التي تستطيع الذات أن تكونها عن نفسها، في صورة كشف لحقيقتها العميقة المُحتجبة في جنسانيتها أو ميولها أو نزواتها المكبوتة. وإذا ما نظرنا إلى الأخلاق من هذه الزاوية، سهُل علينا أن ندرك أن الفكر الحديث، لم يتطرق إلى الذات من منظور العلاقات المتُبادَلة، لأنه كان مشغولاً بتكوين صورة الإنسان كموضوع للمعرفة وحسب، ولهذا استحال عليه اقتراح أية أخلاق.

وعلى مستوى الفكر السياسي الحديث في الغرب تبدو نهاية أخلاقيات اللذّة أكثر وضوحاً، إذ نشهدُ غيابًا كاملاً للأخلاق كشرط للممارسة السياسية، فالعمل السياسي لا يشترط الأخلاق مطلقاً، كما أن المعرفة السياسية لا تُراعي الضرورات الأخلاقية، إنما العناصر التي تسهم في قوة الدولة ودوامها، إذ غالباً ما يتمّ إهدار الأخلاق لفائدة ما يسمى المصلحة العليا للدولة. ألم يقل ميكافيلي: الغاية تبرر الوسيلة؟ أفلا يعني ذلك أن الأخلاق لم تعد شرطاً للعمل السياسي؟ ألا يشهد الفكر الحديث، ربما منذ هوبز Hobbes وروسو Rousseau، على غياب المكانة التي تحتلها الأخلاق في الممارسة السياسية؟.

وأيًّا كان تفسير المسار الذي قاد إلى نهاية أخلاقيات اللذّة، فمن الثابت أن الفكر الحديث، المتمركز حول الذات والمدفوع برغبة المعرفة، انتصر على الفكر الإغريقي القديم، لكن لانتصاره

طعم الهزيمة المَريرة، فعبر التركيز المتزايد على مسألة الأنا والحياة الداخلية واللاوعي والرغبة... إلــخ، فقدنا البنية الأخلاقية التــي نهض عليها الفكر القديم، الذي وضع الجنس في ســياق تفكير أخلاقي وعلائقي أوســع يوصي بضرورة العناية بالذات، وبضرورة تهذيب الرغبات وحســن إدارة اللذَّات.

على الإنســان أن يتحلّى بقليل من التواضع، عندما يتعلق الأمــر بمطلب الحقيقة، وعليه، أن ينشــغل بأخلاق الحقيقة، ذلك أن للحقيقــة شروطها الأخلاقية، وعند هذا المســتوى يدرك أنه يحتاج، هو ذاته، أن يكون أخلاقيًّا قبل أي شي آخر.

إنّ الخطابات الغربية المعاصرة، حول الأخلاق والحقوق والحريات الجنسية وكل هذا الأدب الغزيــر حول العواطف والحب، لا يُمكن أن يخفــي حقيقة أن الملك عاري، وأننا عاجزون عن استعادة المعنى الأصيل المرتبط بأخلاقيات اللذة.

نتحدث اليوم عن نهاية الأخلاق، وعن غرق المجتمع في عالم المتع والرغبات، فإنسان اليوم هو إنسان يحيا على إنتاج الرغبة واستهلاكها في كل أبعاد حياته اليومية. فإذا لم تعد عند البعض، حكمة الديانات والمذاهب الكبرى تلائم أزمنتنا الديمقراطية، وإذا كانت كل عودة للماضي تبدو مستحيلة، فإننا لم نخترع، رغم ذلك أي شيء يمكن أن يقوم مقامها بشكل مقبول.

بهذا المعنى، ليسَ ســؤالُ الماضي مناســبةً للتفكير في استعادته بشكل حرفي في كل شيء، بل للتأمل في الحاضر، في واقع المجتمع المعاصر المتجه كليًّا نحو المستقبل، والمشدود بقوة إلى فكرة التقدم، مع نســيان تام لضرورات التقدم الروحي والأخلاقي، كمطلب ينبغي أن يســير بالتوازي مع مطلب التقدم العلمي والتقني الذي ينذر بكارثة قد لا تكون بعيدة الوقوع.

بقي لنا أن نوجه سؤالاً لعصرنا هذا: إذا كان التقدم قَدر الإنسان، وإذا كان الكائن البشري يعرف نفسه بحريته، التي لا يفهمها تحرُّرًا من قوانين الطبيعة وحسب، بل من كل القيود الصلبة للرغبة والغريزة بُغية المُضي دون توقف نحو مزيد من المُتع أو نحو مزيد من الكمال الثقافي والأخلاقي، كما يتصور. أفلا تمُثِّل عظمته، في هذه الحال، انحطاطه الأكيد؟ أفلا ينقلب التقدم إلى انحطاط، حين يتعلّق الأمر بإهدار حكمة الماضي لفائدة مستقبل بتنا نجهَلُ ملامحه؟!.

المراجع والمصادر

أوّلاً - العربية:

■ أرسطوطاليس، علم الأخلاق إلى نيقوماخوس، دار الكتب المصرية، مصر/القاهرة، طبعة عام 1924م.

■ فريدريك نيتشه، الفلسفة في العصر المأساوي الإغريقي، تقديم ميشيل فوكو، تعريب سهيل القش، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، لبنان/بيروت، طبعة عام 2004م.

■ فوكو ميشيل، الانهمام بالذات، الجزء الثالث من تاريخ الجنسانية، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة مطاع صفدي، مركز الانماء القومي، لبنان/بيروت، 1992م.

■ ميشيل فوكو، استعمال اللذّات، الجزء الثاني من تاريخ الجنسانية، ترجمة جورج أبي صالح، مراجعة مطاع صفدي، مركز الانماء القومي، لبنان/بيروت، طبعة عام 1991م.

ثانيًا- الأجنبية:

■ ANDREIU, B. 1994 Les cultes du corps, éthique et sciences, Paris, Harmattan,

■ Dits et écrits, IV, « Interview de Michel Foucault », N° 349.

■ DREYFUS, H. et RABINOW, P. 1984 Michel Foucault, un parcours

■ philosophique, Paris, Gallimard.

■ Foucault, M. 2001 Dits et écrits, V1, « L'homme est-il mort ? » , N° 39, Gallimard, Paris.

■ Foucault, M. Dits et écrits, Volume II, « La technologie politique des individus» N° 364.

■ Foucault, M. 2001 L'herméneutique du sujet. Cours au Collège de France. 1981- 1982 éd. F. Gros, Paris, Gallimard- Le Seuil (coll. « Hautes Etudes »).

■ Foucault, M. 2009 Le courage de la vérité, Le gouvernement de soi et des autres, II, Cours au Collège de France. 19831984-, éd.F.Gros, Paris, Gallimard-Le

Seuil (Coll. « Hautes Etudes »).

■ Antonio, J. 2006Participation directe et la démocratie grecque, Institut des sciences et techniques de l'antiquité, presse universitaires de France comt.

■ Dover, K. 1980 Homosexualité Grecque, Editeur, pensée sauvage.

■ Maesschalck, M. 1990 « L'anti-science de Foucault face à la critique d'Habermas ■ Revue des sciences philosophiques et théologiques, T. 74.

«ثقافة أوروبّا وبربريّتُها» لإدْغار مُوران

■ شهرزاد حمدي [1]

ملخّص

الهدف من هذه القراءة التحليلية والنقدية لكتاب: « ثقافة أوروبا وبربريتها» للفيلسوف «إدغار موران»، هو الكشف عن الوجه الحقيقي للثقافة الأوروبيَّة، وكيف تميّزت بالبربريّة، وأنَّهـا لم تكُن مُخلِصة لمبادئها التَّنويريّة، كما تدّعي أو يُدّعى لها؟ من خلال شـهادة من الدَّاخل الأوربي. وقد اعتمدنا في هذه القراءة، المنهجين: التَّحليلي والنَّقدي.

ومـن أهمّ النّتائج أو الحقائق التي تمّ الكشـف عنها من خـلال هذه القراءة، هو طغيان النزعة الاسـتعمارية والاسـتعلائية في الثَّقافة الأوروبيَّة، والرغبة الجامحة الكامنة في ذهن أصحابها، لفرض آرائها وفكرها ومنطقها عن طريق القوة والسـيّطرة، رغم ادعائهم النّزعة الإنسانيّة، والتخفي وراء شعار الدّفاع عن حقوق الإنسان والقيم الإنسانيّة العالميّة!؟

لذلك، لابدّ من استفاقة العقل العربي من أكذوبة: «إنسانية أوروبا الخالِصة»، والاستفادة من النقد الذّاتي الذي مارسه هذا الفيلسوف وعالم الاجتماع الفرنسي، مع التركيز على بناء الذّات، وتطوير البِنى التّحتيّة، تحسُّبًا لأيّ هُجوم أوروبي، سواء كان ماديًّا أو ثقافيًّا رمزيًّا

الكلمات المفتاحية: الثَّقافة الأوروبيَّة- البربريّة- النَّزعة الإنسيّة- الاعتراف- الفكر المُركّب.

1 - باحثة دكتوراه في جامعة محمد لمين دباغين سطيف2، الجزائر.

بطاقة الكتاب

عنوان الكتاب: ثقافة أوروبا وبربريتها (Culture et barbari européennes)
مُؤلّف الكتاب: إدغار موران
المُترجم: محمد الهلالي
الناشر: دار تبقال للنشر: الدار البيضاء – المغرب
الصفحات: 64 صفحة
سنة النشر: ط-1 2007م

مقدمة

تعتبر الثَّقافة الأوروبيَّة اليوم من أكثر الثقافات العالميّة إثارة للجدل، ما يبعث على نَسج مُختلف المواقِف منها وحولها، وذلك مردُّه إلى طبيعة تصوّراتها ومفاهيمها وإجراءاتها العَمليَّة، وحقيقة مُمارساتها، خاصَّة مع الآخر المُختلِف. فعلى الرَّغم من تَشكُّل مرحلة الحداثة Modernism على مبادئ أهمّها المركزيّة الإنسانيّة، فقد بَدَت تنويريّة رَحِبة، تضمُّ الجميعَ باسم الحقِّ في الحياة، والحقِّ في التعلُّم، وحقِّ التّعبير عن الرّأي. إلَّا أنَّ القرن العشرين كشفَ عن خيبة أمل ونُكوص واضِح لهذه المبادىء والمُنطلقات، وفَضَح المُتواريات والخلفيات الحقيقيّة، حيث قدَّم لنا الثَّقافة الأوروبيَّة بوصْفها ثقافة بربرية استعمارية، لها وجهها المُظلم الإقصائيّ.

وقد سجَّلت الفلسفة، - باعتبارها نمطًا مُميّزا من التّفكير- عِدّة رؤى بمقولاتها وأدواتها المنهجية، منها ما تضمَّنَ تفصيلات لهذه البربريّة الأوروبيَّة، ومن أبرزها ما طرحه الفيلسوف الفرنسيّ وعالم الاجتماع المعاصر «إدغار موران»(Edgar Morin 1921م)، وِفق ما يقتضيه الفكر المُركبComplexe

thought، وأنموذج التعقيدcomplexity Pradigme of في كتابه المُعنّون بـ: «ثقافة أوروبا وبربريتها» الذي يُشـكّلُ موضوع هذه القراءة، ما يجعنا نطرح السّؤال التالي: كيف شكّلت الثّقافة الأوروبيَّة انبثاقًا مُستمرًّا للبربريّة؟ فيمَ تتمثّل قراءة «موران» التعقيدية لهذه الثقافة؟ وما الذي يُنتظر من المفكر والإنسان العربي فعله تُجاه هذه البربريّة، بوعي ومسؤولية؟

الكتاب

بعد أن وقفناعلى الهوية الخارجية للكتاب، تأتي مرحلة بحث ومُناقشة الهُوّية الدّاخلية له، وما احتواه من أفكار، والتي تتطلّب مُقاربات التّحليل والنّقد والاسـتنتاج.

المطلب الأول: مُناسَبة الكتاب والحاجة لتأليفه

بعد أن سَيطرَ فكر التّبسيط، بما تضمَّنه من إجراء الفصل والاختزال لمُدّة ثلاثة قُرون (من القرن السابع عشر إلى القرن التاسع عشر)، بدأت نتائجها السّلبيّة وتداعياتها المُتأزّمة تنبثِق مع القرن العشرين، حينمَا طَغَت العُلوم التجريبيّة واسـتفحلت، وأصبحت هي المُحدّد الأسـاسي لرؤية العالَم الخاصَّة بالإنسان الحديث.

حيـث تمَّ الفصلُ بين مُختلف المعارف والتخصّصات، وتسـيّدت نزعة تفاضُليّة، كرَّسـت لمركزيّة العقلانيّة وهمّشـت كلّ الأشـكال المعرفية الأخرى، التي تُعدُّ من جواهر الإنسـان. على هذه الشَّاكِلة، يُقرُّ «موران» في إطار قراءته وتحليلاته النّقدية للحقل الفلسـفي والإبستمولوجي والعِلمي والمنهجي المعاصر، بتكلُّس المنظومة التَّبسيطيَّة وهيّمنتها على صَعيد عِدّة مجالات، وجوديًّا ومنطقيًّا وإبستمولوجيًّا وأنثروبو-اجتماعيًّا وسياسيًّا،

لقد تقوّمت هذه المنظومة على كيانات مُغلقة، كالماهية والهوّية والسببية الخطّية، والذّات والموضوع. وعلى المُستوى الأنثروبو-اجتماعي والسياسي، أسّست للبراكسيس الغربي، الذي هو من ناحية مُنغلِق على ثقافته وعرقـه وذاته، ما إن يرتبِط الأمر بالذّات. (لأنه مَبني عـلى الإعجاب الذّاتي بالذّات، الفرد، الإنسـان، الأمة، العرق)، ومن ناحيـة ثانية، وبصِفة مُوازية لا ينقطِع عن المظهر الأول، فهو تسـخيري ويتّصِف بالبرودة الموضوعية حينمَا يتعلّق الأمر بالموضوع[1].

لقد انبنت الحداثة الغربية على منظومة التبسيط، التي امتدّت بعِدّة أبعاد، من بينها البُعد الأنثربو-

1 - موران، . 2001، ص -5 6

اجتماعي والسياسي، إذ جعلت من الفكر الغربي مُتمرّكزًا حول ذاته، له ثقافة نرجسية مُتعالية، لا يرى سِوى نفسه، ولا يعتدّ إلَّا بفرده وإنسانه وأمّته وعرقه. يُضاف إلى ذلك، فالعقليةَ الغربية ليست موضوعية، ولا تتّسم بالحرارة إزاءها، فهي مُنغلقة على ذاتها وأسيرة مُقوّماتها، لا تنفتح على الموضوع معرفيًّا، ولا على الآخر وجوديًّا وقيميًّا. صَحيحٌ أنَّ الحضارةَ الأوروبيَّة المعاصرة، قد قطعت شوطًا كبيرًا في التقدّم والإنماء، وكشفت عن تحضُّر ومدنية، غير أنها وبفعل منطق تساوق التقدُّم – التقهّقر، فإنها تتراجَع أخلاقيًّا وإنسانيًّا، وتُظهر بربرية وتوحّشًا تمشّيًا ومُستجدات العصر، بمعنى بربريّة أنتجتها التقنيات، لتتحوّلَ إلى مُضاد للإنسانية. ففي الوقت الذي نتحضَّر فيه، فإنّنا ننغمس في التوحُّش والبربريّة، لنشهدَ بربريتين: بربرية معهودة، من اقتتال وحُروب دينيّة، عرقيّة وأهليّة، وبربريّة ماديّة تقنيّة.

من هُنا كان ذلك مُناسِبًا لكتابة هذا المُؤلّف والخوض في إشكاله، لأنَّ الإنسانيّة لم تُقلِع عن المُمارسات البربريّة، سواء في تفكيرها أو في عَمَلِها، بل إنّها تُعبِّر عن امتداد منها، آفِلٍ بالقيم والمُشاركات الوجوديّة الحيّة العابِرة لضيّق اللغة والتاريخ والعرق، وتتجلّى هذه البربريّة في الحضارة الأوروبيَّة المعاصرة.

المطلب الثاني: في تحليل ومُناقشة أفكار الكتاب

يقتضي منطق فهم الفكرة، أن نستدعي مُقاربات التّحليل والنِّقاش والنَّقد والاستنتاج، حتى نُعطيها حقّها الدلالي، وهذا بالضَبط ما نسعى إليه في خضمّ مناقشة أفكار كتاب: «ثقافة أوروبا وبربريتها»، الذي كتبه إدغار موران وِفق الفكر المُركّب وأنموذج التعقيد[1].

1 - التعقيد: «ما التعقيد؟ من أول وهلة نقول: إن التعقيد هو نسيج (Complexus) ما نسج، ككل من المكوّنات المتنافرة المجمّعة بشكل يتعذّر معه التفريق بينهما. إنه يطرح مفارقة الواحد والمتعدّد. ثانيًا، بالفعل إنَّ التعقيدَ هو نسيج من الأحداث والأفعال والتفاعلات والإرتدادات والتحدّيات والمصادفات، التي تُشكّل عالمنا الظاهراتي» إدغار موران، الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المُركّب، ص 17.

الفكر المُركّب: «»فكر مُنظّم ونسقي يتصوّر العلاقة الكلّ / الأجزاء، مثلمَا بدأ يتطوّر في عُلوم البيئة وعُلوم الأرض، فكر مبنيٌّ لا يعزل الموضوع المُراد دراسته، بل ينظر إليه من خِلالَ علاقته الذاتية والبيئية والتنظيمية مع محيطه الثقافي والاجتماعي والاقتصادي والسياسي والطبيعي». إدغار موران، هل نسير إلى الهاوية؟ ص 60. وقد حدّد «موران» للفكر المركب ثلاثة مبادئ، هي: مبدأ السببية الدائريةCausalité récussivité، مبدأ الحوارية Dialogique، مبدأ الهولوغرامية.Hologrammique

1 - مُقتطفات من البربريّة الأوروبيَّة

يُصرِّح «موران» بأنه يودُّ الشُروع بتقديم لمحة مُختصرة عن أنثروبولوجيا البربريّة الإنسانيّة، حيث إنَّ فكرةَ الإنسان المُفكّر، الإنسان الصّانع، والإنسان الاقتصاديّ أو المُنتج بقيت ناقِصة. وبإمكان الإنسان المُفكِّر صاحِب الذّهن العقلانيّ، أن يكون في الوقت ذاته قادرًا على الهذيان والحُمق. والإنسان الصانع الذي يُتْقِن صناعة التّقانة، كان أيضًا قادرًا مُنذ اللحظات الأولى للإنسانية أن يُنتِج عِدّة أساطير لا تُحصى. ويُعدُّ الإنسانُ الاقتصاديّ الذي يُعرَّف بمُوجب مصلحته الشخصية، إنسان الاستهلاك واللعب والإنفاق، كمَا تطرَّق إليه «هويزينكا» مُنذ عُقود مَضَت. ينبغي أن ندمج هذه الخصائص المُتناقِضة ونعقد الصِلة فيمَا بينها. ففي أصل ما سـوف نُسمّيه البربريّة الإنسانيّة، يوجد على الأكيد جانب «الحُمق» المُنتج للهذيان والحقد والاحتقار، ولما كان اليونانيون يدعونه Hybris، أي الإفراط[1].

إنَّهُ التعقيد الإنساني وتركيبته الهائلة في التناقُض، التي ظلَّت تحمِل صورة ضبابيّة غير واضِحة وناقِصة غير مُكتملة. فهو ليس بعقلانيٍّ خالِص، بل يمُكنه إنتاج الحَمَاقة والهُراء، وليس بالتّقني الذي لا يصنع سِـوى التّقنيات، إنَّما يُنتِج الأسـاطير أيضًا، كمَا أنّه ليس بالنِّظامي الاقتصاديّ البحت، بل الاستهلاكي والتّبذيري كذلك. ويجب ألَّا نُقصي أيٍّ من هذه الصِّفات المُميّزة في الإنسان، بل نعْمَل على الوصل فيمَا بينها ونُشكِّل منها حلقة واحدة، لأنَّ منبعَ البربريّة والسُلوكات العنيفة كامِن في هذه التعقيدية، في جوانِب الحُمق والهذيان، التي تجعل من صاحِبها يحقد ويحتقر ويكره ويزدري. ونستطيع أن نعتقدَ أنَّ التّرياقَ المُضادّ للحُمق، يوجد في جوف الفكر، في العقل. بيد أنه لا يمُكن تعريف العقلانيّةRationality بصِيغة غامِضـة تحتوي الالتباس، فنحن نخال أنّنا في بعض الأحيان داخِـل العقلانيّة، في حين أنّنا وفي واقع الأمر داخِل العقلنةRationalism، بمعنى داخِل نَسَق منطقي بالكُلية، لكنه يفتقِر إلى الأساس التجريبي الذي يسمح بتبريره. ويمُكن للعقلنة أن تخدُم الهوى وأن تسوق الإنسان إلى الهذيان[2].

فالعقلانيّة على خِلاف العقلنة، تتحاور مع التجريبية وتنفتِح على أدواتها ومقولاتها، في حين العقلنة ضيّقة النظر، تلتفّ حول ماهو منطقيّ عقلانيّ محض فَحَسَـب، دون تواصُـل مع البنية التجريبية التي يمُكن أن تُقيمَ له تسـويغًا. ولأنَّها أسيرة نسقِها، فإنَّها تتوافق والانفعالات والنَّزعات الذّاتية، ويمُكن لها أن تقودَ الإنسانُ نحو ارتكاب الحماقات والسّخافات وغيرها من التصرُّفات البربريّة. إنَّهُ شأن الحضارة

1 - موران، . 2001، ص 5

2 - المصدر نفسه، ص 6

الأوروبيَّة التي انطلقت عقلانيةً في فترة الحداثة، وانتكست إلى مبادئها التَّنويريّة، وأنتجت مُمارسات ضِد الإنسانيّة، أبانت عن ذهنية مُتمركزة وعن نرجسية لا يهمُّها إلاّ صالِحها الخاصّ. وهكذا، ترتدُّ التقنيات مثل الأفكار، ضِدّ الإنسان الذي أنتجها، فهي تجلِب بربريتها الخاصّة المُتمثِّلة في بربرية الحساب الخالص، البارِد الذي يجهل الوقائع العاطفيّة التي يتميَّز بها البشر[1].

إنَّ العصرَ الحالي، هو عصر التّقنية، التي جسَّدت طُموحات العِلم وطبَّقت نظريّاتها وحقَّقت إرادة الإنسان الصانِع. غير أنها تطرَّفت كثيراً بإجراءاتها، فأنتجت بربرية ثانية من طينة مخصوصة، فبعد أن عرفت البشرية بربرية مألوفة، من تناحُر ديني وعرقي، تعرف اليوم ضربًا آخر من البربريّة التّقنية الصِناعية التي كَشَفت ظَلامية الحضارة الأوروبيَّة. وتتجلَّى هذه البربريّة في أنها تُقصي الجوانِب الذّاتية من عواطِف جيَّاشة وانفعالات حيَّة وقيم إنسانية حميمية، ولا تهتمُّ إلاَّ بالجوانِب المادية الجافّة. « ليست البربريّة مُجرَّد عُنصر يُرافق الحضارة وإنَّما هي جُزء لا يتجزّأ منها. فالحضارةCivilization تُولّد البربريّة، وبالخُصوص انطلاقًا من الغزو والسيطرة[2]. تمثِّل البربريّة بالنسبة للحضارة، لبنة من لبناتها وتدخُل ضِمن تركيبتها، فهُما بفِعل منطق التّعقيد ومنهج الفكر المُركّب،يتساوقان ويحضُران معًا، فليست الحضارة كُلَّ ما يُشير إلى التحضُّر والرقي والمدنية والإنسانيّة، بل هي تحمِل ما يُنتِج بربريّة من السُلوكات، في التهميش والاحتقار، في الاستعمار والهيمنة. وقد اعتمدت البربريّة المسيحيّة على سلاح الشّيطان كواحِد من أسلحتها. ويجب بكلّ تأكيد التعرُّف في صورة الشّيطان على من يغرِس الفتنة بين النَّاس، المُتمرِّد العاصي الحامِل للسيئات، فالشخص الذي لا يتّفق ويأبى التخلّي عن اختلافه، يُشار إليه بكونه يُعاني من مسٍّ شيطاني. وتأسيسًا على هذه الآلة الحِجاجية الهاذية إلى جانِب أدوات أخرى، مارست المسيحيّة بربريتها. وفي واقع الحال، فهي لم تملك حقَّ التفرُّد والاستثناء في امتلاك واستخدام السلاح الشّيطاني، فنحنُ نرى اليوم أنَّ الشّيطان يتجلّى أكثر من أيّ وقتٍ سابِق في الخِطاب الإسلامي[السّلفي] المُحتقن للغاية[3]. إنَّهُ نوعٌ من أنواع البربريّة، التي اعتمدتها المسيحيّة بالاستبداد والقهر، من أجل استبعاد كُلِّ مُخالف لتعاليمها، وكذلك الشّأن في بعض الجماعات الإسلاميّة حاليًّا، المُؤسِّسة لخِطاب قامِع رجعي مبني على عقلية التطرف في التحريم وتكفير التفكير.

1 - المصدر نفسه، ص6

2 - المصدر نفسه، ص 8

3 - المصدر نفسه، ص 11

2 - كيف يمُكن إنتاج الدواء من عُمق الداء؟

بمُقتضى الواقع، إذا كانت النزعة الإنسيةHumanism يقبلها مبدئيًا كلّ الأفراد، فإنَّ الغربَ الأوروبي قـد اختزلها في الفئة التي تنتمي إليه فقط، على أسـاس أنَّ بقيةَ الشُـعوب كانـت مُتخلِّفة وتعيشُ وِفق مقاييس العُصور الغابرة البدائية. على سَـبيل الذكر، كان «لوسيان ليفي برول» (Lucien Lévy-Bruhl 1857_1939م) يعدُّ البدائيين كائنات طفولية وغامِضة، أسيرة الفكر السحري. وغفِل عن وجود عقلانيّة داخِل كُلِّ شـكلٍ من أشـكال الحضارة، في صِناعة الأدوات واعتماد الأسـلحة ومُمارسة الصّيد وغير ذلك[1].

وتُفيد النّزعة الإنسيّة، الإعلاء من شأن الإنسان وبيان قيمته، بصرف النَّظر عن أصوله وجُغرافيته ودينه ولغتـه، وتتراجع بجميع المركزيّات، من اجتماعية ولاهوتية لصالـح مركزيَّته. غير أنّ العقلية الأوروبيَّة البربريّة، ألغت هذه العالميّة وربطت الإنسـيّة بمن ينتسـب إليها فَحَسَـب، بتبريـر أفضليّتها على باقي الشُّـعوب التي تصِفها بأنّها بِدائيّة. وتتجلّى إحدى صُور البربريّة الأوروبيَّة في وصف الآخر المُختلف بالبربريّ، بدل الاحتفاء بهذا الاختلاف والنظر إليه باعتباره فُرصة للاكتناز والمعرفة والعلاقة بين البشر.

ويمُثِّل «مونتاني»(Montaigne 1533_1592م) هذا الفكر بُحرّية غريبة، حيث أدرك الطريقة المُناسِبة التي يتحرّر بواسِطتها من الأفكار البربريّة السابِقة عن زمنه. يعتقد «موران» أن منبع حُرّيته يكمُن في الحُرّية الداخِلية لذهنه المُستقِل عن اليهودية والمسيحيّة، فهو لا يُعاني من التصادُم بين يهودي ومسيحي، وبين مُسـلم ويهودي، وبين مُؤمن وكافر (المصدر نفسـه، ص 28). إنّه حالة من النّزعة الإنسـيّة بغرابة، لأنه وُلِد في بيئة غربية بذهنية اختزلت صِفة الإنسـية، في حين أراد لها أن تتجاوز كلّ الحُدود، وأن ينظُر إلى الإنسـان بوصْفه إنسان من دون أيّ حِسابات أخرى. فحُرّيته مُشتقة من طبيعة تفكيره المتحرّرة، التي لا تصنع فُروقات بين الأشخاص على اختلاف شرائعهم. نحن في عصر تقنيٍّ بات يُهدّد حقيقة خُصوصياتنا الحيّـة المُتفرّدة، وقد شرعت فكرة في البزوغ في الفـترات الأخيرة من القرن العشرين، وإن كانت تظهر على أنّها ذات أصل قديم، تتعيّن في فكرة سفينةٍ فضائيّةٍ هي الأرض، تُبحر على متنها الإنسانيّة، لها أربع مُحـرّكات اليوم: العُلوم، التّقنية، الاقتصاد والرّبح، وهي مُحرّكات من دون مُراقبة. وهكذا يُنتِج التطوّر التقني – الاقتصاديّ الرّاهِن تدهّور الكائنات الحيّة والتي بدورها تُفضي إلى تدهّور الحضارة الإنسانيّة. إنّها تعقيدات وتضادّ العولمة المُزدوجة. أليس بإمكان أوروبا أن تصنع ترياقًا عِلاجيًا من ثقافتها، انطلاقًا

1 - المصدر نفسه، ص 25

من سياسة الحوار والانسجام؟ من سياسة للحضارة التي تُنمّي كلّ جوانب الحياة دون الاكتفاء بماهو كمّي، وتضع حدًّا للتنافُس نحو الهيمنة؟ ألا يُمكنها أن تستقي من النزعة الإنسية العالميّة التي كوّنتها سابقًا؟[1].

تعتبر العُلوم والتّقنية والاقتصاد والربح، المُحرّكات التي تُحرّك دواليب الحياة المعاصرة، ولها إيجابياتها وآثارها المُثمرة التي تَعْمَل على تحسين نوعية الحياة. غير أنها تسير من دون رقابة، فهي لا تُعنى سِوى بالجوانب المادية القابلة للقياس والكم، التي تتقهقر خِلالها حياة الكائنات الحيّة والقيم الإنسانيّة التي تُؤدي إلى انحطاط حضارة الإنسان. هي تناقُضات وتشابُكات مُعقّدة للعولمة التي أنتجت ما ارتقى بالإنسانيّة، ولكنها أيضًا وفي ذات المَنْحَى، أهلكت الأبعاد الحيَّة والتجارب الوجوديّة. فهل من مُنقذ؟

وهُنا نطرح إمكانية أن يتمَّ تصنيعُ دواء مُضادٍّ لهذه البربريّة من ثقافة أوروبا المُعولمة ذاتها، من نزعتها الإنسية التي أبانت عنها، من سياسة الحضارة المُركّبة التي تهتمُّ بجميع الأبعاد الكميَّة والكيفية، وتُحلُّ روابِط من التحاور والتناغُم، بعيدًا عن تفرقة السيطرة والتنافُس لأجل المركزيّة.

3 - في بربرية القرن العشرين

ظهرت البذور الأولى للبربريّة التاريخيّة، مُنذ ستة آلاف سنة، لدى إمبراطوريات الشّرق الأوسط. ونشهد استمرارها إلى غاية اليوم، وقد أنتجت الأشكال المُتنوّعة لبربرية الغزو والاستعمار، كبربرية تامير لان وجنكيز خان. بيدَ أنَّ هذا الغزو لا يُمثِّلُ إمبراطوريات دائمة. في حين ستكون للغزو الذي مارسته أوروبا الغربية آثار على المَدَى البعيد، حيث لم ينتهِ الاستعمارُ إلَّا عقب الحرب العالميّة الثانية، في الستينيات، بل وبعد ذلك في حالة البرتغال[2]. إنّ للبربرية تاريخًا مُستوطنًا في منطقة الشرق الأوسط، باعتبارها الحاضِن الأول لها، غير أن استعمارها لم يزِل قائمًا كإمبراطوريات دائمة. وأمَّا البربريّة الأوروبيَّة فلها تبِعات مُمتدّة.

يفتح «موران» النّقاش حول مسألة الشُموليات/التوتاليتاريات Totalitarianism، فهي ظاهرة أوروبية حديثة أخرى. يتمُّ في بعض الأحيان نقدُ الاستخدام الذي يُخصّص لهذه الكلمة، كدلالة على أنظمة

1 - المصدر نفسه، ص 37 - 38

2 - المصدر نفسه، ص 39

مُختلفــة مثل: النّظام السّــتاليني والهتلريّ. من زاوية تقديره أنه ينبغي تبنّــي وجهة نظر مُعقّدة تُثبت في الوقت ذاته الاختلافات والتعارضات والتشابُهات والتماثُلات[1].

لا يمُكن اختزال مســألة الشُّمولية في الاستعمال المُتداول لها، بل تســتدعي الضرورة أن ننظُرَ إليها بموجب التّعقيد، باعتبارها مســألة مُعقّدة تتداخل ضِمنها عِدّة عوامِل. يجب أن نقولَ قبل كُلِّ شيء بأنه لم يوجد فكر للشُمولية، مِثلمَا وجد فكر للرأسماليةCapitalism، فكر للديمقراطيةDemocracy، وفكر للدكتاتوريةDictatorship، التي انبثقت مُفاجئة جميع التوقُّعات، فهي ثمرة سيرورة تاريخية، تمخَّضت عن خطأ كبير تمثَّلَ في الحرب العالميّة الأولى. لقد كانت هذه الحرب هيجانًا للبربريَّة القاتلة، وانتحارًا لأوروبا في الوقت نفســه. وخِلال ســنوات 1920-1924م، وبعد الانتصار على الجيش الأبيض، وترك سياسة التدخُّل الخارجي، لم يتأسَّس في الاتحاد السوفييتي مُجتمع من نوع جديد، مبنيّ على العلاقات الأخويّة. ولم تتشكّل سُلطة حقيقية للبروليتاريا Proletariat، ولكن ما حدث وبسُرعة فائقة، توسُّع سيطرة الحزب من مُراقبة الطبقة العامِلة إلى قمعها. إنَّ السببَ الرّئيسَ في فشل الثّورة الرّوسية، إنمَّا هو ثقافي، حيث انعدمت الثَّقافة الاشتراكيّة في تلك الفترة، ولم توجد ثورة عالَمية، مِمَّا أسهم في نجاح الستالينية، التي تخلَّت تمامًا عن المنظور الثوري العالَمي، ولم تُعدّ تهتمُّ إلاَّ ببناء الاشتراكيّة في بلد واحد بالاعتماد على التطوّر الصّناعي. ويُشبه إخفاق فكرة الاشتراكيّة الأخوية والإنسانيّة، الإخفاق الرّوحي للمسيحية، التي حينمَا تحوَّلت إلى سُلطة شوَّهت الرّسالة الأصليّة للمسيح[2].

إنَّ الشُــموليةَ ليســت نظامًا مُعدًّا له ســابقًا بدعامة فكرية كالرأســمالية أو الديمقراطية. لقد تفجَّرت الشُــمولية بســبب خطأ كبير في الحرب العالميّة الأولى. وتتجلَّى إحدى مظاهــر البربريّة الأوروبيَّة في فشــل تشكُّل سُــلطة فعلية للعُمال، فقد تمَّ قمعها. ولهذا فإنَّ السَّببَ الرئيسَ في إخفاق الثّورة الرُّوسية، إنمَّا هو سبب ثقافي بالأساس، يتمثَّل في غياب الثَّقافة الاشتراكيّة وانتصار الستالينيّة المُتشدّدة الصّناعية التي أهملت الجوانب الإنسانيّة، ما يُشبه الفشل الروحيّ للمسيحيّة ورسالتها الحقّة، فكأنّما الأمر مُتعلّق بانتكاسة عن المبادئ وتشويه لها. هذا، وينفي «موران» وجود حتميّة تاريخيّة مُطلقة، فلم تُكن هُناك من ضرورة لإنتاج الشّموليّات السّتالينيّة عقب ثورة أكتوبر، بالإضافة إلى أنَّه ليس من المفروض المُتوقّع أن يقودَ منطقاً مُحدّداً للماركسيّة ذاتها أو للينينيّة إلى البربريّة الشُموليّة. فلم تكُن هُناك إرادة في أن تكون عن

1 - المصدر نفسه، ص 40

2 - المصدر نفسه، ص 40 - 43

قصد كمَا يظنّ أولئك الذين يختزلون دائمًا التّاريخ في سِلسلةٍ من المؤامرات، إذ تُتيح بعض العناصر في الماركسيّة بالانحراف نحو الشُموليّة، في حين تسوق أخرى فيها إلى اتجاهات أخرى[1]. إنه نفي لمنطق الحتمية التاريخيّة المُطلقة المُرتكزة على عقيدة التوقع اليقيني، فقد يحدُث ما لا يُتوقّع، هُناك انحرافاتٌ وخُروج عن النّسق، وهذا ما يُؤدي إلى بُروز الشّموليات مثلاً.

«إنَّ الحربَ والأزمة هُمَا اللذان حَملا «هتلر» إلى السُلطة. فالنازية هي منتوج مُتأخّر للحرب العالميّة الأولى، مِثلمَا الشيوعية هي منتوج مُباشر لها. وهُمَا معًا سيُشاركان في قيام الحرب العالميّة الثانية[2]. تقوى البربريّة ويتكثّف وجودها أكثر عن طريق الحرب والأزمة، من ناحية نتائجهما التي ستقود بعض الشخصيات إلى السُلطة على غِرار النّازية مع «هتلر». كيف يُمكن محاولة تفسير الاندفاع الهائج إلى البربريّة؟ بمعنى الإبادة بمعناها الدّقيق؟ ابتداءً من سنة 1935م، السّنة التي نُشرت خِلالها القوانين الأولى المُعادية للسامية، حيث جُرّد اليهود من مُمتلكاتهم، وتمَّ حرمانهم من المُواطنة، وعدم السماح لهم بالزواج من الآريين.

وفي سنة 1941م امتدت السيّطرة النازية على أوروبا بشكلٍ تام. فنفّذت مجموعات الحماية SS أحيانًا والجيش أحيانًا أخرى، مجازر محلية. وتساوقًا مع ذلك، أنشأ النازيون الغيتوهات، كتِلك التي وجدت في فارسوفيا أو كراكوفيا. لقد كانت النازية ترمي إلى تطهير أوروبا من اليهود، ولهذا قامت بنفيهم نحو مدغشقر كأمر مدروس[3]. تأتي إبادة اليهود كمثال حيّ عن البربريّة الأوروبيَّة، مُمثّلة في النازية التي سعت إلى تنقية أوروبا منهم. لكن هذه الحقيقة لا يُمكن أبدًا اتخاذها ذريعة لمُمارسة التعنيف والتقتيل والاضطهاد للشعب الفلسطيني، وهذا ما أكّد عليه «موران» نفسه[4].

وإلى غاية يومنا هذا، يتنامَى الاعتراف بالإبادة المزعومة لليهود الأوروبيين، تزامُنًا مع تأكيد هؤلاء لهويتهم اليهودية، وهو الأمر الذي يلقى تيسيراً وتشجيعًا من قبل وجود إسرائيل. إنَّ إثارةَ الموت اليهودي الذي قيل بأن أوشفيتز شهدته، يُستخدم بشكلٍ أكبر بطريقة ما لحماية الكيان الإسرائيلي من أولئك الذين يجعلونه قامعاً للفلسطينيين. وعند تخليد ذكرى «تحرير أوشفيتز» المزعومة في 27 يناير

1 - المصدر نفسه، ص 44
2 - المصدر نفسه، ص 48
3 - المصدر نفسه، ص 53
4 - موران، 2012، ج4، ص 9-10

2005م، وَقَفنا على نوعٍ من العرض المُفرط للموت اليهودي، مُتغافلين تمامًا عن الغجر والسَلافيين والمُقاومين[1]. وهكذا تُستخدم ذريعة المحرقة اليهودية وحادثة الاستشهاد اليهودي، كتبرير للدفاع عن الوجود الإسرائيلي الغاصب واضطهاده للشعب الفلسطيني، مُتجاهلين البقية المُضطهدة.

ومـا ينبغي أن تُفضي إليه التجارب المأسـاوية للقـرن العشرين، هو المطالبة بإنسـية جديدة، تتعيّن في التعرُّف إلى البربريّة كمَا هي، من دون تبسـيط ولا تشـويه، أيّ كان نوعـه. وليس المُهمّ الندم بل هو الاعتراف. بالإضافة، يجب أن يتوسّط هذا الاعتراف المعرفة والوعي، فمن الضروري أن نعرف ما جرى حقيقة. وأن نتملَّكَ الوعي بتعقيد هذه المأسـاة الهائلة. وأن يطالَ هذا الاعتراف جميع الضحايا: اليهود، السود، الغجر، الأرمن، مُستعمَرو الجزائر ومدغشقر، وهو أمر لازم إذا ما أردنا تجاوز البربريّة الأوروبيّة[2].

يدعو «موران» وفق منهج الفكر المُركّب إلى ضرورة خلق إنسيّة جديدة تتحدّد في معرفة البربريّة في حقيقتها، من دون أيّ تحريف لها. يجب أن نعترف بها ونُقرَّ أنَّ الحضارةَ لها أمراضها الظَلاميّة المُتجسّدة في البربريّة، وبتعقيديّة المسـألة. أن يشـمُل هذا الاعتراف كلّ الضحايا من دون اسـتثناء.

المطلب الثالث: تهافُت الاحتفاء بمدنية أوروبا وإنسـانيتها

يتّضح إذن، الجانبُ المُظلمُ للحضارة الأوروبيَّة، وأن إشراقتها التي تبدو إنسـانية، تحمِل في طيّاتها بُـذور البربريّة، وأنَّ قيمَ الأنوار والعدالة والحقّ تحوّلت إلى مُجرّد شـعار أمام مُمارسـاتها المُتوحّشـة الاستعمارية، والنَّتيجة تسقُط أطروحةَ مدنيَّة أوروبا وإنسانيتها المزعومة. ولهذا يجب علينا إعادة مُراجعة لتصوّراتنا تُجاه الحضارة الأوروبيَّة، وإيقاف الركض المُتواصل خلفها، واتّخاذها أنموذجًا تنويريًا، وأن نعترف بسُلوكاتها البربريّة ونزعتها الاستعلائية المركزيّة. ولا يُفهم من ذلك، أنَّه دعوة لقطع العلاقة معها، لأنّنا نحن في حدّ ذاتنا جُزءٌ من هذه الظَلاميّة حينمَا نفعل مثلها ونُغطّي أفعالها، وإنّما هي دعوى للنظر بعُمق ومن مسافة نقدية.

وما يحدث حاليًا من إجرام صهيوني وعُدوان غاشـم ضِدّ الشعب الفلسطيني حُجّة بالِغة التوصيف على بربرية الغرب، وعلى التحالُف الاسـتعماري الشّـيطاني ضِدّ الإنسـانيّة. وأيضًا على بربرية العرب الذين باعوا القضية الفلسطينية وأخرسوا ضميرهم.

1 - المصدر نفسه، ص 55

2 - المصدر نفسه، ص 57

المطلب الرابع: ما الذي يُمكن أن نستفيده من النقد الذّاتي الذي مارسه موران؟

لقد أوضح «موران» أن الثَّقافة الأوروبيَّة بربرية، رغم أنها حمِلت فكرًا إنسـانيًا عالَميًّا، تمثّل في النزعة الإنسية، وهذا ما برّره بفِعل تعقيدية المسألة، التي تستدعي تساوق البربريّة والحضارة، والاعتراف بالجانب البربري الأوروبي وبجميع ضحايا هذه البربريّة. ويُضيف أن الحضارة الأوروبيَّة المعاصرة قد شهدت نوعًا آخر من البربريّة غـير المعهودة من دينية وعرقية، هي بربرية تقنية صنعهـا تعاظم تيار التقنوعِلمي، الذي أضحى واقعًا لا يهتمّ سِوى بالشكلانية المادية كوجه بارِز من أوجه أمراض تِلك الحضارة[1].

ونحن كعرب مُسـلمين، يجب أن نستفيق من مرقدنا ونسـتفيد من النَّقد الذّاتيSelf-criticism كمَا مارسـه «موران»، ليس تبجيلاً له، بل إقرارًا بقيمة هذا النَّقد. حيث يسـتدعي الأمر منّا، أن ننقُد أنفسـنا، وأن نتبـيّن نقاط قُوّتنا ونقاط ضُعفنا، وأن نعيَ تبعيتنا العمياء للغرب، وإعجابنا المُفرط بعُلومه ونظريّاته وفلسفاته ومظاهره المدنيَّة الخادعة. كما ينبغي أن ننهض من غفلتنا، وأن نُراجع مواقِفنا وتصوّراتنا بشأنه، ألَّا ننبهر بإشراقاته ونصرف النَّظر عن ظَلاميَّته، أن نكشف عن بربريّته وتوحّشه ليس على سبيل عُدوانيّ منّا، بل على سبيل نقديّ واقعيّ واعٍ بحقيقته. وينبغي ألَّا ينحو الفهم صوب قطع العلاقة تمامًا مع الغرب والحضـارة الأوروبيَّة، لأنه ليس من المعقول أن ننغلِق على ذاتنا، بل يجب أن ننفتِح لكن بحذر وذكاء، ألَّا ننجرف وراء التيار الغربي وننخدِع بتمويهاته ونعتقِد فيه الإنسـانيّة الخالِصة.

خاتمة

في نهاية هذه القراءة المُقتضبة لكتاب: «ثقافة أوروبا وبربريتها» للفيلسوف «إدغار موران»، وِفق تحليل نقـدي أقرّه منهج الفكـر المُرَكب. اتّضح من خِلالها ظَلامية هذه الثَّقافة بما يُشـكِّل في النهاية الحضارة الأوروبيَّة، وأنَّ البربريّة شهدت امتدادًا وسجّلت حُضورًا قويًّا في عُمق التحضُّر المُعاصر. ونُشير دائمًا إلى ضرورة الوعي بحقيقة ثقافة أوروبا والغرب بشكلٍ عام، الاستعماري والبربري، الذي لا يهمُّه سِوى تحقيق مصالحه وأن يتزعَّمَ العالَم. ونستثمر هذا المقام، للتنبيه إلى خُطورة المُخطّطات الغربية للهيمنة، ووجوب كشـفها وعدم الانخراط فيها، سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، وأيضًا فضح الشّريحة العربيّة المُوالية لها، والمُبشّرة بقيمها وثقافتها. وأن نعتمدَ النقدَ البنَّاءَ الموضوعي في تعاطينا مع البربريّة الأوروبيَّة، بمعنى الابتعاد عن النّوازع الذّاتية والانفعالات، والارتكاز على المُعطيات الواقعيّة بعينٍ ناقِدة.

1 - موران، نحو سياسة حضارية . 2010

المصادر والمراجع

- موران، إ. 2004، الفكر والمستقبل، مدخل إلى الفكر المَّركب، ت: أحمد القصوار ومنير الحجوجي، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب.
- موران، إ. 2012، المنهج، الأفكار: مقامها، حياتها، عاداتها وتنظيمها، ت: جمال شحيّد، المنظمة العربية للترجمة، ط1، بيروت.
- موران، إ. 2007، ثقافة أوروبا وبربريتها، ت: محمد الهلالي، دار توبقال للنشر، ط1، المغرب.
- موران، إ. 2010، نحو سياسة حضارية، ت: أحمد العلمي، الدار العربية للعلوم ناشرون، ط1، بيروت.
- موران، إ. 2012، هل نسير إلى الهاوية؟، ت: عبد الرحيم حزل، إفريقيا للشّرق، ط1، المغرب.